غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الثامن والستون

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

غير مرخصة للطباعة

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

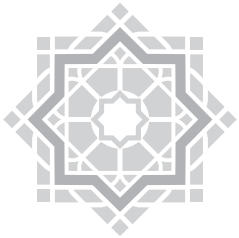

المِحْوَرُ السَّابِعُ

فِقْهُ الأُمَّةِ ودَعْوَتِهَا وصَحْوَتِهَا وحَرَكَتِهَا الإِسْلَامِيَّةِ

١٣١ الإخوان المسلمون سبعون عامًا في الدعوة والتربية والجهاد

١٣٢ التربية الإسلاميَّة ومدرسة حسن البنَّا

١٣٣ التربية السياسيَّة عند الإمام حسن البنَّا

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المحور السابـع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلاميَّة

١٣١

الإخوان المسلمون
سبعون عامًا في الدعوة والتربية والجهاد

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

QaradawiBooks.com

من مشكاة النبوَّة الخاتمة

عن أبي ثعلبة الخشني، قال رسول الله ﷺ: «**ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مُطَاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، ودَعْ عنك العوام، فإنَّ من ورائكم أيامَ الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**». رواه أبو داود والترمذي وابن حبان.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القويُّ، خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف**». رواه مسلم وأحمد.

عن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال في خطبته وهو مسند ظهره إلى الكعبة: «**المسلمون تكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم**». رواه أحمد وأبو داود.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الَّذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمَّد وآله وصحبه أئمَّة الهدى، ومصابيح الدجى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

(أمَّا بعد)

ففي شهر (تموز) يوليو (١٩٩٨م) أذاعت قناة الجزيرة في دولة قطر حلقة مثيرة في برنامجها الشهير «الاتجاه المعاكس» عن «جماعة الإخوان المسلمين» بمناسبة مرور سبعين عامًا على تأسيسها.

وكان الطرف الأوَّل في الحوار هو الأستاذ الدكتور توفيق الشاوي الأستاذ السابق بكليَّة الحقوق بجامعة القاهرة، وعضو الهيئة التأسيسية للإخوان والكاتب الإسلامي المعروف.

والطرف الآخر هو اللواء فؤاد علَّام، الَّذي كان أحد ضباط مباحث أمن الدولة الَّذين اشتهروا بتعذيب الإخوان في سنة (١٩٦٥م) حتَّى أطلقوا عليه «ملك التعذيب»!

وبعد أنْ أحيل على التقاعد ظلَّت عقدة تعذيب الإخوان تلاحقه، وكان المظنون أنْ يعترف بذنبه، ويستغفر الله تعالى ويتوب إليه ممَّا صدر

QaradawiBooks.com

منه، ولكنَّه أصدر كتابًا سمَّاه «الإخوان وأنا» برَّأ فيه نفسه، وألصق بالإخوان كلَّ نقيصة.

وعلى كلِّ حالٍ، فشهادة مثله مردودة؛ لأكثر من سبب، وأوَّل هذه الأسباب: أنَّه خَصْم، ولا يكون الخَصْم شاهدًا ولا حكمًا، وقديمًا قال العرب: من استرعى الذئب فقد ظلم!

ولهذا استغربت من البرنامج أنْ يستضيفه أكثر من مرَّة، وهو ليس من أهل العلم والفكر، ولا من أهل الدِّين والشَّرْع، واستغربتُ من الدكتور الشاوي أنْ يقبل محاورته.

وقد طُرِحَتْ قضايا في هذه الحلقة ـ بعضها من أناس تكلَّموا بالهاتف ـ لم تأخذ حقَّها من الإيضاح، وتساؤلات لم يجب عنها كلِّها، إمَّا لضيق الوقت أو لضيق الصدر، أو لغير ذلك.

وقال لي بعض الإخوة: لماذا لا تكتب شيئًا في ذلك ينصف الإخوان، ويردُّ على اتِّهامات المغرضين، ويضع الأمور في نصابها، وللإخوان حقٌّ عليك، وإنْ كنا نعلم أنَّك الآن للمسلمين جميعًا؟

قلتُ للإخوة: هذا حقٌّ، وأنا بالفعل ملك أُمَّتي الإسلاميَّة في مشارق الأرض ومغاربها، ولكنِّي لا أتنكَّر لدعوة الإخوان، ولا أجحد أنِّي نشأت في ظلِّها، وتعلَّمتُ من إمامها وإخوانه وتلاميذه، وصُهِرْتُ في بوتقتها حتَّى نضجت واستقلَلْتُ في العلم والفكر.

ولهذا أرى لزامًا عليَّ أنْ أمسك بالقلم، لأكتب هذه الصحائف، لأجلوَ الغبار عن وجه الدعوة الإخوانيَّة، وألقي بعض الضوء على حقيقة

QaradawiBooks.com

أهدافها ومناهجهـــا، ومقوماتها وخصائصها، وأعطي بعض الإشـــارات واللمحات عن سيرتها ومســـيرتها، وعن ثمراتها وآثارها، وعن معاناتها ومحنها، وأردَّ على التهـــم الموجهة إليها، مركِّزًا على موقف مؤســـس الحركة الإمام الشهيد حســـن البنَّا مستشهدًا بكلماته، وناقلًا من رسائله، بشكل أساسي، باعتبارها «المنهاج الرســـمي» للإخوان، الَّذي ارتضوه، وانضمُّوا للجماعة على ضوء توجُّهاته وتوجيهاتـــه، «وربَّما أطيل النقل أحيانًا ـ على غير ما يوصي به الأكاديميُّون ـ لمزيد البيان والتوثيق»، وإنْ كان المصدر الأوَّل للحركة من غير شـــكٍّ هو القرآن والسُّنَّة، ولهذا كان من شعار الجماعة: القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا.

وكان من أصول الجماعة الَّتي ذكرها الشهيد البنَّا: كلُّ أحدٍ يؤخذ من كلامه ويُترك إلَّا المعصوم ﷺ.

ولكنَّ «حركة الإخوان» بعد ســـبعين عامًا أصبحت أوسع من رسائل الإمـــام البنَّا وتراثه، إنَّما هـــي كلُّ التراث الفكـــري والعملي والجهادي التراكمي للتيار الإســـلامي الكبيـــر، الَّذي مضى في طريق حســـن البنَّا واستمدَّ منه، وأضاف إليه وربَّما عدَّل منه في بعض الأحيان.

وحديثي عن حركة الإخوان هنا ليس حديث المؤرِّخ المســـتوعِب، فلســـتُ أزعم أنِّي أملك الأدوات اللازمة لذلك، ولا الوقت الكافي له، وإنَّما هو حديـــث موجز بعض الإيجاز، يجيب عن بعض التســـاؤلات، ويضع بعض النقاط على بعض الحروف، من امرئٍ عاش في الإخوان، وعايَش الأحداث، وخاض غمار المحن في عهد المَلَكِيَّة وعهد الثورة، مع إخوانه الَّذين صبروا وصابروا ولم يزدهم الابتـــلاء إلَّا ثباتًا وإيمانًا:

QaradawiBooks.com

﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧].

والحقُّ أنِّي ما كنت أتوقَّع أنْ يطول بي البحث إلى هذا الحدِّ، ولكنْ هكذا كان. وهو ليس بكثير على أولى الجماعات الإسلاميَّة من حيث الزمن، وكبرى الجماعات من حيث العدد، وأوسع الجماعات من حيث المساحة، فللإخوان وجود وأتباع في أكثر من سبعين قُطرًا.

هذا وقد كنت أخذت على الإخوان ـ ولا أزال ـ أنَّهم لم يكتبوا تاريخهم بطريقة علميَّة موضوعيَّة موثَّقة، بعيدًا عن كتابة «المتحاملين» من خصوم الإخوان، أو خصوم الإسلام، وعن كتابة «المناقبيِّين» من كتَّاب الإخوان، الَّذين ينظرون إلى تاريخ الإخوان على أنَّه جميعه مناقب وأمجاد، بل ينبغي النظر إلى الإخوان نظرة وسطية منهجية، تقول ما لهم وما عليهم، مميِّزين بين أصولهم وأهدافهم الإسلاميَّة الَّتي لا ينبغي الخلاف عليها، وبين مواقفهم واجتهاداتهم البشريَّة، باعتبارهم مجموعة من المسلمين تجتهد في خدمة الإسلام، والنهوض بأُمَّته، وإعلاء رايته، ونصرة قضاياه، مُغَلِّبين حسن الظنِّ، وواكلين السرائر إلى ربِّها، فإنْ أصابت هذه المجموعة فلها أجران، وإنْ أخطأت بعد اجتهادها فلها أجر واحد، كما علَّمنا رسول الإسلام، عليه الصلاة والسلام. وكلُّ مُنْصِفٍ يدرك أنَّ أكثر اجتهادات الإخوان كانت صوابًا. والحمد لله.

وينبغي ـ لكي نكون منصفين علميِّين حقًّا ـ أنْ نضع الأحداث في إطارها الزمني، ولا نخرجها عن سياقها التاريخي، وأنْ نفهمها كما تفهم النصوص في ضوء أسبابها وملابساتها ومقاصدها.

QaradawiBooks.com

ولقد بدأ عدد من الإخوان يكتبون بصفة فرديَّة، مثل الأساتذة محمود عبد الحليم، وعبَّاس السيسي، وغيرهما، كما كتب بعضهم عن مؤسِّس الحركة الإمام البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه كلُّها خطوات في الطريق إلى كتابة التاريخ العلمي الَّذي تشرف عليه الجماعة، وتكِلُه إلى أساتذة متخصِّصين، قادرين على التوثيق والنقد والموازنة والتحليل.

ومن عجائب الأقدار أنِّي أُبيِّض هذه المقدمة في منتصف شهر فبراير (١٩٩٩م)، أي بعد خمسين سنة شمسية تمامًا من مقتل الإمام حسن البنَّا، الَّذي اغتيل في الثاني عشر منه (١٢ فبراير ١٩٤٩م) ليكون هدية للملك فاروق في عيد ميلاده الَّذي احتفل به يوم (١١ فبراير ١٩٤٩م)، وهو يوم إجازة رسميَّة في مصر في ذلك الوقت.

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الَّذي قرأنا فيه نبأ اغتيال الشيخ البنَّا، فقد كان يوم خروجنا من سجن شرطة قسم أوَّل طنطا، بعد أنْ مكثنا فيه نحو أربعين يومًا، وذلك لترحيلنا إلى معتقل الطور. وكانت الصحف ممنوعة عنَّا، ولا نعرف شيئًا عن أخبار الدنيا، إلَّا إذا جاءنا ضيف جديد من الإخوان لينضمَّ إلينا. فكانت الفجيعة الفظيعة أنْ يكون أوَّل خبر نقرؤه بعد هذه المدَّة هو خبر استشهاد مؤسِّس الحركة رَحِمَهُ اللَّهُ.

فهذا الكتاب جاء في مناسبتين مهمَّتين:

مرور سبعين عامًا شمسية أو ميلادية على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، وأكثر من اثنين وسبعين عامًا قمرية أو هجريَّة. «في ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ الموافق أبريل أو مايو سنة ١٩٢٩م، كما تبيَّن ذلك بالدليل، وليس سنة ١٩٢٨م كما هو مشهور».

QaradawiBooks.com

ومُضيِّ خمسين عامًا على استشهاد الإمام البنَّا، وقد كنت كتبت بمناسبة مرور ثلاثين سنة على وفاته: كتابي «التربية الإسلاميَّة ومدرسة حسن البنَّا»، فالآن أكتب هذا الكتاب بمناسبة مضيِّ نصف قرن على هذا الاستشهاد.

وعلى كلِّ حال، هذه شهادتي أكتبها للحقِّ والتاريخ. وقد قال الشاعر:

وما من كاتبٍ إلَّا سيَبْلى ... ويبقى ـ الدَّهْرَ ـ ما كتبتْ يداه!
فلا تكتبْ بخَطِّك غَيرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القيامة أنْ تَراهُ[1]!

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

يوسف القرضاوي

الدوحة في ذي القعدة ١٤١٩هـ

(١) ذكرهما من غير نسبة نشوان الحميري في شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، في نهاية السفر الأول من الكتاب (١٩٨٢/٣)، تحقيق د. حسين بن عبد الله العمري وآخرين، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

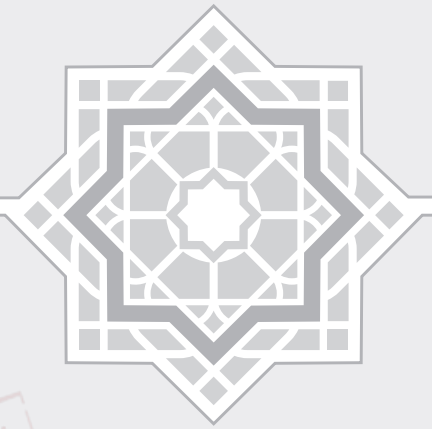

الباب الأول

الإخوان المسلمون
دعوة اكتملت مقوِّماتها

- الحاجة إلى الدعوة.
- التميز ووضوح الشخصيَّة.
- حسن البنَّا: القائد المنتظر.
- الجنود الصادقون.
- وضوح الأهداف وشمولها.
- وضوح الوسائل.
- وضوح المواقف.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

دعوة اكتملت مقوِّماتها

للدعوة الموفَّقة أو الدعوة الناجحة أو الدعوة المكتملة: مقوِّمات أو أركان لا بـدَّ أنْ تتوافر لها حتَّى تقوم بمهمَّتها، وتـؤدِّي دورها، وتحقِّق أهدافها الَّتي تنشدها في الإيقاظ والتنوير أو في التربية والتطهير، أو في التجديد والتغيير، أو في البناء والتعمير، أو في الجهاد والتحرير، أو في التوحيد والوحدة.

هـذه المقوِّمات أو الأركان الأساسـيَّة قـد قدَّر الله لهـا أنْ تجتمع وتتكامـل في دعوة الإخوان المسـلمين، وإنْ شـئت قلـت: في حركة الإخوان المسـلمين، فهي دعـوة، وهي حركة، أو هي دعـوة متحرِّكة، وحركة داعية.

المقومات السبعة في دعوة الإخوان:

هذه المقوِّمـات للدعوة الموفقـة، وللحركة الناجحة، نسـتطيع أنْ نُجْمِلَها في سبعة:

١ ـ أنْ تكون الحاجة داعية إليها، لتسدَّ فراغًا قائمًا.

٢ ـ أنْ تكون متميزة، واضحة الشخصيَّة والسِّمات.

٣ ـ أنْ ترزق بقيادة واعية حكيمة تعرف غايتها وطريقها.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٤ ـ أنْ يُهيَّأ لها جنود مؤمنون برسالتهم، صادقون واعون مترابطون.

٥ ـ أنْ تكون أهدافها واضحة، لا يشوبها ضبابٌ ولا اضطراب.

٦ ـ أنْ تكون وسائلها لتحقيق غاياتها واضحة كذلك، معروفة المراحل والخطوات.

٧ ـ أنْ تكون مواقفها من القضايا الكبيرة واضحة بيِّنة غير غامضة ولا غائمة.

وأعتقد أنَّ من قرأ تراث الإخوان، وتتبَّع تاريخ دعوتهم منذ مطلع فجرها في مدينة الإسماعيليَّة على ضفاف قناة السويس بمصر، حيث وضعت اللبنة الأولى في شهر ذي القَعْدة سنة ١٣٤٧هـ ـ تبيَّن له أنَّ هذه الدعوة توافرت لها تلك المقوِّمات السبعة، وهو ما نلقي عليه الضوء الكاشف في الصحائف التالية، بإذن الله تعالى.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

١

الحاجة إلى الدعوة

فأمَّا الحاجة إلى الدعوة، فقد كانت حاجة ماسَّــة، بل كانت ضرورة ملحَّة: أنْ تقوم فــي الأُمَّة عامَّة، وفي مصر خاصَّــة: دعوة جديدة، تبني ما هدمه الاستعمار، وتصلح ما أفسده الحكام، وتنقي الحياة ممَّا لوَّثتها به عصور الانحطاط، وتقاوم ما يخطِّط له أعداء الإسلام.

كان النَّاس فــي حاجة إلى دعوة تُجــدِّد العقول بالمعرفــة الواعية، وتُجدِّد القلوب بالإيمان الدافق، وتُجدِّد الحياة بالالتزام الصادق، وتقف بالمرصاد للأفــكار الهدَّامة، والدعوات المنحرفــة، والهيئات المضلِّلة، الَّتي تغزو العقول بالشبهات، وتغزو النفوس بالشهوات.

كان الإســلام في حاجة إلى دعوة تملأ الســاحة، وتســدُّ الثغرة، وتُعَبِّئ الأُمَّة.

ولم يكن فيمن يمثِّلون الإسلام في ذلك الزمن من يقدر على القيام بهذه المهمة.

فعلماء الأزهر كانوا مشغولين بقضايا داخليَّة، وكانت السلطة الحاكمة قد ورثت من عهد الاستعمار: أنْ تعزل الأزهر عن التأثير في الحياة، وأنْ تضيِّق على علمائه وأبنائه، حتَّى تلهيهــم لقمة العيش عن هموم الدعوة

QaradawiBooks.com

إلى الدين، وقضايا الأُمَّة المصيريَّة. وتحاول أنْ تشغلهم عن الإصلاح بقضايا جزئيَّة، وتجتهد أنْ تشغل بعضهم ببعض.

وكانت الطرق الصوفيَّة مشغولة بأذكارها وأورادها ـ وبعضها بموالدها وموائدها ـ عن التصدِّي للإصلاح، وحمل راية الدعوة العامَّة لتجديد الإسلام في الأُمَّة. وهي نفسها في حاجة إلى الإصلاح والتجديد، وفاقد الشيء لا يعطيه.

فكانت الأُمَّة في حاجة إلى دعوة جديدة، تُجدِّد دعوة النبيِّ الأمين، يقوم عليها «صحابة جُدُد» يقومون في الآخرين مقام الصحابة في الأوَّلين. وهم القابضون على دينهم في أيام الشدائد والفتن أو أيام الصبر، الَّتي جاء فيها الحديث الشريف: «**إنَّ من ورائكم أيامًا، الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبض على الجَمْر، للعاملِ فيهنَّ مثلُ أجرِ خمسين يعملون مثلَ عملكم**».

وفي رواية: قيل: يا رسولَ الله، أجر خمسين رجلًا منَّا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين رجلًا منكم**»[1].

دعوة في أوانها:

لقد كان من دلائل التوفيق في ظهور حركة الإخوان المسلمين: أنَّها جاءت دعوة في أوانها، وأحوج ما يكون المسلمون إليها، بعد أنْ احتلت أوطان المسلمين وطنًا بعد آخر، وأصبح الاستعمار يتحكَّم في رقابها بعد الحرب العالميَّة الأولى، وغدت بريطانيا لها نصيب الأسد في هذه

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٥٨)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في البر والإحسان (١٠٨/٢)، والحاكم في الرقاق (٣٥٨/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٩٣٤)، عن أبي ثعلبة الخشني.

QaradawiBooks.com

الغنيمة وبعدها فرنسا، قد تقاسما ذلك في اتفاقية «سايكس بيكو» المعروفة، كانت مصر والسودان والعراق وفلسطين والهند ـ قبل التقسيم ـ وماليزيا ونيجيريا، وغيرها من بلاد أفريقيا من حصَّة الاستعمار البريطاني، وكانت سوريا ولبنان وشمال أفريقيا (تونس والجزائر ومراكش) وموريتانيا والسنغال وغيرها من حصَّة الاستعمار الفرنسي، حتَّى هولندا الَّتي لم يكن يزيد تعدادها في ذلك الوقت على خمسة ملايين، كانت تستعمر إندونيسيا الَّتي تزيد على خمسين مليونًا.

وهكذا وقع العالَم الإسلامي كلُّه ـ فيما عدا الحجاز ونجد واليمن ـ في قبضة الاستعمار.

ثمَّ أُصِيبَت الأُمَّة الإسلاميَّة بصدمة هائلة، حين سقطت خيمة الخلافة الَّتي كانت تُظلِّل أمَّة الإسلام، وتمزَّقت «الدولة الواحدة» إلى «دول» أو «دويلات»، و«الأُمَّة الواحدة» إلى «أمم» أو «أُمَيْمَات» يجافي بعضها بعضًا، بل يعادي بعضها بعضًا، بل يقاتل بعضها بعضًا، تحت نداءات مختلفة، كلها يحمل العصبية الجاهليَّة من عنصرية أو إقليمية أو لغوية، وأصبح الوطن الواحد الَّذي سمَّاه الفقهاء «دار الإسلام» دورًا وأوطانًا، تتنازع فيما بينها على الحدود، الَّتي صنعها لهم المستعمر الغاصب.

وغدا «القانون الوضعي» الَّذي جاء في ركاب المحتل، هو الَّذي يحكم النَّاس رغم أنوفهم، بدلًا من الشريعة الإسلاميَّة، الَّتي ظلُّوا يرجعون إليها في الإفتاء والقضاء والتشريع، ثلاثة عشر قرنًا كاملة من الزمان.

وأمسى فكر الغرب الفلسفي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي هو مصدر التوجيه، ومصدر التأثير، ومصدر التحريك، ومصدر التخطيط، لمجتمعنا المسلم، بعد أنْ كان الإسلام

QaradawiBooks.com

هو الموجِّه الأوَّل، والمؤثِّر الأوَّل، والمحرِّك الأوَّل للأُمَّة، في شتَّى ميادين الحياة.

لم يعد الإسلام هو أساس الهُوية، والانتماء والولاء لأبناء الأمة، كما كان من قبل، وغدت تنافسه، بل تقاومه هويات وولاءات وانتماءات أخرى، وأصبحت المسلَّمات العقدية والفكريَّة والشرعيَّة عرضة للتشكيك، وظهر في مصر كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين سنة ١٩٢٦م، وقبله كتاب «في أصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق (سنة ١٩٢٥م)، وهو الَّذي جرَّد فيه الإسلام من الحكم، واعتبره مجرَّد رسالة رُوحِيَّة، وهو ما لم يقل به أحد قطُّ طَوَال العصور الماضية.

وكان سقوط الخلافة إيذانًا بأنَّ القلعة باتت بلا حراس، وأنَّ الحمى أمسى مستباحًا لكل من هبَّ ودبَّ، حتَّى اجترأ عليه الجبناء، واستنسر في أرضه البُغَاث.

وكان سقوط الخلافة سنة ١٩٢٤م فاجعة من الفواجع الكبرى في تاريخ الأمَّة، زلزل كيانها، وهزَّ بنيانها، أشبه بدخول الصليبيين بيت المقدس، ودخول التتار بغداد في العصور الماضية.

ولعلَّ أعظم مَن عبَّر عن هذه الفاجعة هو أمير الشعراء أحمد شوقي في حائيته الشهيرة الَّتي رثى فيها الخلافة[١]، كما رثى أبو البقاء الرندي غرناطة عند سقوطها في نونيته[٢].

---

(١) ستأتي قريبًا.

(٢) التي يقول في مطلعها:

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ ... فلا يُغَرَّ بطِيبِ العَيْشِ إنْسَانُ!

وقال في ختامها:

لمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ ... إنْ كان في القَلْبِ إسْلَامٌ وَإيمَانُ! =

QaradawiBooks.com

وكان ممَّا زاد هــول الفاجعة أنَّ الَّــذي ألغى الخلافــة رجل ضلَّل المسلمين ردحًا من الزمن، حتَّى كانوا يحسبونه من أبطال الإسلام، وقال فيه شوقي نفسه بعد انتصاره في إحدى المعارك:

اللهُ أكبرُ كَمْ في الفَتْحِ مِنْ عَجَبٍ يا خالدَ التُّرْكِ جدِّد خالدَ العَرَبِ[1]!

كان المسلمون يُهَلِّلون ويُكَبِّرون كلما انتصر «الغازي مصطفى كمال» ـ كما كانوا يسمُّونه ـ يحســبون ذلك انتصارًا للإسلام، ودعمًا للخلافة، وشــدًّا لأزر الأُمَّة، وتقوية لجهود الإصلاح والتجديــد، ولكنَّهم فوجئوا بهذا الرجل الَّذي خُدعوا فيه «كمال أتاتورك» ينقلب على الإسلام وأُمَّته وحضارته وشريعته، ويتحوَّل إلى عدُوٍّ له، موالٍ لأعدائه، محطِّم لقلاعه، وأولاها الخلافة.

يقول شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ يخاطب الخلافة:

عَادَتْ أَغَانِي العُــرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ وَنُعِيــتِ بَيْــنَ مَعَالِــمِ الْأَفْرَاحِ!
كُفِّنْتِ في يَــوْمِ الزِّفَــافِ بِثَوْبِه ودُفِنْــتِ عِنْــدَ تَبَلُّــجِ الْإِصْبَاحِ!
ضَجَّــتْ عَلَيْــكِ مَنَابِــرٌ وَمَآذِنٌ وَبَكَــتْ عَلَيْكِ مَمَالِــكٌ وَنَوَاحِ!
الْهِنْــدُ وَالِهَــةٌ وَمِصْــرُ حَزِينَــةٌ تَبْكِــي عَلَيْــكِ بِمَدْمَعٍ سَــحَّاحِ
والشَّــامُ تســألُ والعراقُ وفارسٌ: أَمَحا مِنَ الْأَرْضِ الخِلَافَةَ مَاحِ[2]؟!

وثار ثائر المســلمين في كلِّ مــكان، ونادى المنــادون، وعقدت المؤتمرات، من أجل إعادة الخلافــة، ولكن العِقْد قد انفرط، وتناثرت

= انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤٨٦/٤ ـ ٤٨٨)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢) انظر القصيدة كاملة: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٠٥/١ ـ ١٠٩).

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

حبَّاته هنا وهناك وهنالك، ولم يكن من السهل جمعه من جديد. فقد كانت المؤامرة أكبر وأعمق من تلك المحاولات الغاضبة والحزينة، في الهند وفي مصر، وغيرهما من بلاد الإسلام. وبقي الميدان خاليًا، يحتاج إلى فارس جديد، يخطِّط للمعركة بفكر جديد، وسلاح جديد، وجنود جدد.

موجة التغريب العاتية:

وكان من أبرز ما يجسد الحاجة إلى دعوة جديدة: الموجة العاتية للتغريب الفكري والاجتماعي، الَّتي سمَّاها الإمام حسن البنَّا «طغيان المادة على بلاد الإسلام». وقد بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ آثار هذا الغزو الغربي المكثَّف، الَّذي استبانت أخطاره على الأُمَّة الإسلاميَّة في شتَّى أقطارها، وتجلَّى أظهر ما يكون في مصر، برغم منزلتها الإسلاميَّة، وتاريخها في الدفاع عن الإسلام، بيَّن ذلك بجلاء في رسالة «بين الأمس واليوم» فقال:

وقد عمل الأوربيُّون جاهدين على أنْ تغمر موجة هذه الحياة الماديَّة، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتَّالة، جميع البلاد الإسلاميَّة الَّتي امتدَّت إليها أيديهم، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أنْ يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة، من العلوم والمعارف والصناعات، والنظم النافعة. وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي، إحكامًا شديدًا، واستعانوا بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتَّى تمَّ لهم ما أرادوا.

أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم، وسهَّلوا عليهم ذلك وهوَّنوه عليهم، واستطاعوا بذلك أنْ يكتسبوا حقَّ التدخُّل الاقتصادي، وأنْ يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم،

QaradawiBooks.com

وأنْ يديـــروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون، وأنْ يســـتأثروا دون الأهلين بالأرباح الطائلة، والثـــروات العظيمة. وتمكَّنوا بعد ذلك من أنْ يغيِّروا قواعد الحكم والقضـــاء والتعليم، وأنْ يصبغوا النظم السياســـيَّة والتشريعيَّة والثقافيَّة بصبغتهم الخالصة في أقوى بلاد الإسلام.

وجلبوا إلى هذه الديار نســـاءهم الكاســـيات العاريات، وخمورهم ومســـارحهم ومراقصهم وملاهيهم، وقصصهم وجرائدهـــم، ورواياتهم وخيالاتهم، وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيهـــا من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم. وزيَّنوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة، الَّتي تعجُّ بالإثم وتطفح بالفجور، في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء، وذوي الرأي فيهم، وأهل المكان والسلطان.

ولم يكفهم هذا حتَّى أنشؤوا المدارس والمعاهد العلميَّة والثقافيَّة في عُقْر ديار الإســـلام، تقذف في نفوس أبنائه الشـــكَّ والإلحاد، وتعلِّمهم كيف ينتقصون أنفســـهم، ويحتقـــرون دينهم ووطنهم، وينســـلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدِّسون كلَّ ما هو غربي، ويؤمنون بأنَّ ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة.

واحتوت هذه المـــدارس على الطبقة العليا وحدهـــا، وصارت وقفًا عليها، وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب. ومن لم يتم نضجه في هذه المعاهد الموضعيَّة فإنَّ في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام.

ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبَّب إلى النفوس، لاصق بالقلوب، طويل العمر، قويُّ الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف.

QaradawiBooks.com

وتغالت بعض الأمم الإسلاميَّة في الإعجاب بهذه الحضارة الأوربية، والتبرم بصبغتها الإسلاميَّة، حتَّى أعلنت تركيا أنَّها دولة غير إسلاميَّة، وتبعت الأوربيين بعنفٍ قاسٍ في كلِّ ما يصنعون. وحاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان، فطاحت تلك المحاولة بعرشه، وازدادت في مصر مظاهر هذا التقليد واستفحلت، حتَّى استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أنْ يجهر بأنَّه: لا سبيل إلى الترقِّي إلَّا بأنْ نأخذ بهذه الحضارة خيرها وشرِّها وحلوها ومرِّها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب[1]، وأخذت تنتقل في سرعة وقوَّة من مصر إلى ما جاورها من البلاد، حتَّى وصلت إلى أقصى المغرب، وطوَّفت بالمشاعر المقدسة في ربوع الحجاز.

ونستطيع أنْ نقسم البلاد الإسلاميَّة بحسب تأثرها بهذه الحضارة الماديَّة وطغيان مادتها عليها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ بلاد بلغ بها هذا التأثُّر مبلغًا يصل إلى القلوب والمشاعر، كما غيَّر الأوضاع والمظاهر، ومن هذه البلاد: تركيا ومصر، فقد انحسر ظل الفكرة الإسلاميَّة في هذه البلاد عن كل الأوضاع الاجتماعيَّة، وطُردت الفكرة الإسلاميَّة، لتقبع في المساجد والزوايا والرُّبُط والتكايا.

٢ ـ بلاد تأثَّرت بهذه الحضارة في أوضاعها ومظاهرها الرسميَّة، ولكنَّها لم تتغلَّب فيها على المشاعر القلبيَّة كإيران وبلاد المغرب وشمال أفريقيا.

٣ ـ بلاد لم تتأثَّر بهذه الحضارة فيها إلَّا طبقة خاصَّة من المثقفين والحكام دون العامَّة والدهماء، كسوريا والعراق والحجاز، وكثير من أجزاء الجزيرة العربيَّة وبقية ممالك الإسلام.

---

(١) هو طه حسين، انظر: مستقبل الثقافة في مصر صـ ٣٩، نشر دار المعارف، ط٢.

QaradawiBooks.com

ومع هذا فالموجة تمتدُّ بسرعة البرق، لتصل إلى ما لم تصل إليه بعد من النفوس والطبقات والأوضاع.

ولقد استطاع خصوم الإسلام أنْ يخدعوا عقلاء المسلمين، وأنْ يضعوا ستارًا كثيفًا أمام أعين الغير منهم، بتصوير الإسلام نفسه تصويرًا قاصرًا في ضروب من العقائد والعبادات والأخلاق، إلى جانب مجموعة من الطقوس والخرافات والمظاهر الجوفاء، وأعانهم على هذه الخديعة: جهل المسلمين بحقيقة دينهم، حتَّى استراح كثير منهم إلى هذا التصوير، واطمأنُّوا إليه ورضوا به، وطال عليهم في ذلك الأمد، حتَّى صار من العسير أنْ نُفهم أحدهم أنَّ الإسلام نظام اجتماعي كامل يتناول كلَّ شؤون الحياة.

نستطيع بعد ذلك أنْ نقول: إنَّ الحضارة الغربيَّة بمبادئها الماديَّة، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلاميَّة، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معًا في أرض الإسلام نفسه، وفي حرب ضروس، ميدانها نفوس المسلمين، وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري، ولا عجب في هذا، فإنَّ مظاهر الحياة لا تتجزأ، والقوَّة قوَّة فيها جميعًا، والضعف ضعف فيها جميعًا كذلك: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وإنْ كانت مبادئ الإسلام وتعاليمه ظلَّت قوية في ذاتها فياضة بالخصب والحياة، جذابة أخَّاذة بروعتها وجمالها، وستظلُّ كذلك؛ لأنَّها الحق ولن تقوم الحياة الإنسانيَّة كاملة فاضلة بغيرها؛ ولأنَّها من صنع الله وفي حياطته: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] اهـ[1].

(١) رسالة بين الأمس واليوم صـ ١٠٤ ـ ١٠٦، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.

QaradawiBooks.com

تصوير واقع مصر والوطن العربي والإسلامي:

والنتيجة بعد ذلك كله: أنَّ واقع الحال في مصر، وفيما حولها من الوطن العربي والإسلامي، كان ينادي بوجوب دعوة جديدة، سمَّاها الإمام حسن البنَّا «دعوة البعث والإنقاذ».

ويلزمنا أنْ نصوِّر هذا الواقع تصويرًا موضوعيًّا بعيدًا عن لغة العواطف والإثارة، لنعلم أنَّ دعوة الإمام حسن البنَّا كانت فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدِّين، وضرورة يحتِّمها الواقع.

وسأستعين في هذا بما كتبه د. محمود أبو السعود في مقدِّمته لكتاب ريتشارد. ب. ميتشل عن الإخوان، في وصف حالة مصر، مع بعض التصرف بالإضافة والحذف، وذلك في الفقرات التالية:

١ ـ **وطنٌ باهت**: اقتطع من أصله بعد أنْ قطع الحلفاء المنتصرون أوصال الإمبراطورية العثمانيَّة، وبعد أنْ أطاح كمال أتاتورك بالخلافة الإسلاميَّة، وأعلن العلمانيَّة، حينئذٍ طبق الإنجليز معاهدة «سايكس ـ بيكو» السرية الَّتي عقدت في موسكو عام ١٩١٥م، وأصبحت مصر داخل نطاق الإمبراطورية البريطانية، وإنْ منحت في الظاهر ملابس الاستقلال.

وجدت مصر نفسها منعزلة عن دول العالم الإسلامي في الشرق الأوسط، وأحسَّت بعجز المسلمين، وفي عنقها قيد ثقيل من الاستعمار، وشجع المستعمرون النعرة الوطنيَّة، هادفين إلى أنْ يحل «الوطن» محل «الدين»، وأنْ يكون الولاء «للوطن» لا «لله»، وأنْ يقسم للناس «بالوطن» لا «بالله»، وأنْ يموتوا «في سبيل الوطن» لا «في

QaradawiBooks.com

سبيل الله». حتَّى قال شوقي ـ رغم نزعته الإسلاميَّة المعروفة في شعره ـ يخاطب المصريين:

وَجْهُ الْكِنَانَةِ لَيْسَ يُغْضِبُ رَبَّكُمْ أَنْ تَجْعَلُوهُ كَوَجْهِهِ مَعْبُودا[1]!

٢ ـ شعب مؤمن بالله والإسلام: عقيدة راسخة، ولكنَّه شعب جاهل، الأغلبيَّة الساحقة فيه لا تقرأ ولا تكتب، وهو شعب فقير مستغَل أسوأ الاستغلال، ولكنَّه أيضًا شعب عريق قديم كريم، فيه طيب أرومة مع ذكاء وفطنة، أضفت عليه ظروفه البيئية والتاريخيَّة حب السلام، وليس الاستسلام، كما يظنُّ الكثيرون. فقد يرضخ المصري المسلم وغير المسلم لحاكم ظالم، وقد يكفُّ عن المجاهدة الماديَّة إذا غلبه مستعمر فاتح، ولكنك تجده أبدًا ثائرًا في ذات نفسه على الظلم والاستعمار، ترى ذلك في بسمته الساخرة، وتسمعه في نكتته اللاذعة، بل إنَّه ليندفع في ثورته حين تتاح له فرصته، فإذا به يُحَقِّقُ ما كان يظنُّ أنَّه مستحيل عليه.

وكان الشعب في هذه الحقبة الزمنيَّة مغلوبًا على أمره تمامًا، وما قام بثورة ١٩١٩م إلَّا لإحساسه بالضياع، وقد وجد فيها تحقيقًا لذاته، وتعبيرًا عن وجوده، وكأنه أراد أنْ يحسَّ بإنسانيته بإظهار إرادته.

ثار هذا الشعب ولم يطالب بالخبز وهو جائع، ولا بإلغاء مِلْكَيَّة الأرض الزراعيَّة وهو لا يكاد يملك منها شيئًا[2]، ولم يطالب بإلغاء الألقاب والقضاء على طبقة «البكوات والباشوات»، والجمهور من لابسي الجلابيب و«الطواقي». كانت ثورته تعبيرًا عن صادق شعوره

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١١١/١).

(٢) كان (٩٠٪) من السكان يملكون (١٠٪) من الأرض الزراعية، و(١٠٪) من الباشوات والبكوات يملكون (٩٠٪) منها.

QaradawiBooks.com

برفضه الاستعمار، وكان مخلصًا في مطالبته بالاستقلال، وإنْ لم يفكر أو يتصوَّر ماذا سيكون شأنه بعد الاستقلال، بل لم يرسم لنفسه صورة ولو باهتة لهذا الوطن في ظل الاستقلال. ومع هذا كلِّه، وفي وسط هذه الثورة العارمة، كان الإسلام حيًّا في قلبه، متحركًا في باطن عقله ومستتر ضميره، فاعتبر من قتل في الثورة برصاص الإنجليز أو السلطة الحاكمة شهيدًا له جنات الخلد عند ربه، واقترنت الثورة «بالمسجد»، وخرجت المظاهرات من الأزهر، وهو رمز الإسلام ومعهده آنذاك.

٣ ـ مستعمر قويٌّ ذكيٌّ لئيم ذو دهاء ومكرٍ شديد: درس أحوال البلاد عن كثب، ومكَّن لنفسه على أيدي بعض الحكام، كوَّن منهم طبقة «المستوزرين»، ومهَّد لتضامن الحكم إليه عن طريقين:

أ ـ **الاستعمار الفكري:** حيث عمل منذ بدء الاحتلال على تنحية الشريعة الإسلاميَّة من قانون القضاء، وحصرها في الأحوال الشخصيَّة. وحيث فصل بين «العلم» و«الدِّين»، بل فصل بين المدارس المدنيَّة والمدارس الدينيَّة، فأوجد هوة سحيقة بين المثالية الإسلاميَّة والمذهبيَّة المادِّيَّة الَّتي فرضها بحكم القانون والتعليم.

ب ـ **الاستعمار المادي:** حيث وجَّه اقتصاد البلاد إلى إنتاج المادة الخام الَّتي تنتجها الأرض الزراعيَّة، حتَّى كنا نقرأ في الكتب المدرسية أنَّ مصر بلد زراعي لا يملك مقوِّمات الصناعة! يضاف إلى ذلك أنَّ الاستعمار وجَّه الناشئة إلى محراب «الحكومة» فكانت المدارس تخرِّج الموظفين. وأصبحت القيم الاجتماعيَّة تقيس المرء بوظيفته الحكومية. فإذا علمنا أنَّ من يدرس العلوم الدينيَّة تقتصر وظيفته على إمامة مسجد أو «مأذونيَّة» زواج وطلاق، أو عمل في المحكمة الشرعيَّة، أو تدريس اللغة العربيَّة

QaradawiBooks.com

والقرآن في المدارس المدنيَّة، أو التدريس في المعاهد الَّتي تخرَّج فيها... إذا علمنا هذا اتَّضح لنا كيف اســتطاعت السياسة الاستعمارية أنْ تحارب شريعة الإسلام كفلسفة حياة، ونظام تعامل، ودستور يرسم للأفراد حدود المساواة والحريَّة، وحقوق التكافل والتعلم والعمل.

٤ ـ **نظام حكم ظالــم**: حيث فرض ملك على شــعبه، وحيث صيغ دستور يحدُّ من سلطة الحكومة المصريَّة ومن سيادتها، ويعامل الأجنبي بقانون يختلف عن القانون الَّذي يســري على المواطنين، ويطبقه قاضٍ من غير المواطنين.

كان الملك غريبًــا عن رعيته، لا يــكاد يتحدَّث لغتهــم، دع عنك مشــاركته لعواطفهم، وآلامهــم وآمالهم، وكان همه البقــاء في الحكم، والاســتمتاع بجاه الملك ونعيمه، وكان ينظر إلى هذا الوطن نظرته إلى ملك يمينه، يتحكَّم في الشعب ومصايره بما يراه ويهواه.

٥ ـ **طبقة حاكمة**: استصفاها الملك ورضي عنها المستعمر، غالبيتها من سلالة ألبانية أو تركية، ورثت عن آبائها وأجدادها القريبين مساحات واســعة من الأرض الزراعيَّة الَّتــي أمَّمتها الدولة في عهــد محمَّد علي الكبير، ووزَّعها إسماعيل على أقربائه وأصفيائه.

وظلَّت هذه الطبقة الَّتي لم تكن تعرف من القرآن إلَّا رسمه، ولا من الإسلام إلَّا اسمه، وبعض شــعائره، والَّتي تربَّت في مدارس الأوربيين، وأتقنت لغاتهم أكثر ممَّا أتقنــت لغة القرآن والمواطنيــن، ظلَّت تتولَّى مقاليد الحكم، حتَّى بعد قيام الثورة عام ١٩١٩م، وبعد دستور ١٩٢٣م، وإن ظهر على المســرح رجال من صميم الشــعب انضموا إلى حزب الوفد الَّذي كان يمثل غالبيَّة المصريين، وكانوا يحكمون لفترات قصيرة، كلما

QaradawiBooks.com

هبَّتْ رياح أزمة أتى بهم الملك، ثمَّ يعصف بهم إثر أزمة يفتعلها هو، أو يفتعلها له المستعمر المحتل للبلاد.

كانت الطبقة الحاكمة هي الطبقة الغنيَّة، وهي الطبقة المتعلِّمة، وهي المالكة لمنابع الثروة، وبالرغم من وجود الأحزاب المتعدِّدة، فإنَّ الأكثرية من الشعب كانت متعلقة بحزب واحد هو: حزب الوفد الَّذي تزعمه رجل من صميم الشعب هو سعد زغلول، وخليفته مصطفى النحاس.

لم يناد الوفد قط بالإسلام نظامًا للحياة، ولم يكن في برنامجه أنْ يعيد للناس قوانينهم الإسلاميَّة، أو أنْ يشيع بينهم الإسلام منهاجًا وفكرة وشريعة نزل بها وحي الله على نبيه ﷺ تُحدِّد المثل الأعلى، وترسي للناس قواعد معاملاتهم السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والقيمية، ومع ذلك كان زعماء هذا الحزب يدركون تمامًا مدى تغلغل الإسلام في النفوس، فاستعملوا الدِّين وسيلة لتوطيد زعامتهم، واكتساب قلوب العامَّة من شعبهم، وكان غير المسلمين من القادة الوفديين يحفظون من آيات القرآن الكريم ما يترنَّمون به في خطبهم، وهم يعلمون كم يلقى ذلك من قبول النَّاس في نفوس السامعين، وكيف تخشع له قلوبهم.

هكذا كان حال مصر والمصريين: وطن ضُربت عليه العزلة، وشعب مؤمن جاهل مغلوب على أمره، ومستعمر داهية متمكِّن من الحكم سافرًا أو مقنعًا، ومَلك غريب عن شعبه لغةً وفكرًا وعاطفة، وطبقة حاكمة منعزلة عن الرعية، وهي المالكة لمنابع الثروة بغير حقٍّ شرعي، ونظام قانوني مستقى من الغرب بعيد عن أعراف النَّاس ومعتقداتهم، ونزعة وطنيَّة مستحدثة، وإقصاء متعمَّد للدين الإسلامي عن واقع الحياة...

QaradawiBooks.com

التعليم لا توجهه فكرة الإسلام، والثقافة لا ترتكز على مفاهيم الإسلام، والتقاليد لا ترجع إلى قيم الإسلام، كما أنَّ القوانين لا تحتكم إلى شريعة الإسلام[١].

٦ ـ **ووطن عربي وإسلامي**: يشبه حاله حال مصر، في تحكم الاستعمار في مقدراته، وفي اصطناع طبقة يربِّيها الاستعمار في حضانته، ويرضعها من ألبان ثقافته، ويهيئها لحكم الشعب كما يريد المستعمر، وفجوات اجتماعيَّة بين ذوي الثراء الفاحش والفقر المدقع، وفلسفة علمانيَّة دخيلة عزلت الدين عن الحياة، وتبنَّت فكرة «الوطنيَّة الإقليمية» أو فكرة «القوميَّة العنصريَّة» بين شعوب المسلمين، حتَّى تغيب فكرة «الأُمَّة الواحدة» الَّتي أرادها الله، لتتحوَّل إلى «أمم شتَّى» يجافي بعضها بعضًا، بل يعادي بعضها بعضًا، بل ربَّما قاتل بعضها بعضًا، بعد أنْ كانت تضمُّهم «دار واحدة» هي دار الإسلام، وتحكمهم «مرجعيَّةٌ واحدة» هي شريعة الإسلام، وتجمعهم «دولة واحدة» هي دولة الخلافة.

في هذا الجو الغائم القاتم ولدت دعوة الإخوان المسلمين، أحوج ما تكون مصر ـ والوطن العربي والإسلامي الكبير ـ إليها، لتكون «دعوة البعث والإنقاذ» كما عبَّر عنها الإمام حسن البنَّا مؤسِّس الحركة.

بدأت هذه الدعوة منطلقة من فكر مؤسِّسها وشعوره الداخلي الغامر بأنَّ عليه فرضًا لأُمَّته يجب أنْ يؤديه، وأنَّ لديه طاقة يجب ألَّا يدَّخرها في إحياء الأُمَّة، وتجديد دينها.

---

(١) انظر: مقدمة د. أبو السعود لكتاب الإخوان المسلمون، د. ريتشارد. ب. ميتشل صـ ٢٠ ـ ٢٤، نشر دار النشر الأمريكية، الوقف الإسلامي لأمريكا الشمالية، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م. وانظر كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا صـ ١١ ـ ٤٢، فصل: كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

وقد كانت نشأته وتربيته ودراسته كلها مساعدة له على المضيِّ في هذا الطريق، وكانت ظروف دراسته في القاهرة بعد دمنهور، وما رآه وسمعه وعايشه في عاصمة مصر، دافعًا قويًّا؛ ليقوم بدعوته.

وبدأت الدعوة بسيطة، ولكنَّها عميقة، محدودة ولكنَّها قويَّة، صغيرة في كمها، ولكنَّها كبيرة في كيفها، فقيرة في المال، ولكنَّها غنيَّة بما تملك من إيمان لا يتزعزع، قليلة الإمكانات، ولكن لديها يقين وطموح وآمال، ستزلزل الدنيا يوم تعرفها.

والبَحْرُ مَاذَا كَانَ؟ كَانَ جَدَاوِلًا والْبَدْرُ مَاذَا كَانَ؟ كَانَ هِلَالَا!
والأُسْدُ فِي وَثَبَاتِهَا وَثَبَاتِهَا دَرَجَتْ عَلَى آجَامِهَا أَشْبَالَا[1]!

* * *

(١) البيتان للأستاذ أحمد شفيع السيد الأستاذ بكلية اللغة العربية في قصيدة قالها في تلميذه الشيخ أحمد الشرباصي، انظر: الأزهر في ألف عام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور علي علي صبح (٢١٢/٥)، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط ٣.

QaradawiBooks.com

٢

التميز ووضوح الشخصيَّة

أمَّا التميز ووضوح الشخصيَّة، فقد توافر في دعوة الإخوان من يومها الأوَّل، فقد أعلنت من أوَّل الأمر: أنَّها «دعوة إسلاميَّة صميمة» من الإسلام تستمدُّ، وعلى الإسلام تعتمد، وإلى الإسلام تهدف، وبالإسلام تمضي، وعن الإسلام تصدر. غايتها هي الإسلام، ووسيلتها من الإسلام، ومردُّها إلى الإسلام.

من الإسلام حدَّدت أهدافها، ومن الإسلام عيَّنت وسائلها ومناهجها، وإلى الإسلام ردَّت مرجعيتها.

شعاراتها إسلاميَّة: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن شرعتنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

وهتافاتها إسلاميَّة: الله أكبر ولله الحمد، لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله، عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد حتَّى نلقى الله.

وأناشيدها إسلاميَّة:

هُوَ الحَقُّ يَحْشِدُ أجنادَهُ ... ويَعْتَدُّ للموقفِ الفاصِلِ
فصُفُّوا الكتائبَ آسادَه ... ودُكُّوا به دَوْلَةَ البَاطِلِ[1]

(١) من شعر عبد الحكيم عابدين في ديوانه: البواكير، انظر: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ لمحمود عبد الحليم (١٨٤/١)، نشر دار الدعوة، الإسكندرية ط١ مصورة، ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

يقول الإمام حسن البنَّا مجيبًا عن سؤال يسأله الناس: ما أنتم أيُّها الإخوان؟ إنَّنا لم نفهمكم بعد، فأفهمونا أنفسكم، وضعوا لأنفسكم عنوانًا نعرفكم به، كما تعرف الهيئات بالعناوين، هل أنتم طريقة صوفيَّة أو جمعيَّة خيريَّة أو مؤسَّسة اجتماعيَّة أو حزب سياسي؟

ويقول الإمام حسن البنَّا لإخوانه: قولوا لهؤلاء المتسائلين: نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة: طريقة صوفيَّة، وجمعيَّة خيريَّة، ومؤسسة اجتماعيَّة، وحزب سياسي نظيف.

وقد يقولون بعد هذا كله: لا زلتم غامضين، فأجيبوهم: لأنَّكم ليس في يدكم مفتاح النور الَّذي تبصروننا على ضوئه. «نحن الإسلام» أيُّها الناس، فمن فهمه على وجهه الصحيح، فقد عرفَنا كما يعرف نفسه، فافهموا الإسلام أولًا وقولوا عنا بعد ذلك ما تريدون[1].

وفي مقام آخر يبيِّن الأستاذ البنَّا حقيقة دعوة الإخوان، في كلمات مُوجَزة، ولكنَّها قويَّة قوَّة الحقِّ، مضيئة إضاءة الهدى، عميقة عمق الإيمان، فيقول: «أيُّها الإخوان، أنتم لستم جمعيَّة خيريَّة، ولا حزبًا سياسيًّا، ولا هيئة موضعيَّة الأغراض، محدودة المقاصد، ولكنَّكم رُوحٌ جديدٌ يسري في قلب هذه الأُمَّة، يُحْيِيه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدِّد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوتٌ داوٍ يعلو مردِّدًا دعوة رسول الله ﷺ، ومن الحقِّ الَّذي لا غلُوَّ فيه: أنْ تشعروا أنَّكم تحملون هذا العبء بعد أنْ تخلَّى عنه الناس.

(١) من خطاب الأستاذ البنا في اجتماع رؤساء المناطق في ٣ شوال سنة ١٣٦٤هـ ـ ٨ سبتمبر ١٩٤٥م. وانظر: مجموعة الرسائل صـ ٢٥٢.

QaradawiBooks.com

إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: ندعو إلى الإسلام الَّذي جاء به محمَّد ﷺ، والحكومة جزءٌ منه، والحريَّة فريضة من فرائضه.

فإنْ قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام. ونحن لا نعرف هذه الأقسام.

وإنْ قيل لكم: أنتم دعاة ثورة، فقولوا: نحن دعاة حقٍّ وسلام، نعتقده ونعتزُّ به. فإنْ ثرتم علينا، ووقفتم في طريق دعوتنا، فقد أذن الله أنْ ندفع عن أنفسنا، وكنتم الثائرين الظالمين.

وإنْ قيل لكم: إنَّكم تستعينون بالأشخاص والهيئات، فقولوا: آمنَّا بالله وحده، وكفرنا بما كنتم به مشركين.

فإنْ لجُّوا في عدوانهم، فقولوا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]»[1].

إسلام الإخوان:

وفي رسالة «دعوتنا» وهي من الرسائل القديمة، يتحدَّث الأستاذ تحت عنوان «إسلامنا» فيقول: «اسمعْ يا أخي: دعوتُنا دعوةٌ أجمع ما توصف به أنَّها «إسلاميَّة»، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الَّذي يفهمه الناس، فإنَّا نعتقد أنَّ الإسلام معنى شامل ينتظم شؤون الحياة جميعًا، ويفتي في كل شأن منها، ويضع له نظامًا محكمًا

(١) رسالة بين الأمس واليوم، وقد نشرت قديمًا تحت عنوان: من تطورات الفكرة الإسلامية وأهدافها. وذلك قبل الحرب العالمية الثانية، وفيها تنبَّأ الأستاذ للغربيين بحرب ضروس تبدِّد شملهم وتمزِّق وحدتهم، وتهبُ لأمم الإسلام فرصة أخرى تسوِّي فيها صفوفها. انظر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا صـ ١٠٢ ـ ١١٠.

QaradawiBooks.com

دقيقًا، ولا يقف مكتوفًا أمام المشكلات الحيويَّة والنظم الَّتي لا بدَّ منها لإصلاح الناس».

وينكر الأستاذ فهم بعض النَّاس خطأ: أنَّ الإسلام مقصور على ضروب من العبادات، أو أوضاع من الروحانية، حصروا أنفسهم وأفهامهم في دائرتها الضيقة.

ويقول: «لكنَّا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه، فهمًا فسيحًا واسعًا ينتظم شؤون الدنيا والآخرة، ولسنا ندَّعي هذا ادِّعاءً، أو نتوسَّع فيه من أنفسنا، وإنَّما هو ما فهمناه من كتاب الله وسُنَّة رسوله وسيرة المسلمين الأوَّلين، فإنْ شاء القارئ أنْ يفهم دعوة الإخوان بشيء أوسع من كلمة «الإسلاميَّة» فليمسك بمصحفه، وليُجَرِّد نفسه من الهوى والغاية، ثمَّ يتفهَّم ما عليه القرآن، فسيرى في ذلك دعوة الإخوان.

أجل: دعوتنا «إسلاميَّة» بكلِّ ما تحتمل الكلمة من معانٍ، فافهم فيها ما شئت بعد ذلك، وأنت في فهمك هذا مقيَّد بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وسيرة السلف الصالحين من المسلمين. فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام ودعامته، وأما سُنَّة رسوله فهي مبيِّنة الكتاب وشارحته، وأما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منفِّذو أوامره والآخذون بتعاليمه، وهم المثل العمليَّة والصورة الماثلة لهذه الأوامر والتعاليم»[1] اهـ.

(١) رسالة دعوتنا، ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٨.

QaradawiBooks.com

الإخوان حركة إسلاميَّة فاعلة:

كما تميَّزت دعوة الإخوان بإسلاميتها الواضحة: إسلاميَّة المصدر، إسلاميَّة المنطلق، إسلاميَّة الغاية، إسلاميَّة الوسيلة، فقد تميَّزت بأمر آخر، وهو أنَّها لم تكن مجرَّد جماعة وعظيَّة تلهب مشاعر الجماهير بالخطب البليغة، ولا محض جمعيَّة خيريَّة، تعمل في خدمة المجتمع، وإشاعة البر، ونفع الفقراء والضعفاء فيه، وإن كان الوعظ والإرشاد من وسائلها، وفعل الخير جزءًا من أعمالها.

ولكن أراد مؤسِّسها رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ تكون «حركة إسلاميَّة» إيجابيَّة فاعلة، محرِّكة للأمة، معبِّرة عن الإسلام كل الإسلام، بعد أنْ جعله النَّاس «لحمًا على وضم» وقطعوه إلى قِطع وأجزاء، ولم ينظروا إليه نظرة كليَّة، ولم يربُّوا الأُمَّة على الالتزام به، والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

كان هذا المعنى واضحًا في عقل الأستاذ البنَّا منذ قام بدعوته، كما يبدو من مقالاته ورسائله الأولى، وعبَّر عنه في أكثر من موضع بعبارات مشرقة.

ومن هذه العبارات، ما قاله في رسالة «الإخوان تحت راية القرآن» تحت عنوان «طبيعة فكرتنا»:

«أيُّها الإخوان المسلمون،

بل أيُّها النَّاس أجمعون،

لسنا حزبًا سياسيًّا وإن كانت السياسة على قواعد الإسلام من صميم فكرتنا.

ولسنا جمعيَّة خيريَّة إصلاحيَّة، وإنْ كان عمل الخير والإصلاح من أعظم مقاصدنا.

QaradawiBooks.com

ولسنا فرقًا رياضيَّة، وإنْ كانت الرياضة البدنيَّة والروحيَّة من أهم وسائلنا.

لسنا شيئًا من هذه التشكيلات، فإنَّها جميعًا تبرِّرها غاية موضعيَّة محدودة لمدَّة معدودة، وقد لا يوحي بتأليفها إلَّا مجرَّد الرغبة في تأليف هيئة، والتحلِّي بالألقاب الإداريَّة فيها.

ولكنَّنا أيُّها الناس: فكرة وعقيدة، ونظام ومنهاج، لا يُحَدِّده موضع، ولا يقيِّده جنس، ولا يقف دونه حاجز جغرافي، ولا ينتهي بأمر حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك لأنَّه نظام ربِّ العالمين، ومنهاج رسوله الأمين.

نحن أيُّها النَّاس ـ ولا فخر ـ أصحاب رسول الله ﷺ، وحمَلَة رايته من بعده، ورافعو لوائه كما رفعوه، وناشرو لوائه كما نشروه، وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمُبشِّرون بدعوته كما بشَّروا، ورحمة الله للعالمين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [صٓ: ٨٨]»[1] اهـ.

وهكذا كان الإمام البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على ألَّا تكون دعوته أو جماعته مجرد تشكيلات إداريَّة أو رياضيَّة، أو كشفيَّة أو خيريَّة، بل حركة إسلاميَّة إيجابيَّة، تحمل في القرن الرابع عشر الهجري رُوحَ الصحابة في القرن الأوَّل.

مصطلح «الحركة الإسلاميَّة»:

وقد شاع مصطلح «الحركة الإسلاميَّة» في أدبيات «الإخوان المسلمين» في مصر، منذ وقت مبكِّر، كما شاع في أدبيات «الجماعة الإسلاميَّة» الَّتي

(١) رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن، ضمن مجموعة رسائل الإمام حسن البنا صـ ١٩٧، ١٩٨.

QaradawiBooks.com

أسَّسها الإمام أبو الأعلى المودودي في الهند قبل أنْ تقسم إلى دولتين: الهند وباكستان (الشَّرقية وهي الَّتي صارت الآن بنجلاديش، والغربيَّة) وتنطق في لغة الأردو بلفظها العربي «تحريك إسلامي».

فقد كان المصطلح المشهور المعبر عن التيار الإسلامي من قبل ـ أيام السيِّد جمال الدين الأفغاني والإمام محمَّد عبده ـ هو تعبير «الجامعة الإسلاميَّة». كما هو معروف في مقالات «العروة الوثقى» ومقالات الشيخ عبده، وتلميذه رشيد رضا بعد ذلك.

وكلا العنوانين أو المصطلحين يعبِّر عن مرحلته وعن مضمون دعوته أو ملخصها، وكان مضمون الدعوة في مرحلة «العروة الوثقى» هو «جمع الأُمَّة» وتوحيد صفوفها لمواجهة الاستعمار، أما مضمون الدعوة في مرحلة الأستاذ حسن البنَّا فهو «تحريك الأُمَّة»: تحريك عقولها حتَّى تفهم، وتحريك قلوبها حتَّى تؤمن، وتحريك إرادتها حتَّى تصمِّم، وتحريك أيديها حتَّى تعمل، «وإن كان جمع الأُمَّة وتوحيدها من الأهداف الأساسيَّة للحركة أيضًا».

ويبدو أنَّ هذا المصطلح شاع في مقابل مصطلح آخر راج في فترة من الزمن في أقطار عربية وإسلاميَّة شتى، هو مصطلح «الحركة الوطنيَّة» أو «الحركة القوميَّة»، وكان كثير من دعاة هذه الحركات ـ وخصوصًا الحركة القوميَّة ـ يعادون التيار الإسلامي، ودعاة الإصلاح الإسلاميين، ويعتمدون الغرب وفلسفته وحضارته مرجعًا فكريًّا وقيميًّا لهم، هو مصدر الإلهام، ومصدر الإلزام.

وهذا واضح لمن يدرس نشوء «الحركة القوميَّة الطورانيَّة» الَّتي ظهرت في تركيا، دولة الخلافة العثمانيَّة، والَّتي كانت تعادي العروبة

QaradawiBooks.com

والإسلام، وأنشـأت حزب «الاتحاد والترقِّي» والَّتي انتهت بتهديم قلعة الخلافة، الَّتي كانت تمثِّل آخر تجمُّع للأُمَّة الإسلاميَّة تحت راية الإسلام.

كما هو واضح في نشـوء «حركة القوميَّة العربيَّة» الأولى الَّتي كانت لها صلة معروفة بالماسونيَّة، والَّتي قادها في الأصل غير المسلمين[1].

على أيَّة حال، لقد ظهر مصطلح «الحركة الإسلاميَّة» وذاع على ألسنة وأقلام كتاب الحركة وغيرهم، وغدا مفهومًا ينسـب إليه، فيقال: الفكر الحركي، والدعوة الحركيَّة، والتربية الحركيَّة، والعمل الحركي إلخ، نسبة إلى الحركة الإسلاميَّة.

الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلاميَّة:

ولا غرو أنْ أصدر الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني (في سنة ١٩٤٧م على ما أذكر) كتابًا بعنوان «الإخوان المسـلمون كبرى الحركات الإسلاميَّة الحديثة»، وهو دراسـة علميَّة موضوعيَّة محايدة إلى حدٍّ كبير عن حركة الإخوان، على عكس بعض الدراسات الَّتي كانت قد صدرت عن بعض التيارات المعادية للإسلام عمومًا، وللإخوان خصوصًا، والَّتي اتسمت بالهجوم والتحامل والتصيد للشبهات بل الاختلاق للتُّهم أحيانًا.

وقد أنصف الدكتور الحسـيني الإخوان أيضًا في عنوان كتابه حين أطلق عليهم «كبرى الحركات الإسلاميَّة الحديثة». ولا يزال هذا الوصف صادقًا إلى اليوم، بل اكتسب صدقيَّة أكبر وأوسع، حيث اتَّسعت الحركة، ليكون لها أعضاء مشـتركون وأنصـار معاضدون فـي كلِّ أقطار العالم العربي والإسلامي تقريبًا، بل خارج العالم الإسلامي، في أوربا وأمريكا

(١) انظر كتابنا: الحلول المستوردة صـ ١٣٩ ـ ١٦٣، عنوان: القومية العربية والنزعات الإقليمية.

QaradawiBooks.com

والشرق الأقصى وغيرها من بلدان العالم «في أكثر من سبعين دولة في القارات الخمس أو الست».

وكان من فضل الله على الحركة أنَّ المحن القاسية الَّتي حاقت بأبنائها في مصر ـ البلد الأمِّ للحركة ـ جعلت كثيرًا منهم حين خرجوا من أتون المحنة ابتداءً من سنة ١٩٥٦م ينطلقون في أرض الله الواسعة يلتمسون الحريَّة والأمن، فذهب منهم مَن ذهب إلى أوربا غربيَّة وشرقية، وإلى أمريكا شمالية وجنوبية، وإلى أستراليا، وإلى اليابان وغيرها من ديار الشرق الأقصى، فبذر الله تعالى ـ بهؤلاء الأبناء الَّذين تفرَّقوا في الأرض ـ بذور الدعوة الَّتي أينعت وآتت أُكُلها كلَّ حين بإذن ربها، وأنشؤوا تيارًا إسلاميًّا في كل أرض نزلوا بها. وبهذا تحوَّلت المحنة إلى منحة، ورب ضارة نافعة، وعسى أنْ تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

والإخوان المسلمون ليست هي كبرى الحركات الإسلاميَّة فحسْب، بل هي أم الحركات الإسلاميَّة أيضًا، فهي الأصل والأساس، ولا سيَّما في العالم العربي، والحركات الأخرى الَّتي تنتسب إلى الإسلام، إمَّا ناشئ بعدها، وإمَّا فرع عنها وامتداد لها، وإمَّا انشقاق عنها وخروج عليها.

المقصود بمصطلح «الحركة الإسلاميَّة»:

ولكن ماذا نقصد بـ «الحركة الإسلاميَّة»؟ وبعبارة أخرى: ما المفهوم العلمي المحدَّد لكلمة «الحركة الإسلاميَّة» إذا أطلقناها؟ فإنَّ «تحديد المفاهيم» أمر واجب، حتَّى لا تترك مائعة رجراجة يفهمها كلُّ فريق كما يحلو له، فهذا يشرِّق وهذا يغرِّب، فماذا نريد بكلمة «الحركة الإسلاميَّة» بالضبط؟

QaradawiBooks.com

لقد تعرَّضت لذلك في كتابي «أولويَّات الحركة الإسلاميَّة»[١] وقلت فيه: نريد بالحركة الإسلاميَّة: ذلك العمل الشعبي الجماعي المنظَّم للعودة بالإسلام إلى قيادة المجتمع، وتوجيه الحياة، كل الحياة، بأوامره ونواهيه، وتشريعاته، ووصاياه.

فالحركة الإسلاميَّة قبل كلِّ شيءٍ عمل، وعمل دائب متواصل، ليست مجرَّد كلام يقال، أو خُطَب تُلقى، أو محاضرات تنظَّم، أو كُتُب تؤلَّف، ومقالات تنشر، وإنْ كان هذا كله مطلوبًا طلبًا مؤكَّدًا بلا ريب، ولكنَّه جزء من حركة، وليس هو الحركة، والله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

الحركة عمل على مستويات عدَّة:

إنَّ الحركة الإسلاميَّة عمل متكامل على مستويات عدَّة:

إنَّها عمل فكري تنويري يضيء العقول، وهي علم دعوي تحريضي يحرِّك المشاعر، وهي عمل تكويني تربوي ينشئ الشخصيَّة المسلمة، وهي عمل اجتماعي يساهم في حلِّ مشكلات المجتمع وإشاعة الخير فيه، وهي عمل اقتصادي يحرِّر اقتصاد الأوطان المسلمة من التبعية المطلقة للغرب ومن رجس الربا والمعاملات المحظورة، وهي عمل سياسي لإقامة حكم الإسلام وإعادة دولته، وتطبيق شريعته، وتوحيد أُمَّته، وهي عمل جهادي لتحرير أرض الإسلام في المشرق والمغرب من كل سلطان أجنبي أو طغيان داخلي.

(١) انظر: أولويات الحركة الإسلامية صـ ٩ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

QaradawiBooks.com

الحركة عمل شعبي محتسب:

وهي عمل شعبي يقوم أساسًا على الانبعاث الذاتي، والاقتناع الشخصي، إيمانًا واحتسابًا، وابتغاء ما عند الله، لا ما عند الناس.

والأصل في هذا الانبعاث: هو هذا التوتر الَّذي يحسُّ به المسلم حين تدركه الصحوة، ويوقظه الوعي، وتمور به أعماقه، نتيجة التناقض بين إيمانه من جهة، وواقع أُمَّته من جهة أخرى، فينطلق من حبِّه لدينه، ونصحه لله ولرسوله ﷺ ولكتابه ولأُمَّته، وشعوره بتقصيره وتقصير الجماعة من حوله، وحرصه على أداء الواجب، واستكمال النقص، والإسهام في إحياء الفرائض المعطَّلة من الحكم بشريعة الله، وتوحيد الأُمَّة الإسلاميَّة على كلمة الله، وموالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، وتحرير الأرض الإسلاميَّة من كلِّ عدوان، أو سيطرة غير إسلاميَّة، وإعادة الدولة الإسلاميَّة، أو الخلافة الإسلاميَّة الواجبة شرعًا إلى القيادة من جديد، وتجديد فريضة الدعوة إلى الإسلام، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بكلِّ أنواعه وأدواته، باليد أو باللسان، أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان، حتَّى تكون كلمة الله هي العليا.

قصور العمل الرسمي:

هذا العمل الشعبي المحتسب، هو الَّذي ينشئ الحركة الإسلاميَّة، أما العمل الحكومي الرسمي، أو شبه الرسمي، مثل إنشاء مجالس عليا، أو اتحادات أو روابط، للشؤون الإسلاميَّة، تشرف عليها وزارات الأوقاف، أو غيرها من الأجهزة التابعة للدولة، فقد يسهم في خدمة الإسلام وأهله بنصيب يقلُّ أو يكثر، وَفْقًا لنيَّة القائمين عليه وهمَّتهم، ومقدار ولائهم لدينهم، قبل ولائهم لدنياهم ودنيا من ولَّوهم المناصب.

QaradawiBooks.com

ولكن هذا العمل قاصر، ومعيب دائمًا من عدَّة أوجه:

١ ـ إنَّه يدور في فلك السياسة المحلية للدولة الَّتي تنشئه، وتنفق عليه، فهو يتحرَّك أو يتوقَّف، ويتكلَّم أو يصمت، ويشرِّق أو يغرِّب، تبعًا لهذه السياسة، ولهذا لا يُعبِّر عن الإسلام الخالص، وعن أُمَّته الكبرى، بقدر ما يعبِّر عن هذه الدولة المعيَّنة.

٢ ـ إنَّه لا يقوم ـ غالبًا ـ على أناس يفرزهم العمل، ويصهرهم الجهاد، ويبرزهم الميدان، بل على «التعيين» من رجال ترضى عنهم الدولة المنفقة، ويحرصون على إرضائها رغبًا أو رهبًا. ولهذا لا يسعهم أنْ يخالفوا عن أمرها، أو يقولوا: لم؟ أو: لا. وأنا أتحدَّث هنا عن الأعم الأغلب، وإلَّا فقد يوجد بين «الرسميين» من يفوق بعض العاملين «الشعبيين» إخلاصًا لله، وغيرةً على دينه، وعملًا لتمكينه.

٣ ـ إنَّه كثيرًا ما تنقصه النيَّة الصادقة لنصرة الإسلام، بل قد يراد به كسب سياسي خالص، وغالبًا ما يكون هذا العمل «مسجد ضرار» ظاهره العبادة والتقوى، وباطنه التفريق بين المؤمنين، وتعويق العاملين المخلصين.

٤ ـ إنَّه ـ لهذا كله ـ متَّهم من الجماهير والشعوب، معزول عن مشاعرها وتأييدها. حتَّى العلماء الرسميون الَّذين جنَّدوا أنفسهم لخدمة سياسة الدولة، فينطقون إذا أرادت لهم أنْ ينطقوا، ويصمتون إذا أرادت أنْ يصمتوا ـ يفتقدون ثقة الجماهير بهم، ويسمُّونهم «علماء السلطة» أو «عملاء الشرطة».

ولهذا كلِّه لا يستطيع العمل الإسلامي الرسمي أو شبه الرسمي ـ في غَيْبة الحكم الإسلامي ـ أنْ ينشئ حركة إسلاميَّة حقيقية، وإن كان يستطيع ـ بما لديه من إمكانات ـ أنْ يقوم ببعض الخدمات العلميَّة

QaradawiBooks.com

والعمليَّة، وتقديم المعونات الماديَّة والأدبية للعمل الإسلامي الشعبي ومؤسساته. وخصوصًا إذا كان على رأسه بعض المخلصين الشجعان.

الحركة عمل جماعي منظم:

والحركة الإسلاميَّة ـ إلى جوار أنَّها عمل شعبي محتسب ـ هي «عمل جماعي منظَّم»، فلا يكفي أنْ يقوم أفراد محتسبون مخلصون من هنا وهناك، يعملون متناثرين للإسلام، وإن كان عملهم مفيدًا ومرصودًا لهم في ميزانهم عند الله، فإنَّ الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى. وكل امرئ يجزى بما قدَّم حسب نيَّته وإتقانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

ولكن «العمل الفردي» في واقع الأُمَّة الإسلاميَّة المعاصر، لا يكفي لسد الثغرة، وتحقيق الأمل المرتجى، بل لا بدَّ من «عمل جماعي». وهذا ما يوجبه الدين ويحتمه الواقع.

فالدين: يدعو إلى «الجماعة» ويكره «الشذوذ» فيد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار، وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ولا صلاة لمنفرد خلف الصف، ولا لمتقدِّم على الصف، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا. والتعاون على البر والتقوى فريضة من فرائض الدين، والتواصي بالحق والصبر أحد شروط النجاة من خسران الدنيا والآخرة.

والواقع يحتِّم أنْ يكون العمل المثمر جماعيًّا؛ فاليد الواحدة لا تصفِّق، والمرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قويٌّ بجماعته، والأعمال الكبيرة لا تتمُّ إلَّا بجهود متضافرة، والمعارك الحاسمة لا يتحقَّق النصر فيها إلَّا بتضامِّ الأيدي، وتعاضدِ القوى، كما

QaradawiBooks.com

قال القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

يُؤكِّد هذا: أنَّ القوى المعادية لرسالة الإسلام وأُمَّته، لا تعمل بطريقة فرديَّة، ولا في صورة فئات مبعثرة، بل تعمل في صورة تكتُّلات وتجمُّعات منظمة غاية التنظيم، لها هياكلها، ولها أنظمتها، ولها قيادتها المحلية والإقليمية والعالميَّة.

ومن الواجب علينا أنْ نحارب أعداءنا بمثل ما يحاربوننا به، لا يجوز لنا أنْ نحارب المدفع بالعصا، ولا الدبابة بالحصان أو البغل. كما لا يجوز لنا أنْ نقاوم العمل الجماعي بالعمل الفردي، والعمل المنظَّم بالعمل المبعثر، فالفوضى لا تقاوم النظام، والفرد لا يقاوم الجماعة، والحصاة لا تقاوم الجبل.

والقرآن الكريم يُحذِّرنا من ذلك حين يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. ومعنى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إنْ لم يوال بعضكم بعضًا ويساند بعضكم بعضًا، ويلتحم بعضكم ببعض: تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وأيُّ فتنة وأي فساد أكبر من أنْ تتجمَّع قوى الكفر وتتفرَّق قوى الإسلام، وأنْ يتلاحم الباطل ويتمزَّق الحقُّ؟ فهذا هو الخطر الكبير، والشر المستطير.

ولا بدَّ أنْ يكون العمل الجماعي منظمًا، قائمًا على قيادة مسؤولة، وقاعدة مترابطة، ومفاهيم واضحة، تحدِّد العلاقة بين القيادة والقاعدة، على أساس من الشورى الواجبة الملزمة، والطاعة المبصرة اللازمة.

فالإسلام لا يعرف جماعة بغير نظام، حتَّى الجماعة الصغرى في الصلاة تقوم على النظام، لا ينظر الله إلى الصفِّ الأعوج، ولا بدَّ

QaradawiBooks.com

للصفوف أنْ تتراصَّ وتتلاحم، ولا يجوز تـرْك ثغرة في الصف دون أنْ تملأ، فأي فرجة تهمل يسدُّها الشيطان، المنكب بجوار المنكب، والقدم بجانب القدم، وحدة في الحركة والمظهر، كمـا أنَّها وحدة في العقيدة والوجهة: «**لا تختلفوا فتختلفَ قلوبُكم**»(١).

يعدل الإمام الصفَّ خلفه حتَّى يستقيم ويتَّصل، وينصح مَن وراءه أنْ «**لينوا بأيدي إخوانكم**»(٢)؛ فالجماعة تقتضـي قدرًا من الليونة والمرونة لموافقة سائر الصف.

وبعد ذلك تكون الطاعة للإمام «**إنَّما جُعِل الإمام لِيُؤْتَمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا**»(٣).

ولا يقبل من أحد أنْ يشـذَّ عن الصفِّ، ويسبق الإمام فيركع قبله أو يسـجد قبله، ويحدث نشـازًا في هذا البناء المنظم المتناسق، فمن فعل ذلك يخشى أنْ يمسخ الله رأسه رأس حمار(٤).

ولكن هذا الإمام إذا أخطـأ، فإنَّ مِن حقِّ مَن وراءه ـ بل من واجبه ـ أنْ يصحِّح خطأه، سواء أكان من غلط أم سـهو، وسواء أكان الخطأ في القول أم الفعل، في القراءة أم في أركان الصلاة الأخرى.

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢)، وأحمد (١٧١٠٢)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) رواه أحمد (٥٧٢٤)، وقال مُخرِّجوه: إسـناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (٦٦٦)، وصحَّح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٠٩١)، عن ابن عمر.

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٧٨)، ومسلم (٤١١)، كلاهما في الصلاة، عن أنس.

(٤) إشارة إلى حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أما يخشى أحدكم ـ أو: لا يخشى أحدكم ـ إذا رفع رأسه قبل الإمام، أنْ يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار». متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٩١)، ومسلم في الصلاة (٤٢٧).

QaradawiBooks.com

حتَّى إنَّ المرأة في الصفوف البعيدة تصفِّق بيدها؛ لينتبه الإمام إلى خطئه.

إنَّها صورة مصغَّرة لنظام الجماعة الإسلاميَّة، وما ينبغي أنْ تكون عليه العلاقة بين القيادة والجنديَّة، فليست إمامة معصومة، ولا طاعة عمياء مطلقة.

هذا ما وعاه حسن البنَّا الشابُّ العبقري وفقِهَه حين أسَّس ـ وهو ابن الثانية والعشرين من عمره ـ حركته الإسلاميَّة المباركة ولم يكتف بالخطب والدروس والوعظ والإرشاد العام، على أهميته، بل رأى بنور بصيرته أنَّه لا بدَّ من «التكوين بعد التنبيه، ومن التأسيس بعد التدريس» كما عبَّر هو بقلمه.

مهمة الحركة تجديد الإسلام:

ما مهمَّة الحركة الإسلاميَّة؟

إنَّ الحركة الإسلاميَّة إنَّما قامت لتجديد الإسلام والعودة به إلى قيادة الحياة من جديد، بعد عزل الإسلام عن قيادة الحياة وتوجيهها في شتَّى المجالات: في مجال السياسة والحكم، وفي مجال التشريع والتقنين، وفي مجال الفكر والتثقيف، وفي مجال التعليم والإعلام، وفي مجال الآداب والتقاليد، وفي مجال المال والاقتصاد.

والَّذي صنع هذا وعزل الإسلام عن موقعه في الحياة والمجتمع ـ بمكر ودهاء وتخطيط خبيث ـ إنَّما هو الاستعمار، الَّذي استولى على أوطان المسلمين، ووضع الأغلال في أعناقهم والقيود في أرجلهم[1].

(١) انظر كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا صـ ١١ ـ ٤٢، فصل: كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع.

QaradawiBooks.com

و«تجديد الإســلام» ليس تعبيرًا من عندي. إنَّــه تعبير نبويٌّ نطق به الحديث الَّذي رواه أبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدِّد لها دينها**»[1]، وتجديد الدين يعني: تجديد الفهم له، وتجديد الإيمان به، وتجديد العمل بأحكامه وآدابه، وتجديد العمل له والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

ولقد كان اتِّجاه أغلب شُــرَّاح هذا الحديث إلــى أنَّ كلمة «مَنْ» فيه تعني «فردًا» واحدًا معيَّنًا يقوم بتجديد الدين، وحاولوا بالفعل تعيينه في الغالب من العلماء والأئِمَّة الأعلام ممَّن تكون وفاته قريبة من رأس قرن مضى، مثل عمر بن عبد العزيز في القرن الأوَّل (ت: ١٠١هـ)، والشافعي في القرن الثانــي (ت: ٢٠٤هـ)، واختلفوا كثيرًا في مُجَــدِّد المائة الثالثة والرابعة، واتَّفقوا على مجدِّد المائة الخامســة، كما قال الســيوطي في منظومته عن المُجدِّدين:

والْخَامِــسُ الْحَبْــرُ هُــوَ الْغَزَالِي وَعَــدُّهُ مَــا فِيــهِ مِــنْ جِــدَالِ

واختلفــوا في مجــدِّد المائة السادســة، واتَّفقوا على مجــدِّد المائة السابعة، قال السيوطي:

والســابعُ الرَّاقِــي إلــى المَرَاقِي ابــنُ دَقِيــقِ العِيــدِ باتِّفَــاقِ[2]

وهكذا نظروا إلى المُجدِّدين في الحديث الشريف.

---

(١) رواه أبــو داود في الملاحــم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوســط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وســكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (٢٨١/٢)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي.

(٢) نقله المناوي في فيض القدير (٢٨٢/٢)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

QaradawiBooks.com

بيد أنَّ بعضهم نظر إلى أنَّ «مَنْ» في الحديث تصلح للجمع كما تصلح للفرد، فيجوز أنْ يكون المجدد جماعةً لا واحدًا. وهذا ما رجَّحه ابن الأثير في كتابه «الجامع للأصول»، والحافظ الذهبي وغيرهما.

وأزيد على هذا أمرًا آخر فأقول: ليس من الضروري أنْ يكون المجدد جماعة بمعنى عدد من الأفراد هم فلان وفلان، بل جماعة بمعنى مدرسة وحركة فكريَّة ودعويَّة وعمليَّة تقوم بتجديد الدين متضامنة.

وهذا ما أُرجِّحه في فهم هذا الحديث الشريف[1].

وأعتقد أنَّ المدرسة أو الحركة الأولى الَّتي جسَّدت «التجديد» الإسلامي في هذا القرن ـ خلال سبعين عامًا ـ هي حركة الإخوان المسلمين.

وهذا لا ينفي أنَّ لغيرهم من الجماعات والأفراد نصيبًا في التجديد يقلُّ أو يكثر. ولا يجوز لنا أنْ نبخس النَّاس أعمالهم.

المُقوِّمات الأساسيَّة للتجديد:

والتجديد الَّذي قامت به الحركة الإسلاميَّة كان يتجسَّد في أمور ثلاثة جعلتها نصب عينيها، تعتبر هي المقومات الأساسيَّة للتجديد:

الأول: تكوين طليعة إسلاميَّة، قادرة ـ بالتكامل والتعاون ـ على قيادة المجتمع المعاصر بالإسلام، دون تقوقع ولا تحلل، وعلى علاج أدواء المسلمين من صيدلية الإسلام نفسه، بتجديد الاجتهاد بشروطه وضوابطه، وإعداد المجتهدين القادرين على الجمع بين النصوص

(١) انظر في هذا: موضوع تجديد الدين في ضوء السنة في كتابنا: من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا صـ ١١ ـ ٣٨، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

الجزئية والمقاصد الكليَّة للشريعة، دون تعصُّب لرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد. طليعة تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرف المستقبل. طليعة يجمع بين أفرادها: الإيمان العميق، والفقه الدقيق، والترابط الوثيق.

والثاني: تكوين رأي عام إسلامي يُمثِّل القاعدة الجماهيرية العريضة، الَّتي تطالب بتطبيق الإسلام في كلِّ جوانب الحياة، وتنتصر له، وترى فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وتقف وراء الدعاة إليه، تحبُّهم وتساندهم، وتشدُّ أزرهم، بعد أنْ وعت مجمل أهدافهم، ووثقت بإخلاصهم وقدرتهم، ونفضت عنها غبار التشويش، والتشويه للإسلام ورجاله وحركاته.

والثالث: تهيئة مناخ عامٍّ عالميٍّ كذلك يتقبَّل وجود الأُمَّة الإسلاميَّة، حين يتفهَّم حقيقة الرسالة الإسلاميَّة، والحضارة الإسلاميَّة، ويتحرَّر من العقد الخبيثة، الَّتي تركها تعصب القرون الوسطى، في أعماق نفسه، ومن الأباطيل الَّتي خلفها الكذب والتشويه في أمِّ رأسه، رأي عام يفسح صدره لظهور القوَّة الإسلاميَّة بجوار القوى العالميَّة الأخرى، مدركًا أنَّ من حق المسلمين أنْ يحكموا أنفسهم وَفْق عقيدتهم، باعتبارهم أغلبيَّة في بلادهم، كما تنادي بذلك مبادئهم الديموقراطية الَّتي يتغنَّوْن بها، وأنَّ من حقهم أنْ يدعوا إلى رسالتهم الربانيَّة الإنسانيَّة العالميَّة، باعتبارها إحدى الرسالات أو «الأيديولوجيات» الكبرى في العالم الَّتي لها ماضٍ وحاضر ومستقبل، ويدين بها مليار وثلث من النَّاس في دنيانا الَّتي نعيش فيها، وهم يمثِّلون (٢٤٪) من سكان العالم، أي: حوالي الربع، فكل أربعة من سكان عالمنا يوجد بينهم مسلم واحد.

QaradawiBooks.com

وتهيئة هذا المناخ يتطلَّب من الحركة أنْ تشرح الإسلام للعالم بلسان العصر، وتقدمه للناس بشموله وتكامله وتوازنه، ويسره وسماحته، وتردَّ عن ساحته الشبهات والمفتريات.

غير مرخصة للطباعة

دور الحركة الإسلاميَّة في تجديد الإسلام:

إنَّ الَّذي قام بالدور الأكبر في تجديد الدين على رأس هذا القرن هو «الحركة الإسلاميَّة» بمدلولها الواسع، والَّتي يشرِّفني أنْ أكتب هذه السطور اليوم عنها.

ولا يسعفني الوقت ولا الجهد ولا المعرفة أنْ أكتب عن كلِّ الحركات الإسلاميَّة، ولكنِّي اكتفي بالحديث عن أمِّ هذه الحركات وكبراها وهي حركة «الإخوان المسلمون» الَّتي أسَّسها الإمام الشهيد حسن البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأبادر فأقول: إنَّ ممَّا يؤخذ على الحركة أنَّها ـ حتَّى اليوم ـ لم تكتب تاريخها بأقلام أبنائها كتابة علميَّة موثقة، قائمة على الموازنة والتحليل، بعيدة عن التهوين والتهويل، ولعلَّها بدأت ذلك ونرجو أنْ تكمل الشوط.

وأستطيع أنْ أقول في غير لبس ولا مبالغة: إنَّ الحركة الإسلاميَّة ـ الَّتي يمثلها الإخوان المسلمون ـ قامت بدور بارز في تجديد الإسلام في هذا القرن.

وتجديد الإسلام لا يعني إصدار طبعة جديدة منقحة منه، فمصادر هذا الدين ثابتة خالدة، وفي مقدمتها القرآن الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصحيح السُّنَّة المبيِّنة للقرآن.

QaradawiBooks.com

ولا يمكن زيدًا أو عمرًا من النَّاس أنْ يأتي بإسلام جديد يقدمه غير إسلام القرآن وما بيَّنه من صحيح السُّنَّة.

ومهما حاول المستشرقون أنْ يبثُّوا فكرة وجود «إسلامات» متعدِّدة بتعدُّد الأعصار أو بتعدُّد الأقطار، بدعوى أنَّ هناك إسلامًا راشديًّا، وإسلامًا أمويًّا، وآخر عباسيًّا، ورابعًا عثمانيًّا، كما أنَّ هناك إسلامًا آسيويًّا، وآخر إفريقيًّا، أو إسلامًا عربيًّا، وآخر عجميًّا، إلى آخر هذه التقسيمات، فالحقُّ الَّذي لا ريب فيه: أنَّ الإسلام المعترف به هو الإسلام كما جاء به القرآن الكريم، وكما دعا إليه الرسول ﷺ، وكما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان وطبَّقوه في حياتهم العمليَّة.

وهنالك جملة دراسات تناولت حركة الإخوان، صدرت بالعربيَّة وغيرها، تتفاوت في نواياها، وفي مناهجها، وفي نتائجها، ولا ريب أنَّ بعضها متحامل على الجماعة، ولا يكتب عنها إلَّا بقصد تشويه صورتها، وتضخيم سلبياتها إنْ وجدت، فإنْ لم توجد حاول أنْ يختلقها، وكذلك يحاول إخفاء محاسنها، بل والافتراء عليها.

ولكن بعضًا آخر يميل إلى الإنصاف، أو يحاول أنْ يبدو في مظهر المنصف، ولكن تحكمه أمور لا تخفى على الدارس المتعمِّق:

أوَّلها: قصور المعلومات اللازمة عن الإخوان، وعلاقاتها المختلفة، ومواقفها المتنوعة، وغاياتها المنشودة، ودوافعها المحرِّكة، ومعاييرها المحكمة، فهذه الأمور مجهولة لدى أكثر الكاتبين، وهناك معلومات لا زالت في صدور أصحابها، ومعلومات في وثائق لم تنشر، أو لم تجمع لتكون في متناول الدارسين.

QaradawiBooks.com

ثانيها: تضليل المصادر الَّتـــي يعتمد عليها الكثيرون؛ لأنَّها من صنع خصومهم، ســـواء أكانوا في الداخل أم في الخارج، هناك وقائع شـــتَّى حُرفت عن حقيقتها أو وضعت في غير مكانها وزمانها، فأخذت أكبر أو أصغر من حجمها.

ثالثها: أنَّ كل كاتب ينظر إلى الحركـــة من منطلقه الفكري الخاصِّ، ويحاكمها إلى مسلَّماته العقليَّة والأيديولوجيَّة.

ولهذا نجد الماركســـي يحكم عليها بغير ما يحكـــم الليبرالي، وذا التفكيـــر الديني يحكم عليها بغيـــر ما يحكم به ذو التفكيـــر العلماني، والمتطرف ـ مـــن ذوي التفكيـــر الديني ـ يحكم عليهـــا بغير ما يحكم المعتدل، والسلفي يحكم عليها بغير ما يحكم به الصوفي وهكذا.

* * *

نسخة مجانية
غير مخصصة للطباعة

٣

حسن البنَّا: القائد المنتظر

من سُنَن الله تعالى: أنْ يهيِّئ لكلِّ مرحلة رجلها الَّذي يناسبها، وأن يبعث لهذه الأُمَّة في كل قرن مَن يُجدِّد لها دينها، ويعيد إليها حيويَّتها.

ومن شـأن الأُمَّة أنْ يعتريها الضعف، أو تحلَّ بها الأسقام، أو تَغُطَّ في نومٍ عميق، ولكن هذه لا تموت، فإنَّ فيها من الطاقات المكنونة، والإمكانات المذخورة، ما يجدي عند الشـدائد والمحن، حين تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم عندما يتهيأ لها القائد الَّذي يفجِّرها، ويستخرجها من مكامنها.

وقد قال سـيِّدنا عليٌّ كـرَّم الله وجهه: لا تخلـو الأرض من قائمٍ لله بالحجة[1].

وقد لاحظ العلَّامة أبو الحسن الندوي في كتابه القيم «رجال الفكر والدعوة في الإسـلام»: أنَّ التاريخ الإسـلامي في كلِّ مراحله، يبرز فيه رجال يحتاج إليهم الموقف، فيسدُّون الثغرة، ويلبُّون الحاجة، ويقومون بالواجب المطلوب لزمانهم ومكانهم في إيقاظ الأُمَّة، وترميم ما أصابه البلى أو التصدُّع في بنيانها.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧٩/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٢/١)، وقال الخطيب: هذا الحديث من أحسـن الأحاديث معنًى وأشرفها لفظًا. كما شـرحه ابن القيم شرحًا وافيًا في مفتاح دار السعادة (٣٤٨/١) وما بعدها، تحقيق عبد الرحمٰن بن حسن بن قائد، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٣٢هـ.

QaradawiBooks.com

قد يكون الرجل المنشود إمامًا أعظم كعمر بن عبد العزيز، وقد يكون أميرًا أو قائدًا عسكريًّا مثل نور الدين محمود أو صلاح الدين، وقد يكون إمامًا فكريًّا ودعويًّا مثل أبي حامد الغزالي، وقد يكون مربِّيًا روحيًّا مثل عبد القادر الجيلاني، وقد يكون مجددًا فقهيًّا وتربويًّا وإصلاحيًّا مثل أبي العباس ابن تيمية. فكلُّ واحد من هؤلاء جدَّد فيما كان يفتقر إليه عصره وبيئته من جوانب التجديد الضرورية واللازمة.

وقد كان وضع العالم الإسلامي عامَّة، ووضع مصر والعالم العربي خاصَّة: يحتاج إلى رجل ذي فكرٍ ثاقب، وحسٍّ مرهف، وإيمانٍ دافق، وإرادةٍ صُلبة، يشعر بما تعانيه الأُمَّة من أمراض وآلام، ويقدر على تشخيص الداء، ووصف الدواء، ويصبر على متابعة مريضه، حتَّى ينتقل به من مرحلة السَّقام إلى مرحلة العافية، ومنها إلى مرحلة القوَّة.

كان هذا الرجل المنشود أو القائد المنتظر، هو «حسن البنَّا».

لقد هيَّأ الله له من الأسباب ـ منذ نعومة أظفاره ـ ما يرشحه للمهمَّة المطلوبة.

أب صالح مشغول بالعلم وبالعمل معًا، فهو من المشتغلين بعلم الحديث، وله فيه إسهام يقدره العلماء، يذكر فيشكر، وهو ممَّن يكسبون عيشهم بالعمل في إصلاح الساعات، أو تجليد الكتب، ولذا اشتهر بالشيخ الساعاتي.

وبيئته ريفيَّة متديِّنة محافظة، بعيدة عن صخب المدن، وما ابتليت به من تقليدِ الفرنجة، وما دخل عليها من مفاهيم وتقاليد مستوردة من خارج دار الإسلام.

QaradawiBooks.com

وأساتذة صالحون، أحاطوا الصبي بمزيدٍ من الرعاية، لما لمسوا فيه من ذكاء وتفوق، ومن غيرة وحماس، ومن أدب وأخلاق.

وطريقة صوفيَّة تعرف بـ «الطريقة الحصافيَّة» أيقظت حاسَّته الرُّوحيَّة، وعلَّمته شيئًا من أدب الطريق، وأخلاق المريدين، ولكنَّها لم تُشبع نهمه، ولم يجد فيها ضالَّته.

وجمعيات دينيَّة، كان يُنشئها أو يشارك فيها، لنشر الخير، أو مقاومة الشر، أو منع المحرمات، ولكنَّها أيضًا كانت دون طموحه، إلَّا أنَّها غرست فيه الروح الجماعية، والعمل الجماعي.

وحفظ الصبي القرآن، وانتقل من مدينته الصغيرة «المحموديَّة» إلى مدينة أكبر هي «دمنهور» عاصمة إقليم البحيرة، ليتلقَّى تعليمه في «مدرسة المعلمين» بها.

ثم كانت النقلة الكبرى، بذهابه إلى القاهرة، وقد صلب عوده، وتفتح فكره ووجدانه، واتَّسعت قراءته ومعارفه، وعرف بعض ما يُعانيه وطنه مصر، وما تُعانيه أُمَّته الكبرى، وكيف تواجه هذه الأُمَّة أزمتها الرُّوحِيَّة والعقليَّة والاجتماعيَّة، ومَن لها مِن الرجال الَّذين يحملون عبئها، وقد قابل مَن قابل مِن العلماء وكبار القوم، ولكنَّه لم يجد الاستجابة إلَّا من القليلين، وكان يشعر في أعماقه أنَّه قادر على أنْ يفعل شيئًا. وقد سأله أحد شيوخه في «دار العلوم» عن أحسن بيت أعجبه في معلَّقة طَرَفة بن العبد[1]، فقال له:

إِذَا الْقَوْمُ قالوا: مَنْ فَتًى؟ خِلْتُ أَنَّني عُنِيتُ، فلم أكسلْ، ولم أتبلَّدِ!

(١) انظر: ديوانه صـ ٢٤، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، نشر دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

فأثنى عليه أســتاذه، وعرف علوَّ همَّته. وكان كثيــرًا ما يتمثَّل بقول أبي الطيب المتنبي كما سمعت من الشيخ الغزالي:

يقولون لي: ما أنت؟ في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أنْ يُسْمى!

يصف الكاتب الأمريكي ريتشــارد. ب. ميتشــل هــذه الفترة ـ فترة الانتقال إلى القاهرة ـ وأثرها في مسيرة حسن البنَّا وفي توجُّهه، فيقول: «وافق وصول البنَّا إلى القاهرة فترة الغليان السياســي والفكري الشديد الَّذي غيَّر العشــرينات في مصر، فنظر إلى ذلك المشــهد بعين القروي المتديِّن[1]، واستخلص ما اعتبره مشاكل جدية، وهي التنازع على حكم مصر بيــن حزبي الوفــد والأحرار الدســتوريين السياســيين، والجدل السياســي الصاخب وما نتج عنه مــن الفرقة الَّتي أعقبــت ثورة ١٩١٩م، والدعوة إلى الإلحــاد والإباحية الَّتي كانت تحيط بالعالم الإســلامي، ومهاجمة الأعراف المستقرة والمعتقدات، الَّتي ساندتها «الثورة الكمالية» بنبذهــا الخلافة والخط العربــي، وهي مهاجمة تــمَّ انتظامها في حركة «التحــرر الفكــري والاجتماعي» لمصر، ثــمَّ التيارات غير الإســلاميَّة بالجامعة المصريَّة الَّتي أعيد تنظيمها آنذاك، والَّتي بدا أنَّها تستمدُّ إلهامها من الفكرة القائلة بأنَّ «الجامعة لا يمكن أنْ تكون جامعةً علمانيَّةً ما لم تثُر ضدَّ الدين، وما لم تحــارب الأعراف الاجتماعيَّة المســتمدة منه»، يضاف إلى ذلــك الدهريــون والتحرريون مــن روَّاد النــدوات الأدبية والاجتماعيَّة، ثمَّ الجمعيات والحفــلات والكتب والصحف والمجلات الَّتي روَّجت الأفكار الَّتي كان هدفها الوحيد هو إضعاف أثر الدين[2].

(١) انظر: الإخوان المسلمون لميتشل صـ ٧١.

(٢) انظر: المصدر السابق صـ ١٧ ـ ٧٢.

QaradawiBooks.com

وكان رد فعل هذه الصورة على البنَّا ونظرائه في التفكير ما عبَّر عنه بقوله: «ليس يعلم أحد إلَّا الله كم من الليالي كنَّا نقضيها نستعرض حال الأُمَّـة، وما وصلت إليه فـي مختلف مظاهـر حياتهـا، ونُحلِّل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسـم الداء. ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حدِّ البكاء»[١].

ما إنْ وصل البنَّا إلى القاهرة حتَّى قـام ببعض الاتصالات مع أتباع طريقته الحصافيَّة، ولكن سـرعان ما تبيَّن له أنَّها غير مجدية. وفي عامه الثاني التحـق بمجموعـة دينيَّة أخرى هـي «جمعيَّة مـكارم الأخلاق الإسلاميَّة» الَّتي عُنيت بإلقاء محاضرات في موضوعات إسلاميَّة[٢].

ولكن كان ذلك أيضًا غير كافٍ لمواجهة مشكلة الفجوة الَّتي بدت له تفصل بين المسلمين وبين العقيدة وتعاليمها.

وهكذا انبعثت خطوته التالية من مخاوفه تلك ومن اقتناعه المتزايد بأنَّ «المسـجد وحده لا يكفي» لنشـر العقيدة بين الناس، وبالتالي قام بتنظيم مجموعة من طلبة الأزهر ودار العلوم الراغبين في التدرب على مهمة «الوعظ والإرشاد»، وبعد مدة وجيزة دخل هؤلاء المسجد واعظين، وأهم من ذلك هـو أنْ طريقتهم في الوعظ قد لاقـت نجاحًا كبيرًا فيما بعد، إذ اتَّبعوا سـبيل الاتصال المباشـر بالناس، في أماكن اجتماعاتهم العامَّة، كالمقاهي والمجتمعات الشـعبيَّة الأخرى، قاصدين بذلك تعزيز الفكرة الإسلاميَّة ونشرها من جديد.

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة رسائل حسن البنا صـ ١١٧.

(٢) راجع: مذكرات الدعوة والداعية للشهيد حسن البنا صـ ٣٩.

QaradawiBooks.com

حفز اهتمام البنَّا بمشكلة ابتعاد «الشباب المتعلم» عن الحياة الإسلاميَّة إلى طلبه المشورة ممَّن يكبرونه من رجال الدين وغيرهم، وكثيرًا ما تردَّد على المكتبة السلفيَّة الَّتي كان يديرها آنذاك «محب الدين الخطيب» كما جالس رشيد رضا السوري والذي يعتبر وارث مشعل «محمد عبده» ومحرِّر «مجلة المنار» كما أصبح معجبًا مخلصًا بفريد وجدي وأحمد تيمور باشا، إذ رأى في هؤلاء أنصارًا للقضيَّة الإسلاميَّة.

وأخيرًا حمل مخاوفه من هذا الموقف إلى مشايخ جامعة الأزهر، وهو عماد الفكر الإسلامي، وانتقد بمرارة معارضتهم غير الفعالة واستسلامهم الواضح «للتيارات التبشيريَّة والإلحاديَّة» الَّتي مزَّقت المجتمع الإسلامي. لقد أحسَّ البنَّا بأنَّ وقت العمل قد حان وجادل عن ذلك[1]، وقد أرهف حِسَّه ما اكتسبه من خبرة في بدء حياته ليشعر بهذا الأمر يلح عليه ويدفعه وحتى إنَّه ظل بقية عمره يحمل ذكريات مؤلمة عن القلق الروحي العميق، الَّذي غمر هذه الفترة من حياته في القاهرة، حينما اتصل بالرسميين من رجال الدين. وحينئذٍ بدأ يرى بوضوح نوع «العمل» اللازم لإنقاذ المجتمع الإسلامي، ودوره في هذه المجهودات «العمليَّة» الموجَّهة نحو تحقيق هذه الغاية. وفي عامه الأخير بدار العلوم طلب من صفه أنْ يكتب كلُّ طالب مقالًا في الموضوع التالي: «اشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبيِّن الوسائل الَّتي تُعِدُّها لتحقيقها».

(١) يرى البنا أن نتيجة تبادل الآراء كما ذكرنا أدَّى إلى تطورين إسلاميين إيجابيين عام ١٩٢٧م، أولهما: تأسيس جمعية الشبان المسلمين على نسق جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشبان اليهود. وثانيهما: إنشاء مجلة قصد منها أنْ تكون «صوتًا للإسلام» سميت مجلة الفتح. انظر: مجلة الدعوة (١٩٥٥/٢/١٥) صـ ١٨. (ميتشل).

QaradawiBooks.com

بدأ البنَّا بقوله: «أعتقد أنَّ خير النفوس تلك النفس الطيبة الَّتي ترى سعادتها في إسعاد النَّاس وإرشادهم» واستطرد مقرِّرًا أنَّ خير ما يتحقَّق به هذا الهدف هو إحدى وسيلتين: الأولى: «طريق التصوُّف الصادق الَّذي يتلخَّص في الإخلاص والعمل لخدمة الإنسانيَّة»، والثاني: «طريق التعليم والإرشاد الَّذي يجامع الأوَّل في الإخلاص والعمل، ويفارقه في الاختلاط بالناس».

ثم أضاف البنَّا: «وأعتقد أنَّ قومي بحكم الأدوار السياسيَّة الَّتي اجتازوها، والمؤثرات الاجتماعيَّة الَّتي مرَّت بهم، وبتأثير المدنيَّة الغربيَّة، والفلسفة الماديَّة، والتقليد الفرنجي بعدوا عن مقاصد دينهم. ونتيجة لذلك ورث الشباب عقيدة «فاسدة» وعمَّهم «شكٌّ وحَيْرة» «بدَّلا الإيمانَ إلحادًا».

رأى البنَّا في موقفه ذلك أنَّ رسالته في الحياة هي قلب هذه التيارات، وأنَّ عليه لتحقيق ذلك أنْ يصبح «معلمًا ومرشدًا» واهبًا نفسه للأطفال أطراف النهار، ولآبائهم آناء الليل، حتَّى يلقِّنهم جميعًا «أهداف الدين ومصادر سعادتهم ورفاهيتهم في الحياة».

بداية تأسيس الإخوان:

بدأ «البنا» يقوم بدور نشط في حياة مجتمع الإسماعيليَّة بجانب قيامه بواجباته الأساسيَّة في المدرسة. وكان المسجد والمدرسة هما الطريقتين الأساسيتين اللتين سلكهما البنَّا للتعارف على الهيئات الدينيَّة والشخصيات المهمَّة بالمدينة. وفي وقت قصير، وكما وعد في مقال تخرجه كان لا يضطلع بأعباء حصصه اليوميَّة فحسب، بل أخذ يقوم بتعليم آباء التلامذة أثناء الليل، وكان غالبيَّة هؤلاء آنذاك من العمَّال،

QaradawiBooks.com

وصغار التجار، وموظفي الحكومة. وعاود البنَّا استخدام «المقاهي» على غرار ما استخدمها في القاهرة، لاجتذاب مستمعيه، بجانب المدرسة والمسجد، وكان منهجه أنْ يخطب في الناس، ويلحظ من تأثَّر بقوله، فيدعوهم في جماعات قليلة إلى مكان آخر حيث يعلِّمهم ويعظهم، ويناقش معهم قضيَّة الإسلام، جاهدًا خلال هذا النشاط المبدئي أنْ يتعرَّف بصفة عامَّة إلى مصادر القوَّة في المجتمع وأنْ ينفذ إليها.

وسرعان ما تبين أنَّ المصادر الأولى للنفوذ هي: (١) العلماء، و(٢) مشايخ الطرق الصوفيَّة، و(٣) كبار القوم، وكان يعني بذلك الأسر الكبيرة المعروفة والتجمُّعات بشكل عام، و(٤) النوادي، وعنى: الجمعيَّات الدينيَّة والاجتماعيَّة. وهكذا وجَّه اهتمامه إلى هذه المصادر محاولًا التأثير فيمن يكوِّنون الرأي العام.

على أنَّ ملاحظات البنَّا حول هذا المجتمع، زادت من إدراكه للدور المخصص لهذه المدينة، بوصفها نقطة تمركز للاحتلال العسكري البريطاني «وللاحتلال الاقتصادي» الأجنبي، ذلك أنَّها لم تقتصر على احتوائها المعسكرات الحربيَّة البريطانية ولكنَّها أيضًا كانت مركز شركة قناة السويس، وهذا وضع لا يقلُّ إزعاجًا عن الاحتلال لما يتضمَّنه من سيادة أجنبيَّة مطلقة على المرافق العامَّة ولما ترتَّب عليه من إقامة المساكن البادية الأناقة والرفاهة يقطنها الأجانب ويشرفون منها على بيوت العمَّال «البائسين»، بل إنَّ البنَّا لاحظ أنَّ أسماء الشوارع، ولافتات الطرقات في الأحياء الشعبيَّة المصريَّة كانت مكتوبة «بلغة الاحتلال الاقتصادي».

وبالرغم من أنَّ انتباه البنَّا كان مركزًا بالضرورة حول البيئة الجديدة، إلَّا أنَّه ظلَّ دائب التفكير في القاهرة بما فيها من آثام، وما يرجِّيه من

QaradawiBooks.com

آمال، لذلك ظلَّ مبقيًا على «صلاته» بالجماعات الإسلاميَّة هناك وبالأصدقاء الَّذين «تعاهد» معهم على خدمة «رسالة الإسلام»، فأولى «جمعيَّة الشبَّان المسلمين» اهتمامًا خاصًّا، وأعان على تأسيسها عام ١٩٢٧م، كما عمل مندوبًا لمجلة الفتح الَّتي أصدرها آنذاك محب الدين الخطيب مدير المكتبة السلفيَّة وأحد مؤسِّسي جمعيَّة الشُّبَّان المسلمين[١].

وما لبثت جمعيَّة البنَّا الخاصَّة أنْ ولدت بُعيد تأسيس جمعيَّة الشُّبَّان المسلمين، ففي شهر ذي القَعْدة لعام ١٣٤٧هـ[٢] (مارس ١٩٢٨م) حسَبما

(١) لم ير البنا قط في جمعية الشبان المسلمين سعة الأفق التي تستغرق كل جهده واجتهاده.

(٢) يوافق ذو القعدة ١٣٤٧هـ تمامًا شهر إبريل مايو ١٩٢٩م كما ذكره هيورث كرن في كتابه: مصر الحديثة صـ ١٥، وروزنتال في كتابه: الإخوان المسلمون في مصر (أكتوبر ١٩٤٧م) صـ ٢٧٨، إلَّا أنَّ البنا أورد شهر مارس ١٩٢٨م مزاوجًا التاريخ العربي. وقد أورد الحسيني في كتابه: الإخوان صـ ١٧ مارس سنة ١٩٢٨م، دون الرجوع إلى التاريخ الهجري، وتواتر ذكر أحد التاريخين على لسان الكتاب دون الإشارة إلى الفارق بينهما. على أن ذكرى تأسيس الجمعية العاشر قد احتفل به في يناير ١٩٣٩م مما يجعل ١٩٢٩م أقرب إلى الصحَّة، أما الذكرى العشرون فقد احتفل بها في سبتمبر ١٩٤٨م. وترى غالبية الأعضاء أنَّ ١٩٢٨م هي السَّنَة الأصح. وقد وردت في المادة الأولى من نظام الجماعة قانون النظام الأساسي لهيئة الإخوان المسلمين العامة صـ ٥ مقرونة بالتاريخ الهجري المذكور. راجع الوطنيَّة والثورة لهاريس صـ ١٥٠.

أقول: والذي أراه أنَّ التاريخ المعتمد لتأسيس جماعة الإخوان هو التاريخ الهجري، وقد ذكره الأستاذ البنا أكثر من مرة في رسائله، في رسالة المؤتمر الخامس صـ ١١٨ من مجموعة الرسائل. وفي اجتماع رؤساء المناطق صـ ٢٥٢ من مجموعة الرسائل، وفي مذكرات الدعوة والداعية صـ ٦٦. ولكنَّه في المذكرات ذكر التاريخ الهجري مؤكدًا، وقال عن التاريخ الميلادي: فيما أذكر. فهو غير مستيقن منه. والصواب أنَّه (أبريل أو مايو ١٩٢٩م). وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على استخدام التاريخ الهجري وتثبيته في وعي الإخوان، وقلما يذكر التاريخ الميلادي. إذ يستحيل أنْ يكون ذو القعدة سنة ١٣٤٧هـ يوافقه أي شهر في سنة ١٩٢٨م. وهذه أمور أصبحت معروفة ومحسوبة ومحسومة ولا مجال فيها للجدال، فلزم التنويه والتصحيح. (القرضاوي).

QaradawiBooks.com

سجَّله البنَّا، اجتمع ستَّة أعضاء من عمَّال المعسكر البريطاني بالبنَّا، وأعلنوا رسميًّا افتتاح جمعيَّة الإخوان المسلمين[١].

وتلك رسالة تقتضي منه الدأب والتضحية والدراسة والفهم، كما تقتضي منه جسدًا يقبل به على مواجهة الصعاب «ورُوحه الَّتي باعها لله». واختتم البنَّا مقاله بهذه الجملة: «ذلك عهد بيني وبين ربي»[٢].

أنهى هذا الشابُّ المتفاني دراسته بدار العلوم في صيف عام ١٩٢٧م وهو في سنِّ الحادية والعشرين، وسرعان ما واجه احتمال الالتحاق بإحدى البعثات السنوية الحكوميَّة للدراسة بالخارج، ولكنَّه لسبب غير معلوم عدل عن ذلك «وقبل التعيين في السلك المدرسي بمصر» وكانت مهمته تدريس اللغة العربيَّة في مدرسة الإسماعيليَّة الابتدائية الأميرية بمدينة الإسماعيليَّة بمنطقة القناة، وقد انتقل إلى منزله الجديد ووظيفته الجديدة في ١٩ سبتمبر ١٩٢٧م. وظل في السلك المدرسي حتَّى استقالته عام ١٩٤٦م أي: تسعة عشر عامًا.

حسن البنَّا رجل المرحلة:

هكذا كان العالم الإسلامي يعاني ما يعاني من تمزُّق في كيانه، وتصدُّع في بنيانه، ومن تهديم منظم لمادياته ومعنوياته.

وكان القدر الأعلى يصنع على عينه رجلًا، يُعِدُّه لمهمَّة، ويسد به ثغرة كان الرجل هو حسن البنَّا، وكانت المهمة هي إيقاظ الأُمَّة من رقود، وبعثها من هموم، وتحريكها من جمود، وبعبارة أخرى: إحياء

(١) الإخوان المسلمون لميتشل صـ ٧١ ـ ٧٦.

(٢) مذكرات الدعوة والداعية صـ ٥٤ ـ ٥٧.

QaradawiBooks.com

عقل الأُمَّة وضميرها، وتفجير طاقاتها المكنونة بتجديد الإسلام فيها، وجمعها على رسالته، والإيمان به هدفًا ومنهاجًا للحياة، والجهاد في سبيل تمكينه في الأرض.

كانت الأُمَّة في حاجة إلى عقلٍ جديد، وقلبٍ جديد، وعزمٍ جديد، ودمٍ جديد، وكانت في حاجة إلى أنْ تتجسَّد هذه المعاني في رجلٍ يضع يده في يد الله، لينير له الطريق، ويهديه سواء السبيل.

لقد أدَّى الأفغاني دوره في الإيقاظ العام لمشاعر الأُمَّة لمقاومة الاستعمار، وأدَّى الإمام محمَّد عبده دوره في إيقاظ عقل الأُمَّة ومقاومة الجمود الفكري فيها. وقام العلَّامة رشيد رضا بعدهما بدور كبير غير منكور في التجديد والتأصيل الشرعي لمسيرة الإصلاح.

ولكن الأُمَّة كانت تفتقر إلى «جيل جديد» من: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

جيل يصنعه الله تعالى على عينه، من قوم ادَّخرهم لنصرة دينه حين يرتدُّ المرتدُّون، ويمرق المارقون: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

جيل يحسن فهم الإسلام، ويؤمن به، ويعمل به، ويدعو له، ويجاهد في سبيله، ويعمل على صبغ الحياة العامَّة بصبغته: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

ولا يقدر على تربية هذا الجيل، وإعداده للمهمة الجليلة المنوطة به إلَّا رجل ربَّانيٌّ، نذر نفسه وفكره وجهده وحياته لله ربِّ العالمين، وكان

QaradawiBooks.com

الرجل المنتظر هو حسن البنَّا، الَّذي اصطفاه القدر ليكون للمتقين إمامًا. ولقد وجَّه أحد الصحفيين إلى حسن البنَّا ـ ضمن عدَّة شخصيات ـ سؤالًا يقول: من أنت؟ فكانت إجابته: أنا سائح يبحث عن الحقيقة، وإنسان يفتش عن الإنسانيَّة في النَّاس بمصباح «ديوجين». أنا متجرد أدرك سرَّ وجوده، فنادى في الناس: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

لقد سمعت حسن البنَّا في أواسط الأربعينيات من القرن العشرين يتحدَّث في مدينة طنطا إلى المعلمين، فكان ممَّا قاله: إنَّ النَّاس في حاجة إلى رجل ذي قلب يفيض من قلبه على قلوب من حوله، ومن هذا الفيض الرباني يفيضون على من حولهم، وبهذا يتحوَّلون من حال إلى حال، ويخرجون من الظلمات إلى النور.

وكأنَّ حسن البنَّا كان يتحدَّث عن نفسه، فهو ذلك الرجل المنشود «ذو القلب» كما أنَّه أيضًا «ذو العقل»، والإسلام أبدًا يقوم على القلب النقي والعقل الذكي، وهما يثمران: العزم الفتي والسلوك السوي.

استمعت إلى حسن البنَّا وأنا طالب في السنة الأولى الابتدائية بمعهد طنطا الديني الأزهري، في مناسبة ذكرى الهجرة النبويَّة، وقال كلامًا لا زلت أعيه إلى اليوم؛ لأنَّه كان كلامًا جديدًا مركَّزًا مرتَّبًا مفيدًا، يغاير ما كنت أسمعه من الوعاظ والخطباء، كل عام في ذكرى الهجرة.

واستمعت إليه بعد ذلك كلما جاء إلى مدينة طنطا، وسافرت أكثر من مرَّة لأستمع إليه في بعض مدن الوجه البحري في مصر، مثل: كفر الزيات، ودسوق والمحلة الكبرى، ومحلة أبو علي.

QaradawiBooks.com

وقرأت ـ تقريبًا ـ كلَّ ما كتبه حسن البنَّا، ممَّا نشر من تراثه[١] من رسائل وبحوث ومقالات ومنشورات، وعرفت أنَّ الرجل كان موفقًا مسدَّدًا مصنوعًا على عين الله، أحبَّه أصحابه وأتباعه أبلغ الحب، وقدَّروه أعظم التقدير، وقلَّ في النَّاس من تجمَّع له بين الحب والتقدير، إلَّا القليل، وقَلَّ من النَّاس من اتصل به إلَّا أعجبه وأحبه.

بل ربَّما عاب بعض النَّاس على إخوان حسن البنَّا أنَّهم يكادون يضفون عليه نوعًا من القداسة أو العصمة، وهذا لا ذنب له فيه. فالرجل لم يدَّعِ لنفسه قداسة ولا عصمة، وقال في «أصوله العشرين»: كلُّ أحدٍ يؤخذ من كلامه ويُتْرك إلَّا المعصوم ﷺ[٢].

وكان في الأحفال الَّتي تقام في مناسبات شتَّى إذا رأى من بعض الإخوان جنوحًا إلى الغلوِّ في مدحه قال: تكلَّموا في الدعوة، فإنَّها باقية والأشخاص فانون.

وكل من لقي حسن البنَّا خرج من لقائه مثنيًا عليه، ومن عاشره أحبَّه، ومن خالطه أكثر ازداد له حبًّا وتقديرًا.

وسمَّاه رجل أجنبي «الرجل القرآني» وهي تسمية أصابت كبد الحقيقة، وقال عنه المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني: «الملهَم الموهوب» وهي صفة ملموسة.

---

(١) هناك أشياء كثيرة لم تنشر من تراث حسن البنا مما كتبه قديمًا في مجلات الإخوان المسلمين وغيرها، وكنت نبهت منذ زمن على وجوب نشر مجموعة أعمال حسن البنا، وقد بشَّرني الأستاذ أحمد سيف الإسلام البنا: أنَّ تراث والده قد جمع، ووضع على الكومبيوتر، وأرجو أنْ نقرأه قريبًا.

(٢) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٥٧.

QaradawiBooks.com

وهكذا ترى أكثر من أثنى على حسن البنَّا إنَّما هم الإخوان القريبون منه، العارفون به، المخالطون له، انظر ما قاله عنه الهضيبي والتلمساني، وأبو النصر، ومشهور، الَّذين تولَّوا منصب الإرشاد العام من بعده.

وانظر ما كتبه عنه محمَّد فريد عبد الخالق، وعبَّاس السيسي، ومحمود عبد الحليم وغيرهم ممَّن صحبوه وعايشوه، وعرفوا مدخله ومخرجه.

وأكتفي هنا بنقل بعض الكلمات المضيئة والمعبِّرة من رجلين من كبار رجال الدعوة في مصر.

شهادة الشيخ الغزالي:

الأولى: من داعية عصره الأوَّل الشيخ محمَّد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الَّذي قال في مقدِّمة كتابه «دستور الوحدة الثقافيَّة» الَّذي شرح فيه «الأصول العشرين» لحسن البنَّا، قال الشيخ: «ملهم هذا الكتاب وصاحب موضوعه: الأستاذ الإمام حسن البنَّا، الَّذي أصفه ويصفه معي كثيرون بأنَّه مجدِّد القرن الرابع عشر للهجرة، فقد وضع جملة مبادئ تجمع الشمل المتفرق، وتوضح الهدف الغائم، وتعود بالمسلمين إلى كتاب ربِّهم، وسُنَّة نبيِّهم وتتناول ما عراهم خلال الماضي من أسباب العوج والاسترخاء، بيد آسية، وعين لماحة فلا تدع سببًا لضعف أو خمول.

ومن الخطأ القول بأنَّ حسن البنَّا أوَّل من رفع راية المقاومة في هذا القرن الذليل، لقد سبقه في الشرق العربي، والمغرب العربي، وأعماق الهند وإندونيسيا، وغيرها، رجال اشتبكوا مع الأعداء في ميادين الحرب والسياسة والتعليم والتربية، وأبلوا بلاءً حسنًا في خدمة دينهم وأُمَّتهم.

QaradawiBooks.com

وليس يضيرهم أبـــدًا أنَّهم انهزموا آخر الأمر، فقـــد أدَّوا واجبهم لله. وأتمَّ من بعدهم بقية الشوط الَّذي هلكوا دونه.

إنَّ حسن البنَّا استفاد من تجارب القادة الَّذين سبقوه، وجمع الله في شخصه مواهب تفرقت في أناس كثيرين.

كان مدمنًا لتلاوة القرآن يتلوه بصوت رخيم، وكان يحســـن تفسيره كأنَّه الطبري أو القرطبي، وله قدرة ملحوظة على فهم أصعب المعاني ثمَّ عرضها على الجماهير بأسلوب سهل قريب.

وهو لم يحمل عنوان التصوُّف، بل لقد أُبعد من طريقة كانت تنتمي إليها بيئته.

ومع ذلك فإنَّ أسلوبه في التربية وتعهد الأتباع وإشعاع مشاعر الحب في الله، كان يذكر بالحارث المحاسبي وأبي حامد الغزالي.

وقد درس السُّـــنَّة المطهَّـــرة على والـــده الَّذي أعاد ترتيب «مســـند أحمد بن حنبل»، كما درس الفقه المذهبي باقتضاب، فأفاده ذلك بصرًا سديدًا بمنهج السلف والخلف.

ووقف حســـن البنَّا على منهج محمَّد عبده وتلميـــذه صاحب «المنار» الشيخ محمَّد رشيد رضا، ووقع بينه وبين الأخير حوار مهذب، ومع إعجابه بالقدرة العلميَّة للشيخ رشيد، وإفادته منها، فقد أبى التورُّط فيما تورَّط فيه[1].

ولعله كان أقدر النَّاس على رفع المســـتوى الفكـــري للجماهير مع محاورة لبقة للابتعاد عن أسباب الخلاف ومظاهر التعصب.

(١) يقصد: تصدِّيه بعنف للحملة على الأزهر وعلمائه المقلدين للمذاهب، وعلى الطرق الصوفية وغيرهم، فوافق الشيخ البنا الشيخ رشيد في فكره وخالفه في أسلوبه وطريقته. (القرضاوي).

QaradawiBooks.com

وقد أحاط الأستاذ البنَّا بالتاريخ الإسلامي، وتتبع عوامل المد والجزر في مراحله المختلفة، وتعمق تعمقًا شديدًا في حاضر العالم الإسلامي، ومؤامرات الاحتلال الأجنبي ضدَّه.

ثم في صمت غريب أخذ الرجل الصالح يتنقل في مدن مصر وقراها، وأظنُّه دخل ثلاثة آلاف من القرى الأربعة آلاف الَّتي تكوِّن القُطر كله.

وخلال عشرين عامًا تقريبًا صنع الجماهير الَّتي صدعت الاستعمار الثقافي والعسكري، ونفخت روح الحياة في الجسد الهامد»[1] اهـ.

شهادة الشهيد سيِّد قطب:

والداعية الثاني الَّذي تحدَّث عن «حسن البنَّا وعبقريَّة البناء» هو الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ ففي إحدى مقالاته الَّتي جمعت في كتاب تحت عنوان «دراسات إسلاميَّة»، وهو لم يصاحب حسن البنَّا، وإن تعاصرا، وكان كلاهما خريج دار العلوم، ولكنَّ قطبًا عرف البنَّا من آثاره في إخوانه، وفى حركته، وفى تأثيره في مصر وفي العالم الإسلامي. وهي شهادة من شهيدٍ لاحق لشهيدٍ سابق، والمسلمون شهود عدول بعضهم على بعض.

يقول سيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«في بعض الأحيان تبدو المصادفة العابرة كأنَّها قدر مقدور، وحكمة مدبَّرة في كتاب مسطور (حسن البنَّا)، إنَّها مجرَّد مصادفة أنْ يكون هذا لقبه، ولكن من يقول: إنَّها مصادفة، والحقيقة الكبرى لهذا الرجل هي البناء، وإحسان البناء، بل عبقريَّة البناء؟

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين صـ ٣ ـ ٦، بتصرف، نشر مكتبة دار الأنصار، القاهرة.

QaradawiBooks.com

لقد عرفت العقيدة الإسلاميَّة كثيرًا من الدعاة، ولكن الدعاية غير البناء، وما كل داعية يملك أنْ يكون بنَّاءً، وما كل بنَّاءٍ يوهب هذه العبقريَّة الضخمة في البناء.

هذا البناء الضخم، الإخوان المسلمون، إنَّه مظهر هذه العبقريَّة الضخمة في بناء الجماعات، إنَّهم ليسوا مجرَّد مجموعة من الناس، استجاش الداعية مشاعرهم ووجداناتهم، فالتفوا حول عقيدة. إنَّ عبقريَّة البناء تبدو في كل خطوة من خطوات التنظيم: من الأسرة إلى الشعبة، إلى المنطقة، إلى المركز الإداري، إلى الهيئة التأسيسية، إلى مكتب الإرشاد.

هذه من ناحية الشكل الخارجي، وهو أقل مظاهر هذه العبقريَّة، ولكن البناء الداخلي لهذه الجماعة أدقُّ وأحكم. وأكثر دلالة على عبقريَّة التنظيم والبناء، البناءِ الروحي: هذا النظام الَّذي يربط أفراد الأسرة وأفراد الكتيبة وأفراد الشعبة، هذه الدراسات المشتركة، والصلوات المشتركة، والتوجيهات المشتركة، والرحلات المشتركة، والمعسكرات المشتركة، وفى النهاية هذه الاستجابات المشتركة والمشاعر المشتركة الَّتي تجعل نظام الجماعة عقيدة تعمل في داخل النفس، قبل أنْ تكون تعليمات وأوامر ونظمًا.

والعبقريَّة في استخدام طاقة الأفراد، طاقة المجموعات، في نشاط لا يدع في نفوسهم ولا يدعهم يتلفتون هنا أو هنالك يبحثون عما يملؤون به الفراغ. إنَّ مجرد استثارة الوجدان الديني لا يكفي، وإذا قصَر الداعية همَّه على هذه الاستثارة؛ فإنَّه سينتهي بالشباب خاصَّة إلى نوع من الهوس الديني، الَّذي لا يبني شيئًا. وإن مجرد الدراسة العلميَّة للعقيدة

QaradawiBooks.com

لا تكفي، وإذا قصَر الداعية همَّه على هذه الدراسة، فإنَّه سينتهي إلى تجفيف الينابيع الرُّوحيَّة الَّتي تكسب هذه الدراسة نداوتها وحرارتها وخصوبتها. وإنَّ مجرد استثارة الوجدان والدراسة معًا لا يستغرقان الطاقة، فستبقى هنالك طاقة عضلية، وطاقة عمليَّة، وطاقة فطرية أخرى في الكسب والمتاع والشهرة والعمل والقتال.

وقد استطاع حسن البنَّا أنْ يفكر في هذا كله، أو أنْ يلهم هذا كله، فيجعل نشاط الأخ المسلم يمتد ـ وهو يعمل في نطاق الجماعة ـ إلى هذه المجالات كلها، بحكم نظام الجماعة ذاته، وأنْ يستنفد الطاقات الفطريَّة كلها، في أثناء العمل للجماعة، وفي مجال بناء الجماعة. استطاع ذلك في نظام الكتائب، ونظام المعسكرات، ونظام الشركات الإخوانيَّة، ونظام الدعاة، ونظام الفدائيين، الَّذين شهدت معارك فلسطين، ومعارك القنال نماذج من آثاره، تشهد بالعبقريَّة لذلك النظام.

وعبقريَّة البناء في تجميع الأنماط من النفوس، ومن العقليَّات ومن الأعمار، ومن البيئات... تجميعها كلها في بناء واحد. كما تتجمع النغمات المختلفة في اللحن العبقري، وطبعها كلها بطابع واحد يعرفون به جميعًا، ودفعها كلها في اتجاه واحد، على تباين المشاعر والإدراكات والأعمار والأوساط، في ربع قرن من الزمان.

ترى أكانت مصادفة عابرة أنْ يكون هذا لقبه؟ أو أنَّها الإرادة العليا الَّتي تنسق في كتابها المسطور بين أصغر المصادفات وأكبر المقدورات في توافق واتِّساق؟

ويمضي حسن البنَّا إلى جوار ربه، يمضي وقد استكمل البناء أسسه، يمضي فيكون استشهاده على النحو الَّذي أريد له: عمليَّة جديدة من

QaradawiBooks.com

عمليات البناء، عمليَّة تعميق للأساس، وتقوية للجدران. وما كانت ألف خطبة وخطبة، ولا ألف رسالة للفقيد الشـهيد لتلهب الدعوة في نفوس الإخوان، كما ألهبتها قطرات الدم الزكي المهراق.

إنَّ كلماتنا تظلُّ عرائس من الشمع، حتَّى إذا متنا في سبيلها دبَّت فيها الرُّوح وكتبت لها الحياة.

وحينما سلَّط الطغاة الأقزام الحديد والنار على الإخوان، كان الوقت قد فات، كان البناء الَّذي أسَّسه حسن البنَّا قد استطال على الهدم، وتعمَّق على الاجتثاث. كان قد استحال فكرةً لا يهدمها الحديد والنار؛ فالحديد والنار لم يهدما فكرةً فـي يوم من الأيام. واسـتعلت عبقريَّة البناء على الطغاة الأقزام، فذهب الطغيان، وبقي الإخوان.

ومرة بعد مـرة، نزت في نفـوس بعض الرجال ـ مـن الإخوان ـ نزوات، وفي كل مرَّة سـقط أصحاب هذه النزوات كما تسـقط الورقة الجافية من الشـجرة الضخمة، أو انزوت تلك النزوة، ولم تستطع أنْ تحدث حدثًا في الصفوف.

ومرة بعد مرة، استمسـك أعـداء الإخوان بفرع من تلك الشـجرة، يحسـبونه عميقًا في كيانها، فإذا جذبوه إليهم جذبوا الشجرة، أو اقتلعوا الشجرة، حتَّى إذا آن أوان الشـدِّ خرج ذلك الفرع في أيديهم جافًّا يابسًا كالحطبة الناشفة، لا ماء فيه ولا ورق ولا ثمار!

إنَّها عبقريَّة البناء، تمتد بعد ذهاب البنَّاء...»[1] اهـ.

(١) انظر: دراسات إسلامية لسيد قطب، مقال: حسن البنا وعبقرية البناء صـ ٢٢٥ ـ ٢٢٨، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

شهادة العلَّامة أبي الحسن الندوي:

أضيف إلى هاتين الشهادتين «للغزالي وقطب» شهادتين من خارج محيط الإخوان، ومن خارج مصر، وممن لم يلقوا حسن البنَّا، ولكن عرفوه من آثاره ومن تلاميذه وأصحابه، الأولى هي شهادة من ربَّاني عصره العلَّامة أبي الحسن علي الحسني الندوي رَحِمَهُ اللَّهُ، الَّذي قال في تقديمه لكتاب «مذكرات الدعوة والداعية» للإمام الشهيد: «إنَّ الَّذي عرف الشرق العربي الإسلامي في فجر القرن العشرين، وعرف بصفة خاصَّة، وعرف ما أصيب به هذا الجزء الحسَّاس الرئيسي من جسم العالم الإسلامي من ضعف في العقيدة والعاطفة، والأخلاق والاجتماع، والإرادة والعزم، والقلب والجسم، وعرف الرواسب الَّتي تركها حكم المماليك وحكم الأتراك وحكم الأسرة الخديوية، وما زاد إليها الحكم الأجنبي الإنكليزي، وما جلبته المدنيَّة الإفرنجية الماديَّة والتعليم العصري اللاديني، والسياسة الحزبيَّة النفعية.

وما زاد هذا الطين بلة من ضعف العلماء وخضوعهم للمادة والسلطة، وتنازل أكثرهم عن منصب الإمامة والتوجيه، وانسحابهم عن ميدان الدعوة والإرشاد، والكفاح والجهاد، واستسلامهم «للأمر الواقع»، وخفوت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، زاد إلى ذلك كله نشاط دعاة الفساد والهدم، والخلاعة والمجون، والإلحاد والزندقة، وتزعُّم الصحف والمجلات واسعة الانتشار، قوية التأثير، للدعوات المفسدة، والحركات الهدامة، والاستخفاف بالدين وقِيَمه، والأخلاق وأُسُسها، وما آل إليه الأمر ووصلت إليه الأقطار العربيَّة بصفة عامَّة، والقُطر المصري بصفة خاصَّة من التبذل والإسفاف، والضعف والانحطاط، والثورة والفوضى، والانهيار الخلقي، والروحي

QaradawiBooks.com

في الثلث الأوَّل من هذا القرن الميلادي، ورأى كل ذلك مجسمًا مصورًا في أعداد «الأهرام» و«المقطم» و«الهلال» و«المصور»، وفي كتب كان يصدرها أدباء مصر وكتابها المفضلون المحببون عند الشباب، ورأى ذلك مجسمًا مصورًا في أعياد مصر ومهرجاناتها، وحفلاتها وسهراتها، واستمع إلى الشباب الجامعي في نواديهم ومجالسهم، وزار الإسكندريَّة وشواطئها ومصايفها، ورافق فرق الكشافة والرياضة والمباراة، ودخل دور السينما، ورأى الأفلام الأجنبيَّة والمحلية، واطلع على الروايات الَّتي تصدرها المكتبة العربيَّة في مصر بين حين وآخر، ويتهافت عليها الشباب بنهامة وجشع، وعاش متصلًا بالحياة والشعب، وتتبع الحوادث ولم يعش في برج عاجي وفي عالم الأحلام والأوهام، وعرف رزيَّة الإسلام والمسلمين، ونكبة الدعوة الإسلاميَّة في هذا الجزء الَّذي كان يجب أنْ يكون زعيمًا للعالم العربي كلِّه، وزعيمًا للعالم الإسلامي عن طريقه، وقد بقي قرونًا كنانة الإسلام ومصدر العلم والعرفان، وأسعف العالم العربي وأنجده، بل أنقذه في فترات دقيقة عصيبة في التاريخ الإسلامي، ولا يزال يحتضن الأزهر الشريف أكبر مركز ثقافي إسلامي وأقدمه.

إنَّ كلَّ مَن عرف ذلك عن كثب لا عن كتب وعاش متصلًا به، عرف فضل هذه الشخصيَّة الَّتي قفزت إلى الوجود، وفاجأت مصر ثمَّ العالم العربي والإسلامي كله بدعوتها وتربيتها وجهادها، وقوتها الفذَّة الَّتي جمع الله فيها مواهب وطاقات، قد تبدو متناقضة في عين كثير من علماء النفس والأخلاق، ومن المؤرخين والناقدين: هي العقل الهائل النيِّر، والفهم المشرق الواسع، والعاطفة القويَّة الجيَّاشة، والقلب المبارك الفيَّاض، والروح المشبوبة النضرة، واللسان الذَّرِب البليغ، والزهد

QaradawiBooks.com

والقناعة ـ دون عنت ـ في الحياة الفرديَّة، والحرص وبُعْد الهمَّة ـ دونما كلل ـ في سبيل نشر الدعوة والمبدأ، والنفس الولوعة الطموح، والهمَّة السامقة الوثَّابة، والنظر النافذ البعيد، والإباء والغيرة على الدعوة، والتواضع في كل ما يخص النفس، تواضعًا يكاد يجمع الشهادة عارفوه، حتَّى لكأنَّه ـ كما حدَّثنا كثير منهم ـ مثل رفيف الضياء: لا ثقل ولا ظل ولا غشاوة.

وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادة دينيَّة اجتماعيَّة، لم يعرف العالم العربي وما وراءه قيادة دينيَّة سياسيَّة أقوى وأعمق تأثيرًا وأكثر إنتاجًا منها منذ قرون، وفي تكوين حركة إسلاميَّة يندر أنْ تجد ـ في دنيا العرب خاصَّة ـ حركة أوسع نطاقًا وأعظم نشاطًا، وأكبر نفوذًا، وأعظم تغلغلًا في أحشاء المجتمع، وأكثر استحواذًا على النفوس منها.

وقد تجلَّت عبقريَّة الداعية مع كثرة جوانب هذه العبقريَّة ومجالاتها ـ في ناحيتين خاصتين لا يشاركه فيهما إلَّا القليل النادر من الدعاة والمربين والزعماء والمصلحين.

أولاهما: شغفه بدعوته وإيمانه واقتناعه بها وتفانيه فيها وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسيَّة للدعاة والقادة الَّذين يجري الله على أيديهم الخير الكثير.

والناحية الثانية: تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه، ونجاحه المدهش في التربية والإنتاج: فقد كان منشئ جيل، ومربي شعب، وصاحب مدرسة علميَّة فكريَّة خلقية، وقد أثَّر في ميول من اتصل به من المتعلِّمين والعاملين، وفي أذواقهم، وفي مناهج تفكيرهم،

QaradawiBooks.com

وأساليب بيانهم ولغتهم وخطاباتهم، تأثيرًا بقي على مرِّ السنين والأحداث، ولا يزال شعارًا وسمة يعرفون بها على اختلاف المكان والزمان»[1] انتهى.

شهادة الشيخ عبد السلام ياسين:

وهناك شهادة أخرى أتتْنا من المغرب العربي، من المربِّي الكبير الشيخ عبد السلام ياسين مُؤسِّس «جماعة العدل والإحسان» بالمغرب وصاحب الكتب التربويَّة والدعويَّة والحركيَّة المعروفة لكل من يهتمَّ بأمر الإسلام، قال حفظه الله: «لا معنى للتجديد ولا مكان له، ولو برز بين المسلمين زعماء عظام، ما لم يتجدد في الأُمَّة الإيمان بصحبة المجددين، وكذلك كان حال الأستاذ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ. كان مغناطيسيًّا ومركز إشعاع كثير من حملة الأقلام، وقراء الأدبيَّات الإسلاميَّة رحمه الله رحمة واسعة.

كان فكر البنَّا مغناطيسًا ملائمًا لزمانه كما كانت روحانيته، وهو حيٌّ يرزق، آيةً من آيات الله. وكان حريصًا على أنْ يخرج بجماعته من سلبيات الطريقة الحصافيَّة التبركية الَّتي تربى طفلًا ويافعًا بين أحضانها. لكنَّه احتفظ بالبيعة الصوفيَّة وطوَّرها لتتَّسع للجهاد الَّذي ضاقت عنه الصيغة الموروثة عن المشايخ للبيعة. كانت بيعته لأصحابه بيعة مزدوجة، بين السيف والمصحف. بيعة تأخذ من التقليد الصوفي جانبًا ومن التنظيم العصري جانبًا.

مهَّد الأستاذ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لشروط بيعته في «رسالة التعاليم» بشرح المفاهيم الأساسيَّة لفكره وعمله، فبيَّن ما يقصده بكلمة «فهم»، وهو فهم

(١) مقدمة مذكرات الدعوة والداعية صـ(هـ، و)، ط٢، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

QaradawiBooks.com

أصوله العشرين في العقيدة والشريعة والفقه، وتمييز ما بين البدعة والسُّنَّة. وبيَّن ما يعنيه بكلمة «إخلاص»، وكلمة «عمل»، وكلمة «جهاد»، وكلمة «تضحية»، وكلمة «تجرُّد»، وكلمة «أخوَّة». وختم شرح مفاهيمه بمفهوم «الثقة» وقال: للقيادة في دعوة الإخوان حقُّ الوالد بالرابطة القلبيَّة، والأستاذ بالإفادة العلميَّة، والشيخ بالتربية الرُّوحيَّة، والقائد بحكم السياسة العامَّة للدعوة[1].

كان أُفقه رَحِمَهُ اللَّهُ فسيحًا جامعًا لأطراف ما توزَّع من معانٍ ومطالبَ. وكان شخصه الكريم فسيحًا جامعًا. فصحَّت قيادته وأثمرت أفضل الثمار. وبقيت البيعة بعده تراثًا ثقيلًا. اشترط رَحِمَهُ اللَّهُ على الملتحق بالجماعة المؤدي للبيعة ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين شرطًا، من بينها الوفاء بتعهدات شخصية؛ مثل اجتناب الإسراف في شرب القهوة والشاي والاعتناء بالنظافة، ومن بينها التعبُّديَّة إيمانيَّة؛ كإتقان الطهارة والصلاة وسائر الفرائض، ومنها الإحسانية؛ كالمحافظة على الأوراد وحفظ القرآن، ومنها الأخلاقيَّة؛ كالحياء ورحمة الخلائق ومساعدة الضعيف، ومنها الحركيَّة؛ كالنشاط الدائم والتدرب على الخدمات العامَّة، ومنها السياسية؛ كمقاطعة المحاكم الأهلية، وعدم الحرص على الوظائف الحكومية، ومنها الاقتصاديَّة؛ كمقاطعة المعاملات الربويَّة والادِّخار للطوارئ».

ركَّز الشيخ ياسين على الشرط أو الواجب السادس والعشرين من شروط بيعة الأستاذ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه يقول: «أنْ تديم مراقبة الله تعالى، وتذكرة الآخرة، وتستعد لها، وتقطع مراحل السلوك إلى رضوان الله بهمَّة وعزيمة، وتتقرَّب إليه سبحانه بنوافل العبادة. ومن ذلك صلاة الليل

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٦٤.

QaradawiBooks.com

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر على الأقل، والإكثار من الذكر القلبي واللسان، وتحرِّي الدعاء المذكور على كل الأحوال»[١].

قال الشيخ ياسين: «وهي شروط عالية، من يفي بها لا شك يكون من المتقين. من بينها مسألة واحدة لا يفيد فيها إسرار ولا «إعلان» ولا يخبر عنها بوح ولا كتمان، ولا هي من شأن دون شأن، ألا وهي مسألة «قطع مراحل السلوك إلى رضوان الله». هذا لا يجيء إلَّا بصحبة. والمصحوب رجل حي سلك المراحل إلى الله، وتقرَّب حتَّى أحبه الله، وجعل قلبه مشكاةً ونبراسًا وسراجًا وهاجًا. ما يحصل ذلك بإجازة تبركية، ولا بالانضواء تحت جناح عظيم من عظماء الأُمَّة، عدا المعصوم ﷺ، قبلة القلوب، رحمة العالمين، محبوب الربِّ جل وعلا»[٢] اهـ.

الشيخ عبد السلام يرى أنَّ الصحبة المؤثِّرة هي صحبة الأحياء، لا صحبة الأموات، وإن كانوا من الربَّانيين الصادقين، وهو أشبه بمن يقول في الفقه: لا يجوز تقليد الموتى، إنَّما يقلد الفقيه الحيِّ المتفاعل مع النَّاس والأحداث. وقد خالف في ذلك آخرون، وقالوا: الآراء لا تموت بموت أصحابها. وهذا صحيح، ولكنَّها لا تحيا إلَّا بتلاميذ أحياء، أقوياء، ويوقظونها في العقول والقلوب.

لقد كان حسن البنَّا هبة من الله تعالى لمصر، ولأُمَّة العروبة والإسلام. فبعد سقوط الخلافة بأربع سنوات أو خمس (أي سنة ١٩٢٨م أو ١٩٢٩م) بدأ حسن البنَّا دعوته، وأنشأ في مدينة الإسماعيليَّة الَّتي كان يعمل مدرسًا بها جمعيَّة «الإخوان المسلمون».

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) الإحسان للشيخ عبد السلام ياسين صـ ٢٤٤ ـ ٢٤٦، نشر مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

هذه الشهادات الأربع من هؤلاء الرجال الكبار: تكفينا للتعريف بقدر حسن البنَّا، فقد شهد له الغزالي بعبقريَّة الدعوة والتثقيف، وشهد له قطب بعبقريَّة البناء والتنظيم، وشهد له الندوي وياسين بعبقريَّة التربية والتكوين، وقد كان الرجل بالفعل إمامًا في هذه الميادين الثلاثة: في الدعوة، وفي التربية، وفي التنظيم. وهي العلامات الفارقة الَّتي تميَّزت بها حركته، الَّتي تحمل «بصمته» الفكريَّة والدعويَّة والتربويَّة والتنظيمية.

غاية ضخمة وطريق شاقة:

كان حسن البنَّا قد عرف غايته وتبيَّن طريقه، وعرف أنَّ غايته كبيرة وضخمة، وأنَّ طريقته شاقة وطويلة.

أما «الغاية»، فهي «تجديد الإسلام» في حياة الأُمَّة ـ بدءًا بمصر وانتهاء بالأُمَّة الإسلاميَّة كلها ـ وقيادتها به إلى الكرامة والعزة والاستقرار والحياة الطيبة، سعيًا إلى الوحدة المنشودة والخلافة المفقودة، وعملًا على نشر الإسلام في العالم، كما أرادها الله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وأمَّا الوسيلة، فهي تعريف الأُمَّة بالإسلام شاملًا متكاملًا، كما أنزله الله على محمَّد ﷺ، ومطاردة الأفكار الغازية الَّتي عشَّشت في عقول كثير من المسلمين، وخصوصًا طبقة النخبة، أو الطبقة المثقفة الَّتي عزلها التغريب عن الإسلام، والأفكار المتخلفة المتوارثة من عصور الانحطاط، حين ساء فهم الأُمَّة للإسلام، وساء تطبيقها له. والعمل على تصحيح مفاهيم الأُمَّة عن دينها، وواجبها نحوه، عملًا به، وعملًا له، ونصرةً لدعوته، ونهوضًا بأُمَّته، حتَّى يتكوَّن رأي عام إسلامي ينادي بوجوب الرجعة إلى الإسلام.

QaradawiBooks.com

وهذا ما يطلق عليه الإمام البنَّا وسيلة «التعريف»، وتأتي بعدها وسيلة «التكوين» وهي وسيلة تعليميَّة تربويَّة طويلة المدى، عميقة الجذور، تقوم على تغيير الإنسان من أعماقه، وقيادته من داخله. وذلك باستخلاص العناصر الصالحة من الجماهير العريضة، العناصر المستعدة للبذل والعطاء وأعباء الجنديَّة، لتكوين «جيل جديد» يفهم الإسلام فهمًا شاملًا لا يقبل التجزئة، ويؤمن به إيمانًا عميقًا لا يقبل الارتياب أو التزعزع أو المساومة، ويلتزم به في حياته: عقيدةً وعبادةً، وتفكيرًا وشعورًا، وخلقًا وسلوكًا، ويدعو إليه منهاجًا متكاملًا ومتوازنًا للحياة: روحًا وقانونًا، أو عقيدة وشريعة، دعوة ودولة، حقًّا وقوَّة أو مصحفًا وسيفًا، صلاةً وجهادًا، عبادة وقيادة.

يقول حسن البنَّا في رسالته «رسالة المؤتمر الخامس» مبيِّنًا كيف بدأ يفكر في هذه الدعوة: «وقفت نفسي منذ نشأت على غاية واحدة هي إرشاد النَّاس إلى الإسلام حقيقةً وعملًا، ولهذا كانت فكرة الإخوان المسلمين إسلاميَّة بحتة، في غايتها وفي وسائلها، لا تتَّصل بغير الإسلام في شيء.

ظلت هذه الخواطر حديثًا نفسيًّا ومناجاة رُوحِيَّة، أتحدَّث بها في نفسي لنفسي، وقد أُفضي بها إلى كثير ممَّن حولي، وقد تظهر في شكل دعوة فرديَّة، أو خطابة وعظيَّة، أو درس في المساجد إذا سنحت فرصة التدريس، أو حث لبعض الأصدقاء من العلماء على بذل الهمَّة، ومضاعفة المجهود في إنقاذ الناس، وإرشادهم إلى ما في الإسلام من خير.

ثم كانت في مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي حوادث عدَّة ألهبت نفسي[1]، وأهاجت كوامن الشجن في قلبي، ولفتت نظري إلى

(١) لعلَّه يقصد: إلغاء الخلافة، وظهور كتاب: الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، =

QaradawiBooks.com

وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس، ولا أطيل عليك بتفصيل حوادث انتهى أمرها وعفت آثارها، وفاء إلى الرشد أو بعض الرشد أصحابها.

ولقد أخذت أفاتح كثيرًا من كبار القوم في وجوب النهوض والعمل، وسلوك طريق الجد والتكوين، فكنت أجد التثبيط أحيانًا والتشجيع أحيانًا، والتريث أحيانًا، ولكنِّي لم أجد ما أريد من الاهتمام بتنظيم الجهود العمليَّة، ومن الوفاء أنْ أذكر في هذا المقام المرحوم أحمد باشا تيمور أفسح الله له في جنته، فما رأيته مرَّة إلَّا مثالًا للهمة المتوثبة، والغيرة المتوقدة، وما تحدثت إليه من شأن من شؤون الأُمَّة العامَّة، إلَّا وجدت العقل الكامل، والاستعداد التام، والإلمام الشامل، وترقُّب ساعة العمل، فرحمه الله وأجزل مثوبته.

وولَّيت وجهي شطر الأصدقاء والإخوان ممَّن جمعني وإيَّاهم عهد الطلب، وصدق الود، والشعور بالواجب، فوجدت استعدادًا حسنًا، وكان أسرعهم مبادرةً إلى مشاركتي عبء التفكير، وأكثرهم اقتناعًا بوجوب العمل في إسراع وهمَّة، الإخوان الفضلاء: الأستاذ أحمد أفندي السُّكَّري، والأخ المفضال المرحوم الشيخ حامد عسكريَّة أسكنه الله فسيح جنته، والأخ الشيخ أحمد عبد الحميد، وكثير غيرهم.

وكان عهدٌ وكان مَوْثِق: أنْ يعمل كلٌّ منَّا لهذه الغاية، حتَّى يتحوَّل العُرف في الأُمَّة إلى وجهة إسلاميَّة صالحة.

= وكتاب: في الشعر الجاهلي لطه حسين، وظهور أحزاب علمانية مثل «حزب الأمة» في مصر، وظهور مقالات في الصحف تجترئ على الإسلام، إلى غير ذلك مما حدث في تلك السنين. والله أعلم.

QaradawiBooks.com

ليس يعلم أحـد إلَّا الله، كم من الليالي كنَّا نقضيها نستعرض حال الأُمَّة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونُحلِّل العِلَل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حدِّ البكاء، كم كنَّا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة، والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهي، ويتردَّدون على أندية الفساد والإتلاف، فإذا سألت أحدهم عما يحمله على هذه الجلسة الفارغة المملة؟ قال لك: أقتل الوقت، وما درى هذا المسكين أنَّ من يقتل وقته إنَّما يقتل نفسه، فإنَّما الوقت هو الحياة.

كنَّا نعجب لهؤلاء الناس، وكثير منهم من المثقفين، ومَن هم أولى منَّا بحمل هذا العبء، ثمَّ يقول بعضنا لبعض: أليس هذا داء من أدواء الأُمَّة ولعله أخطرها: ألَّا تفكر في مرضها وألَّا تعمل لعلاج نفسها؟!

ولهذا وأمثاله نعمل، ولإصلاح هذا الفساد وقفنا أنفسنا، فنتعزى، ونحمد الله على أنْ جعلنا من الداعين إليه العاملين لدينه.

وعمل الزمن عمله فتفرَّقنا نحن الأربعة، فكان أحمد أفندي السكري بالمحموديَّة، وكان المرحوم الشيخ حامد عسكريَّة بالزقازيق، وكان الشيخ أحمد عبد الحميد بكفر الدوار، وكنتُ بالإسماعيليَّة أذكر قول القائل:

بالشَّام أهلي، وبغدادُ الهوى، وأنا بالرَّقْمَتَيْن، وبالفُسْطاط جِيرَاني[1]!

وفي الإسماعيليَّة أيُّها الإخوان وضعت أوَّل نواة تكوينية للفكرة، وظهرت أوَّل هيئة متواضعة نعمل ونحمل لواءها، ونعاهد الله على

(١) هو أبو تمام كما في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي صـ ١٥٧، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

الجنديَّة التامَّة في سبيلها، تحت اســم «الإخوان المسلمون» وكان ذلك في ذي القعدة سنة (١٣٤٧هـ)»[١].

هذه الخواطر والأفكار والمشاعر الَّتي كان يعيش فيها حسن البنَّا قبل أنْ يؤسِّــس حركته الميمونة، والَّتي كانت تؤرقه في ليله، وتشــغله في نهاره، وتملك عليه قلبه ولبَّه، وهي تــدلُّ على معاناته، وامتلائه بالآلام والآمال، وأنَّه لم يكن يكتفي بالنواح على الماضي المجيد، والبكاء على الأطلال، بــل كان يبحث عن ضالة، ويفتش عن شــيء، عن عمل، عن علاج، عن أمل، عــن حلم كبير، يتمثَّل في واقــع ملموس، عن جماعة تحمل راية بعد أنْ ســقطت، وتوقظ الأُمَّة بعد أنْ رقدت، وتبعث الهمم بعد أنْ استرخت... حتَّى حانت ساعة المخاض، وولد المولود الجديد، دون احتفال ولا زغاريد، ألا وهو «الإخوان المسلمون».

* * *

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد صـ ١١٦ ـ ١١٨.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٤

الجنـود الصادقـون

جرت سُـنَّة الله تعالى: ألَّا تنتصر الرسـالات، ولا تحقِّق الدعوات الربانيَّة أهدافها، إلَّا بأهلها وأنصارهـا المؤمنين بها، المجتمعين عليها، المتفانين في نصرتها.

فالحقُّ لا ينتصر بذاته، وإنَّما ينتصر برجاله ودعاته الصادقين.

والشاعر العربي يقول:

وَشِيمَةُ السَّيْفِ أنْ يَزْهَى بِجَوْهَرِهِ ولَيْسَ يَعْمَـلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطَلِ[1]!

وكذلك سيف الحق لا يعمل وحده، ولا يقاتل وحده، إنَّما يقاتل بيد أبطاله الَّذين لا يهابون الموت.

وقد قرأ أحد الأجانب عن الإسلام وتعاليمه فأعجب به، وقال كلمة ما أجدرنا أنْ نحفظها ونرويها لما فيها من عبـرة! قال: يا له من دين لو كان له رجال!

وما لنا نذهب بعيدًا؟ وها نحن نقرأ قول الله سبحانه في كتابه العزيز يقول

(١) هو الطغرائي في لاميته الشـهيرة بلاميـة العجم، انظر: ديوان الطغرائـي صـ ٣٠٧، تحقيق د. علي جواد طاهر ود. يحيى الجبوري، نشر مطابع الدوحة الحديثة، ط ٢، ١٩٨٦م.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

فأشار إلى أنَّ الله جل ثناؤه ـ كما أيَّد الرسول بنصره ـ أيَّده بالمؤمنين، الَّذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الَّذي أنزل معه، وأشار إلى صفة مهمة من صفاتهم، بل لعلَّها أهم فضائلهم بعد الإيمان ـ في هذا المقام ـ، وهي: أُخوَّتهم وترابطهم وتآلف قلوبهم، وهذا من أعظم نعم الله تعالى عليهم.

وقد وعد الله تعالى المؤمنين إذا مرق منهم مارقون، أو ارتدَّ مرتدُّون، أنَّ الدين لن تسقط رايته، ولن تخمد جذوته، ولكنَّ الله تعالى سيجنِّد له جنودًا لنصرته إذا خذله الخاذلون، جنودًا جلَّاهم بأوصاف مميزة، تجعلهم شامة في الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهذه معالم مضيئة في تجلية هذا الجيل الرباني، جيل النصر المنشود، وهي تتجلَّى في ثلاثة أشياء رئيسيَّة:

١ ـ المحبَّة المتبادلة بينهم وبين ربِّهم، فهم محبوبون من الله، محبُّون لله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وبهذا الحبِّ آثروا الله تعالى على كل ما يحرص النَّاس عليه في دنياهم من أهل وولد ومال ووطن، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ

QaradawiBooks.com

أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

لقد وضعوا كل هذه الأنساب: آباء وأبناء وإخوان وأزواج... في كفَّة، وحبَّ الله ورسوله في كفَّةٍ أخرى، فرجحت كفَّةُ حبِّ الله.

٢ ـ الذلَّة على المؤمنين، والعزَّة على الكافرين. ونلاحظ أنَّ القرآن لم يمدح الذلَّة إلَّا في موضعين:

أ ـ ذلُّ الإنسان لأبويه: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

ب ـ ذلُّ الإنسان لأخيه المؤمن، وقد عدَّاه في الآية بحرف «على» ليضمِّنه معنى العطف والحدب والإشفاق.

وصفة هؤلاء هنا أشبه بصفة الصحابة الَّذين قال الله عنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد كان الكفار يُمثِّلون الظلم والطغيان والاعتداء على حرمات المسلمين، وكانوا أجدر بالشدة عليهم.

٣ ـ الجهاد في سبيل الله دون خشية من أحد، أو خوف من لومة لائم، ممَّا يدلُّ على إخلاصهم لغايتهم، وتجرُّدهم لها، وعدم مبالاتهم بالخلق إذا أرضوا الخالق، كما قال تعالى في وصف دعاته الصادقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وقد كان حسن البنَّا يعي ذلك أعظم الوعي، ويدركه كلَّ الإدراك، ويؤمن به أعمق الإيمان. ويبذل ما يمكنه من جهد لبناء هذا الجيل، الَّذي ينشده، لتحرير الأوطان، والرقي بالأُمَّة، والتمكين لدين الله في الأرض. وكان يعتبر ذلك مهمته الأولى. وقد آتاه الله من المواهب والملكات

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الرُّوحيَّة والعقليَّة والنفسية والتربويَّة ما يؤهله للقيام بهذه المهمة، الَّتي لا يقوم بها إلَّا ورثة الأنبياء الحقيقيون، ومعلمو النَّاس الخير.

ولقد هيَّأ الله له من الأنصار والأتباع من كل فئات الشعب من هم أزكى أنفسًا، وأذكى عقولًا، وأصدق نيَّات، وأقوى عزائم، وأقدر على الالتزام بفرائض الإسلام وأخلاق الإسلام، ولوازم الجنديَّة للإسلام.

اجتمع على الشيخ البنَّا: الشباب والشيوخ، وأبناء المدن والقرى، والفلَّاحون والمتعلِّمون، والأُمِّيُّون وطلَّاب الجامعة وأساتذتها، وخريجو المدارس المدنيَّة، وخريجو المعاهد الأزهريَّة، وكذلك الرجال والنساء، ولقد أسَّس مبكرًا «قسم الأخوات المسلمات»، فلا يجوز أنْ تهمل المرأة في مجال الدعوة، وقد كان أوَّل صوت ارتفع بتأييد دعوة رسول الله: صوت امرأة، وهو صوت خديجة رضي الله عنها[(١)]، وكان أوَّل دم أريق في سبيل الله الإسلام: دم سمية أم عمار، أوَّل شهيد في الإسلام[(٢)]، وإن كنت لاحظت أنَّ «العمل النسائي الإسلامي» لم يتَّسع ولم يتطور، كما اتَّسع العمل الرجالي وتطوَّر، ولذلك أسباب وملابسات ذكرتها في مقام آخر[(٣)].

---

(١) كما في حديث بدء الوحي، حينما قالت لرسول الله ﷺ: والله ما يخزيك الله أبدًا. جزء من حديث متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة. وقال ابن الأثير: خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٨٠/٧) تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، وسير أعلام النبلاء للذهبي (سيرة ١٠٢/١).

(٢) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٦٨٩)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م. وقال ابن الأثير في أسد الغابة (١٥٢/٧): سمية أم عمار بن ياسر هي سمية بنت خباط كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان ياسر حليفًا لأبي حذيفة، فزوجه سمية، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة.

(٣) انظر كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية صـ ٦١ ـ ٦٥، فصل: الحركة والعمل النسوي.

QaradawiBooks.com

ولكن حسن البنَّا كان يوجه عناية أكبر «إلى الشباب» ولذا وجَّه لهم رسالة خاصَّة؛ باعتبار أنَّ الشباب في كلِّ أُمَّة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سِرُّ قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وقد بيَّن الأستاذ في هذا السياق: أنَّ أيَّ فكرة إنَّما تنجح إذا قوي الإيمان بها، وتوافر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الَّذي يحمل التضحية والعمل لتحقيقها.

وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل، من خصائص الشباب؛ لأنَّ أساس الإيمان: القلب الذكي، وأساس الإخلاص: الفؤاد النقيُّ، وأساس الحماسة: الشعور القويُّ، وأساس العمل: العزم الفتيُّ. وهذه كلُّها لا تكون إلَّا للشباب[1].

وكانت عنايته في الشباب إلى طلبة الجامعات والمعاهد والمدارس، فهم محط الأنظار، ومهوى الأفئدة، لوعيهم وثقافتهم وتجمعهم، وحماسهم لقضايا أمَّتهم ووطنهم، وعليهم تتنافس الأحزاب والهيئات المختلفة.

وكان «قسم الطلاب» من أهم الأقسام ـ بل لعله أهمها وأنشطها ـ في المركز العام للإخوان، وفي كل مكتب إداري، وكل منطقة، وكل شعبة.

وكل الإخوان الدعاة والموجِّهين المرموقين، مرُّوا بقسم الطلاب، وتربَّوا في أحضانه: محمَّد عبد الحميد أحمد، محمَّد الغزالي، عبد المعزِّ عبد الستَّار، فريد عبد الخالق، مصطفى مؤمن، سعيد رمضان، فتحي عثمان،

(١) انظر: رسالة إلى الشباب ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٧٣.

QaradawiBooks.com

عزُّ الدين إبراهيم، حسَّان حتحوت، محمود نفيس حمدي، عمر شاهين، حسن دوح، حسن عبد الغني، منَّاع القطَّان، أحمد العسَّال، جمال عطيَّة، يوسف عبد المعطي، عبد الحليم أبو شقَّة، علي صديق، فتحي البوز، يوسف توبة، محمَّد المطراوي، علي عبد الحليم، صلاح أبو إسماعيل وغيرهم.

وكان الأستاذ البنَّا إذا زار مناطق الإخوان في مصر، في الصعيد، أو في الوجه البحري، يحرص على أنْ يلتقي بالطلاب. أذكر أنَّه حين زار مدينة طنطا التقى فيها بالطلاب أكثر من مرَّة، رغم أنَّهم من طلَّاب المرحلة الثانويَّة، إذ لم تكن هناك جامعة إلَّا في القاهرة، ثمَّ بعد ذلك في الإسكندريَّة.

وأذكر آخر مرَّة التقى بنا في شعبة «قسم أوَّل طنطا» وأوصانا بثلاث وصايا تتركز حول محاور ثلاثة: التفوُّق في العلم، والاستقامة في الدِّين، وتوثيق عُرا المحبَّة بين بعضنا وبعض.

في رسالة المؤتمر الخامس ذكر الأستاذ: أنَّ ستَّة من شباب الجامعة منذ سنوات، وهبوا لله أنفسهم وجهودهم، وعلم الله منهم ذلك، فأيَّدهم وآزرهم، فإذا بالجامعة كلها من أنصار الإخوان، وإذا من الشباب الجامعي فئة كريمة مؤمنة تتفانى في الدعوة، وتبشر بها في كل مكان.

قل مثل ذلك في الأزهر الشريف، والأزهر بطبيعته معقل الدعوة الإسلاميَّة، وموئل الإسلام، ليس غريبًا عليه أنْ يعتبر دعوة الإخوان دعوته، وأن يعد غايتها غايته، وأن تمتلئ الصفوف الإخوانيَّة، والأندية الإخوانيَّة، بشبابه الناهض، وعلمائه الفضلاء، ومدرِّسيه ووعَّاظه، وأن يكون لهم جميعًا أكبر الأثر، في نشر الدعوة وتأييدها، والمناداة بها في كل مكان[1].

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٣١.

QaradawiBooks.com

وكثيرًا ما أشاد الأستاذ البنَّا بالأزهر، واعتبر وجوده في مصر من أسباب زعامتها وتقدُّمها في العالم الإسلامي، وأهليَّتها للصدارة وقيادة الركب.

ولقد استمعت إلى الأستاذ في طنطا في إحدى المناسبات وقد حضر الحفل كثير من مشايخ المعهد الديني، ووكيل المعهد الشيخ محمَّد طبل، وكان ممَّا قاله الأستاذ لعلماء الأزهر: أنتم بمثابة الجيش الرسمي للإسلام، ونحن بمثابة الجيش الاحتياطي له، نحن ردءٌ لكم، وأعوان على رسالتكم.

وفي ساحة الإخوان رأيت كثيرًا من الأزهريين المرموقين، أمثال المشايخ: محمَّد فرغلي، ومحمَّد الغزالي، وسيد سابق، وعبد المعزِّ عبد الستَّار، وعبد اللطيف الشعشاعي، والأباصيري، وغيرهم ممَّن كانوا لا يحبُّون أنْ يعلنوا عن أنفسهم.

وقد ذكر الأستاذ البنَّا في مذكراته: المؤسسين الأربعة الأول للدعوة هم: أحمد أفندي السكري، والشيخ حامد عسكريَّة رَحِمَهُ اللَّهُ، والشيخ أحمد عبد الحميد.

ومن هنا لا أجد مساغًا لما افترضه ريتشارد ميتشل في كتابه عن الإخوان من فجوة أو جفوة مفتعلة بين الإخوان والأزهر[1]، وإن كان الأستاذ البنَّا أخذ على العلماء ـ أو على كثير منهم ـ تقاعسهم عن التصدي للحملات الموجهة ضدَّ الإسلام.

وفي عصرنا كاد الأزهر كله يصبح قلعة إخوانيَّة، ابتداءً من شيخه الأكبر الشيخ محمَّد الخضر حسين، وعمداء الكليات، وأساتذتها،

(١) انظر: الإخوان المسلمون تأليف د. ريتشارد ميتشل صـ ٣٥٨ ـ ٣٦١.

QaradawiBooks.com

فضلًا عن الطلاب الَّذين آزروا دعوة الإخوان، وذلك في أوائل الخمسينيَّات.

يتحدَّث الأستاذ البنَّا باعتزاز وفخر عن نشاط الإخوان المكثَّف في خدمة المجتمع، وفي المشاركة الإيجابيَّة في حل مشاكل الناس، وفي مقاومة خطر التبشير عن المستضعفين الفقراء، وفي إنشاء المدارس ونشر التعليم، وإنشاء المستوصفات لمعالجة المرضى، وغير ذلك من أنواع البرِّ والخير.

ثمَّ يقول: «ولعلَّك تعجب حين تعلم أنَّ جماعة الإخوان المسلمين الَّتي قامت بهذه الأعمال العظيمة، لم تأخذ إعانة حكوميَّة مرَّة من المرَّات، ولم تستعن بمال هيئة من الهيئات، اللهمَّ إلَّا خمسمائة جنيه تبرَّعت بها شركة قناة السويس للجماعة، بمناسبة عمارة المسجد والمدرسة بالإسماعيليَّة.

وإنَّ النَّاس ليتقولون كثيرًا، وليظنُّون وبعض الظنِّ إثم، ولينطقون بما ليس لهم به علم، وما علينا في ذلك من بأس، وحسبنا أنْ يعلم الله أنَّ ذلك بتوفيقه، وأنَّها أموال الإخوان الخاصَّة أنفقت بإخلاص، فأثمرت وبوركت، وآتت أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها، وحسبنا أنْ نقول لهم في عبارة صريحة واضحة نتحدَّى بها كل إنسان وكل هيئة وكل شخص كائنًا من كان: إنَّ جماعة الإخوان المسلمين لم تستعن في مشروعاتها بغير أعضائها، وهي بذلك جدُّ فخورة، تجد لذة التضحية ونشوة الفرح بالإنفاق في سبيل الله.

ولعلَّك تعجب كذلك إذا علمت أنَّ الاشتراك المالي في جماعة الإخوان المسلمين اختياري لا إجباري، وأنَّ العضو الَّذي يتخلف عن دفع الاشتراك لا ينقص ذلك من حقوق أخوته شيئًا، ومع أنَّ هذا نصٌّ

QaradawiBooks.com

صريح في القانون الأساسي للجماعة، فإنَّ الإخوان ـ جزاهم الله خيرًا ـ يبادرون إلى التضحية في سبيل الله إذا دعاهم إليها داعي الواجب، ويأتون في ذلك بالعجب العجاب، واسمع أحدثك: في بناء مسجد بالإسماعيليَّة، دعاهم رئيسهم إلى التبرُّع فقام أحد الأعضاء الصنَّاع وتبرَّع بجنيه ونصف يدفعها بعد ثلاثة أيام، هو صانع فقير أنَّى له بهذا المبلغ؟ أراد أنْ يقترض فأبت نفسه وخشي المماطلة؛ حاول الحصول على هذا المبلغ من غير هذا الباب فلم يجد السبيل ميسرة، لم يبق أمامه إذنْ إلَّا أنْ يبيع دراجته، دراجته الَّتي يركبها من منزله إلى محل عمله، ومن محل عمله إلى منزله، وبينهما ستَّة كيلو مترات! وفعلًا أنفذ الفكرة وأحضر المبلغ في نهاية الموعد تمامًا فجمع بين الوفاء بموعده والقيام بتبرعه.

ولاحظ رئيس الإخوان أنَّه صار يتأخر عن درس العشاء ولا يدركه إلَّا بشق النفس، وسأله عن ذلك فلم يجب، فأجاب عنه صديق عرف سرَّه وأخبر الرئيس أنَّه باع عجلته ليفي بتبرعه، وأصبح يعود على رجليه فيتأخر عن الدرس، وأكبر الرئيس والإخوان هذه الهمة، وحيَّوا فيها هذه الأريحية، وأقروا تبرعه كما هو، واكتتبوا له في دراجة جديدة خير من دراجته لتكون عنده ذكرى الإعجاب بهذا الوفاء.

بمثل هذه النفوس الَّتي تمُتُّ بصلة إلى نفس السابقين الأولين من رجال الإسلام الغُرِّ الميامين نهضت فكرة الإخوان المسلمين، ونجحت مؤسَّساتهم وتمَّت مشروعاتهم.

إنَّهم فقراء ولكنَّهم كرماء، إنَّهم قليلو المال ولكنَّهم أسخياء النفوس، فهم يجودون بالكثير من هذا القليل فيكون كثيرًا، وتباركه نعمة الله فيأتي بالخير العميم، ولعلي بهذه الناحية قد كشفت ناحية غمضت على بعض

QaradawiBooks.com

الَّذين رأوا جهود الإخوان فلـم يجدوا لنجاحهم سـرًّا إلَّا أنْ يتهموهم باسـتجداء الهيئات وخدمة المصالح والأغراض، وهـم والحمد لله من ذلك براء[١].

ويعرض الإمام لصفحة أخرى من صفحات جهاد الإخوان في سبيل دعوتهم. فيقول: «قليل من النَّاس من يعرف أنَّ الداعية من دعاة الإخوان قد يخرج من عملـه المصلحي في عصر الخميس، فإذا هو في العشـاء بالمنيا يحاضر الناس، وإذا هو في صلاة الجمعة يخطب بمنفلوط، فإذا هو في العصر يحاضر بأسيوط، وبعد العشاء يحاضر بسوهاج، ثمَّ يعود أدراجه فإذا هو في الصباح الباكر في مركز عمله بالقاهرة قبل إخوانه من الموظفين، أربع حفلات جامعات يحضرها الداعية من دعاة الإخوان في أطراف القطر في ثلاثين سـاعة، ثمَّ يعود أدراجه هـادئ النفس مطمئن القلب يحمد الله على ما وفقه إليه ولا يشعر به إلَّا الَّذين استمعوه.

هذا مجهود لو قام به غير الإخـوان لملأ الدنيا صياحًا ودعاية، لكن الإخوان ـ لما قدمت ـ يؤْثرون ألَّا يراهـم النَّاس إلَّا عاملين، فمن أقنعه العمل فبها، ومن لم يؤثِّر فيه العمل فلن يرشده القول.

فقد يقضي الأخ شهرًا أو شهرين بعيدًا عن أهله وبيته وزوجته وولده يدعو إلى الله، هو فـي الليل محاضر وفي النهار مسـافر، يومًا بحزوى ويومًا بالعقيق، فيلقي أكثر من ستين محاضرة من شرق القطر إلى غربه، وقد تضم الحفلات الَّتي يحاضـر فيها الآلاف من مختلف الطبقات، ثمَّ هو بعد ذلك يوصي ألَّا يكون ذلك محل دعاية ولا إعلان[٢].

(١) رسالة هل نحن قوم عمليون ضمن مجموعة الرسائل صـ ٦٦، ٦٧.

(٢) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٢٩، ١٣٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ليس معنى ذلك أنَّ الإخوان ملائكة أطهار أو قديسون مقرَّبون، هم بشر كالبشر، مخلوقون من طين، والطين لا يخلو من الكدر.

ولكن أثبت الواقع أنَّهم ـ بحكم عقيدتهم وتربيتهم الإسلاميَّة ـ أفضل المجموعات الموجودة على الساحة، وأزكاها نفوسًا، وأطهرها مسلكًا، وأكثرها حماسًا لفعل الخير، ومعاداة الشَّرِّ، وبذل الغالي والرخيص في سبيل الإسلام.

وفيما ذكره الأستاذ كامل الشريف من بطولات ومواقف يندر مثلها، في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» وهو شاهد عيان، وفيما ذكره الأستاذ حسن دوح عن «كفاح الشباب الجامعي في قناة السويس» ضدَّ الإنجليز المحتلِّين، وهو أيضًا شاهد عيان في هذين النموذجين: ما يشير إلى نوعيَّة النموذج المؤمن الإيجابي الَّذي صقلته التربية الإخوانيَّة، وغسله من أوضار الأنانية والشهوات: قيام الليل، وصيام النهار، وتلاوة القرآن، وذكر الله ذكرًا كثيرًا.

النموذج الأوَّل من الإخوان:

ولا عجب أنْ توجد هذه النماذج الباذلة العاملة المضحية في سبيل الله، المتفانية في نصر الدعوة وبذل النفس والنفيس في سبيل الله، فقد عرفنا ذلك منذ اليوم الأوَّل لبزوغ فجر هذه الدعوة الربَّانية المباركة، وفي «الفوج الأول» من أبناء الإسماعيليَّة الكرام الَّذين جاؤوا إلى الأستاذ البنَّا، بعد أنْ لازموه في دروسه، وأطالوا الاستماع إليه، وفهموا عنه ما يريد، فقالوا له في ثقة المؤمنين، وإيمان الواثقين: «لقد سمعنا ووعينا، وتأثرنا، ولا ندري ما الطريق العمليَّة إلى عزَّة الإسلام وخير المسلمين، ولقد سئمنا هذه الحياة: حياة الذل والقيود، وها أنت ترى أنَّ العرب

QaradawiBooks.com

والمسلمين في هذا البلد لا حظَّ لهم من منزلة أو كرامة، وأنَّهم لا يعدون مرتبة الأجراء التابعين لهـؤلاء الأجانب، ونحن لا نملك إلَّا هذه الدماء تجري حارَّةً بالعزَّة في عروقنا، وهذه الأرواح تسـري مشـرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا وهذه الدراهم القليلة، ولا نستطيع أنْ ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأُمَّة كما تعرف، وكل الَّذي نريده الآن: أنْ نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله وتكون أنت المسؤول بين يديه عنَّا، وعما يجب أنْ نعمل. ويعلق حسن البنَّا على هذه الكلمات بقوله: إنَّ جماعة تعاهد الله مخلصة على أنْ تحيا لدينه، وتموت في سبيله، لا تبغي بذلك إلَّا وجهه، لجديرة أنْ تنتصر وإن قلَّ عددها وضعفت عدَّتها.

قبل البنَّـا ـ وهو بالغ التأثـر ـ الأعباء الَّتي ألقيـت على عاتقه، وعاهد الجميـع الله على أنْ يكونوا «لدعوة الإسـلام جندًا»، واختار البنَّا اسـم الجمعيَّة قائلًا: «نحن إخوة في خدمة الإسلام فنحن إذن: الإخوان المسلمون»[1].

هؤلاء هم طليعة جنود الدعوة، وعلى هداهم سـار السائرون، وبايع الصادقون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

في مدرسة الدعوة:

كان الجيل الأوَّل الَّذي رضع من لبـان الدعوة، وتربَّى في حجرها: مثلًا يحتذى في إيمانه وعمله وسلوكه.

(١) انظر: مذكرات الدعوة والداعية صـ ٦٦، والإخوان المسـلمون لريتشـارد. ب. ميتشـل صـ ٧٦، ٧٧.

QaradawiBooks.com

كانت معانـــي التربية العمليَّـــة الَّتي تتفاعل في أنفســـهم بالمخالطة والتصـرفـــات الواقعية والود والمحبة فيما بينهـــم، والتعاون الكامل في شؤون حياتهم، وتهيِّئ نفوسهم لما في ذلك من خير؛ أقوى العوامل في تكوين هذه الجماعة. وأذكر أنني دخلت على الأخ السيِّد أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ تاجر الخردوات، فرأيت الأخ مصطفى يوسف يشتري منه «زجاجة ريحة» والمشتري يريد أنْ يدفع (١٠) قروش والبائع يأبى أنْ يأخذ أكثر من (٨) قروش، وتدخلـــت في الأمر، فطلبت فاتورة الشـــراء، فوجدت أنَّ الثمن الأساسي الَّذي اشترى به الأخ سعيد أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الَّذي يريد أنْ يبيع به لأخيه «الدستة ٩٦ قرشًا».

فقلت له: يا أخي، إذا كنت لا تكسب من صديقك، ولا يشتري منك عدوك، فمن أين تعيش؟ فقال: لا فارق بيني وبين أخي، ويســـرُّني أنْ يتقبل مني هذا العمل، قلت للأخ مصطفى: ولماذا لا تتقبل رفد أخيك؟ فقال: إذا كنت اشتريتها من الخارج بهذه العشرة فأخي أولى بهذه الزيادة، ولو عرفت أنَّه يقبل أكثر منها لزدت، وبالتدخل انتهينا إلى (٩) قروش.

ليس الشأن شأن قرش أو قرشين، ولكنَّه شأن هذا المعنى النفساني الَّذي لو انتشر في النَّاس واستشعروه واســـتولى على أنفسهم، لانحلت المشكلة الفرديَّة والاجتماعيَّة والعالميَّة، ولعاش النَّاس سعداء آمنين.

علم هؤلاء أنَّ أحد إخوانهم متعطل عـــن العمل، فجاء أكثر من عشرة منهم كل واحد يهمس في أذنه على انفراد، يعرض كل مدَّخر من مال ليكون رأس مال يعمل فيه أخوه المتعطل، قال الأخ: اكتفيت ببعضهم وشـــكرت الآخرين، فانصرفوا وهم آســـفون لما فاتهم من فضل المساعدة.

QaradawiBooks.com

نماذج من أخلاق الرعيل الأول:

وحدَّثنا الإمام البنَّا عن الرعيل الأوَّل الَّذي تخرج على يديه في الإسماعيليَّة، وعن نماذج من سلوكيَّاته فيقول: كان هؤلاء الإخوة مثلًا رائعة، ونماذج طيِّبة في التمسُّك بأحكام الإسلام الحنيف في كلِّ تصرفاتهم، والتأثُّر بأخلاقه ومشاعره فيما يصدر عنهم من قول أو عمل، سواء أكان ذلك مع أنفسهم أو مع غيرهم من الناس.

كان الأخ حسن مرسي يعمل عند الخواجة مانيو، ويخرج نموذجًا ممتازًا من صناديق الراديو، وكان الصندوق حينذاك يتكلف جنيهًا تقريبًا، فجاء أحد الخواجات من أصدقاء مانيو وساوم الأخ حسن على أنْ يصنع له بعض الصناديق بنصف القيمة، على ألَّا يخبر بذلك الخواجة مانيو، فيستفيد حق النصف الَّذي يأخذه ويستفيد هذا الخواجة من النصف الباقي، وكان مانيو يثق في الأخ ثقة تامة، وقد أسلم إليه كل ما في الدكان من خامات وأدوات، وأراد صديق مانيو أنْ يستغل هذه الثقة، ولكن الأخ حسنًا ألقى عليه درسًا قاسيًا في الأخلاق وقال له: إنَّ الإسلام وكل دين في الوجود يحرِّم الخيانة، فكيف بمن وثق فيَّ هذه الثقة؟ وإنِّي لأعجب أنْ تكون صديقه ومن جنسه ودينه، ومع ذلك تفكِّر في خيانته، وتحاول أنْ تحملني على مثل ذلك، يا هذا يجب أنْ تندم على هذا التفكير الخاطئ، وثق بأنَّني لن أخبر الخواجة مانيو بعملك هذا حتَّى لا أفسد صداقتكما، ولكن بشرط أنْ تعدني وعدًا صادقًا بألَّا تعود إلى مثل ذلك، ولكن هذا الخواجة كان سخيفًا، فقال له: إذن سأخبر الخواجة مانيو بأنَّك أنت الَّذي عرضت عليَّ هذا العرض، وهو سيصدقني ولا شك، فإنَّه يثق بكلامي كل الثقة، وسيترتب على ذلك إخراجك من العمل، وفقدانك لهذه المنزلة الَّتي

QaradawiBooks.com

تتمتع بها عنده، وخير لك أنْ تتفق معي وتنفِّذ ما أريد. فغضب الأخ وقال له: افعلْ ما تشاء، وسيكون جزاؤك الخزي إن شاء الله: ونفذ الرجل وعيده، وجاء مانيو يحقق في الأمر، فاكتسحت أضواء الحق ظلمات الباطل، وأخبره الأخ حسن بالأمر، ولم يشكَّ الرجل أبدًا في صدقه، وطرد هذا الصديق الخائن، وقطع صلته به، وزاد في راتب الأخ جزاء أمانته.

وهذا الأخ عبد العزيز غلام النبي، الهندي الَّذي يعمل «ترزيًّا» في المعسكر الإنجليزي، تدعوه زوجة أحد كبار الضباط لبعض الأعمال الخارجية بمهمَّته، لتنفرد به في المنزل، وتغريه بكلِّ أنواع المغريات، فيعظها وينصح لها ثمَّ يخوِّفها ويزجرها، فتُهَدِّد بعكس القضيَّة تارة، وبتصويب المسدس إلى صدره تارة أخرى، وهو مع ذلك لا يتزحزح عن موقفه قائلًا: إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين، وكم كان جميلًا ومضحكًا في وقت واحد: أنْ توهمه في إصرار أنَّها قد قررت قتله، وستعتذر عن ذلك بأنَّه هاجمها في منزلها وهَمَّ بها، وتصوِّب المسدس إليه، فيغمض عينيه، ويصرخ في يقين: «لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله» فتفاجئها الصيحة، ويسقط المسدس على الأرض، ويسقط في يديها، فلا ترى إلَّا أنْ تدفعه بكلتا يديها إلى الخارج، حيث ظل يعدو إلى دار الإخوان المسلمين.

هكذا كان أولئك الإخوان، وحوادثهم في هذه المعاني كثيرة، ومن أجل ذلك بارك الله الدعوة الَّتي استنارت بها مثل هذه القلوب، وصدق الله العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥][1] اهـ.

(١) انظر: مذكرات الدعوة والداعية صـ ٦٧ ـ ٧٠.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مدرسة حسن البنَّا في التربية الإسلاميَّة:

كان حسن البنَّا مربيًا متميِّزًا، بالفطرة والممارسة، وكان يضع كل موهبته وخبرته في تربية الجيل المؤمن الَّذي ينشده للنهوض بالأُمَّة، وكان حريصًا على أنْ يزوِّده بفضائل معينة، تلزم كل جيل حمله القدر أمانة التغيير، وتبعة التجديد والإصلاح الشامل لوطنه، ثمَّ لأمته جمعاء، وقد كوَّن عددًا غير قليل من المربِّين ساعدوه في مهمته.

وقد أنشأ حسن البنَّا مدرسة متميزة في التربية والتكوين، تحدثنا عنها في كتاب لنا سمَّيناه: «التربية الإسلاميَّة ومدرسة حسن البنَّا».

فضائل مميِّزة لأجيال الإخوان:

ولا شكَّ أنَّ هذه المدرسة كان لها تأثيرها وبصماتها في عقول أبنائها وفي قلوبهم، وفي أخلاقهم وسلوكهم، بحيث أصبح لهم سمات وفضائل عرفوا بها، وكأنَّما هي شامة لهم.

من هذه الفضائل: الاستعداد للبذل والتضحية إلى غير حدٍّ، فكل واحد في هذا الجيل: هو جندي عقيدة لا جندي غنيمة، مهمته أنْ يعطي لا أنْ يأخذ، وأن يضحي لا أنْ يستفيد، وقد جعل البنَّا من أركان دعوته أو أركان بيعته «التضحية» وفسَّرها بقوله: وأريد بها: بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، ولا تضيع في سبيل فكرتنا تضحية، وإنَّما هو الأجر الجزيل، والثواب الجميل، ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومن هذه الفضائل: الاستعداد لمواجهة المحن والشدائد، فقد أفهم البنَّا أبناء دعوته وأنصار فكرته من وقت مبكر: أنَّ طريق الدعوة ليس مفروشًا بالأزهار والرياحين، بل هو مغروس بالأشواك، مضرَّج بدماء الشهداء، تتناثر عن يمينه وعن شماله أشلاء ضحايا البطش والقهر والجبروت العنيد، وكما قال الإمام ابن القيِّم في أحد كتبه: يا مخنث العزم! الطريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وتعرَّض للنار إبراهيم، وللذبح إسماعيل، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيِّد الحصور يحيى...[1].

وفي الثلاثينيَّات أصدر حسن البنَّا رسالته «بين الأمس واليوم» وفي نهايتها أراد أنْ يعدَّ إخوانه وجوده نفسيًّا لما ينتظرهم من أعباء وشدائد، قد يكونون في غفلة عنها، وتمثل ذلك في كلمات حفظها الإخوان بعد ذلك، وطالما ردَّدوها في مناسبات مختلفة.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان «العقبات في طريقنا»: «أحبُّ أنْ أصارحكم أنَّ دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها، ستلقى منهم خصومة شديدة، وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيرًا من المشقَّات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات؛ أمَّا الآن فلا زلتم مجهولين، ولا زلتم تمهِّدون للدعوة،

(١) الفوائد صـ ٤٢، نشر دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

QaradawiBooks.com

وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد، سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبةً في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم في سبيله، سيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أنْ تحدَّ من نشاطكم، وأنْ تضع العراقيل في طريقكم.

وسيتذرَّع الغاصبون بكل طريقة لمناهضتكم، وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة، والأخلاق الضعيفة، والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال، وإليكم بالإساءة والعدوان، وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أنْ يلصقوا بها كل نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم ومعتدِّين بأموالهم ونفوذهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]. وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون وتعتقلون، وتنقلون وتشرَّدون، وتصادر مصالحكم، وتعطَّل أعمالكم، وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ

QaradawiBooks.com

﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٤]. فهل أنتم مصرُّون على أنْ تكونوا أنصار الله؟[1] اهـ.

ومن هـذه الفضائل: الأمل، الَّـذي لا يخبو ضيـاؤه، ولا تذوى أوراقه، في نصر الله، وأنَّ الغد لدعوة الإسلام، والمستقبل للمسلمين، وكان يعتبر هذا الأمل جزءًا من الإيمان، ويُدلِّل على ذلك بأدلَّة شتَّى: دليـل من النصـوص، مثل قولـه تعالـى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، والصف: ٩].

ودليل من التاريخ، وهو أنَّ الإسلام أصلب ما يكون عودًا، وأشدُّ ما يكون قـوَّة، وأصفى ما يكـون جوهرًا، حين تحيط به الشـدائد، وتحل بسـاحته الكروب، كما في حرب الـردَّة، وحروب الصليبيين الزاحفين من الغرب، وحـروب التتار، الزاحفين من الشـرق، وقد انتصر الإسلام في هذه المعارك جميعًا، بعد أنْ كان أعداؤه يظنُّون أنَّ رايته قد سقطت للأبد.

ويسـتدلُّ هنا كذلك بتاريخ الأمم المختلفة، ووثباتها غير المتوقعة، وانتصار بعض الرجـال الَّذين حقَّقوا آمالهم الكبيـرة، برغم قلَّة العدد، وضعف العدة، مثل الملك عبد العزيز بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويقول الأسـتاذ هنا: إنَّ حقائق اليوم كانت أحـلام الأمس، وأحلام اليوم هي حقائق الغد.

(١) رسالة بين الأمس واليوم ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٠٨، ١٠٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ودليل آخر سمَّاه الإمام البنَّا: الدليل الحسابي، يوضحه بأنَّ قيادة العالم كانت في مدة من الزمن للشرق أيام الحضارات الشرقيَّة القديمة: الفرعونيَّة والفينيقيَّة، والآشوريَّة والبابليَّة، والفارسيَّة والهنديَّة، إلخ.

ثم انتقلت عجلة القيادة للغرب أيام ظهور فلسفة اليونان، وتشريع الرومان، ثمَّ عادت إلى الشرق مرَّة أخرى على يد الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وظلت قرونًا، ثمَّ غفا الشرق الإسلامي غفوته الكبرى، واستيقظ الغرب الَّذي استفاد من علوم الشرق، ومن مناهج معرفته الاستقرائية والتجريبية، فنهض نهضته الحديثة، واستخدم العلم والتكنولوجيا، ووصل إلى ما وصل إليه الآن من رقي وتقدم مادي وعمراني، ولكنَّه أفلس في الجانب الروحي والأخلاقي، ولم يقم بحق القيادة في إقرار العدل ونصرة الحق، وإشاعة الخير والفضيلة، فكان لا بدَّ بمقتضى سنن الله أنْ تنتقل عجلة القيادة إلى غيره، ونحن الأحق بها، والدور لنا لا علينا. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وعندما بدأت بوادر المحنة تظهر، وبدأت سحائبها تغشى جو العلاقات بين الإخوان والحكومة، وأطلت بواكير الصدام، كان البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ يركز أشد التركيز على بعث الأمل وإحياء الرجاء في أنفس أصحابه، فكتب في صحيفة «الإخوان المسلمون» اليوميَّة عدَّة مقالات، في هذا المعنى، منها: «بين المحنة والمنحة» ومقالة «ولو» و«أربعة أدلَّة» وغيرها، حتَّى لا يخيِّم اليأس على القلوب فيقتلها، ولا ييأس من روح الله إلَّا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمة ربِّه إلَّا الضالُّون.

QaradawiBooks.com

الرجاء معقود بالإخوان الصادقين:

وكان حسن البنَّا يعرف أنَّ النَّاس جدُّ متفاوتين في استعداداتهم وقدراتهم وإيمانهم، فليس كل النَّاس في إيمان أبي بكر، ولا في قوَّة عمر، ولا في بذل عثمان، ولا في شجاعة عليٍّ، وإنَّما هم كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

لهذا قسم الإمام البنَّا «الإخوان» إلى مستويات، بحسب نضجهم وترقِّيهم في التربية والوعي والسلوك والبذل، أعلاهم «الأخ الصادق» أو «المجاهد»، وهم الَّذين كتب لهم «رسالة التعاليم» فهي للصادقين من الإخوان المسلمين، فهي ليست كلمات تحفظ، ولكنَّها تعليمات تنفذ، أما غيرهم فلهم مظاهر وإداريات، ورسوم وشكليات.

ومن هنا كان أكبر همِّه أنْ يرتفع بالإخوان إلى درجة «الصدق» في الإيمان وفي مقامات الدين.

وهي الدرجة الَّتي يصبح المسلم فيها من «الصادقين» الَّذين أمرنا الله أنْ نكون معهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وهؤلاء الصادقون هم الَّذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۞ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ

QaradawiBooks.com

بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤]. وهم الموصوفون بالبر والتقوى في قوله ﷻ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فأولئك الَّذين وُصِفُوا بالبرِّ في عقيدتهم، والبرِّ في سلوكهم، والبرِّ في عبادتهم، والبرِّ في أخلاقهم هم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾.

اثنا عشر ألف مؤمن صادق:

وكان حسن البنَّا مؤمنًا بأنَّه إذا اجتمع له اثنا عشر ألف مؤمن من هؤلاء الصادقين، نضجت تربيتهم، وتكامل تكوينهم: إيمانيًّا بالعقيدة والعبادة، وأخلاقيًّا بالاستقامة والفضيلة، وعقليًّا بالوعي والثقافة، وبدنيًّا بالرياضة والخشونة، فإنَّه يستطيع أنْ يخوض بهم لجج البحار، ويقتحم بهم عنان السماء، ما داموا مؤهَّلين هذا التأهيل المطلوب، وخصوصًا جانب الإيمان.

وكان يعتمد على الحديث النبوي «**لن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**»[(١)].

ولكنَّه كان يريد هؤلاء «الاثني عشر ألفًا» ممَّن اكتمل إيمانهم وتربيتهم.

فلم يكن يريد (٢٤,٠٠٠) أربعة وعشرين ألفًا من «أنصاف» المؤمنين.

(١) رواه أحمد (٢٦٨٢)، وقال مُخرِّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الجهاد (٢٦١١)، والترمذي في النذور (١٥٥٥)، وقال: حسن غريب. عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

ولم يكن يريد (٤٨,٠٠٠) ثمانية وأربعين ألفًا من «أرباع» المؤمنين.

ولم يكن يريد (٩٦,٠٠٠) ستَّة وتسعين ألفًا من «أثمان» المؤمنين.

ولا ملايين من «كسور المؤمنين»، فإنَّ مستشفى من المرضى لا تقاوم رجلًا واحدًا صحيحًا قويًّا، وإنَّ مائةً أو ألفًا من المجانين لا تساوي رجلًا عاقلًا واحدًا.

فالمدار على الكيف لا على الكم، والقرآن الكريم يخاطب المسلمين في عهد النبوة فيقول: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقال في مقام آخر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ومهما يَقُلِ القائلون، ويتجنَّ المتجنُّون، فلقد اكتسبت دعوة الإخوان، في مصر وفي غيرها من بلاد العرب مجموعات من خيرة عناصر الوطن: تَوَقُّد عقول، وزكاة نفوس، وتدفُّق مشاعر، وقوَّة عزائم، وطهارة أخلاق، وسمو أرواح، صقلهم الدين، وضمَّهم الإسلام في رحابه، وتولَّاهم بتربيته وتزكيته، فثقَّفهم عقولًا، ونقَّاهم قلوبًا، وقوَّاهم أجسامًا، ولا أزكِّيهم على الله، فهم بشر من البشر، ليسوا ملائكة مُطَهَّرين، ولا أولياء قديسين، ولكنَّهم ـ إذا قيسوا بغيرهم ـ كانوا في المقدمة فهمًا وإيمانًا وسلوكًا، في مجموعهم، وهذا من ثمار التربية الإيمانيَّة الَّتي تصنع الأعاجيب.

ولا أجد في وصفهم أبلغ ممَّا وصفهم به الشاعر الكبير محمود غنيم في قصيدته الَّتي حيَّا فيها «مجلة الشهاب» الَّتي أصدرها الشهيد البنَّا في

QaradawiBooks.com

نوفمبر سنة (١٩٤٧م) وصدر منها خمسة أعداد، وفيها يقول مخاطبًا «الشهاب» في عددها الأول:

أَرْسِلْ وَمِيضَكَ يَا شِهَابْ وَاكْشِفْ عَنِ الْحَقِّ الْحِجَابْ

إلى أنْ يقول:

حَيَّيْتُ فِيكَ عِصَابَةً لَبِسُوا عَلَى الطُّهْرِ الثِّيَابْ
وَمَشَوْا عَلَى سَنَنِ الهُدَى والدِّينِ في شَرْخِ الشَّبَابْ
هُمْ فِي الْمُصَلَّى خَاشِعُو نَ، وَفِي الْكَرِيهَةِ أُسْدُ غَابْ
لَمْ يَحْسِبُوا إلَّا حِسَا بَ اللهِ في يَوْمِ الْحِسَابْ
أَوْ يَبْتَغُوا مِنْ غَيْرِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الثَّوَابْ
أَقْسَمْتُ إنَّ مَعَادِنَ الْإِخْـ ـوَانِ مَنْ ذَهَبٍ لُبَابْ
وَمَبَادِئُ الْإِخْوَانِ أَنْـ ـقَعُ لِلْغَلِيلِ مِنَ الشَّرَابْ
الْمُصْلِحُونَ الطَّارِقُو نَ إِلَى الْهِدَايَةِ كُلَّ بَابْ
الصَّامِتُونْ عَنِ الْهُرَا ءِ، النَّاطِقُونَ بِغَيْرِ عَابْ
الْقَائِلُونَ كَأَنَّمَا قَدْ أُلْهِمُوا فَصْلَ الْخِطَابْ
الَكَاتِبُونَ بِكُلِّ سِنّ = يَقْطُرُ الشَّهْدَ الْمَذَابْ
لَيْسَ التَّدَيُّنُ عِنْدَهُمْ مَحْضَ السُّجُودِ وَالِاقْتِرَابْ
وَتَبَتُّلُ الرُّهْبَانِ في رَبْعٍ مِنَ الدُّنْيَا خَرَابْ
الدِّينُ زُهْدٌ وَاحْتِسَا بٌ، وَهْوَ سَعْيٌ وَاكْتِسَابْ
الدِّينُ أُسُّ حَضَارَةٍ شَمَّاءَ عَالِيَةِ الْقِبَابْ
الدِّينُ أَجْنِحَةٌ مُحَلِّقَـ ـةٌ عَلَى مَتْنِ السَّحَابْ
الدِّينُ جَيْشٌ يَجْعَلُ الْـ أَوْطَانَ أَمْنَعَ مِنْ عُقَابْ
الدِّينُ كُلُّ الدِّينِ تَحْرِيـ ـرُ الْحِمَى مِنَ الِاغْتِصَابْ

QaradawiBooks.com

وفي وصف الإخوان كان لي قصيدة قديمة ألقيتُها في حفل الإخوان بميدان السـيِّدة زينب بعد خروجنا من المعتقل سنة ١٩٤٩م، وفيها قلت مخاطبًا الرسول الكريم:

يا سـيِّدَ الخَلْقِ طِبْ نَفْسًا بِطَائِفَةٍ ... بَاعُوا إِلَـى اللهِ أَرْوَاحًـا وَأَبْدَانَا
قَادُوا السَّفِينَ، فما ضلُّوا ومَا اضطربتْ ... وكيف لا؟ وقد اختـاروك رُبَّانَا
اللهُ يعرفُهـم أنصـارَ دعوتِـهِ ... والنَّاسُ تَعْرِفُهُـمْ لِلْخَيْـرِ أَعْوَانَا
واللَّيْـلُ يَعْرِفُهُـمْ قُـوَّامَ هَجْعَتِه ... والحربُ تعرفهم في الرَّوْع فُرْسانَا
عاشوا على الحبِّ أفواهًا وأفئدةً ... باتوا على البؤسِ والنَّعْمَاءِ إِخْوَانا
لَمْ يَفْهَمُوا الدِّينَ أَوْرادًا ومِسْبَحَةً ... بَل أُشْرِبُوا الدِّينَ مِحْرَابًا ومَيْدَانَا
أَعْطَوْا ضَرِيبَتَهُمْ للدِّينِ مِنْ دَمِهِمْ ... والنَّاسُ تَزْعُمُ نَصْرَ الدِّينِ «مَجَّانَا»
أَعْطَوْا ضَرِيبَتَهُمْ صَبْرًا عَلَى مِحَنٍ ... صَاغَتْ بِـلَالًا وَعَمَّارًا وَسَـلْمَانَا
دُسْـتُورُهُمْ لَا فَرَنْسَـا قَنَّنَتْهُ، وَلَا ... رُومَا، وَلَكِـنْ قَدِ اخْتَـارُوهُ قُرْآنَا
زَعِيمُهُمْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ، لَا بَشَـرٌ ... إِنْ يَهْدِ حِينًا، يَضِلُّ القَصْدَ أَحْيَانَا
اللهُ غَايَتُهُـمْ، وَالشَّـرْعُ رَايَتُهُـمْ ... وَالْحَـقُّ آيَتُهُـمْ، سِـرًّا وَإِعْلَانَا
«اللهُ أَكْبَـرُ» مَـا زَالَـتْ هِتَافُهُمُو ... لَا يُسْـقِطُونَ وَلَا يُحْيُونَ إِنْسَانَا[1]

* * *

(١) والقصيدة كاملة في ديواننا: نفحات ولفحات صـ ٥٧ ـ ٦٧، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٥

وضوح الأهداف وشمولها

لم تكن أهداف دعوة الإخوان ـ كما رسمها الإمام البنَّا ـ غائمة أو غامضة، بل كانت واضحة وضوح الشمس، للقيادة وللقاعدة، وكان الجميع يعلمون علم اليقين، مدى ضخامة هذه الأهداف، ومدى سعتها.

لقد كانت أهداف دعوة الإخوان كبيرة وواسعة، فلم تقتصر على الجانب الفكري كما هو شأن النخبة من المثقفين الَّذين يعنون بتنوير العقول فقط، وإنْ كان تنوير العقول وتثقيفها وتوعيتها بالإسلام الصحيح من أبرز الأهداف لدى جماعتهم.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب الروحي أو الرباني، كما هو شأن أهل السلوك والتربية الرُّوحِيَّة والإيمانيَّة من الصادقين من رجال التصوُّف الملتزم، وإنْ كان هذا في رأس برنامجهم، ومن أوائل ما يهتمون به، فإنَّ صلاح الإنسان بصلاح قلبه.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب الاجتماعي، وتحقيق العدالة الاجتماعيَّة، والتكافل الاجتماعي، ومنع التظالم بين الناس، حتَّى لا يأكل القويُّ الضعيفَ، أو الغنيُّ الفقيرَ، كما هي دعوة الاشتراكيِّين وغيرهم، وإنْ كان العدل والتكافل وتقريب الفوارق من أوَّل ما سعى إليه الإخوان.

QaradawiBooks.com

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب الاقتصادي والتنموي، كما هو شأن كثير من رجال الإصلاح، الَّذين يسعون إلى زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، وعدالة التوزيع، واستقامة التداول، وإن كان هذا الإصلاح الاقتصادي من المعالم الرئيسة في برنامج الإخوان، بالإضافة لدعوتهم إلى تحرير الاقتصاد من التبعيَّة، وقيام اقتصاد وطني قوي.

ولم تقتصر أهداف الإخوان على الجانب السياسي، الَّذي يُعنى به عادة زعماء الأحزاب السياسيَّة، وإن كان هذا الجانب في طليعة ما دعا إليه الإخوان، من وجوب تحرير الوطن من كل سلطان أجنبي، وتحقيق مطالب الشعب في تحكيم شريعته، وتحريره من آثار التبعية التشريعيَّة والثقافيَّة وغيرها.

ولم يكن هدف الإخوان مقصورًا على مصر، الوطن الأوَّل، الَّذي نشأت فيه الحركة، ومنه انطلقت إلى غيره من البلدان، وإن كانت مصر تحظى بالنصيب الأكبر من التفكير والاهتمام والجهد؛ لأنَّها الوطن الأم للجماعة أولًا، ولما لها من أثر ومكانة في تاريخ الإسلام والعرب ثانيًا، ولما يعلَّق عليها من آمال ثالثًا، بل اتَّسعت هذه الأهداف، لتشمل الوطن العربي من الخليج إلى المحيط، والوطن الإسلامي، من المحيط إلى المحيط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، أو من جاكرتا شرقًا، إلى مراكش غربًا.

فقد كان الإخوان يعنون بقضايا العالم العربي، والعالم الإسلامي جميعًا، فهم يعتبرون كل أرض ترتفع فيها المآذن، ويهتف فيها المؤذنون: الله أكبر، الله أكبر، ويعيش فيها المسلمون، توجب عليهم حقوقًا للدفاع عنها، وردِّ العدوان عليها، والذود عن حرماتها، وتحريرها من كل سلطان

QaradawiBooks.com

غاصب معتدٍ عليها، ثمَّ معاونتها لتقيم الإسلام في ربوعها، عقيدة وشريعة، إيمانًا وعملًا، دعوة ودولة، قرآنًا وسلطانًا، ولتستطيع أنْ تنهض وتنمو وترقى في كل المجالات.

ثم لم يقف الإخوان عند هذا الحد، فهم يؤمنون أنَّ رسالة الإسلام ليست لجنس دون جنس، ولا لإقليم دون إقليم، ولا لطبقة دون طبقة، أو لسان دون لسان، بل هي دعوة عالمية، لكل الأجناس والألوان، ولكل الشعوب والأوطان، ولكل الألسنة والطبقات، كما قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

هكذا كانت أهداف الإخوان شاملة شمول الإسلام، فضمت الجانب العقلي، والجانب الروحي، والجانب الجسمي، والجانب التربوي، في حياة الفرد، كما ضمت: الجانب الأسري، والجانب الاجتماعي، والجانب الاقتصادي، والجانب السياسي، في حياة المجتمع: الوطني والعربي والإسلامي والعالمي.

أهداف سبعة أساسيَّة:

وقد عبَّر عن ذلك مؤسِّس الجماعة، حين قال: نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والأُمَّة المسلمة، وتبليغ الدعوة في العالم، ولا أجد أبلغ من تعبير حسن البنَّا عن ذلك إذ يقول في رسالته «إلى الشباب»:

إنَّ منهاج الإخوان المسلمين محدد المراحل، واضح الخطوات، فنحن نعلم تمامًا ماذا نريد، ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة.

QaradawiBooks.com

١ ـ نريد أوَّلًا: الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي.

٢ ـ ونريد بعد ذلك: البيت المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسري.

٣ ـ ونريد بعد ذلك: الشعب المسلم في ذلك كله أيضًا، ونحن لهذا نعمل على أنْ تصل دعوتنا إلى كل بيت، وأن يُسمع صوتنا في كل مكان، وأن تنتشر فكرتنا، وتتغلغل في القرى والنجوع[1] والمدن والحواضر والأمصار، لا نألو في ذلك جهدًا، ولا نترك وسيلة.

٤ ـ ونريد بعد ذلك: الحكومة المسلمة، الَّتي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به النَّاس على هدي الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر من قبل، ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسيَّة، ولا بهذه الأشكال التقليدية، الَّتي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها، والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلاميَّة على أساس هذا النظام.

٥ ـ ونريد بعد ذلك: أنْ نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي الَّذي فرَّقته السياسة الغربيَّة، وأضاعت وحْدته المطامع الأوربية، ونحن لهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسيَّة، ولا نسلِّم بهذه الاتفاقات الدوليَّة، الَّتي تجعل من الوطن الإسلامي دويلات ضعيفة ممزَّقة، يسهل ابتلاعها

(١) معنى النَّجْع في اللغة: مكانٌ يَحُطُّ فيه القوم رَحْلَهم لوجود الماء والعشب.

QaradawiBooks.com

على الغاصبين، ولا نسكت على هضم حرية هذه الشعوب واستبداد غيرها بها، فمصر وسوريا والعراق والحجاز واليمن وطرابلس (يعني: ليبيا) وتونس والجزائر ومراكش (يعني: المغرب) وكل شبر أرض فيه مسلم يقول: لا إلٰه إلَّا الله، كل ذلك وطننا الكبير الَّذي نسعى لتحريره وإنقاذه وخلاصه، وضم أجزائه بعضها إلى بعض.

ولئن كان الرايخ الألماني يفرض نفسه حاميًا لكلِّ من يجري في عروقه دم الألمان، فإنَّ العقيدة الإسلاميَّة توجب على كل مسلم أنْ يعتبر نفسه حاميًا لكل من تشرَّبت نفسه تعاليم القرآن، فلا يجوز في عرف الإسلام أنْ يكون العامل العنصري أقوى في الرابطة من العامل الإيماني، والعقيدة هي كل شيء في الإسلام، وهل الإيمان إلَّا الحبُّ والبغض؟

٦ ـ نريد بعد ذلك: أنْ تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع الَّتي سعدت بالإسلام حينًا من الدهر، ودوَّى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل.

ويجب أنْ يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين، كما كانتا من قبل، ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أنْ يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديمًا إلَّا على أساس المطامع والأهواء، فإنَّ من حقِّنا أنْ نعيد مجد الإمبراطورية الإسلاميَّة الَّتي قامت على العدالة والإنصاف، ونشر النور والهداية بين الناس.

٧ ـ نريد بعد ذلك ومعه: أنْ نعلن دعوتنا على العالم، وأنْ تبلغ النَّاس جميعًا، وأن نعم بها آفاق الأرض، وأن نُخضع لها كل جبار، حتَّى

QaradawiBooks.com

لا تكون فتنة ويكــون الدين كله لله، ويومئذٍ يفــرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم[١].

الأهداف القريبة والأهداف البعيدة:

ويخشى المرشــد المؤســس رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يظنَّ بعض النَّاس أنَّ الإخوان مجرد جمعيَّة من جمعيات النفع العام، أو خدمة المجتمع، وهي كذلك في بعض جوانبها، وجزء من نشــاطها، ولكنَّه ينفي بقوة أنْ يكون ذلك هو لبُّ فكرتها، وغاية سعيها، ومحور وجودها، ففرَّق في أكثر من مناسبة بين الأهداف والغايات القريبة الَّتي يشــترك فيهــا الإخوان مع غيرهم، والغايات البعيدة الَّتي يتميَّزون بها عمَّن سواهم، في وضوح لا لبس فيه ولا غموض.

بيَّن الأستاذ البنَّا أنَّ الإخوان المسلمين يعملون لغايتين:

غاية قريبة، وتظهر ثمرتها لأول يوم ينضم فيه الفرد إلى الجماعة، أو تظهر الجماعة الإخوانيَّة فيه في ميدان العمل العام.

وغاية بعيدة، لا بدَّ فيها من ترقُّب الفرص، وانتظار الزمن، وحُســن الإعداد، وسبق التكوين.

فأما الغاية الأولى؛ فهي المســاهمة فــي الخير العام أيًّــا كان لونه ونوعه، والخدمة الاجتماعيَّة كلما سمحت بها الظروف.

يتصل الأخ بالإخوان، فيكون مطالبًا بتطهير نفســه، وتقويم مسلكه، وإعداد روحه وعقله وجســمه للجهاد الطويل، الَّذي ينتظره في مستقبل الأيام، ثمَّ هو مطالب بأنْ يشــيع هذه الروح في أسرته وأصدقائه وبيئته،

(١) رسالة إلى الشباب ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٧٧، ١٧٨.

QaradawiBooks.com

فلا يكون الأخ أخًا مسلمًا حقًّا، حتَّى يطبِّق على نفسه أحكام الإسلام، ويقف عند حدود الأمر والنهي، الَّتي جاء بها رسول الله ﷺ عن ربه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

وتتكوَّن الجماعة من جماعات الإخوان، فتتخذ دارًا وتعمل على تعليم الأميين، وتلقين النَّاس أحكام الدين، وتقوم بالوعظ والإرشاد والإصلاح بين المتخاصمين، والتصدُّق على المحتاجين، وإقامة المنشآت النافعة، من مدارس ومعاهد ومستوصفات ومساجد، في حدود مقدرتها والظروف الَّتي تحيط بها، وكثير من شعب الإخوان ينهض بهذه الواجبات، ويؤديها على حالة مرضية من حسن الأداء.

فهل هذا هو ما يريده الإخوان المسلمون، ويجهزون أنفسهم له، ويأخذونها به؟ يجيب الإمام البنَّا عن ذلك بقوله:

«لا أيَّها الإخوان، ليس هذا كل ما نريد، هو بعض ما نريد؛ ابتغاء مرضاة الله، هو الهدف الأوَّل القريب، هو صرف الوقت في طاعة وخير، حتَّى يجيء الظرف المناسب، وتحين ساعة العمل للإصلاح الشامل المنشود.

أمَّا غاية الإخوان الأساسيَّة، أما هدف الإخوان الأسمى، أما الإصلاح الَّذي يريده الإخوان، ويُهيِّئون له أنفسهم: فهو إصلاح شامل كامل، تتعاون عليه قوى الأُمَّة جميعًا، وتتَّجه نحوه الأُمَّة جميعًا، ويتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل.

إنَّ الإخوان المسلمين يهتفون بدعوة، ويؤمنون بمنهاج، ويناصرون عقيدة، ويعملون في سبيل إرشاد النَّاس إلى نظام اجتماعي، يتناول

QaradawiBooks.com

شؤون الحياة جميعًا، اسمه «الإســلام»، نزل به الروح الأمين على قلب سيِّد المرســلين، ليكون به من المنذرين بلســان عربي مبين. ويريدون بعث الأُمَّة الإســلاميَّة النموذجية الَّتي تدين بالإسلام الحق، فيكون لها هاديًا وإمامًا، وتعرف في النَّاس بأنها دولة القرآن الَّتي تصطبغ به، والَّتي تذود عنــه، والَّتي تدعو إليه والَّتي تجاهد في ســبيله، وتضحي في هذا السبيل بالنفوس والأموال.

لقد جاء الإســلام نظامًا وإمامًا، وديـنًا ودولة، تشريعًا وتنفيذًا، فبقي النظام وزال الإمام، واســتمر الدين وضاعت الدولة، وازدهر التشــريع وذَوَى التنفيذ، أليس هذا هو الواقع أيُّها الإخوان؟! وإلَّا فأين الحكم بما أنزل الله في الدماء والأمــوال والأعراض؟ والله تعالــى يقول لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۞ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

والإخوان المسلمون يعملون ليتأيَّد النظام بالحكام، ولتحيا من جديد دولة الإسلام، ولتشــمل بالنفاذ هذه الأحكام، ولتقوم في النَّاس حكومة مســلمة، تؤيدها أُمَّة مســلمة، تنظم حياتها شريعة مســلمة، أمر الله بها نبيَّه ﷺ في كتابه حيث قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩][1].

(١) رسالة المؤتمر السادس ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٠٥، ٢٠٦.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أهداف عامَّة وأهداف خاصَّة:

وقد يقسم الأستاذ البنَّا أهداف الإخوان إلى أهداف عامَّة، وأهداف خاصَّة، فيقول تحت عنوان «أهدافنا العامَّة»:

ماذا نريد أيُّها الإخوان؟ أنريد جمع المال وهو ظل زائل، أو سعة الجاه وهو عرض حائل؟ أم نريد الجبروت في الأرض؟

ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] شهد الله أنَّنا لا نريد شيئًا من هذا، وما لهذا عملنا، ولا إليه دعونا، ولكن اذكروا أنَّ لكم هدفين أساسيين:

١ ـ أنْ يتحرَّر الوطن الإسلامي من كلِّ سلطانٍ أجنبيٍّ، وذلك حقٌّ طبيعي لكلِّ إنسان، لا ينكره إلَّا ظالم جائر أو مستبدٌّ قاهر.

٢ ـ أنْ تقوم في هذا الوطن الحرِّ دولة إسلاميَّة حرَّة، تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي، وتعلن مبادئه القويمة، وتبلغ دعوته الحكيمة للناس، وما لم تقم هذه الدولة فإنَّ المسلمين جميعًا آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادها، ومن العقوق للإنسانيَّة في هذه الظروف الحائرة أنْ تقوم فيها دول تهتف بالمبادئ الظالمة، وتنادي بالدعوات الغاشمة، ولا يكون في النَّاس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام.

نريد تحقيق هذين الهدفين في وادي النيل، وفي بلاد العروبة، وفي كل أرض أسعدها الله بعقيدة الإسلام: دين وجنسية وعقيدة توحد بين جميع المسلمين.

QaradawiBooks.com

ولنا بعد هذين الهدفين «أهداف خاصَّة» لا يصير المجتمع إسلاميًّا كاملًا إلَّا بتحقيقها، فاذكروا أيُّها الإخوان أنَّ أكثر من (٦٠٪) من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون على القوت إلَّا بشقِّ النفس، وأنَّ مصر مهدَّدة بمجاعة قاتلة، ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصاديَّة الَّتي لا يعلم نتيجتها إلَّا الله، وأنَّ مصر بها أكثر من (٣٢٠) شركة أجنبيَّة، تحتكر كلَّ المرافق العامَّة، وكل المنافع العامَّة في جميع أنحاء البلاد، وأنَّ دولاب التجارة والصناعة والمنشآت الاقتصاديَّة كلها في أيدي الأجانب المرابين، وأنَّ الثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدي الوطنيين إلى أيدي هؤلاء، وأنَّ مصر أكثر بلاد العالم المتمدين أمراضًا وأوبئة وعاهات، وأن أكثر من (٩٠٪) من الشعب المصري مهدَّد بضعف البنية، وفقد الحواس، ومختلف العلل والأمراض، وأنَّ مصر لا زالت إلى الآن جاهلة لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخمس، بما في ذلك أكثر من مائة ألف شخص لا يتجاوز تعليمهم برامج مدارس الإلزام، وأنَّ الجرائم تتضاعف في مصر وتتكاثر بدرجة هائلة حتَّى إنَّ السجون لتخرج أكثر ممَّا تخرج المدارس، وأنَّ مصر لم تستطع إلى الآن أنْ تجهز فرقة واحدة في الجيش كاملة المعدات، وأنَّ هذه المعاني والصور تتراءى في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي، فمن أهدافكم أنْ تعملوا لإصلاح التعليم، ومحاربة الجهل والفقر والمرض والجريمة، وتكوين مجتمع نموذجي يستحق أنْ ينتسب إلى شريعة الإسلام[1].

ومن هذا يتبيَّن عناية الإخوان بعلاج أمراض المجتمع وآفاته بصورة مفصَّلة.

(١) رسالة بين الأمس واليوم ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٠٥ ـ ١٠٨.

QaradawiBooks.com

هدف مجمل وأهداف مفصَّلة:

وفي مقام آخر يتحدَّث البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ عن أهداف الإخوان أو مهمتهم بين الإجمال والتفصيل، فيذكر المهمة الإجمالية أو الهدف الإجمالي، ويجسِّدها في: أنْ تقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، الَّتي جرفت الشعوب الإسلاميَّة، فأبعدتها عن زعامة النبي ﷺ، وتوقن الدنيا كلُّها بتعاليم القرآن، وينتشر ظلُّ الإسلام الوارف على الأرض، وحينئذٍ يتحقَّق للمسلم ما ينشده؛ فلا تكون فتنة ويكون الدِّين كلُّه لله ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥].

هذه مهمَّتنا نحن الإخوان المسلمين إجمالًا، فأمَّا في بعض تفاصيلها فهي: أنْ يكون في مصر أوَّلًا، بحكم أنَّها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه، ثمَّ في غيرها كذلك:

ـ نظام داخلي للحكم يتحقَّق به قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ـ ونظام للعلاقات الدوليَّة يتحقق به قول القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ـ ونظام عملي للقضاء يستمد من الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

QaradawiBooks.com

ـ ونظام للدفاع والجنديَّة يُحقِّق مرمى النفير العام: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

ـ ونظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفرادِ أساسُه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [النساء: ٥].

ـ ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة والظلام، ويطابق جلال الوحي في أوَّل آية من كتاب الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ـ ونظام للأسرة والبيت ينشئ الصبي المسلم والفتاة المسلمة والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ـ ونظام للفرد في سلوكه الخاص يُحقِّق الفلاح المقصود بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

ـ وروح عام يهيمن على كل فرد في الأُمَّة من حاكم أو محكومٍ قوامُه قول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٧٧][1] اهـ.

وبعد انتهاء الحرب العالميَّة الثانية، بدأ الأستاذ البنَّا نشاطًا هائلًا، بين الإخوان خاصَّة، وأبناء مصر عامَّة، وعقد الاجتماعات في دور الإخوان، ونظَّم المؤتمرات الوطنيَّة الكبرى في عواصم المدن في أنحاء القطر المصري، وشرح فيها الأهداف القوميَّة الَّتي تنشدها مصر، وينشدها الوطن العربي، والوطن الإسلامي في آسيا وأفريقيا، ويتلخَّص

(١) رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٩١، ١٩٢.

QaradawiBooks.com

في التحرر من كل سلطان أجنبي، وأنْ يقوم فيه حكم وطني مستقبل ينبثق من عقيدته، ويحتكم إلى شريعته، ولا يتسع المقام لما ذكره الأستاذ في ذلك، ونكتفي بإحالة القارئ الكريم إلى ما ذكره الأستاذ البنَّا في خطابه التاريخي «في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد»[1] في ٣ من شوال سنة ١٣٦٤هـ ـ ٨ سبتمبر ١٩٤٥م عن الحقوق الوطنيَّة لمصر والعرب والعالم الإسلامي.

شمول الأهداف نابع من شمول الفكرة:

لقد كان شمول أهداف الإخوان، نابعًا من فكرتهم عن شمول الإسلام، فلم يكن الإسلام عندهم، هو العقيدة وحدها، أو العبادة معها، أو استقامة الأخلاق والسلوك فحسب، بل الإسلام عندهم أجمع من ذلك وأوسع نطاقًا، إنَّه عقيدة جوهرها التوحيد، وعبادة جوهرها الإخلاص، وأخلاق جوهرها الخير، وتقاليد جوهرها الاستقامة، وتشريع جوهره العدل، وأسرة جوهرها التكافل، ومجتمع جوهره الأخوة، وأُمَّة جوهرها الوسطية، ودولة جوهرها الحقُّ، وحضارة جوهرها التكامل.

وهذا الإسلام الشامل هو الَّذي ميَّز الإخوان، وهو الَّذي جعل الإمام البنَّا يسميه «إسلام الإخوان المسلمين» لا بمعنى أنَّهم جاؤوا بإسلام جديد، غير الإسلام الَّذي عرفته الأُمَّة خلال القرون، ولكن لأنَّ الاستعمار الثقافي ـ الَّذي صحب الاستعمار السياسي ـ قلص الإسلام في أذهان المسلمين حتَّى انحصر في الصلاة والصيام وإقامة الشعائر التعبُّديَّة، بل إنَّ الزكاة ـ وهي عبادة مالية اجتماعيَّة ـ لم تعد صورتها واضحة في أنفس المسلمين، كما شرعها القرآن والسُّنَّة، فقد شرعت

(١) اقرأه في مجموعة الرسائل صـ ٢٤٥ ـ ٢٧٠.

QaradawiBooks.com

نظامًا اجتماعيًّا تقوم الدولة بجبايتها وتوزيعها بوساطة من سمَّاهم القرآن «العاملين عليها» فهي تؤخذ من الأغنياء، لتُرَدَّ على الفقراء.

وكان لا بدَّ من بذل جهد مع المسلمين حتَّى يعيدوا فهم الإسلام كما فهمه أسلافهم في خير القرون: عبادة وقيادة، وصلاة وجهادًا، وحقًّا وقوة، ودعوة ودولة، ومصحفًا وسيفًا.

وكان من فضل الإخوان في ذلك: أنْ جمعت على هذه الأهداف: المشايخ والأفنديَّة، أو خِرِّيجي الأزهر، وخرِّيجي المدارس الحديثة، وجمعت أهل المدن والقرى، وضمَّت الأغنياء والفقراء، كما ضمَّت كبار المتعلمين، والأميين البسطاء في الريف والأحياء الفقيرة، وبهذا تميَّزت دعوة الإخوان بشمولها لمختلف فئات المجتمع، وشتَّى طبقاته، كما تميَّزت بشمول وسائلها وأهدافها.

اتِّساع مجالات العمل لتحقيقها:

وإذا كانت أهداف الإخوان قد اتَّسعت حتَّى شملت كلَّ جوانب الحياة، وامتدَّت حتَّى شملت العالم الإسلامي، فقد تجلَّى أثر ذلك في ميادين العمل الَّتي يتطلَّبها نشاط الإخوان، فقد اتَّسعت كذلك سعة أهدافهم.

ومن قرأ ما ذكره البنَّا في «ركن العمل» من رسالة التعاليم، اتَّضح له ذلك المعنى بجلاء ناصع.

فقد عدد «المجالات» وإن شئت قلت: عدد «المراتب» الَّتي يتطلَّبها العمل أو يمضي فيها، فكانت سبعة، بعدد الأهداف الكبيرة، الَّتي ذكرناها من قبل، كل منها يفتقر إلى جهد جهيد، وصبر مديد، وعزم أكيد.

QaradawiBooks.com

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح المراد بمفهوم العمل:

وأريد بالعمل: ثمرة العلم والإخلاص: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

ثمَّ بيَّن مراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق، على المستوى الفردي والأسري والاجتماعي والوطني والإسلامي والعالمي:

١ ـ فبدأ بالفرد، الَّذي يجب عليه إصلاح نفسه، حتَّى يكون سليم العقيدة، صحيح العبادة، متين الخلق، مثقف الفكر، قوي الجسم، قادرًا على الكسب، مجاهدًا لنفسه، حريصًا على وقته، منظمًا في شؤونه، نافعًا لغيره، وذلك واجب كلِّ أخ على حِدَة.

٢ ـ وتكوين بيت مسلم، بأنْ يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حدة كذلك.

٣ ـ وإرشاد المجتمع، بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات، وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلاميَّة، وصبغ مظاهر الحياة العامَّة بها دائمًا، وذلك واجب كل أخ على حدة، وواجب الجماعة كهيئة عامَّة.

٤ ـ وتحرير الوطن بتخليصه من كلِّ سلطانٍ أجنبيٍّ ـ غير إسلامي ـ سياسي أو اقتصادي أو رُوحي.

QaradawiBooks.com

٥ ـ وإصلاح الحكومة حتَّى تكون إسلاميَّة بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأُمَّة، وأجير عندها، وعامل على مصلحتها.

فإذا قصرت فالنصح والإرشاد، ثمَّ الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٦ ـ وإعادة الكيان الدولي للأمة الإسلاميَّة، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافاتها، وجمع كلمتها، حتَّى يؤدي ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة، والوحدة المنشودة.

٧ ـ وأستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحدة، وعلى كل أخ باعتباره عضوًا في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراها النَّاس خيالًا ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبدًا، ولنا في الله أعظم الأمل ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١][1].

* * *

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٥٩ ـ ٣٦١.

QaradawiBooks.com

٦

وضوح الوسائل

كما تميَّزت دعوة الإخوان بوضوح الأهداف والمقاصد، تميَّزت كذلك بوضوح الوسائل والطرائق.

وكما أنَّ أهدافها إسلاميَّة صميمة من حيث مصادرها، ومن حيث منطلقاتها وبواعثها، ومن حيث وجهتها وموضوعها، فوسائلها إسلاميَّة أيضًا لحمًا ودمًا، أصولًا وفروعًا.

كانت وسائل الإمام البنَّا لتحقيق غايته واضحة لا لبس فيها ولا ارتياب، وكانت تقوم على الركائز التالية:

١ ـ إشاعة الوعي العام في الأُمَّة بالتقصير في تطبيق الإسلام، والبعد عن الإسلام الحقيقي في نواحي الحياة كافة.

٢ ـ الإشعار بوجوب العودة إلى الإسلام: دينيًّا بمقتضى عقد الإيمان، ودنيويًّا بحكم العزة القوميَّة، والأصالة الذاتية.

٣ ـ شرح ما تجنيه الأُمَّة من ثمار برجوعها إلى الإسلام الصحيح في حياتها ماديًّا ومعنويًّا، ثقافيًّا وسياسيًّا، اجتماعيًّا واقتصاديًّا.

٤ ـ مخاطبة الحكام والمسؤولين في ذلك وإقامة الحجَّة عليهم، ووضع المقترحات العمليَّة للإصلاح والتغيير بين أيديهم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥ ـ استخلاص العناصر الطيِّبة المستعدَّة للبذل، لتربيتهم تربية متكاملة للقيام بهذا الواجب عند اللزوم، إذا لم يستجب المسؤولون لدعاة الإصلاح، ولوَّوا رؤوسهم يَصُدُّون وهم مستكبرون.

٦ ـ التدرُّج في الخطوات والمراحل، ابتداءً بالتعريف، مرورًا بالتكوين وانتهاءً إلى التنفيذ.

بيان التقصير في تطبيق الإسلام:

لقد وضح الأستاذ البنَّا ببيانه «السهل الممتنع» بلسانه وقلمه، بخطبه ومحاضراته، وبرسائله ومقالاته، وفي لقاءاته الخاصة، واجتماعاته العامَّة: تقصير الأُمَّة في تطبيق الإسلام، وبُعدها عن حقيقته، فقد أساءت فهمها للدين، وأساءت العمل به، ومن الكلمات المشرقة في ذلك ما قاله عليه رحمة الله في رسالة «تحت راية القرآن» موجهًا الحديث إلى الإخوان خاصَّة، وإلى النَّاس أجمعين قائلًا: إنَّ الله بعث لكم إمامًا، ووضع لكم نظامًا، وفصل أحكامًا، وأنزل كتابًا، وأحلَّ حلالًا، وحرَّم حرامًا، وأرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم، وهداكم سواء السبيل؛ فهل اتبعتم إمامه، واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه، وقدَّستم كتابه، وأحللتم حلاله، وحرَّمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترون الحقيقة واضحة أمامكم، كلُّ النظم الَّتي تسيرون عليها في شؤونكم الحيويَّة نظم تقليدية بحتة لا تتَّصل بالإسلام، ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه.

نظام الحكم الداخلي.

نظام العلاقات الدوليَّة.

QaradawiBooks.com

نظام القضاء.

نظام الدفاع والجنديَّة.

نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد.

نظام الثقافة والتعليم.

بل نظام الأسرة والبيت.

بل نظام الفرد في سلوكه الخاصِّ.

الرُّوح العام الَّذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها، كلُّ ذلك بعيد عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

وماذا بقي بعد ذلك؟

هذه المساجد الشامخة القائمة الَّتي يعمرها الفقراء والعاجزون، فيؤدون فيها ركعات خالية من معاني الروحانية والخشوع إلَّا من هدى الله؟

هذه الأيام الَّتي تصام في العام فتكون موسمًا للتعطُّل والتبطُّل والطعام والشراب، وقلَّما تتجدَّد فيها نفس أو تزكو بها روح.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ [صٓ: ٢٤].

هذه المظاهر الخادعة من المسابح والملابس، واللحى والمراسم، والطقوس والألفاظ والكلمات.

أهذا هو الإسلام الَّذي أراده الله أنْ يكون رحمته العظمى، ومنَّته الكبرى على العالمين؟

أهذا هدي محمَّد ﷺ الَّذي أراد به أنْ يخرج النَّاس من الظلمات إلى النور؟

QaradawiBooks.com

أهذا هو تشريع القرآن الَّذي عالج أدواء الأمم ومشكلات الشعوب، ووضع للإصلاح أدق القواعد وأرسخ الأصول؟

موجة التقليد الغربي وآثارها في حياة المسلمين:

أيُّها الإخوان المسلمون.

بل أيُّها النَّاس أجمعون.

من الحقِّ أنْ نعترف بأنَّ موجة قوية جارفة، وتيارًا شديدًا دفاقًا، قد طغى على العقول والأفكار في غفلة من الزمن، وفي غرور من أمم الإسلام[1]، وانغماس منهم في الترف والنعيم، فقامت مبادئ ودعوات، وظهرت نظم وفلسفات، وتأسست حضارات ومدنيات، ونافست هذه كلها فكرة الإسلام في نفوس أبنائها، وغزت أممه في عقر دارها، وأحاطت بهم في كل مكان، ودخلت عليهم بلدانهم وبيوتهم ومخادعهم، بل احتلَّت قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم، وتهيأ لها من أسباب الإغواء والإغراء والقوَّة والتمكُّن ما لم يتهيأ لغيرها من قبل، واجتاحت أممًا إسلاميَّة بأسرها، وانخدعت بها دول كانت في الصميم والذؤابة من دول الإسلام، وتأثر ما بقي تأثرًا بالغًا، ونشأ في كل الأمم الإسلاميَّة جيل مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدَّر في تصريف أمورها واحتل مكان الزعامة الفكريَّة والرُّوحِيَّة والسياسيَّة والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب مغافلة إلى ما يريد، بل إلى ما ألف، وهي لا تدري ما يراد بها ولا ما تصير إليه، وارتفعت أصوات الدعاة إلى الفكرة الطاغية: أنْ

(١) كان الأستاذ البنا يستخدم كلمة «أمم الإسلام»، بمعنى شعوب الإسلام، وكلمة الشعوب أولى بالاستخدام؛ لأنَّ المفروض أنَّ للإسلام أُمَّة واحدة لا أممًا.

QaradawiBooks.com

خلِّصونا ممَّا بقي من الإسلام وآثار الإسلام، وتقبلوا معنا راضين لا كارهين مستلزمات هذه الحياة وتكاليفها وأفكارها ومظاهرها، واطرحوا بقية الفكرة البالية من رؤوسكم ونفوسكم، ولا تكونوا مخادعين منافقين معاندين، تعملون عمل الغربيين وتقولون قول المسلمين.

من الحقِّ أنْ نعرف أنَّنا بعدنا عن هدي الإسلام وأصوله وقواعده، والإسلام لا يأبى أنْ نقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنَّى وجدناها، ولكنَّه يأبى كل الإباء أنْ نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأنْ نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجري وراء قوم فتنتْهم الدنيا واستهوتْهم الشياطين.

حقًّا لقد تقدَّم العلم، وتقدَّم الفن، وتقدَّم الفكر، وتزايد المال، وتبرجت الدنيا، وأخذت الأرض زخرفها وازَّيَّنت، وأترف النَّاس ونعموا؛ ولكن هل جلب شيء من هذا السعادة لهم؟ وهل أمن لهم شيء من هذا الحياة، أو ساق إلى نفوسهم الهدوء والطمأنينة؟

هل اطمأنت الجنوب في المضاجع؟

هل جفت الجفون من المدامع؟

هل حوربت الجريمة، واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟

هل استغنى الفقراء وأشبعت الملايين الَّتي تفوق الحصر بطون الجائعين؟

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن، الَّتي ملأت الفضاء وسرت مسرى الهواء، العزاء إلى المحزونين؟

QaradawiBooks.com

هل تذوَّقت الشعوب طعم الراحة والهدوء، وأمنت عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟

لا شيء من هذا أيها الناس، فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات[١]؟ اهـ.

كان لا بدَّ للأستاذ أنْ يبيِّن للنَّاس حقيقة بعدهم عن الإسلام، حتَّى لا يغرهم به الغرور، ولا يزين لهم شيطانهم أنَّهم مسلمون حقًّا، ما داموا يقيمون بعض الشعائر، وإن كانت فارغة من الروح والإخلاص والإتقان، وما داموا يحتفلون بالمناسبات، ويقيمون لها الزينات، فكانت الخطوة الأولى: أنْ يعرفوا حقيقة أنفسهم.

بيان نتائج فساد النظام الاجتماعي القائم في مصر:

كان الأستاذ البنَّا يرنو ببصره وبدعوته إلى آفاق العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، ويؤمن بعالمية الإسلام، ووحدة أمته، ووحدة «دار الإسلام» ولكنَّه كان واقعيًّا، وكان بصيرًا بسنن الله في الكون والمجتمع، وكان تركيزه على مصر والبدء بتحريرها وإصلاحها وإقامة الإسلام الكامل فيها باعتبارها وطن الدعوة أولًا، وبوصفها زعيمة شعوب العرب والإسلام بما لها من جهاد في ردِّ الصليبيين والتتار، وبفضل أزهرها العتيد، الَّذي حافظ على الدين واللغة ألف عام، ولا غرو أنْ عني بأوضاع مصر بالتفصيل.

وها هو يبين آثار فساد النظام الاجتماعي الَّذي يحكم مصر، منذ عهد الاحتلال، وبعد عهد الاستقلال، وقد كشف الأستاذ القناع عن هذا الفساد،

(١) رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٨٨ ـ ١٩٠.

QaradawiBooks.com

أو عن بعض آثاره ونتائجه في الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، ليشعر النَّاس أنْ لا بديل لهذه النظم والأوضاع المستوردة إلَّا المنهج الأصيل، النابع من عقيدة الأُمَّة، والمعبِّر عن روحها وضميرها، وهو: الإسلام الشامل، الَّذي يبدأ بإصلاح النفس البشريَّة، وينتهي بإصلاح الأُمَّة والدولة.

لتستمع إلى هذا البيان، وإن كانت أرقامه وإحصاءاته قد تغيرت، ولكنَّه يرينا إلى أيِّ حدٍّ كانت عناية الإخوان بمشكلات المجتمع، وبفئاته المختلفة، وبخاصَّة الفئات المستضعفة والمسحوقة فيه.

يقول البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّنا في أخصب بقاع الأرض وأعذبها ماءً، وأعدلها هواءً، وأيسرها رزقًا، وأكثرها خيرًا، وأوسطها دارًا، وأقدمها مدنية وحضارة وعلمًا ومعرفة، وأحفلها بآثار العمران الروحي والمادي والعلمي والفني، وفي بلدنا المواد الأولية والخامات الصناعيَّة والخيرات الزراعيَّة، وكل ما تحتاج إليه أُمَّة قوية تريد أنْ تستغني بنفسها، وأنْ تسوق الخير إلى غيرها، وما من أجنبي هبط هذا البلد الأمين إلَّا صح بعد مرض، واغتنى بعد فاقة، وعزَّ بعد ذِلَّة، وأُتْرِفَ بعد البؤس والشقاء... فماذا أفاد المصريون أنفسهم من ذلك كله؟ لا شيء، وهل ينتشر الفقر والجهل والمرض والضعف في بلد متمدن، كما ينتشر في مصر الغنية مهد الحضارة والعلوم وزعيمة أقطار الشرق غير مدافعة؟!

إليكم أيُّها الإخوان بعض الأرقام[1] الَّتي تنطق بما يهددنا من أخطار اجتماعيَّة ماحقة ساحقة إنْ لم يتداركنا الله فيها برحمته فسيكون لها أفدح النتائج وأفظع الآثار:

(١) الأرقام الواردة في هذه الفقرة وما يليها حسب الإحصائيات الثابتة حين ألقى هذا الخطاب سنة (١٩٤١م).

QaradawiBooks.com

١ ـ الفلاحون في مصر يبلغون ثمانية ملايين، والأرض المنزرعة نحو ستَّة ملايين من الأفدنة، وعلى هذا الاعتبار يخص الفرد الواحد نحو ثلثي فدان.

فإذا لاحظنا إلى جانب هذا أنَّ الأرض المصريَّة تفقد خواصَّها لضعف المصارف وكثرة الإجهاد، وأنَّها لهذا السبب تأخذ من السماد الصناعي أضعاف غيرها من الأرض الَّتي تقل عنها جودة وخصوبة، وأنَّ عدد السكان يتكاثر تكاثرًا سريعًا، وأنَّ التوزيع في هذه الأرض يجعل من هذا العدد أربعة ملايين لا يملكون شيئًا، ومليونين لا يزيد ملكهم عن نصف فدان ومعظم الباقي لا يزيد ملكه على خمسة أفدنة، علمنا مبلغ الفقر الَّذي يعانيه الفلاحون المصريون، ودرجة انحطاط مستوى المعيشة بينهم درجة ترعب وتخيف.

مقارنة بين معيشة الإنسان ومعيشة الحمار:

ومن الطرائف: ما ذكره المرشد البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ من مقارنة بين معيشة الإنسان ومعيشة الحمار في مصر فيقول: «إنَّ أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم على ثمانين قرشًا في الشهر إلَّا بشق النفس، فإذا فرضنا أنَّ له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط ما يكون عليه الحال في الريف المصري بل في الأسر المصريَّة عامَّة، كان متوسط ما يخص الفرد في العام جنيهين، وهو أقل بكثير ممَّا يعيش به الحمار، فإنَّ الحمار يتكلف على صاحبه «١٤٠ قرشًا خمس فدان برسيم و٣٠ قرشًا حملًا ونصف الحمل من التبن و١٥٠ قرشًا فول و٢٠ قرشًا أربعة قراريط عفش ذرة، ومجموعها ٣٤٠ قرشًا»، وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الآدميين في مصر، وبذلك يكون أربعة ملايين مصري يعيشون أقل من عيشة الحيوان!

QaradawiBooks.com

ثم إذا نظرت إلى طبقة الملاك الكبار وجدتهم مكبلين بالديون أذلاء للمحاكم والبنوك.

إنَّ البنك العقاري وحده يحوز من الرهون قريبًا من نصف مليون فدان، ويبلغ دينه على الملاك المصريين (١٧) مليونًا من الجنيهات إلى أكتوبر سنة ١٩٣٦م، وهذا بنك واحد.

وقد بلغ ثمن ما نزعت ملكيته للديون من الأرض والمنازل في سنة ١٩٣٩م (٢٥٦، ٣٤٦) جنيهًا، فعلى أي شيء تدلُّ هذه الأرقام؟

٢ ـ العمَّال في مصر يبلغون (٥,٧١٨,١٢٧) أي نحوًا من ستَّة ملايين عامل، يشكو التعطل (٥١١,١١٩) أي أكثر من نصف مليون لا يجدون شيئًا، وهناك الجيوش من حملة الشهادات العاطلين.

فكيف يشعر إنسان هذه حاله بكرامته الإنسانيَّة أو يعرف معنى العاطفة القوميَّة والوطنيَّة وهو في بلد لا يستطيع أنْ يجد فيه القوت، ولقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر[١]، وقديمًا قيل: كاد الفقر أنْ يكون كفرًا[٢]، فضلًا عن أنَّ المشتغلين من العمَّال مُهدَّدون باستغلال أصحاب رأس المال، وضعف الأجور، والإرهاق في العمل، ولم تصدر الحكومات بعد التشريع الكافي لحماية هؤلاء البائسين، وقد ضاعفت حالة الحرب القائمة هذا العدد من المتعطلين، وزادت العاملين منهم بؤسًا على بؤسهم».

(١) الأحاديث المروية عن استعاذة الرسول من الفقر والقلة كثيرة، منها: ما رواه أبو هريرة مرفوعًا: «اللهم إنِّي أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك أنْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ». رواه أحمد (٨٠٥٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الصلاة (١٥٤٤)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٠)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٣/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٨٨)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٦٦١٢)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

ثم يتحدَّث الأستاذ المرشد بلغة الأرقام الَّتي لا تكذب عن «شركات الاحتكار» في مصر الَّتي وضعت يدها على مرافق الحياة والمنافع العامَّة، فالنور والمياه والملح والنقل ونحوها كلها في يد هذه الشركات الَّتي لا ترقب في مصري إلًّا ولا ذمة، والَّتي تحقق أفحش الأرباح، وتضنُّ حتَّى باستخدام المصريين في أعمالها.

وبعد حديث بالأرقام عن أرباح هذه الشركات بالتفصيل، وكلها من دم المصريين الَّذين لا يجد نصفهم القوت.

يقول الأستاذ: وهذه الشركات جميعًا تخالف نصوص العقود في كثير من التصرفات، ثمَّ لا يكون التصرف معها إلًّا متراخيًا ضعيفًا يفوِّت الفائدة على الحكومة والجمهور معًا.

ولعلَّ من الطريف المبكي أنْ نقول: إنَّ عدد الشركات المصريَّة إلى سنة (١٩٣٨م) بلغ إحدى عشرة شركة فقط مقابل (٣٢٠) شركة أجنبيَّة، تستغل جميع مرافق الحياة.

ويتحدث المرشد عن الجانب الصحي في مصر في ذلك العهد، فيقول: لقد استقبلت العيادات الحكوميَّة سنة ١٩٣٤م (٧,٢٤١,٣٨٣) مريضًا، منهم مليون بالبلهارسيا، وأكثر من نصف مليون بالإنكلوستاما، ومليون ونصف بالرمد، وفي مصر (٩٠) في المائة مريض بالرمد والطفيليات، وفيها (٥٥,٥٧٥) من فاقدي البصر، ويكشف لنا الكشف الطبي في المدارس وفي المعاهد والجامعة ـ ومنها الكليَّة الحربيَّة ـ حقائق عجيبة عن ضعف بنية الطلاب، وهم زهرة شباب الأُمَّة، وكل ذلك في أُمَّة علَّمها نبيُّها أنْ تسأل الله أنْ يعافيها في أبدانها وفي سمعها وفي بصرها[1].

(١) وذلك في الدعاء المأثور الذي كان يدعو به ﷺ: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا =

QaradawiBooks.com

ثم يتحدَّث عن الجانب التعليمي، وضعف مستواه، وغلبة الأمية، حديث العارف البصير، فيقول: إن مصر بعد هذا الجهاد الطويل لا زالت بها آلاف كثيرة ممَّن لا يخط الألف، ولا زال عدد المتعلمين فيها لا يجاوز الخُمُس (٢٠٪) من بينهم تلاميذ المدارس الإلزاميَّة الَّذين لا يحسنون شيئًا، وكثير منهم لم يجاوز شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، حتَّى الَّذين تعلموا تعليمًا عاليًا لا تنقطع الشكوى من أنَّ مؤهلاتهم العلميَّة لا تمكنهم من النجاح الكامل في الحياة العمليَّة، وتتردد هذه الشكوى على لسان وزراء المعارف ورؤساء دوائر الأعمال وغيرهم.

ثم ينتقل إلى الجانب الخلقي، والجانب الإيماني أو الروحي فيقول: وقد انحطَّ مستوى الخُلُق انحطاطًا عجيبًا، فقد بلغ عدد الَّذين حوكموا بجرائم تخالف القانون في سنة ١٩٣٨م أكثر من مليون مصري ومصريَّة، دخل منهم السجن زهاء مائة ألف أو يزيدون، عدا من لم تصل إليهم يد القضاء ولم تعرف جرائمهم بعد.

هذا مع جرأة كثير من الشُّبَّان على المخالفات الدينيَّة الَّتي لا يؤاخذ عليها القانون الوضعي كشرب الخمر والإقبال على القمار واليانصيب والسباق ونحوها، والعبث وما إليه ممَّا لا يحصيه العدُّ، بدون خشية ولا حياء.

= وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا، ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا». رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٦١)، والطبراني في الدعاء (١٩١١)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٨)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ومع أنَّنا فقدنا مقوِّمات الحياة الماديَّة من العلم الدنيوي النافع ومن الثـروة والمال ومن القـوَّة الصحيَّة، فهـل أبقينا على شـيء من قوانا الرُّوحيَّة؟ كلا، كلا.

كم من المصريين يؤمن بالله حق الإيمان، ويعتمد عليه حق الاعتماد؟ وكم منهـم يعتز بكرامته القوميَّة وعزته الإسـلاميَّة؟ وكـم منهم يؤدي الصلـوات؟ وكم من هـؤلاء المؤديـن يقيمها على وجههـا، ويتعرف أحكامها وأسرارها؟ وكم منهم يؤدي الزكاة ويتحرَّى بها مصارفها والغاية منها؟ وكم منهم يخشـى الله ويتقيه عن المعصيـة ويجتنب كبائر الإثم والفواحش؟

يجيبنا الواقع المشاهد عن الأسئلة جميعًا بما يؤلم ويحزن، ويحز في نفس كل مؤمن غيور[1] اهـ.

بيان مزايا التوجه إلى الإسلام:

ومن الوسائل الَّتي سـلكها الأسـتاذ البنَّا: بيان مزايا وفوائد التوجه الإسلامي، حين خاطب المسـؤولين قائلًا: سترون أمامكم طريقين، كل منهما يهيب بكم أنْ توجهوا الأُمَّة وجهتها وتسـلكوا بها سبيله، ولكل منهما خواصه ومميزاته وآثـاره ونتائجه ودعاته ومروجـوه، فأما الأوَّل فطريق الإسـلام وأصوله وقواعده وحضارته ومدنيته، وأما الثاني فطريق الغرب ومظاهر حياته ونظمها ومناهجها.

وعقيدتنا: أنَّ الطريق الأوَّل طريق الإسلام وقواعده وأصوله هو الطريق الوحيد الَّذي يجب أنْ يسلك وأنْ توجه إليه الأُمَّة الحاضرة والمستقبلة.

(١) رسالة المؤتمر السادس ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٠٧ ـ ٢١٠.

QaradawiBooks.com

وإننا إذا سلكنا بالأُمَّة هذا المسلك استطعنا أنْ نحصل على فوائد كثيرة؛ منها أنَّ المنهاج الإسلامي قد جرب من قبل وشهد التاريخ بصلاحيته، وأخرج للناس أمة من أقوى الأمم وأفضلها وأرحمها وأبرها وأبركها على الإنسانيَّة جميعًا؛ وله من قدسيته واستقراره في نفوس النَّاس ما يسهل على الجميع تناوله وفقهه والاستجابة له والسير عليه متى وجهوا إليه، فضلًا عن الاعتزاز بالقوميَّة والإشادة بالوطنيَّة الخالصة، إذ إنَّنا نبني حياتنا على قواعدنا وأصولنا ولا نأخذ عن غيرنا، وفي ذلك أفضل معاني الاستقلال الاجتماعي والحيوي بعد الاستقلال السياسي.

وفي السير على هذا المنهاج تقوية للوحدة العربيَّة أولًا، ثمَّ للوحدة الإسلاميَّة ثانيًا، فيمدنا العالم الإسلامي كله بروحه وشعوره وعطفه وتأييده، ويرى فينا إخوة ينجدهم وينجدونه، ويمدهم ويمدونه، وفي ذلك ربح أدبي كبير لا يزهد فيه عاقل.

وهذا المنهاج تامٌّ شامل، كفيل بتقرير أفضل النظم للحياة العامَّة في الأُمَّة عمليَّة ورُوحِيَّة، وهذه هي الميزة الَّتي يمتاز بها الإسلام، فهو يضع نظم الحياة للأمم على أساسين مهمين: أخذ الصالح وتجنُّب الضار.

فإذا سلكنا هذا السبيل استطعنا أنْ نتجنَّب المشكلات الحيويَّة الَّتي وقعت فيها الدول الأخرى، الَّتي لم تعرف هذا الطريق ولم تسلكه، بل استطعنا أنْ نحل كثيرًا من المشكلات المعقدة الَّتي عجزت عن حلها النظم الحالية.

وبعد ذلك كله، فإنَّنا إذا سلكنا هذه السبيل، كان تأييد الله من ورائنا، يقوينا عند الوهن، وينقذنا في الشدائد، ويهون علينا المشاق،

QaradawiBooks.com

ويهيب بنا دائمًا إلى الأمام: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤][1].

مطالبات الحكومات بالإصلاح:

وكان من وسائل الإخوان: أنْ يطالبوا الحكومات والقيادات المسؤولة في مصر، وفي غيرها بالإصلاحات الواجبة والضرورية في كل ناحية من نواحي الحياة، ثقافيَّة وتربويَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة وصحيَّة وأخلاقيَّة وسائر الجوانب المختلفة في مجتمعاتنا.

ولعلَّ أوضح مواقف الإخوان في ذلك: الخطاب الجامع الَّذي أرسله الإمام البنَّا إلى الملك فاروق ملك مصر والسودان، وإلى رئيس حكومة مصر: مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد، وإلى ملوك وأمراء وحكام بلدان العالم الإسلام المختلفة، كما بعث به إلى عدد من كبار البارزين في هذه البلدان، من ذوي الصفات الدينيَّة والدنيوية.

وقد بيَّن لهم فيه أنَّ الأُمَّة على مفترق طريقين:

إمَّا طريق التبعية والتقليد للحضارة الغربيَّة، ونظم حياتها وما تستلزم من اتِّباع شرائعها وثقافتها وتقاليدها.

وإمَّا طريق مجد الإسلام، وما يقتضيه من اتِّباع شريعته، والالتزام بقيمه وأخلاقه، ونهج حضارته.

وقد بيَّن أنَّ الطريق الواجب اتباعها هي طريق الإسلام، موضحًا مزايا هذا التوجه وثماره الطيبة في الأنفس والحياة.

(١) رسالة نحو النور ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٧٤، ٢٧٥.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كما بيَّن الخطر في الجري وراء المدنيَّة الغربيَّة، واتباع سننها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وما وراء ذلك من فقدان الشخصيَّة، وضياع الدين، وخسارة الدنيا في النهاية.

كما بيَّن أنَّ الإسلام كفيل بإمداد الأُمَّة بكل ما تحتاج إليه لنهضتها ورقيها، ماديًّا ومعنويًّا، فهو يمدُّها بالعزة القوميَّة، ويشعرها بالذاتية والأصالة، ويوفر لها أسباب الصحة والقوة، كما ينشئ المناخ اللازم لازدهار العلم، وتكوين العقليَّة العلميَّة، وكذلك يوفر لها أسباب الاقتصاد القوي، وأيضًا يُهيِّئ البيئة الصحيَّة لتزكية النفس، وتكوين الخلق القويم، وإنَّما الأمم الأخلاق.

وكذلك بيَّن عدالة النظم الإسلاميَّة وكمالها ومتانة قواعدها، فيما يتعلق بتنظيم أحوال الفرد والأسرة والجماعة، والأُمَّة، وأنَّ الإسلام يحمي الأقليات، ويصون حقوق الأجانب، وأنَّ إقامة نظام الإسلام لا يعكر صفو العلاقة بيننا وبين الغرب.

ولم ينس الأستاذ البنَّا أنْ يوضح للمسؤولين: أنَّ أصول النهضة في الشرق غير أصولها في الغرب، وأنَّ ثورة الغرب على الدين لا تعني الثورة على الدين الحق، فرجال الدين غير الدين نفسه، ودَعَاهم أنْ يكونوا أوَّل من يتقدَّم باسم رسول الله، بقارورة الدواء من طب القرآن، لاستنقاذ العالم المعذب المريض، إنَّها خطوة جريئة، ولكنَّها موفقة إنْ شاء الله.

ثم وضع الإمام الشهيد أمام هذه القيادات المصريَّة والعربيَّة والإسلاميَّة: بعض خطوات الإصلاح العملي، مفصَّلةً بعض التفصيل:

QaradawiBooks.com

١ ـ في الناحية السياسيَّة والقضائيَّة والإداريَّة.

٢ ـ وفي الناحية الاجتماعيَّة والعلميَّة، وقد فصَّل فيها أكثر من غيرها.

٣ ـ وفي الناحية الاقتصاديَّة.

ولا ضرورة لأنْ نثقل على القارئ بهذه التفصيلات، ويمكن أنْ يقرأها في رسالة «نحو النور» من رسائل الإمام الشهيد[1].

ولا يفوتني أنْ أذكر هنا: أنَّ بعض النَّاس يعيبون على الإخوان هذا اللون من المطالبات الإصلاحية، من حكومات وملوك وأمراء يعلمون أنَّهم لن يستجيبوا لهم، وأنَّهم في ترفهم غارقون، وفي طغيانهم يعمهون، وفي غيِّهم سادرون ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وأود أنْ أقول لهؤلاء: إنَّ واجب الإخوان أنْ يُسمعوا كل النَّاس كلمتهم، وأنْ يُبلِّغوهم رسالتهم، وأن يعذروا إلى الله تعالى بأداء واجب الدعوة إلى الجميع، والحكام ناسٌ من الناس، ولعلَّ في بعضهم بقايا إيمان، أو خير ينبض في عروقهم، فإن استجابوا لهذه الدعوة النيرة الخيرة، فبها ونعمت، وإنْ استجابوا لبعضها فشيء خير من لا شيء، وإن لم يستجيبوا بالمرَّة، فقد قامت عليهم الحجة، وحقَّت عليهم الكلمة، ونجا الإخوان من التبعة، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۞فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥].

(١) انظر: رسالة نحو النور ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٧٣ ـ ٢٩٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الوسائل العامَّة والوسائل الإضافية:

تحدَّث الأستاذ البنَّا في مناسبات شتَّى عن وسائله في تحقيق غايته، ونصرة دعوته، وقد قسمها إلى وسائل عامَّة، ووسائل إضافية.

وبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ الخطب والأقوال والمكاتبات والدروس والمحاضرات، وتشخيص الداء، ووصف الدواء، كل ذلك وحده لا يجدي نفعًا، ولا يحقِّق غاية، ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف؛ ولكن للدعوات وسائل لا بدَّ من الأخذ بها والعمل لها، والوسائل العامَّة، للدعوات لا تتغيَّر ولا تتبدَّل ولا تعدو هذه الأمور الثلاثة:

١ ـ الإيمان العميق.

٢ ـ التكوين الدقيق.

٣ ـ العمل المتواصل.

وقد تكون إلى جانب هذه الوسائل العامَّة: وسائل إضافية لا بدَّ من الأخذ بها وسلوك سبيلها، منها السلبي ومنها الإيجابي، ومنها ما يتفق مع عرف الناس، ومنها ما يخرج على هذا العرف ويخالفه ويناقضه، منها ما فيه لين، ومنها ما فيه شدة، ولا بدَّ أنْ نروض أنفسنا على تحمل ذلك كله، والإعداد لهذا كله، حتَّى نضمن النجاح، وقد يطلب إلينا أنْ نخالف عادات ومألوفات، وأنْ نخرج على نظم وأوضاع ألفها الناس، وتعارفوا عليها، وليست الدعوة في حقيقة أمرها إلَّا خروجًا على المألوفات، وتغييرًا للعادات والأوضاع، فهل أنتم مستعدُّون لذلك أيُّها الإخوان؟

وسيقول كثير من النَّاس: وماذا تعني هذه الوسائل؟ وما عساها أنْ تنفع في بناء أُمَّة، وترميم مجتمع، مع هذه المشكلات المزمنة، ومع

QaradawiBooks.com

استقرار الحال على هذه المفاسد المتعدِّدة؟ وكيف تعالجون الاقتصاد على غير أساس الربا؟ وكيف تصنعون في قضيَّة المرأة؟ وكيف تنالون حقَّكم بغير قوَّة؟ فاعلموا أيُّها الإخوان أنَّها وساوس الشيطان يلقيها في أمنية كلِّ مصلح، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمَّ يحكم الله آياته، والله عليم حكيم.

وأذكر لهؤلاء جميعًا أنَّ التاريخ يقصُّ علينا من نبأ الأمم الماضية والحاضرة ما فيه عظة وعبرة. والأُمَّة الَّتي تصمِّم على الحياة لا يمكن أنْ تموت[١].

شرح المراد بالوسائل العامَّة:

ويعود إلى شرح المراد بالوسائل العامَّة مرَّة أخرى، فيقول: أمَّا وسائلنا العامَّة:

فالإقناع ونشر الدعوة بكل وسائل النشر حتَّى يفقهها الرأي العام ويناصرها عن عقيدة وإيمان.

ثم استخلاص العناصر الطيبة لتكون هي الدعائم الثابتة لفكرة الإصلاح، ثمَّ النضال الدستوري، حتَّى يرتفع صوت هذه الدعوة في الأندية الرسميَّة، وتناصرها وتنحاز إليها القوَّة التنفيذية، وعلى هذا الأساس سيتقدم مرشحو الإخوان المسلمين حين يجيء الوقت المناسب إلى الأُمَّة ليمثلوها في الهيئات النيابيَّة، ونحن واثقون بعون الله من النجاح ما دمنا نبتغي بذلك وجه الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠][٢] اهـ.

(١) رسالة بين الأمس واليوم ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٠٨.

(٢) رسالة المؤتمر السادس صـ ٢١٢.

QaradawiBooks.com

وبذلك انحاز الأستاذ البنَّا بجلاء ووضوح إلى النضال السلمي، والكفاح الدستوري، ليصل إلى ما يريد ثمَّ يقول: «أمَّا ما سوى ذلك من الوسائل فلن نلجأ إليه إلَّا مكرهين، ولن نستخدمه إلَّا مضطرين، وسنكون حينئذٍ صرحاء شرفاء، لا نحجم عن إعلان موقفنا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض معه، ونحن على استعداد تام لتحمل نتائج عملنا أيًّا كانت، لا نلقي التبعة على غيرنا، ولا نتمسَّح بسوانا، ونحن نعلم أنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأنَّ الفناء في الحق هو عين البقاء، وأنَّه لا دعوة بغير جهاد، ولا جهاد بغير اضطهاد، وعندئذٍ تدنو ساعة النصر ويحين وقت الفوز، ويتحقَّق قول الملك الحق المبين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

لا يمكن أنْ يفهم من هذا الكلام: اللجوء إلى الاغتيال السياسي، أو تدمير المنشآت، أو القتل العشوائي، أو قتل المدنيين البرآء، كما تفعل ـ للأسف الشديد ـ بعض الجماعات الَّتي ينسبونها إلى الإسلام. فالصراحة والشرف، وإعلامه الموقف بوضوح لا ريب فيه: يتنافى مع طبيعة «العنف الوحشي» الَّذي تمارسه بعض الجماعات الَّتي لا تراها تمتُّ في عملها إلى الإسلام ولا إلى الإنسانيَّة بنسب قريب أو بعيد.

وسائل الإخوان باعتبارهم جماعة خدمة عامَّة:

وقد فرَّق الأستاذ البنَّا بين وسائل الإخوان باعتبارهم جماعة خدمة، وجماعة دعوة وفكرة. فقال: لا شك أنَّ جماعات الإخوان المسلمين جماعات تقوم بالخدمة العامَّة من بناء المساجد وعمارتها، ومن فتح المدارس والمكاتب والإشراف عليها، ومن إنشاء الأندية والفرق

QaradawiBooks.com

وتوجيهها ورعايتها، ومن الاحتفال بالذكريات الإسلاميَّة احتفالًا يليق بجلالها وعظمتها، ومن الإصلاح بين النَّاس في القرى والبلدان إصلاحًا يوفر عليهم كثيرًا من الجهود والأموال، ومن التوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد، لا شك أنَّ الإخوان يقومون بهذا كله، ولهم فيه ـ والحمد لله ـ أثر يذكر. وقد تضاعف نشاطهم في هذه النواحي مضاعفة ملموسة في هذا الدور من أدوار الدعوة بطبيعة التفات النَّاس إليها وإقبالهم عليها، ووسيلة الإخوان في هذه الميادين: التنظيم والتطوع والاستعانة بأهل الرأي والخبرة، وتدبير ما تحتاج إليه هذه المشروعات من أموال من المشتركين تارة، ومن المتبرعين أخرى إلى ما يدفع لمثل هذه المشروعات، ولسنا نقول: إنَّ الإخوان قد اكتملت جهودهم في هذه الناحية، ولكنَّا نقول: إنَّهم يسيرون بخطوات واسعة نحو الكمال، والله الموفق والمستعان. هؤلاء هم الإخوان، وتلك هي دعوتهم كجماعة من جماعات الخدمة العامَّة.

وسائل الإخوان باعتبارهم دعوة وفكرة:

ولكن الإخوان كما علمت ليسوا كذلك فحسب، ولكنَّ لبَّ دعوتهم: فكرة وعقيدة، يقذفون بها في نفوس الناس، ليتربى عليها الرأي العام، تؤمن بها القلوب، وتجتمع من حولها الأرواح: تلك هي العمل للإسلام، والعمل به في كل نواحي الحياة.

أمَّا الوسيلة إلى تحقيق ذلك فليست المال، والتاريخ منذ عرف إلى الآن يحدثنا أنَّ الدعوات لا تقوم أوَّل أمرها بالمال، ولا تنهض به بحال، فهي تحتاج إلى مال في بعض مراحل طريقها، ولكن محال أنْ يكون

QaradawiBooks.com

قوامها ودعامتها، فرجال الدعـوات وأنصارهم دائمًـا المقلون من هذا المال، وسل التاريخ ينبئك.

وليست الوسـيلة القوَّة كذلك، فالدعوة الحقَّة إنَّما تخاطب الأرواح أولًا، وتناجي القلوب، وتطرق مغاليق النفوس، ومحال أنْ تثبت بالعصا، أو أنْ تصل إليها على شبا الأسنة والسهام، ولكن الوسيلة في تركيز كل دعوة وثباتهـا معروفـة معلومة، مقـروءة لكل مـن له إلمـام بتاريخ الجماعات. وخلاصة ذلك جملتان: إيمان وعمل، ومحبة وإخاء.

ماذا فعل رسول الله ﷺ في تركيز دعوته في نفوس الرعيل الأوَّل من أصحابه، أكثر من أنَّه دعاهم إلى الإيمان والعمل، ثمَّ جمع قلوبهم على الحبِّ والإخـاء، فاجتمعت قـوَّة العقيـدة إلى قوَّة الوحـدة، وصارت جماعتهم هـي الجماعة النموذجية الَّتي لا بـدَّ أنْ تظهر كلمتها وتنتصر دعوتها، وإن ناوأها أهل الأرض جميعًا، وماذا فعل الدعاة من قبل ومن بعد أكثر من هذا؟ ينـادون بالفكرة ويوضِّحونهـا، ويدعون النَّاس إليها فيؤمنون بها، ويعملون لتحقيقها ويجتمعون عليها، ويزدادون عددًا فتزداد الفكرة بهم ظهورًا، حتَّى تبلغ مداها، وتبتلع ما سـواها، وتلك سُنَّة الله، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلًا.

وليسـت دعوة الإخوان بدعًا في الدعوات، فهي صدًى من الدعوة الأولـى يدوي في قلـوب هـؤلاء المؤمنين، ويتـردَّد على ألسـنتهم، ويحاولون أنْ يقذفوا به إيمانًا في قلوب الفئة المسلمة، ليظهر عملًا في تصرفاتها، ولتجتمـع قلوبها عليه، فإذا فعلوا ذلـك أيَّدهم الله ونصرهم وهداهم سواء السبيل[1].

(١) رسالة دعوتنا في طور جديد ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٤٠، ٢٤١.

QaradawiBooks.com

التدرُّج في الخطوات:

ومن خصائص الوسائل الإخوانيَّة أنَّها تقوم على التدرُّج لا على القفز، والتدرُّج سُنَّة من سنن الله الكونيَّة، كما أنَّه سُنَّة من سننه الشرعيَّة، وقد وضحنا ذلك في كتبنا، فليرجع إليه[١].

يقول الأستاذ البنَّا: وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنَّهم اعتقدوا أنَّ كل دعوة لا بدَّ لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثمَّ مرحلة التكوين وتخيُّر الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، ثمَّ بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج. وكثيرًا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبًا إلى جنب نظرًا لوحدة الدعوة وقوَّة الارتباط بينها جميعًا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخيَّر ويربِّي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك.

ولكن لا شكَّ في أنَّ الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلَّا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار، ومتانة التكوين.

في حدود هذه المراحل سارت دعوتنا ولا تزال تسير، فقد بدأنا بالدعوة فوجَّهناها إلى الأُمَّة في دروس متتالية، وفي رحلات متلاحقة، وفي مطبوعات كثيرة وفي حفلات عامَّة وخاصة، وفي جريدة الإخوان المسلمين الأولى ثمَّ في مجلة النذير الأسبوعيَّة، ولا زلنا ندعو، وسنظل

(١) من ذلك كتابنا: الصحوة الإسلاميَّة بين الجحود والتطرف صـ ٨٣، ٨٤، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ٢٠١٢م، والخصائص العامة للإسلام صـ ١٧٧ ـ ١٧٩، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

كذلك، حتَّى لا يكون هناك فرد واحد لم تصله دعوة الإخوان المسلمين على حقيقتها الناصعة، وعلى وجهها الصحيح.

ويأبى الله إلَّا أنْ يتم نوره. وأظنُّ أنَّنا وصلنا في هذه المرحلة إلى درجة نطمئن عليها وعلى اطراد السير فيها، وصار من ألزم واجباتنا أنْ نخطو الخطوة الثانية خطوة الاختيار والتكوين والتعبئة.

خطونا الخطوة الثانية في صور ثلاث:

١ ـ **الكتائب**: ويراد بها تقوية الصف بالتعارف، وتمازج النفوس والأرواح، ومقاومة العادات والمألوفات، والمران على حسن الصلة بالله تعالى، واستمداد النصر منه، وهذا هو معهد التربية الرُّوحيَّة للإخوان المسلمين.

٢ ـ **الفِرَق للكشَّافة والجوَّالة والألعاب الرياضيَّة**: ويُراد بها تقويةُ الصفِّ بتنمية جسوم الإخوان، وتعويدهم الطاعة والنظام والأخلاق الرياضيَّة الفاضلة، وإعدادهم للجنديَّة الصحيحة الَّتي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وهذا هو معهد التربية الجسمية للإخوان المسلمين.

٣ ـ **درس التعاليم في الكتائب أو في أندية الإخوان المسلمين**: ويراد بها تقوية الصف بتنمية أفكار الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم معرفته لدينه ودنياه، وهذا هو معهد التربية العلميَّة والفكريَّة للإخوان المسلمين.

ذلك إلى مختلف نواحي النشاط الأخرى الَّتي يُدرَّب بها الإخوان على الواجب الَّذي ينتظرهم كجماعة تعدُّ نفسها لقيادة أمة، بل لهداية العالمين.

QaradawiBooks.com

بعد أنْ نطمئن على مواقفنا من هذه الخطوة نخطو إنْ شاء الله الخطوة الثالثة، وهي الخطوة العمليَّة الَّتي تظهر بعدها الثمار الكاملة لدعوة الإخوان المسلمين. انتهى.

الوقوف في وجه المتعجلين:

وكان بين الإخوان أناس متحمسون مستعجلون، لا يحسنون التعامل مع سنن الله في خلقه، ولا يعرفون خلق الأناة والصبر، ولا قانون التدرج، ويريدون قطف الثمرة قبل أوانها، وقد عانى المرشد من هؤلاء ما عانى، وبعضهم فقد صبره تمامًا، فخرج من الجماعة، وبعضهم بقي ولكنَّه يشعر بالقلق، ويستطيل الطريق، وهؤلاء هم الَّذين خاطبهم الأستاذ في المؤتمر الخامس بقوة قائلًا:

أيُّها الإخوان المسلمون وبخاصَّة المتحمسون المتعجِّلون منكم:

اسمعوها مِنِّي كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: إنَّ طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده. ولست مخالفًا هذه الحدود الَّتي اقتنعت كل الاقناع بأنَّها أسلم طريق للوصول، أجل قد تكون طريقًا طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنَّما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أنْ يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقتطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال، وخير له أنْ ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات. ومن صبر معي حتَّى تنبت البذرة، وتنمو الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إمَّا النصر والسيادة، وإمَّا الشهادة والسعادة.

QaradawiBooks.com

ومن الكلمات البليغة الَّتي خاطب بها الأستاذ المرشد الإخوان في هذا الموقف قوله:

أيُّها الإخوان المسلمون:

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعَّة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة. ولا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقة، ولا تُصَادموا نواميس الكون فإنَّها غلَّابة، ولكن غالبوها واستخدموها، وحوِّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقَّبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد.

أيُّها الإخوان المسلمون:

إنَّكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين. ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال، ولكن كلَّفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد، ونحن بعد ذلك: إمَّا مخطئون، فلنا أجر العاملين المجتهدين، وإمَّا مصيبون، فلنا أجر الفائزين المصيبين. على أنَّ التجارب في الماضي والحاضر قد أثبتت أنَّه لا خير إلَّا في طريقكم، ولا إنتاج إلَّا مع خطتكم، ولا صواب إلَّا فيما تعملون، فلا تغامروا بجهودكم، ولا تقامروا بثمار نجاحكم. واعملوا والله معكم، ولن يتركم أعمالكم، والفوز للعاملين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣][1] اهـ.

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٢٥ ـ ١٢٧.

QaradawiBooks.com

متى تكون الخطوة التنفيذية:

أيُّها الإخوان المسلمون: نحن هنا في مؤتمر أعتبره مؤتمرًا عائليًّا يضمُّ أسرة الإخوان المسلمين، وأريد أنْ أكون معكم صريحًا للغاية، فلم تعد تنفعنا إلَّا المصارحة.

إنَّ ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحقِّ غير ميدان الجهاد الخاطئ.

يسهل على كثيرين أنْ يتخيَّلوا، ولكن ليس كلُّ خيال يدور بالبال يُستطاع تصويره أقوالًا باللسان، وإنَّ كثيرين يستطيعون أنْ يقولوا ولكنَّ قليلًا من هذا الكثير يثبت عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيع أنْ يعمل، ولكنَّ قليلًا منهم يقدر على حمل أعباء الجهاد الشاقِّ والعمل المضني، وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصَّة طالوت بيان لما أقول، فأعدُّوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل، العملِ القوي البغيض لديها الشاقِّ عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها.

وفي الوقت الَّذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهَّزت كلٌّ منها نفسها روحيًّا بالإيمان والعقيدة، وفكريًّا بالعلم والثقافة، وجسميًّا بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأنْ أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عَنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإنِّي فاعل إنْ شاء الله، وصدق رسول الله

QaradawiBooks.com

القائل: «**ولن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**»[١]. إنِّي أقدر لذلك وقتًا ليس طويلًا بعد توفيق الله واستمداد معونته، وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشر نواب الإخوان ومندوبيهم: أنْ تقصروا هذا الأجل إذا بذلتم همَّتكم وضاعفتم جهودكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب، وتختلف النتائج المترتبة عليه، فأشعروا أنفسكم العبء، وألِّفوا الكتائب، وكوِّنوا الفرق، وأقبلوا على الدروس، وسارعوا إلى التدريب، وانشروا دعوتكم في الجهات الَّتي لم تصل إليها بعد، ولا تضيِّعوا دقيقةً بغير عمل.

وقد يظنُّ من يسمع هذا أنَّ الإخوان المسلمين قليل عددهم أو ضعيف مجهودهم، ولست إلى هذا أقصد، وليس هذا هو مفهوم كلامي، فالإخوان المسلمون والحمد لله كثيرون. وإنَّ جماعة يمثلها في هذا الاجتماع آلاف من أعضائها، كل منهم ينوب عن شعبة كاملة، لأكثر من أنْ يستقل عددها، أو ينسى مجهودها، أو يغمط حقها، ولكن أقصد إلى ما ذكرت أولًا من أنَّ رجل القول غير رجل العمل، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد والمنهج الحكيم، الَّذي يؤدي إلى أعظم الربح بأقل التضحيات[٢].

* * *

(١) سبق تخريجه صـ١٠٦.

(٢) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٢٨، ١٢٩.

QaradawiBooks.com

٧

وضوح المواقف

وآخر المقومات السبعة لحركة الإخوان المسلمين هو: وضوح مواقفها ـ إلى حدٍّ كبير ـ من القضايا الكبيرة، الدينيَّة أو الفكريَّة أو السياسيَّة، أو الاجتماعيَّة، الَّتي تشغل الناس، وتجعلهم يتساءلون عنها، وعن موقف الإخوان منها.

ولم يكن الأستاذ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ ليهرب من هذه التساؤلات باللف والدوران، أو إرجاء الحديث عنها، أو تمييعه، بل تصدَّى للجواب بحكمة وشجاعة، مبينًا موقف دعوته من قضايا مهمة وحساسة يفر الكثيرون من تناولها، لما فيها مزالق وإحراجات.

وهذه الأجوبة أو المواقف قد تكون في بعض الأحيان مجملة غير مفصَّلة، أو ربَّما ينقصها التدليل الفقهي الموسع، أو التفصيل العلمي المشبع، ولكنَّها ـ في وقتها ـ كانت كافية لمن يريد أنْ يفهم، وفاتحة الطريق لمن يريد أنْ يتوسع، فهي مشاعل مضيئة، ومنارات هادية على الطريق، ولم يكن الأستاذ في موقف «الباحث» المتعمق، الَّذي يتتبع المصادر، بل في موقف «المصلح» الَّذي تكفيه الإشارة عن العبارة، والإجمال عن التفصيل، وقد يأتي يوم يتفرغ فيه لتفصيل ما أجمل، ولتفسير ما أبهم، وقد يقوم بذلك بعض إخوانه وتلاميذه في حياته أو من بعده، وكلٌّ ميَسَّرٌ لما خلق له.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثم هناك أمر آخر كان يخشاه الأستاذ البنَّا، وهو: أنَّ الدخول في التفاصيل، سيؤدي إلى اختلاف الآراء، وتعدد الاجتهادات، ومثل هذا ينبغي أنْ يؤجل حتَّى تنضج الجماعة، وتتهيَّأ لمثل هذا اللون من الخلاف الاجتهادي.

في رسائل الإمام البنَّا الأولى، مثل «رسالة المؤتمر الخامس» للإخوان، الَّذي عقد بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس الإخوان، و«رسالة المؤتمر السادس» بعدها، وفي رسالة «نحو النور» الَّتي وجَّهها إلى الملوك والرؤساء وقادة الأحزاب والجماعات والشخصيات البارزة في المجتمع المصري، وغيره من المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة، وكان ذلك في رجب سنة ١٣٦٦هـ أيام حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا، وفي رسالة «دعوتنا في طور جديد» وقد كتبت سنة ١٩٤٢م. في هذه الرسائل نجد حسن البنَّا يوضح موقف الإخوان من عدد من القضايا المهمَّة، ولا يبخل بالجواب عمَّن سأل عن حقيقة موقف الجماعة منها، سواء كان ذلك داخل الإخوان، الَّذين يحبُّون أنْ يعرفوا موقف دعوتهم ويفهموه ويبلغوه للناس، أم كان من خارج الجماعة، ممَّن يحبونها ويوالونها ويودون أنْ يتعرفوا على مواقفها أو ممَّن يضمرون لها السوء، ويودون أنْ يشوِّشوا عليها.

وسنذكر هنا عددًا من القضايا الَّتي بيَّنها الإمام الشهيد عليه رحمة الله ورضوانه.

الإخوان واستخدام القوَّة:

في «رسالة المؤتمر الخامس» يردُّ الأستاذ البنَّا على تساؤل الكثير من الناس: هل في عزم الإخوان استخدام القوَّة للوصول إلى غايتهم وتحقيق

QaradawiBooks.com

أغراضهم؟ ويجيب الأستاذ عن ذلك بوضوح وجلاء، فيبيِّن: أنَّ القوَّة شعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في صراحة وجلاء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والنبي ﷺ يقول: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف**»(١).

ولكنَّه يذكر أنَّ الإخوان أعمق فكرًا وأبعد نظرًا من أنْ تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها ولا يزنوا نتائجها، وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أنَّ أوَّل درجة من درجات القوَّة قوَّة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوَّة الوحدة والارتباط، ثمَّ بعدهما قوَّة الساعد والسلاح. ولا يصح أنْ توصف جماعة بالقوة حتَّى تتوفر لها هذه المعاني جميعًا. وإنَّها إذا استخدمت قوَّة الساعد والسلاح، وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام، أو ضعيفة خامدة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام ـ والقوَّة شعاره ـ باستخدام القوَّة في كل الظروف والأحوال؟ أم حدَّد لذلك حدودًا، واشترط شروطًا ووجَّه القوَّة توجيهًا محددًا؟

ونظرة ثالثة: هل تكون القوَّة أوَّل العلاج أَمْ إنَّ آخر الدواء الكي؟ وهل من الواجب أنْ يوازن الإنسان بين نتائج القوَّة النافعة ونتائجها الضارة، وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أنْ يستخدم القوَّة وليكن بعد ذلك ما يكون؟

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوَّة قبل أنْ يقدموا عليه، وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: إنَّ الإخوان المسلمين سيستخدمون القوَّة العمليَّة حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنَّهم قد استكملوا عدَّة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوَّة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولًا، وينتظرون بعد ذلك، ثمَّ يقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح[1] اهـ.

هذه القوَّة الَّتي أشار إليها الإمام الشهيد، ليست هي الاغتيال السياسي، ولا قتل المدنيِّين، ولا تدمير المنشآت، فهذه لا يُصارَح بها، بل تتمُّ في تكتُّم وسِرِّيَّة، ولعلَّ المقصود هنا: أنْ تقوم القوَّات المسلحة بذلك، حين يقتنع رجالها بالفكرة الإسلاميَّة، كما حدث أخيرًا في السودان، حيث قامت «ثورة الإنقاذ» الَّتي لم يُرَقْ فيها قطرة دم، ولعلَّ البنَّا كان يريد أنْ يقوم بما قام به عبد الناصر من بعد.

ذلك أنَّ الأستاذ يرفض «الثورة الشعبيَّة» العامَّة، فهو يراها أعنف مظاهر القوَّة، ويرى عدم جدواها، ولهذا لا يفكر الإخوان فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأنَّ الحال إذا دامت على هذا المنوال، ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهذه المشاكل، فسيؤدِّي ذلك حتمًا إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح، وليست هذه المشاكل الَّتي تتعقد بمرور الزمن

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٣٤ ـ ١٣٦.

QaradawiBooks.com

ويستفحل أمرها بمضي الأيام إلَّا نذيرًا من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال.

الإخوان المسلمون والحكم:

ويردُّ الأستاذ البنَّا على تساؤل فريق آخر من الناس: هل في منهاج الإخوان المسلمين أنْ يكوِّنوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم؟ وما وسيلتهم إلى ذلك؟

ويرد الأستاذ بصراحة، لا يدع السائلين في حيرة، ولا يبخل عليهم بالجواب، ويبين في إجابته: أنَّ الإخوان يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدي الإسلام الحنيف كما فهموه، وهذا الإسلام يجعل الحكومة ركنًا من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقديمًا قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إنَّ الله ليَزَعُ بالسلطانِ ما لا يزعُ بالقرآن»[(١)].

وقد جعل النبيُّ ﷺ الحكم عروة من عُرا الإسلام[(٢)]. والحكم معدودٌ في كتبنا الفقهيَّة من العقائد والأصول، لا من الفقهيَّات والفروع[(٣)]، فالإسلام حكمٌ وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء،

(١) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤١٦/١١)، تحقيق عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبويَّة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) رواه أحمد (٢٢١٦٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده جيد. وابن حبان في التاريخ (٦٧١٥)، والحاكم في الأحكام (٩٢/٤)، وصحَّح إسناده، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢١١): رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح. عن أبي أمامة الباهلي بلفظ: «لتُنْقَضَنَّ عُرا الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم وآخرهن الصلاة».

(٣) لعله يقصد أنَّه يذكر في كتب العقائد في الحديث عن الإمامة ووجوبها وشروطها، وإن كانت أحكام الإمامة عند أهل السُّنَّة من الفروع كما يذكر الحكم والحاكم والحاكمية في مقدمات «أصول الفقه» عادة.

QaradawiBooks.com

لا ينفكُّ واحد منها عن الآخر، والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أنْ يكون فقيهًا مرشدًا يقرِّر الأحكام، ويرتِّل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأُمَّة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره، فإنَّ النتيجة الطبيعية أنَّ صوت هذا المصلح سيكون صرخةً في وادٍ ونفخةً في رمادٍ كما يقولون.

ثم يقول الأستاذ: قد يكون مفهومًا أنْ يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاءً لأوامر الله وتنفيذًا لأحكامه، وإيصالًا لآياته وأحاديث نبيِّه ﷺ، وأمَّا والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في وادٍ والتشريع الفعلي التنفيذي في وادٍ آخر، فإنَّ قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلاميَّة لا يكفِّرها إلَّا النهوض واستخلاص قوَّة التنفيذ من أيدي الَّذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف.

هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف، وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأُمَّة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة، والحكم بمنهاج إسلامي قرآني، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإنْ لم يجدوا فالحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تُنفذ أوامر الله.

ثم يشير الأستاذ على قضيَّة كبيرة ومهمَّة، وهي ضرورة تهيئة الشعب عقليًّا ونفسيًّا وأخلاقيًّا لحكم الإسلام، فيقول: «وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أنْ يتقدموا لمهمَّة الحكم، ونفوس الأُمَّة على هذا الحال، فلا بدَّ من فترة تنتشر فيها مبادئ الإخوان وتسود،

QaradawiBooks.com

ويتعلم فيها الشعب كيف يؤْثر المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصة»[١] اهـ.

لا بدَّ إذن من إعداد الشعب وتهيئة الأجواء، حتَّى يكون الحكم الإسلامي نابعًا من رغبات النَّاس واختيارهم، لا قرارًا فوقيًّا مفروضًا عليهم.

وهذا يُعبَّر عنه اليوم في مصر ـ ومنذ سنين عدَّة ـ بفكرة «التدرُّج» في تطبيق الشريعة، وهو ما أيَّدناه فيما كتبناه، فالتدرُّج سُنَّة كونيَّة، وسُنَّة شَرْعِيَّة، بشرط ألَّا يكون المقصود بكلمة التدرُّج: «تمويت القضيَّة»، إنَّما التدرُّج الحقيقي أنْ يُحَدَّد الهدف، وتوضع الخُطَّة لتنفيذه، على مراحل مُعَيَّنة، كل مرحلة تسلم إلى أخرى في مدة معلومة، أو قريبة من المعلومة.

فهذا هو التدرُّج المطلوب، لا أنْ يظل النَّاس في موقفهم «محلك سر» ولا يتقدُّمون خطوة إلى الأمام، ثمَّ يقال: نحن نتدرَّج[٢]!

ويختم البنَّا هذا الموضوع بهذه الكلمة:

«وكلمة لا بدَّ أنْ نقولها في هذا الموقف هي أنَّ الإخوان المسلمين لم يروا في حكومة من الحكومات الَّتي عاصروها ـ لا الحكومة القائمة ولا الحكومة السابقة، ولا غيرهما من الحكومات الحزبيَّة ـ من ينهض بهذا العبء، أو من يبدي الاستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلاميَّة، فلتعلم الأُمَّة ذلك، ولتطالب حكامها بحقوقها الإسلاميَّة، وليعمل الإخوان المسلمون»[٣].

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد صـ ١٣٦، ١٣٧.

(٢) انظر كتابنا: السياسة الشرعية صـ ٣٢٠ ـ ٣٢٩، فصل: فقه التغيير، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٣) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٣٦، ١٣٧.

QaradawiBooks.com

موقف الإخوان من الدستور:

وتعرض الأستاذ البنَّا في هذه الرسالة أيضًا إلى موقف الإخوان من الدستور، وقال في ذلك: إنَّ الباحث حيث ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري الَّتي تتلخص في المحافظة على الحريَّة الشخصيَّة بكل أنواعها، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأُمَّة، وعلى مسؤوليَّة الحكام أمام الشعب، ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال، وبيان حدود كل سلطة من السلطات، هذه الأصول كلها تتجلى للباحث أنَّها تنطبق كلَّ الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم.

ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أنَّ نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظامًا آخر.

بقي بعد ذلك أمران:

أوَّلهما: النصوص الَّتي تصاغ في قالبها هذه المبادئ.

ثانيهما: طريقة التطبيق الَّتي تفسَّر بها عمليًّا هذه النصوص.

إنَّ المبدأ السليم القويم قد يوضع في نص مبهم غامض، فيدع مجالًا للعبث بسلامة المبدأ في ذاته، وإنَّ النص الظاهر الواضح للمبدأ السليم القويم قد يطبَّق وينفَّذ بطريقة يمليها الهوى وتوحيها الشهوات، فيذهب هذا التطبيق بكل ما يرجى من فائدة.

وإذا تقرَّر هذا فإنَّ من نصوص الدستور المصري ما يراه الإخوان المسلمون مبهمًا غامضًا يدع مجالًا واسعًا للتأويل والتفسير، الَّذي تمليه الغايات والأهواء، فهي في حاجة إلى وضوح وإلى تحديد وبيان، هذه

QaradawiBooks.com

واحدة، والثانية هي أنَّ طريقة التنفيذ الَّتي يطبَّق بها الدستور، ويُتوصَّل بها إلى جني ثمرات الحكم الدستوري في مصر، طريقة أثبتت التجارب فشلها، وجنت الأُمَّة منهما الأضرار لا المنافع، فهي في حاجة شديدة إلى تحوير وإلى تعديل يحقق المقصود ويفي بالغاية.

وأشار الأستاذ هنا إلى قانون الانتخاب، وما فيه من قصور يجب تلافيه، ثمَّ قال: لهذا يعمل الإخوان المسلمون جهدهم حتَّى تحدد النصوص المبهمة في الدستور المصري، وتعدل الطريقة الَّتي ينفذ بها هذا الدستور في البلاد، وأظنُّ أنَّ موقف الإخوان قد وضح بهذا البيان، ورُدَّتْ الأمور إلى نصابها الصحيح.

وقد عاد الأستاذ البنَّا إلى هذا الموضوع، وفصَّل فيه أكثر، حين تحدث عن «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» وخصوصًا عن «نظام الحكم» ومسؤولية الوزراء، وغموض الدستور، ونقل عن الدكتور إبراهيم مدكور، والأستاذ مريت غالي بعض ما قالاه عن «الدستور وغموضه» ولا سيَّما حول سلطة الوزراء، وصلتهم بالشعب ممثلة في نوابه، وموقفهم من رئيس الدولة، إلخ.

الإخوان المسلمون والقانون:

وإذا كان هذا موقف الإخوان من الدستور ـ وهو أبو القانون ـ فما موقفهم من القوانين نفسها؟

يقول الأستاذ البنَّا: إنَّ الإسلام لم يجئ خُلُوًّا من القوانين، بل هو قد أوضح كثيرًا من أصول التشريع وجزئيَّات الأحكام، سواء أكانت ماديَّة أم جنائيَّة، تجاريَّة أو دوليَّة، والقرآن والأحاديث فيَّاضة بهذه المعاني، وكتب الفقهاء غنيَّة كل الغني بكل هذه النواحي، وقد اعترف الأجانب أنفسهم

QaradawiBooks.com

بهذه الحقيقة، وأقرَّها مؤتمر لاهاي الدولي أمام ممثلي الأمم من رجال القانون في العالم كلِّه.

فمن غير المفهوم ولا المعقول أنْ يكون القانون في أُمَّة إسلاميَّة متناقضًا مع تعاليم دينها وأحكام قرآنها وسنَّة نبيِّها، مصطدمًا كلَّ الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله، وقد حذَّر الله نبيَّه ﷺ ذلك من قبل، فقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۞ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠]، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧]، فكيف يكون موقف المسلم الَّذي يؤمن بالله وكلماته إذا سمع هذه الآيات البيِّنات وغيرها من الأحاديث والأحكام، ثمَّ رأى نفسه محكومًا بقانون يصطدم معها؟ فإذا طالب بالتعديل قيل له: إنَّ الأجانب لا يرضون بهذا ولا يوافقون عليه، ثمَّ يقال بعد هذا الحجر والتضييق: إنَّ المصريِّين مستقلُّون وهم لم يملكوا بعد أنْ يتمتعوا بحريَّة الدين، وهي أقدس الحريَّات.

على أنَّ هذه القوانين الوضعيَّة كما تصطدم بالدِّين ونصوصه، تصطدم بالدستور الوضعي نفسه الَّذي يقرِّر أنَّ دين الدولة هو الإسلام، فكيف نوفِّق بين هذين يا أولي الألباب؟

وأقول: وإذا كان الدستور القديم قد اكتفى بالنص على أنَّ دين الدولة هو الإسلام، فإنَّ الدستور الحالي يضيف مادة لها أهميتها البالغة، هي: أنَّ مبادئ الشريعة الإسلاميَّة هي المصدر الرئيسي للقوانين.

QaradawiBooks.com

ثم يقول الأستاذ في غَيْرةٍ وتحدٍّ: وإذا كان الله ورسوله قد حرَّم الزنى وحظر الربا، ومنع الخمور، وحارب الميسر، وجاء القانون يحمي الزانية والزاني، ويلزم بالربا، ويبيح الخمر، وينظم القمار، فكيف يكون موقف المسلم بينهما؟ أيطيع الله ورسوله ويعصي الحكومة وقانونها ـ والله خير وأبقى ـ؟ أم يعصي الله ورسوله، ويطيع الحكومة، فيشقى في الآخرة والأولى؟ نريد الجواب على هذا من رفعة رئيس الحكومة ومعالي وزير العدل ومن علمائنا الفضلاء الأجلاء.

أما الإخوان المسلمون فهم لا يوافقون على هذا القانون أبدًا، ولا يرضونه بحال، وسيعملون بكل سبيل على أنْ يحل مكانه التشريع الإسلامي العادل الفاصل في نواحي القانون»[1].

الإخوان والأحزاب السياسيَّة:

تحدَّث الأستاذ البنَّا عن الحزبيَّة والأحزاب المصريَّة في أكثر من رسالة له، وهو يعارض الحزبيَّة والأحزاب، لما رأى من سوء أثرها، وتفريقها لأبناء الوطن الواحد، ولهذا لا يفاضل بينها، ولا ينحاز لواحدٍ منها.

ما تتَّفق فيه الأحزاب وما تختلف:

ولكن يعتقد أنَّها تتَّفق جميعًا في عدَّة أمور:

تتَّفق في أنَّ كثيرًا من رجالها قد عملوا على خدمة القضيَّة السياسيَّة المصريَّة واشتركوا فعلًا في الجهاد في سبيلها، وفي الوصول إلى

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٣٨ ـ ١٤٠.

QaradawiBooks.com

ما وصلت إليه مصر من ثمرات هذا الجهاد الضئيلة أو الجليلة، فنحن في هذه الناحية لا نبخس هؤلاء الرجال حقَّهم.

وتتفق كذلك في أنَّ حزبًا منها لم يحدد بعد منهاجًا دقيقًا لما يريد من ضروب الإصلاح، ولم يضع هدفًا يرمي إليه، وهي لهذا لا تتفاوت في المناهج والأغراض والغايات.

وتتفق كذلك في أنَّها جميعًا لم تقتنع بعد بوجوب المناداة بالإصلاح الاجتماعي على قواعد الإسلام وتعاليم الإسلام، ولا زال أقطابها جميعًا يفهمون الإسلام على أنَّه ضروبٌ من العبادات والروحانيات لا صلة لها بحياة الأمم والشعوب الاجتماعيَّة والدنيوية.

وتتَّفق بعد ذلك في أنَّها تعاقبت على حكم هذا البلد فلم تأت بجديد، ولم يجد النَّاس في ظل حكمها ما كانوا يأملون من تقدم مادي أو أدبي، ولقد كان لهذا أثره العملي، فقامت في مصر الحكومات غير الحزبيَّة في أحرج الظروف وأدقِّ المواقف، ومنها الحكومة الحاليَّة.

وإذن فلا خلاف بين الأحزاب المصريَّة إلَّا في مظاهر شكليَّة، وشؤون شخصيَّة، لا يهتمُّ لها الإخوان المسلمون، ولهذا فهم ينظرون إلى هذه الأحزاب جميعًا نظرة واحدة، ويرفعون دعوتهم ـ وهي ميراث رسول الله ﷺ ـ فوق هذا المستوى الحزبي كله، ويوجهونها واضحة مستنيرة إلى كل رجال هذه الأحزاب على السواء، ويودون أنْ لو أدرك حضراتهم هذه الحقيقة، وقدروا هذه الظروف الدقيقة، ونزلوا على حكم الوطنيَّة الصحيحة، فتوحدت كلمتهم، واجتمعوا على منهاج واحد، تصلح به الأحوال وتتحقق الآمال، وليس أمامهم إلَّا منهاج الإخوان المسلمين، بل هدي ربِّ العالمين، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

QaradawiBooks.com

ومع هذا يقول الأستاذ البنَّا: ونحن لا نهاجم لأنَّنا في حاجة إلى الجهد الَّذي يبذل في الخصومة والكفاح السلبي لننفقه في عمل نافع وكفاح إيجابي، وندع حسابهم للزمن معتقدين أنَّ البقاء دائمًا للأصلح ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧][(١)] اهـ.

وقد انتهى اجتهاد الإمام البنَّا إلى وجوب حلِّ الأحزاب جميعًا، وإقامة حزب واحد وجبهة واحدة، تقوم بعبء التحرير والإصلاح، بدل هذا التشرذم الَّذي لا يستفيد منه غير الأعداء.

ولا ريب أنَّ رأي الإمام الشهيد ـ كان مؤسَّسًا على واقع الأحزاب في زمنه، وحاجة مصر إلى الوحدة، وتكتل القوى الوطنيَّة كلها في مواجهة الاحتلال الإنجليزي الغاشم، فلا غرو أنْ ينتهي إلى وجوب حلِّ الأحزاب كلها، وإقامة جبهة واحدة تضم الجميع.

ولا شك أنَّ ثورة يوليو ١٩٥٢م استفادت من هذا الكلام، وحلَّت الأحزاب كلَّها، واستثنت الإخوان أوَّل الأمر، ثمَّ ضمَّتهم بعد ذلك إلى القائمة، وأنشأ عبد الناصر «الاتحاد الاشتراكي» ليضمَّ «قوى الشعب العاملة»[(٢)]، ولم يكن البنَّا يقصد إلى شيءٍ من هذا قطعًا.

ومن هنا خالف اجتهادنا اجتهاد إمامنا الشهيد في هذه القضيَّة، وقدمنا دراستنا عن مشروعيَّة تعدُّد الأحزاب في الدولة الإسلاميَّة[(٣)]، وقلتُ في ذلك: إنَّ تعدُّد الأحزاب أشبه بتعدُّد المذاهب في الفقه، فكلٌّ

(١) رسالة المؤتمر السادس ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢١٥.

(٢) في أول الأمر أنشأ «هيئة التحرير» لتكون حزب الحكومة، ثم غيرها إلى «الاتحاد القومي» وانتهى إلى «الاتحاد الاشتراكي».

(٣) انظر كتابنا: من فقه الدولة في الإسلام صـ ١٤٧ ـ ١٦١، فصل: تعدد الأحزاب في ظل الدولة الإسلامية، نشر دار الشروق، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٩م.

QaradawiBooks.com

مذهب له أصولـــه ورؤيته الخاصَّة الَّتي قد تختلـــف مع أصول الآخرين ورؤيتهم، وهذا الاختلاف له أثره في القضايا والمواقف العمليَّة.

وممَّا قلته هنـــا: إنَّ الأحزاب إنَّما هي مذاهب في السياســـة، كما أنَّ المذاهب إنَّما هي أحزاب في الفقه!

وأعتقد أنِّي بخلافي هذا للإمام الشهيد، لم أخرج عن منهجه الكلِّي، ولا عن أصوله الَّتي دعا إليها، فهو لم يدعُ أهل العلم إلى التقليد، وإنَّما دعاهم إلى النظـــر والبحث والاجتهـــاد، وأحمد الله تعالـــى أنَّ جماعة الإخوان المسلمين، وتنظيمها العالمي، قد تبنت هذه الفكرة، ولم تجمد على رأي مؤسســـها رَحِمَهُ اللَّهُ رغم ما تكنُّ له ـ وما أكنُّ له أنا شخصيًّا ـ من حبٍّ وتقدير، ولكـــن الزمن تغيَّر، فتغيَّـــر الموقف، وتغيَّـــرت الفتوى، وأحســـب لو رأى الإمام البنَّا ما رأيناه من طغيان «الحزب الواحد» على سائر قوى الشعب، وبطشه بمخالفيه، لغيَّر رأيه واجتهاده، كما غيَّرناه.

الإخوان والهيئات الإسلاميَّة:

ويبقى الســـؤال عن موقف الإخوان من الجماعات الدينيَّة والهيئات الإســـلاميَّة الأخرى، وفي «رســـالة المؤتمر الســـادس» يُحدِّد البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ الموقف من الهيئات والجماعات الإسلاميَّة المتعددة، فيقول: وأما موقفنا من الهيئات الإسلاميَّة جميعًا على اختلاف نزعاتها، فموقف حبٍّ وإخاء وتعاون وولاء، نحبها ونعاونها، ونحاول جاهدين أنْ نقرِّب بين وجهات النظر، ونوفق بين مختلف الفكر، توفيقًا ينتصر به الحق في ظل التعاون والحب، لا يباعد بيننـــا وبينها رأي فقهي أو خـــلاف مذهبي، فدين الله يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلَّا غلبه[1]، ولقد وفقنا الله إلى خطة مثلى، إذ

(١) كما في حديث أبي هريرة: رواه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤)، كلاهما في الإيمان.

QaradawiBooks.com

نتحرَّى الحق في أسلوب لين، يستهوي القلوب، وتطمئن إليه العقول، ونعتقد أنَّه سيأتي اليوم الَّذي تزول فيه الأسماء والألقاب والفوارق الشكليَّة، والحواجز النظرية، وتحل محلها وحدة عمليَّة تجمع صفوف الكتيبة المحمدية حيث لا يكون هناك إلَّا إخوان مسلمون، للدين عاملون، وفي سبيل الله مجاهدون: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦][1].

وأنا أقول: إنَّ توحيد الجماعات الإسلاميَّة في جماعة أو كتيبة محمديَّة واحدةٍ أمنيةٌ عذبة حلوة المذاق، ولكنَّها ـ في عالم الواقع ـ بعيدة المنال.

ولهذا ذكرت في عدد من كتبي أنَّه لا مانع أنْ تتعدد الجماعات والهيئات العاملة للإسلام، على أنْ يكون تعددها تعدُّد تنوع وتخصص، لا تعدد صراع وتناقض، فميدان العمل رحب، وهو يتسع لأكثر من جماعة وأكثر من حركة.

ولكن يجب على الجميع أنْ يتفاهموا ويتعانوا، وأن يكمل بعضهم بعضًا، لا أنْ تعمل كل فئة لهدم ما سواها، وعليهم أنْ يقفوا في القضايا المصيريَّة موقفًا واحدًا، وأن يتراصوا كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ويجب الحرص على ما أشار إليه الأستاذ البنَّا من تحرِّي الحق في أسلوب لين، يستهوي القلوب، وتطمئن إليه العقول، والتقريب بين

(١) رسالة المؤتمر السادس ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢١٦.

QaradawiBooks.com

وجهات النظر، ومختلف الفكر، في ظل التعاون والحب، ولا ينبغي أنْ يباعد بين العاملين للإسلام خلاف منهجي أو رأي فقهي؛ فكليَّات الإسلام تسع الجميع.

قضيَّة الخلافات الدينيَّة:

وفي قضيَّة الخلافات الدينيَّة، بين الجمعيات والهيئات الإسلاميَّة بعضها وبعض ـ سواء أكان ذلك في الفرعيات العقيدية، أم في الفرعيات الفقهيَّة أم في الفرعيَّات السلوكيَّة ـ نجد الأستاذ البنَّا قد عالج ذلك في أكثر من رسالة ولا سيَّما «رسالة التعاليم»، ووضع لذلك «الأصول العشرين» الشهيرة الَّتي صاغها رَحِمَهُ اللَّهُ بحكمة واعتدال، بحيث يجتمع عليها المختلفون إذا صلحت سرائرهم، وصدقت نياتهم، ورغبوا في التعاون على نصرة الإسلام، والتصدِّي لأعدائهم الَّذين يختلفون فيما بينهم على أمور كثيرة، فإذا كان العدو هو الإسلام اتحدت كلمتهم. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [الجاثية: ١٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

لم ترفض هذه الأصول: التصوُّف كله، كما تفعل بعض الطوائف، ولم تقبله بعُجَره وبُجَره، وسُنَنه ومبتدعاته، كما تفعل طوائف أخرى، بل أخذ من التصوُّف وترك، أخذ السُّنَّة وترك البدعة، أخذ الحقَّ ورفض الباطل، ولذا أنكر الشركيَّات والقبوريَّات وما اتَّصل بذلك، ورفض الابتداع في العبادة، وخصوصًا إذا كانت البدعة بدعة أصليَّة، وألان القول في البدع الإضافيَّة والالتزام في العبادات، فقد ذكر أنَّ فيه خلافًا، كما ذكر أنَّ الدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه بالنبي أو بالصالحين أو بالملائكة، ونحو ذلك: قد اختلف فيه، وهو خلاف في

QaradawiBooks.com

كيفيَّة الدعاء أي في العمل، وليس من مسائل العقيدة، ما دام المدعو هو الله تعالى، ونحو هذا قاله الإمام محمَّد بن عبد الوهاب في بعض كتبه[١].

وممَّا قاله في الأصول: وكلُّ أحدٍ يؤخذ من كلامه ويُتْرَك إلَّا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقًا للكتاب والسُّنَّة قبلناه، وإلَّا فكتاب الله وسنَّته أولى بالاتباع، ولكنَّا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نيَّاتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا.

ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية: أنْ يتَّبع إمامًا من أئمَّة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أنْ يجتهد ما استطاع في تعرُّف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صحَّ عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي ـ إن كان من أهل العلم ـ حتَّى يبلغ درجة النظر.

والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببًا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف، في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غير أنْ يجرَّ ذلك إلى المراء المذموم والمتعصب.

وكل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها من التكلُّف الَّذي نهينا عنه شرعًا، إلخ[٢].

(١) فتاوى ومسائل للشيخ محمد بن عبد الوهاب صـ ٦٨، ٦٩، تحقيق صالح بن عبد الرحمٰن الأطرم ومحمد بن عبد الرزاق الدويش، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود.

(٢) انظر: الأصول العشرين في رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٥٧.

QaradawiBooks.com

هذه مجموعة من الأصول العشرين، تنمُّ عن حكمة بالغة، وعن فقه عميق في دين الله، وفهم دقيق لواقع الناس، ومن شأن العمل بهذه الأصول أنْ يضيِّق شقة الخلاف، وأن يحوِّل الضروري منه إلى سعة ورحمة، وقد تبنى الأستاذ البنَّا قاعدة «المنار الذهبية» الَّتي تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»[1] حتَّى ظنَّ بعض الإخوان أنَّها من كلمات المرشد رَحِمَهُ اللَّهُ.

دعوة تجمع ولا تفرق:

وفي رسالة «دعوتنا» تحدث الإمام البنَّا عن موقف الدعوة أمام الخلافات الدينيَّة والآراء المذهبيَّة، فألقى عليها ضوءًا كاشفًا، حين بيَّن أنَّ دعوة الإخوان المسلمين دعوة عامَّة لا تنسب إلى طائفة خاصَّة، ولا تنحاز إلى رأي عرف عند النَّاس بلون خاص، ومستلزمات وتوابع خاصَّة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولُبِّه، وتودُّ أنْ تتوحَّد وجهة الأنظار والهمم حتَّى يكون العمل أجدى، والإنتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تحب الإجماع وتكره الشذوذ، وإنَّ أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة، ولن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلَّا بما صلح به أولها. هذه قاعدة أساسيَّة وهدف معلوم لكل أخ مسلم، وعقيدة راسخة في نفوسنا، نصدر عنها وندعو إليها.

(١) راجع تدليلنا على صحة هذه القاعدة في كتابنا: فتاوى معاصرة (١٤١/٢ ـ ١٥١)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

الخلاف ضروري لأسباب:

ثم بيَّن أنَّ الخلاف في فروع الدين أمر لا بدَّ منه ضرورة[١]، ولا يمكن أنْ تتَّحِد في هذه الفروع الآراء والمذاهب لأسباب عدة:

منها: اختلاف العقول في قوَّة الاستنباط أو ضعفه، وإدراك الدلائل والجهل بها، والغوص على أعماق المعاني، وارتباط الحقائق بعضها ببعض، والدين آيات وأحاديث، ونصوص يفسرها العقل والرأي في حدود اللغة وقوانينها، والناس في ذلك جدُّ متفاوتين فلا بدَّ من خلاف.

ومنها: سعة العلم وضيقه، وأنَّ هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك والآخر شأنه كذلك. وقد قال مالك لأبي جعفر: إنَّ أصحاب رسول الله ﷺ تفرَّقوا في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة[٢].

ومنها: اختلاف البيئات حتَّى إنَّ التطبيق ليختلف باختلاف كل بيئة، وإنك لترى الإمام الشافعي رحمه الله يفتي بالقديم في العراق ويفتي بالجديد في مصر، وهو في كليهما آخذ بما استبان له وما اتضح عنده، لا يعدو أنْ يتحرَّى الحق في كليهما.

ومنها: اختلاف الاطمئنان القلبي إلى الرواية عند التلقين بها، فبينا نجد هذا الراوي ثقة عند هذا الإمام تطمئن إليه نفسه وتطيب بالأخذ عنه، تراه مجروحًا عند غيره لما علم عن حاله.

---

(١) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم صـ ٤٢ ـ ٤٩، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م. بيَّنت أنَّ الاختلاف في الفروع: ضرورة ورحمة وسعة، فهو ضرورة دينية، وضرورة لغوية، وضرورة بشرية، وضرورة كونية. فليرجع إليه.

(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (٧٢/٢، ٧٣)، نشر مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط١.

QaradawiBooks.com

ومنها: اختلاف تقدير الدلالات، فهذا يعتبِر عمل النَّاس مقدمًا على خبر الآحاد مثلًا، وذاك لا يقوم معه به، وهكذا[١].

الإجماع على أمر فرعي متعذِّر:

ثم قال: هذه أسباب جعلتنا نعتقد أنَّ الإجماع على أمر واحد في فروع الدين مطلب مستحيل، بل هو يتنافى مع طبيعة الدين، وإنَّما يريد الله لهذا الدين أنْ يبقى ويخلد ويساير العصور ويماشي الأزمان، وهو لهذا سهل مرن هين لين لا جمود فيه ولا تشديد.

نعتقد هذا فنلتمس العذر كل العذر لمن يخالفوننا في بعض الفرعيات، ونرى أنَّ هذا الخلاف لا يكون أبدًا حائلًا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب، والتعاون على الخير، وأنْ يشملنا وإيَّاهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده، وأوسع مشتملاته، ألسنا مسلمين وهم كذلك؟ وألسنا نحب أنْ ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا؟ ففيم الخلاف إذن؟ ولماذا لا يكون رأينا مجالًا للنظر عندهم كرأيهم عندنا؟ ولماذا لا نتفاهم في جو الصفاء والحب إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم؟

هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان يخالف بعضهم بعضًا في الإفتاء، فهل أوقع ذلك اختلافًا بينهم في القلوب؟ وهل فرَّق

(١) ألَّف الشيخ الدهلوي رسالة اختلاف الفقهاء، وعرض لها في كتابه حجة الله البالغة (٤١٥/١) وما بعدها، نشر دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، كما تعرض لها الشيخ شلتوت في القسم الأخير من كتابه الإسلام عقيدة وشريعة صـ ٤٣٤ وما بعدها، نشر الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م، وألَّف فيها الشيخ علي الخفيف كتابًا كاملًا، ألقاه محاضرات في معهد الدراسات العربية العالمية، بعنوان: أسباب اختلاف الفقهاء، نشر دار الفكر العربي.

QaradawiBooks.com

وحدتهم أو مزَّق رابطتهم؟ اللهـــمَّ لا، وما حديث صلاة العصر في بني قريظة ببعيد[١].

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهـــم أقرب النَّاس عهدًا بالنبوَّة وأعرفهم بقرائن الأحكام، فما بالنا نتناحر في خلافات تافهة لا خطر لها؟ وإذا كان الأئمة وهم أعلم النَّاس بكتاب الله وسُـــنَّة رسوله قد اختلف بعضهم مع بعض، وناظر بعضهم بعضًا، فلم لا يسعنا ما وسعهم؟ وإذا كان الخلاف قد وقع في أشـــهر المســـائل الفرعية وأوضحها كالأذان الَّذي ينادى به خمس مرات في اليوم الواحـــد، ووردت به النصوص والآثار، فما بالك في دقائق المسائل الَّتي مرجعها إلى الرأي والاستنباط؟

وثم أمر جديـــر بالنظـــر: أنَّ النَّاس كانـــوا إذا اختلفـــوا رجعوا إلى «الخليفة» وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفـــة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمســـلمين أنْ يبحثوا عن القاضي، ثـــمَّ يعرضـــوا قضيتهم عليه، فـــإنَّ اختلافهم مـــن غير مرجع لا يردهم إلَّا إلى خلاف آخر.

يعلم الإخوان المســـلمون كلَّ هذه الحيثيَّات، فهم لهذا أوسع النَّاس صدرًا مـــع مخالفيهم، ويرون أنَّ مع كل قوم علمًـــا، وفي كل دعوة حقًّا وباطلًا، فهم يتحرون الحق، ويأخذون بـــه، ويحاولون في هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم، فإن اقتنعوا فذاك، وإن لم يقتنعوا فإخوان في الدين، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «لا يُصَلِّيَنَّ أحد العصر إلَّا في بني قُرَيْظة». رواه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد (١٧٧٠)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم في المسائل الفرعيَّة في دين الله، يمكن أنْ أجمله لك في أنَّ الإخوان: يجيزون الخلاف ويكرهون التعصب للرأي، ويحاولون الوصول إلى الحق، ويحملون النَّاس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب[١].

البعد عن مواطن الخلاف:

ويعود الأستاذ إلى ذلك في «رسالة المؤتمر الخامس» فيوضح أنَّ من خصائص دعوة الإخوان البعد عن مواطن الخلاف الفقهي؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّ الخلاف في الفرعيَّات أمر لا بدَّ منه، إذ إنَّ أصول الإسلام: آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام، لهذا كان الخلاف واقعًا بين الصحابة أنفسهم، وما زال كذلك، وسيظل إلى يوم القيامة. وما أحكم الإمام مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ، حين قال لأبي جعفر، وقد أراد أنْ يحمل النَّاس على «الموطأ»: «إنَّ أصحاب رسول الله ﷺ تفرَّقوا في الأمصار، وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة»[٢]. وليس العيب في الخلاف، ولكن العيب في التعصب للرأي، والحجر على عقول النَّاس وآرائهم.

هذه النظرة إلى الأمور الخلافيَّة جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب النَّاس أنْ يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلمًا، كما قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة تريد أنْ تنشر فكرة في بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها[٣].

(١) رسالة دعوتنا ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) ترتيب المدارك (٧٢/٢، ٧٣).

(٣) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٢٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الموقف من الغربيِّين:

وقد ردَّ الأستاذ البنَّا على من زعموا أنَّ التمسك بالإسلام يعكر صفو العلائق بيننا وبين الغرب، ويجعلهم يخافوننا أو يسيئون الظنَّ بنا، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقد يظن النَّاس كذلك أنَّ نظم الإسلام في حياتنا الجديدة تباعد بيننا وبين الدول الغربيَّة، وتعكر صفو العلائق السياسيَّة بيننا وبينها بعد أنْ كادت تستقر، وهو أيضًا ظنٌّ عريق في الوهم، فإنَّ هذه الدول إن كانت تسيء بنا الظنون فهي لا ترضى عنا سواء تبعنا الإسلام أم غيره، وإن كانت صادقتنا بإخلاص وتبودلت الثقة بينها وبيننا فقد صرح خطباؤها وساستها بأنَّ كلَّ دولة حرَّة في النظام الَّذي تسلكه في داخل أرضها، ما دام لا يمس حقوق الآخرين، فعلى ساسة هذه الدول جميعًا أنْ يفهموا أنَّ شرف الإسلام الدولي هو أقدس شرف عرفه التاريخ، وأنَّ القواعد الَّتي وضعها الإسلام الدولي لصيانة هذا الشرف وحفظه أرسخ القواعد وأثبتها.

فالإسلام الَّذي يقول في المحافظة على التعهدات وأداء الالتزامات: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ويقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧]، ويقول في إكرام اللاجئين وحسن جوار المستجير: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، وهذا بالمشركين فكيف بالكتابيين؟

فالإسلام الَّذي يضع هذه القواعد ويسلك بأتباعه هذه الأساليب يجب أنْ يعتبره الغربيون ضمانة أخرى، تضمن لهم. بل يقول الأستاذ:

QaradawiBooks.com

إنَّه من خير أوربا نفسها أنْ تسودها النظريات السديدة في معاملات دولها بعضها لبعض، فذلك خير لهم وأبقى[١] اهـ.

الموقف من الحضارة الغربيَّة:

تعرَّض الأستاذ البنَّا للموقف من الحضارة الغربيَّة في أكثر من رسالة له، وخصوصًا في معرض بيان الصراع الاجتماعي والثقافي بين الغرب والإسلام، ووضح الأستاذ البنَّا هنا:

أنَّ الأمم الأوربيَّة الَّتي اتصلت بالإسلام وشعوبه في الشرق بالحروب الصليبيَّة، وفي الغرب بمجاورة عرب الأندلس وخالطتهم، ولم تستفد من هذا الاتصال مجرد الشعور القوي أو التجمع والتوحد السياسيين، ولكنَّها أفادت إلى جانب ذلك يقظة ذهنية وعقلية كبيرة، واكتسبت علومًا ومعارف جمَّة، وظهرت فيها نهضة أدبية وعلميَّة واسعة النطاق، وقامت الكنيسة تناهض هذه الظاهرة الغريبة بكل ما أوتيت من قوَّة، وتذيق رجالها من الأدباء والعلماء مرَّ العذاب، وتعتدي عليهم «محاكم التفتيش»، وتثير ضدَّهم الدول والشعوب، ولكن ذلك كله لم يجْدها نفعًا، ولم تثبت تعاليمها أمام حقائق العلم وكشوفه، وخرجت النهضة العلميَّة منتصرة كل الانتصار، وتنبهت الدولة بذلك، فصارعت الكنيسة هي الأخرى حتَّى صرعتها، وتخلص بذلك المجتمع الأوربي تخلُّصًا تامًّا من سلطانها، وطارد رجالها إلى المعابد والأديرة، وألزم البابا الإقامة في الفاتيكان، وحصر عمل رجال الدين في نطاق ضيق من شؤون الحياة، لا يخرجون عنه، ولا يتطلعون إلى سواه، ولم تبق أوربا على المسيحيَّة إلَّا كتراث تاريخي، وعامل من عوامل تهذيب البسطاء

(١) رسالة نحو النور ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٨٧.

QaradawiBooks.com

والأغرار من دهماء الشعوب، ووسيلة من وسائل التغلب والاستعمار وقضاء المآرب السياسيَّة.

غير مرخصة للطباعة

وامتد أمام الأوربيين رواق العلم، وانفسح مجال الاختراع والكشف، وضاعفت الماكينة الإنتاج، ووجهت الحياة وجهة صناعية، وسار ذلك جنبًا إلى جنب مع نشأة الدولة القوية، وامتداد سلطانها إلى كثير من البلاد والأقطار، فأقبلت الدنيا على هذه الأمم الأوربية، وجبيت إليها ثمرات كل شيء، وتدفقت عليها الأموال من كل مكان، فكان طبيعيًّا بعد ذلك أنْ تقوم الحياة الأوربيَّة والحضارة الأوربيَّة على قاعدة إقصاء الدين عن مظاهر الحياة الاجتماعيَّة، وبخاصَّة الدولة والمحكمة والمدرسة، وطغيان النظرة الماديَّة وجعلها المقياس في كل شيء. وتبعًا لذلك صارت مظاهر هذه الحضارة مظاهر ماديَّة بحتة تهدم ما جاءت به الأديان السماوية، وتناقض كل تلك الأصول الَّتي قررها الإسلام الحنيف، وجعلها أساسًا لحضارته، الَّتي جمعت بين الروحانية والماديَّة جميعها، ومن أهم الظواهر الَّتي لازمت المدنيَّة الأوربيَّة:

١ ـ الإلحاد والشكُّ في الله وإنكار الروح ونسيان الجزاء الأخروي والوقوف عند حدود الكون المادي المحسوس: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

٢ ـ الإباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، وإشباع شهوتي البطن والفرج، وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والمغريات، والإغراق في الموبقات إغراقًا يحطم الأجسام والعقول، ويقضي على نظام الأسر، ويهدم سعادة البيوت: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

QaradawiBooks.com

٣ ـ الأثرة في الأفراد، فكل إنسان لا يريد إلَّا خير نفسه، وفي الطبقات، فكل طبقة تتعالى على من سواها وتود أنْ تحظى بالمغانم دونها، وفي الشعوب، فكل أمة تتعصَّب لجنسها وتنقص غيرها وتحاول أنْ تلتهم من هي أضعف منها.

٤ ـ الربا والاعتراف بشرعيته واعتباره قاعدة التعامل، والتفنن في صوره وضروبه وتعميمه بين الدول والأفراد.

وقد أنتجت هذه المظاهر الماديَّة البحتة في المجتمع الأوربي فساد النفوس، وضعف الأخلاق، والتراخي في محاربة الجرائم، فكثرت المشكلات، وظهرت المبادئ الهدامة، واشتعلت الثورات المخربة المدمرة، واضطربت النظم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة فلم تستقر على حال، وتمزَّقت الدول بالطوائف والأحزاب، وتناحرت الشعوب على المطامع والأحقاد، وأثبتت هذه المدنيَّة الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع الإنساني، وإقرار الطمأنينة والسلام فيه، وفشلت في إسعاد الناس، رغم ما فتح عليهم من حقائق العلم والمعرفة، وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء، وما مكَّنت لدولها في الأرض من قوَّة وسلطان[1].

وفي مقام آخر بيَّن الأستاذ البنَّا: أنَّ مدنية الغرب تفلس الآن، فأصولها السياسيَّة تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصاديَّة تجتاحها الأزمات، وتهددها ملايين العاطلين، وأصولها الاجتماعيَّة تقضي عليها المبادئ الشاذة، والثورات المندلعة في كل مكان، وقد حار القوم في علاج شأنها وضلوا السبيل، مؤتمراتهم تفشل، ومعاهداتهم تخرق، ومواثيقهم تمزق، وعصبة أممهم شبح لا روح فيه ولا نفوذ له، ويد العظيم فيهم توقع مع

(١) رسالة بين الأمس واليوم ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٠٢ ـ ١٠٤.

QaradawiBooks.com

غيره ميثاق السلام والطمأنينة في ناحية، بينما تلطمه اليد الثانية في ناحية أخرى أقسى اللطمات، وهكذا أصبح العالم بفضل هذه السياسات الجائرة الطامعة كسفينة في وسط اليم، حار ربَّانها وهبَّت عليها العواصف من كل مكان، الإنسانيَّة كلها معذَّبة شقية قلقة مضطربة وقد اكتوت بنيران المطامع والمادة، فهي في أشد الحاجة إلى عذب من سؤر الإسلام الحنيف يغسل عنها أوضار الشقاء ويأخذ بها إلى السعادة.

لقد كانت قيادة الدنيا في وقت ما شرقية بحتة، ثمَّ صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربيَّة، ثمَّ نقلتها النبوات الموسوية والعيسوية والمحمدية إلى الشرق مرَّة ثانية، ثمَّ غفا الشرق غفوته الكبرى ونهض الغرب نهضته الحديثة، فكانت سنة الله الَّتي لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالميَّة، وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم يبق إلَّا أنْ تمتد يد «شرقية» قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوي المتين، فإذا بالدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ليس ذلك من الخيال في شيء بل هو حكم التاريخ الصادق، إنْ لم يتحقَّق بنا ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

بيد أنَّنا نحرص على أنْ نكون ممَّن يحوزون هذه الفضيلة، ويكتبون في ديوان هذا الشرف ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨][1] اهـ.

(١) رسالة نحو النور ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٧٥، ٢٧٦.

QaradawiBooks.com

ربما قال بعضهم: إنَّ الأستاذ البنَّا كان قاسيًا في نقده للحضارة الغربيَّة، وكأنَّه لم يعترف لها بحسنة ولا مزية، وعذره أنَّه كان في معرض المقاومة لموجات التغريب والتذويب للأمة الإسلاميَّة، ورد الفعل يكون على مقدار الفعل في القوَّة، وإلَّا فإنَّ أحدًا لا يجحد فضل الحضارة الغربيَّة في الجانب العلمي والتكنولوجي والإداري والتنظيمي الدنيوي لشؤون الحياة، وفي الأصول العشرين لحسن البنَّا: أنَّ الإسلام يرحِّب بالصالح النافع في كل شيء، وأنَّ الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق النَّاس بها.

وفي وصية قديمة للأستاذ البنَّا كتبها إلى أحد المبعوثين من وزارة المعارف إلى إنجلترا، أوصاه فيها بعدة أمور، كان سابعها: «كن مع القوم ناقدًا بصيرًا، ومنصفًا خبيرًا، لا تستهويك محاسنهم فتنسى مساوئهم، ولا تؤلمك مساوئهم فتنسى محاسنهم، بل ادرسهم دراسة الفاحص المدقق، وأحط بكل ما تستطيع من شؤونهم علمًا، ثمَّ انقد ذلك كله بعين البصيرة، فما كان حسنًا فأهده إلى أمتك وقومك، وعد به مظفرًا مؤيدًا، وما كان غير ذلك فألقه إليهم، لا تقم له وزنًا، ولا تأت إلَّا وقد نفضت منه يدك وفرغت خاطرك»[1] اهـ.

ولعلَّ هذه الفقرة الَّتي كتبها البنَّا عفو الخاطر في رسالة وصية أدق في التعبير عن موقفه من حضارة الغرب، فهو يوصي بأخذ الخير والنافع منها، واجتناب الشر والضار فيها، وهذا هو الموقف العدل.

(١) نشرت في جريدة الإخوان المسلمون الأسبوعية الصادرة في ٢٣ رجب سنة ١٣٥٣هـ ـ نوفمبر ١٩٣٤م.

QaradawiBooks.com

الإخوان والوحدات الثلاث: الوطنيَّة والعربيَّة والإسلاميَّة:

وللإخوان موقفهم الواضح من الوحدات الثلاث، الَّتي يتحدَّث عنها الناس، وهي الوحدة الوطنيَّة، والوحدة العربيَّة، والوحدة الإسلاميَّة.

ويظنُّ بعضهم أنَّها متناقضة، وأنَّ العمل لإحداها يتعارض مع العمل للأخرى أو للأخريين.

والإخوان لا يــرون أيَّ تناقض في ذلك، فــإنَّ الخاص لا يناقض العام، والجزئي لا يناقض الكلي، فهي تتكامل ولا تتعارض، والمسلم مطالب بأنْ يعمل لها جميعًا إنْ أمكن ذلــك، فإن لم يمكن بدأ العمل لوطنه ووحدته وتقدمــه أولًا، ثمَّ لقومــه من العرب ثانيًــا، ثمَّ لأمته الإسلاميَّة ثالثًا.

الإخوان والوطنيَّة المصريَّة:

ومن قديم ردَّ الأستاذ البنَّا على الَّذين يغمزون الإخوان في وطنيتهم، بحسبانهم أنَّ العمل للفكرة الإسلاميَّة، والأُمَّة الإسلاميَّة، ينافي الوطنيَّة، والعمل لخدمة الوطن ورفعته.

وقد كان الأستاذ واضحًا في ذلك كل الوضوح، صادقًا كل الصدق، معبرًا أبلغ التعبير حين قال في «تنظير» حب الوطن والتفاني في خدمته، و«التأصيل الشــرعي» لذلك، والتدليــل عليه من الوجهة الإســلاميَّة، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الإســلام قد فرضها فريضة لازمة لا منــاص منها: أنْ يعمل كل إنســان لخير بلــده وأنْ يتفانى فــي خدمتــه، وأن يقدم أكثر ما يستطيع من الخير للأُمَّة الَّتي يعيش فيها، وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحمًا وجوارًا، حتَّــى أنَّه لم يجز أنْ تنقــل الزكوات أبعد من

QaradawiBooks.com

مسافة القصر ـ إلَّا لضرورة ـ إيثارًا للأقربين بالمعروف، فكل مسلم مفروض عليه أنْ يسد الثغرة الَّتي هو عليها، وأن يخدم الوطن الَّذي نشأ فيه، ومن هنا كان المسلم أعمق النَّاس وطنيَّة وأعظمهم نفعًا لمواطنيه؛ لأن ذلك مفروض عليه من ربِّ العالمين، وكان الإخوان المسلمون بالتالي أشد النَّاس حرصًا على خير وطنهم، وتفانيًا في خدمة قومهم، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة، كل عزة ومجد، وكل تقدم ورقيٍّ، وكل فلاح ونجاح، وقد انتهت إليها رئاسة الأمم الإسلاميَّة، بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم. وإنَّ حب المدينة لم يمنع رسول الله ﷺ أنْ يحنَّ إلى مكَّة وأن يقول لأصيل، وقد أخذ يصفها: «**يا أُصَيْلُ، دعِ القلوبَ تَقِرُّ**»[1].

ويخطِّئ الأستاذ البنَّا ـ في رسالة أخرى ـ من يتَّهم الإخوان بالتفريق بين عنصري الوطن المصري: المسلمين والأقباط، مؤكدًا تعاليم الإسلام في ذلك، وفق القاعدة العتيدة: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا».

مصر قاعدة الانطلاق الإسلامي:

لقد اعتبر الأستاذ البنَّا مصر هي قاعدة الانطلاق الإسلامي، وركَّز جهد حركته وجماعته عليها؛ لأنَّها الوطن الأمُّ للحركة أولًا، ولأنَّها قلعة الإسلام الَّتي ذادت عنه الصليبيين والتتار تاريخيًّا ثانيًا، ولأنَّها القبلة الثقافيَّة للمسلمين ثالثًا باحتوائها الأزهر الشريف.

ولنقرأ هذه الفقرة المعبِّرة من رسالة «دعوتنا في طور جديد» يقول رحمه الله: «لقد ورثنا هذا الإسلام الحنيف واصطبغنا به صبغة ثابتة

(١) رواه أبو الفتح الأزدي في المخزون في علم الحديث صـ ٤٦، ٤٧، عن بديح السلمي، نشر الدار العلمية، دلهي، الهند، ط ١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

قوية، تغلغلت في الضمائر والمشاعر، ولصقت بحنايا وشغاف القلوب، واندمجت مصر بكليتها في الإسلام بكليته: عقيدته ولغته وحضارته ودافعت عنه، وذادت عن حياضه، وردَّت عنه عادية المعتدين، وجاهدت في سبيله ما وسعها الجهاد بمالها ودم أبنائها، وأنقذته من براثن التتار وأنياب الصليبيين، وردَّت الجميع على أعقابهم خاسرين، واستقرَّت فيها علوم الإسلام ومعارفه، واحتوت الأزهر أقدم جامعة تقوم على حياطته ورعايته وحراسته، وانتهت إليها زعامة شعوبه الأدبيَّة والاجتماعيَّة، وصارت مطمح أنظار الجميع ومعقد آمالهم.

هذا الإسلام، عقيدته ونظمه ولغته وحضارته، ميراث عزيز غالٍ على مصر ليس تفريطها فيه بالشيء الهيِّن، ولا إبعادها عنه بالأمر المستطاع، مهما بذلت في سبيل ذلك الجهود الهدامة المدمِّرة، ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قويَّة فيَّاضة زاهرة دفَّاقة في كثير من جوانب الحياة المصريَّة، فأسماؤها إسلاميَّة، ولغتها عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله، ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام، كل ذلك حق، ولكن هذه الحضارة الغربيَّة قد غزتنا غزوًا قويًّا عنيفًا بالعلم والمال، وبالسياسة والترف، والمتعة واللهو، وركنَّا إليها، وأثَّر هذا الغزو فينا أبلغ الأثر، وانحسر ظل الفكرة الإسلاميَّة عن الحياة الاجتماعيَّة المصريَّة في كثير من شؤونها المهمَّة، واندفعنا نغيِّر أوضاعنا الحيويَّة، ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربيَّة، وحصرنا سلطان الإسلام في حياتنا على القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شؤون الحياة العمليَّة، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة».

QaradawiBooks.com

وبيَّن الأستاذ البنَّا تذبذب الحياة في مصر بين الأصيل والدخيل، بين الموروث والوافد، بين الإسلام والتغريب، ويشفق كل الإشفاق أنْ تكون نهاية هذا التأرجح أو التذبذب هي التحلل ممَّا بقي من مظاهر الإسلام، والانغماس الكلي في الحياة الغربيَّة بكل مظاهرها: «ولقد ارتفعت بذلك صيحات، وقامت على قواعده دعوات، وسبقتنا إليه شعوب وحكومات».

كأنَّما يشير إلى صيحة طه حسين وسلامة موسى، وعلي عبد الرازق، وإلى دعوة لطفي السيِّد وحزب الأُمَّة، وإلى حكومة أتاتورك، وتحلُّلها من شريعة الإسلام.

ثم يصف الأستاذ العلاج وصف الطبيب النِّطَاسي، فيقول: «نحن نشفق من هذا المصير، وندعو إلى أنْ تعود مصر إلى تعاليم الإسلام وقواعده، تعتمد عليها وتستمد منها، وتبني على أساسها النهضة الجديدة، وتركز عليها الأوضاع الاجتماعيَّة في المستقبل إن شاء الله.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى أنْ نأخذ من كل شيء أحسنه، وينادي بأنَّ الحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق النَّاس بها، ولا يمنع من أنْ تقتبس الأُمَّة الإسلاميَّة الخير من أيِّ مكان، فليس هناك ما يمنع من أنْ ننقل كل ما هو نافع مفيد عن غيرنا، ونطبقه وفق قواعد ديننا، ونظام حياتنا، وحاجات شعبنا.

أمَّا أثر هذا التذبذب في مظاهر حياتنا العمليَّة فكبير واضح، ولعله مصدر كثير من المشكلات في التعليم والقضاء، وفي حياة الأسرة، وفي منابع الثقافة العامَّة، وفي غير ذلك من الشؤون العامَّة، هل هناك أمة غير مصر يسير التعليم فيها أوَّل خطواته على هذين اللونين من

QaradawiBooks.com

ألوان التربيـــة، فهناك التعليم الديني يتصل بنصـــف الأُمَّة وينتهي إلى الأزهر ومعاهده وكلياته، وهناك التعليم المدني يتصل بالنصف الثاني ويتميز كل منهما بخواصه ومميزاته؟ وهل لذلك من ســـبب سوى أنَّ السلســـلة الأولى هي أثر الإســـلام الباقي في نفوس هذه الأُمَّة، وأنَّ السلســـلة الثانية هي نتائج مجاراة الغرب والأخذ عنه؟ فما الَّذي يمنع من توحيد التعليـــم في مراحله الأولى على أســـاس التربيـــة القوميَّة الإســـلاميَّة، ثمَّ يكون بعد ذلك التخصص؟ وهل هناك أمة غير مصر ينقســـم فيها القضاء إلى شـــرعي وغير شـــرعي كما ينقســـم القضاء المصري؟ وهل لذلك من سبب سوى أنَّ القضاء الأوَّل أثرُ الإسلام في الحياة المصريَّة والثاني وليد النقل عن الغرب والأخذ عنه؟ وما الَّذي يمنع من أنْ تتوحَّد المحكمة على أساس اعتبار الشريعة الإسلاميَّة هي شريعة البلاد ومصدر التقنين؟

وهذه البيوت المصريَّة، ألسنا نلمح فيها أثر هذه الحياة المذبذبة المتناقضة؟ فكثير من الأسر المصريَّة لا تزال شديدة المحافظة على ما ورث من تعاليم الإسلام وآدابه، في الوقت الَّذي انسلخ فيه الكثير عن هذه التعاليم، وخرج على هذه الآداب، وغلبت عليه نزعة التقليد في كل شـــيء، بل جاوز بعضنا ذلك الحدَّ حتَّى صار غربيًّا أكثر من الغربيين.

ولا بدَّ من وضع حـــدٍّ لهذا التفـــاوت الغريب، حتَّى نظفـــر بالأُمَّة الموحَّدة، فبدون الوحدة لا تتحقَّق نهضة، ولا تحيا أُمَّة حياة الكمال.

لهذا يدعو الإخوان المســـلمون إلى أنْ يكون الأســـاس الَّذي تعتمد عليه نهضتنا هـــو توحيد مظاهر الحيـــاة العمليَّة في الأُمَّة على أســـاس

QaradawiBooks.com

الإســـلام وقواعده، وبذلك تبني مصر نفســـها، وتقدِّم للعالم كله أكمل نماذج الحياة الإنسانيَّة الصحيحة[١] انتهى.

ومن هذا النقل الطويل، نرى مدى اهتمام مؤسس الإخوان ومرشدهم الأوَّل بمصر، والتنويـــه بدورها التاريخي في نصرة الإســـلام، وموقعها الريادي اليوم في شعوب الإسلام، وضرورة النهوض بها في كل جوانب الحياة، لتتقدم الركب الإسلامي الناهض، وتتبوأ مكانها في صدر موكب الدعوة والجهاد لرفع راية الإسلام في الأرض.

ومن ذلك: إزالة مظاهر الازدواج القائم فـــي مصر، من تعليم ديني وتعليـــم مدني، وقضاء شـــرعي، وآخر أهلي، وحياة إســـلاميَّة، وأخرى إفرنجية متغرِّبـــة، وبذلك تتحقق فـــي مصر الوحـــدة الثقافيَّة، والوحدة القضائيَّة، والوحدة الاجتماعيَّة، بجوار الوحدة الوطنيَّة العامَّة.

هذا ولا يرى الأستاذ مانعًا من العناية بتاريخ مصر القديم، وبما سبق إليه قدماء المصريين من العلـــوم والمعارف، وهو يرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد، وفيه علم ومعرفة، ويرفض بكل قوَّة اعتبار ذلك منهاجًا يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه، بعد أنْ هداها الله بالإسلام، وخلَّصها من أوضار الوثنية، وعادات الجاهليَّة.

الوحدة العربيَّة:

ثم بيَّن الموقف من الوحدة العربيَّة فيقول: إنَّ هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيًّا ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحَّدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين،

(١) انظر: رسالة دعوتنا في طور جديد ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

QaradawiBooks.com

وقد جاء في الأثر: «**إذا ذلَّت العربُ ذلَّ الإسلام**»[١]. وقد تحقَّق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.

وينبه الأستاذ البنَّا هنا على أمر مهم، وهو أنَّ العروبة ليست عروبة العرق والدم، وإنَّما هي عروبة الثقافة واللسان، وأنَّ الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرفها النبيُّ ﷺ، فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**ألا إنَّ العربيَّة اللسان، ألا إنَّ العربيَّة اللسان**»[٢].

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لا بدَّ منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أنْ يعمل لإحياء الوحدة العربيَّة وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربيَّة.

قال ذلك الأستاذ البنَّا سنة ١٩٣٦م، أي قبل أنْ تنشأ الجامعة العربيَّة بسنوات، وأكَّده في أكثر من رسالة له، وأكثر من مقال وخطاب.

كما أكَّد رحمه الله أنَّ هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى طنجة ومراكش على المحيط الأطلسي، كلها عربية، تجمعها العقيدة، ويوحِّد

(١) رواه أبو يعلى (١٨٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (١٦٦٠٧): رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن الخطاب البصري، ضعَّفه الأزدي وغيره، ووثَّقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح. عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠٧/٢١)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (٤٦١/١): هذا الحديث ضعيف وكأنه مركب على مالك، لكن معناه ليس ببعيد بل هو صحيح من بعض الوجوه. تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، نشر دار عالم الكتب، بيروت، ط ٧، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

بينها اللسان، وتؤلف بينها بعد ذلك: هذه الوضعية المتناسقة، في رقعة من الأرض واحدة متصلة متشابهة، لا يحول بين أجزائها حائل، ولا يفرق بين حدودها فارق، قال: ونحن نعتقد أنَّنا حين نعمل للعروبة، نعمل للإسلام ولخير العالم كله[1].

وبهذا لم يَرَ الإخوان من قديم تعارضًا بين العمل للعروبة والعمل للإسلام، إلَّا إذا خُلطت العروبة بمعان من غير طبيعتها تعارض الإسلام، أو خلط الإسلام بمعان من غير طبيعته تعارض العروبة؛ كأن تختلط العروبة بفكرة معادية للإسلام كالماركسية، أو يختلط الإسلام بشعوبية تكره العرب.

إنَّ العروبة هي وعاء الإسلام، والعربيَّة لسانه، وكتاب الإسلام عربي، ورسول الإسلام عربي، وصحابته الَّذين حملوا رسالته إلى العالم عرب، ومنطلق الإسلام الأوَّل من أرض العرب، والمساجد الثلاثة المعظمة في أرض العرب، ولهذا يحب المسلمون الأعاجم العرب ويكرمونهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ، والقوميَّة العربيَّة محورها اللسان والتاريخ، واللسان لسان القرآن والتاريخ تاريخ الإسلام.

فلا غرو أنْ رحب الإخوان في أقطار شتَّى بالتفاهم مع القوميين المعتدلين، وقد شاركت مع عدد من المفكرين الإسلاميين ـ ومنهم عدد غير قليل من الإخوان ـ في المؤتمر القومي الإسلامي الَّذي عقد في بيروت سنة ١٩٩٤م، ولا زال ينعقد كل عدَّة سنوات وتصدر عنه توصيات وقرارات.

(١) انظر: رسالة دعوتنا في طور جديد ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٣١.

QaradawiBooks.com

الوحدة الإسلاميَّة:

ثم بيَّن الأستاذ موقف الإخوان من الوحدة الإسلاميَّة، ويؤكد أنَّ الإسلام رابطة كما هو عقيدة، وأنَّه قضى على الفوارق النسبية بين الناس، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، والنبي ﷺ يقول: «**المسلم أخو المسلم**»(١)، و«**المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم**»(٢).

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافيَّة، ولا يعتبر الفوارق الجنسيَّة، ويعتبر المسلمين جميعًا أمة واحدة، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنًا واحدًا مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده، وكذلك الإخوان المسلمون يُقَدِّسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام، وينادون بأنَّ وطنهم هو كلُّ شبر أرض فيه مسلم يقول: «لا إلٰه إلَّا الله محمَّد رسول الله» وما أروع ما قال في هذا المعنى شاعر من شعراء الإخوان:

ولستُ أدري سوى الإسلامِ لي وطنًا ... الشامُ فيه ووادي النيلِ سيَّانِ
وكلَّما ذُكِرَ اسمُ اللهِ في بَلَدٍ ... عددتَ أرجاءَه من لُبِّ أوطاني

هذا ما قاله الأستاذ البنَّا، وأزيد على هذا فأقول: إنَّ الإسلام حين اعتبر المسلمين أمة واحدة بمثل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] أكَّد هذه الوحدة بأحكام أساسيَّة ثلاثة:

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال مخرِّجوه: صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

١ ـ وحدة المرجعيَّة العليا، وهي القرآن الكريم، والسُّنَّة المطهرة.

٢ ـ وحدة «دار الإسلام»، وكل أوطان المسلمين «دار» واحدة.

٣ ـ وحدة القيادة المركزيَّة العامَّة للأمة، المتمثلة في الإمام الأعظم أو الخليفة[١].

وبهذا اتَّضح لكلِّ ذي عينين: أنَّ الإخوان يحترمون وطنيتهم الخاصَّة باعتبارها الأساس الأوَّل للنهوض المنشود، ولا يرون بأسًا بأنْ يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه على سواه، ثمَّ هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربيَّة، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثمَّ هم يعملون لوحدة الأُمَّة الإسلاميَّة باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام، بل هم بعد ذلك يريدون الخير للعالم كله، فهم ينادون بالوحدة العالميَّة؛ لأنَّ هذا هو مرمى الإسلامي وهدفه، ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبهذا أكَّد الإمام البنَّا: أنَّه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، وبأنَّ كلًّا منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها، فإذا أراد أقوام أنْ يتخذوا من المناداة بالوطنيَّة الخاصَّة سلاحًا يميت الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم، ولعلَّ هذا هو الفارق بينهم وبين كثيرٍ من الناس.

الإخوان المسلمون والخلافة:

وممَّا يسأل عنه الكثيرون: موقف الإخوان من «الخلافة» ومدى اهتمامهم بها، وعملهم لإعادتها، وهذا ما عرض له الإمام البنَّا في رسائل

(١) انظر في ذلك كتابنا: الأُمَّة الإسلامية حقيقة لا وهم صـ ٢٨ ـ ٣١، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ط ٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

عدَّة من رسائله، مثل رسالتَي «المؤتمر الخامس» و«المؤتمر السادس» ورسالة «التعاليم».

ولعلَّ من أوضح ما قاله الأستاذ ما جاء في «رسالة المؤتمر الخامس» وهي أنَّ الإخوان يعتقدون أنَّ الخلافة رمز الوحدة الإسلاميَّة، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام[١]، وأنَّها شعيرة إسلاميَّة يجب على المسلمين التفكير في أمرها، والاهتمام بشأنها، والخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله[٢]، ولهذا قدَّم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي ﷺ ودفنه، حتَّى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها.

والأحاديث الَّتي وردت في وجوب نصب الإمام، وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالًا للشك في أنَّ من واجب المسلمين أنْ يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حُوِّرت عن مناهجها، ثمَّ ألغيت بتاتًا إلى الآن.

والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم، وهم مع هذا يعتقدون أنَّ ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات الَّتي لا بدَّ منها، وأنَّ الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بدَّ أنْ تسبقها خطوات.

(١) أوثر التعبير بـ «شعوب الإسلام» بدل «أمم الإسلام» باعتبار أنَّ المسلمين أمة واحدة ذات شعوب متعددة. (القرضاوي).

(٢) مثل: وجوب البيعة للإمام، ووجوب وحدة الإمامة، وعدم جواز البيعة لإمامين في وقت واحد، ورفض بيعة الثاني منهما، إلخ. (القرضاوي).

QaradawiBooks.com

لا بدَّ من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلاميَّة كلها، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد[1] اهـ.

وبهذا وقف الأستاذ البنَّا من قضيَّة الخلافة موقفًا يقوم على فقه الشرع، وفقه الواقع، فالخليفة ليس مجرد حاكم يحكم بالشريعة، إنَّما هو حاكم الأُمَّة المسلمة على اتِّساع أقطارها، واختلاف ألسنتها وألوانها، وبعبارة أخرى: هو نائب رسول الله ﷺ في إقامة الدين، وسياسة الدنيا به، كما عبَّر علماؤنا من قديم، وتحقيق هذا يفتقر إلى مقدمات وتمهيدات، لترميم ما خرَّبه الاستعمار العسكري، والسياسي والثقافي والتشريعي في بنيان أمتنا، وإعدادها للرجوع إلى الوحدة الكبرى، تحت راية القرآن، وشريعة الإسلام.

فليست «الخلافة» كلمة تلوكها الألسن، ويرددها المرددون بمناسبة وغير مناسبة، ويظنون أنَّها تقوم بمجرد إعلان عنها، كما يتوهم السطحيون في بعض الأحزاب الإسلاميَّة، ولله في خلقه شؤون!

نحو إنسانيَّة عالميَّة:

ولا يقف حسن البنَّا عند مصر أو العروبة، أو أُمَّة الإسلام، بل يرنو إلى أفق أوسع، وعالم أرحب، هو أفق الإنسانيَّة العالميَّة، يقول: أما العالميَّة أو الإنسانيَّة، فهي هدفنا الأسمى، وغايتنا العظمى، وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح، والدنيا صائرة إلى ذلك لا محالة، فهذا التجمع في الأمم، والتكتل في الأجناس والشعوب، وتداخل الضعفاء

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٤٤.

QaradawiBooks.com

بعضهم في بعض، ليكتسبوا بهذا التداخل قوَّة، وانضمام المفترقين ليجدوا في هذا الانضمام أنس الوحدة، كل ذلك ممهد لسيادة الفكرة العالميَّة، وحلولها محل الفكرة الشعوبية القوميَّة الَّتي آمن بها النَّاس من قبل، وكان لا بدَّ أنْ يؤمنوا هذا الإيمان لتتجمع الخلايا الأصلية، ثمَّ كان لا بدَّ أنْ يتخلوا عنها لتتآلف المجموعات الكبيرة، ولتتحقق بهذا التآلف الوحدة الأخيرة، وهي خطوات إنْ أبطأ بها الزمن فلا بد أنْ تكون، وحسبنا أنْ نتخذ منها هدفًا، وأن نضعها نصب أعيننا مثلًا، وأن نقيم في هذا البناء الإنساني لبنة، وليس علينا أنْ يتم البناء، فلكلِّ أجلٍ كتاب.

وإذا كان في الدنيا الآن دعوات كثيرة، ونظم كثيرة، يقوم معظمها على أساس العصبية القوميَّة، الَّتي تستهوي قلوب الشعوب، وتُحرِّك عواطف الأمم، فإنَّ هذه الدروس الَّتي يتلقاها العالم من آثار هذه القوَّة الطاغية: كفيلة بأنْ يفيء النَّاس إلى الرشد، ويعودوا إلى التعاون والإخاء[1] اهـ.

* * *

(١) رسالة دعوتنا في طور جديد ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٣١، ٢٣٢.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الباب الثاني

الإخوان المسلمون
خصائص ومميزات

- النظرة الشموليَّة للإسلام.
- الاتجاه إلى التجميع والتوفيق.
- العناية بالتكوين المتكامل.

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من خصائص حركة الإخوان المسلمين

حركة الإخوان المسلمين ـ كما ذكرنا ـ حركة إسلاميَّة تجديديَّة إصلاحيَّة، مهمتها الأولى: تجديد الإسلام في حياة الأُمَّة المسلمة.

ولكن هذه الحركة لها خصائص، تُميِّزها عن غيرها ممَّا سبقها، وما عاصرها من الحركات والدعوات الإصلاحية والتجديدية الإسلاميَّة.

لعلَّ أبرز هذه الخصائص ثلاث، نركز عليها الحديث هنا:

الأولى: النظرة الشموليَّة للإسلام.

الثانية: الاتجاه إلى التجميع والتوفيق، لا التنفير والتفريق.

الثالثة: العناية بالتكوين والبناء التربوي المتكامل.

ولكلٍّ واحد من هذه الخصائص أو الركائز الثلاث: حديث يخصه ويبرزه في الصحائف التالية.

ولنبدأ بالخصيصة الأولى، وهي النظرة الشموليَّة للإسلام.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

١

النظرة الشموليَّة للإسلام

كان من أظهر الخصائص الَّتي تميَّزت بها حركة الإخوان المسلمين: «نظرتها الشموليَّة» للإسلام، فلم تفهم الإسلام كما فهمه كثيرون، خصوصًا في عصور التخلف الحضاري، والجمود الفكري، بوصفه عقائد وعبادات شعائرية، ولا صلة له بقضايا المجتمع، وشؤون الدولة، ومسارات السياسة والاقتصاد، وتيارات الثقافة والفكر.

وبارك الاستعمار الغربي ـ الَّذي احتل أكثر ديار المسلمين، وهيمن على مقدرات حياتهم ـ هذا التوجه الَّذي يحصر الدين في حنايا الضمير، فإنْ أجيز له الخروج منه، فلا يتعدى جدران المسجد.

لقد رفض الإخوان هذه النظرة الجزئية القاصرة المقتصرة للإسلام، ورأوا أنَّ الإسلام يتميَّز بشموله الزماني والمكاني والإنساني، الَّذي عبر عنه حسن البنَّا في مقاله «من وحي حراء»، فأبلغ في التعبير، وقال: إنَّه الرسالة الَّتي امتدَّت طولًا حتَّى شملت آباد الزمن، وامتدَّت عرضًا حتَّى انتظمت آفاق الأمم، وامتدَّت عمقًا حتَّى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة.

لقد حذف النَّاس من الإسلام ما هو من صميمه وصلبه.

حذفوا منه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو فريضة إسلاميَّة، وسبب خيريَّة هذه الأُمَّة، ومن أجلِّ أوصاف المؤمنين

QaradawiBooks.com

والمؤمنات، كما في قولـه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فقدَّم الأمر والنهي على الإيمان، إيذانًا بأهميته، وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ...﴾ [التوبة: ٧١] فقدَّم الأمر والنهي على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقد يعبر عن هذه الفريضة بـ «التواصي بالحق» كما في سورة العصر.

وقد يعبر عنها بـ «النصيحة في الدين» كما في حديث تميم الداري في «صحيح مسلم»: «**الدين النصيحة**» قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولرسوله ولكتابه ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم**»[(١)].

وحذفوا منه: الجهاد في سبيل الله، وهو ذروة سنام الإسلام، وخصوصًا إذا اعتدى عدوٌّ على أوطان المسلمين وحرماتهم، كما صنع الاستعمار الَّذي احتلَّ ديارهم، وكما فعلت الصهيونية الَّتي اغتصبت القِبلة الأولى للمسلمين، وأرض الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى الَّذي بارك الله حوله، وكما صنعت الشيوعية الَّتي احتلت أرض الإسلام في آسيا، وأوزبكستان وطاجيكستان وكزاخستان وأذربيجان وغيرها.

والفقهاء مجمعون على أنَّ الكفار إذا دخلوا بلدًا مسلمًا، ففرضُ عين على أهلها مقاومتهم وطردهم، وفرض على المسلمين كافة أنْ يعينوهم بالمال والرجال والسلاح، وكل ما يحتاجون إليه، فالمسلمون يسعى بذمَّتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٥)، وأحمد (١٦٩٤٠)، عن تميم الداري.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وحذفوا منه: الحكم بما أنزل الله، وهو فريضة مؤكدة، فإنَّ الله تعالى لم ينزل كتابه ليتلى على الأموات، ولكن ليحكم الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

صحيحٌ أنَّ هذه الآيات نزلت في شأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وفي تحكيم التوراة والإنجيل، ولكنَّها جاءت بلفظ عام يشمل كل ما أنزل الله وكل من لم يحكم به، ولا يعقل أنْ يكون القرآن الخالد المعجز الشامل، الَّذي أنزله الله على المسلمين، دون ما أنزل الله على اليهود والنصارى، كما لا يتصور أنْ يوصفوا بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعًا، إذا تركوا ما أنزل الله عليهم، ولا يوصف المسلمون بشيء من ذلك إذا أعرضوا عن كتابهم، فأين عدل الله؟!

وحذفوا من الإسلام: وحدة الأُمَّة المسلمة الَّتي ذكرها الله في كتابه، وجعل المسلمين «أمة وسطًا» كما جعلهم «خير أمة» وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وأكَّد الإسلام هذه الوحدة بأحكام أساسيَّة ثلاثة:

١ ـ وحدة المرجعيَّة العليا، وهي الشريعة المتمثِّلة في الوحي الإلٰهي: القرآن والسُّنَّة.

٢ ـ وحدة دار الإسلام، فكل أوطان المسلمين ـ وإنْ تباعدت ـ دار واحدة.

QaradawiBooks.com

٣ ـ وحدة القيادة المركزيَّة، الَّتي تتمثَّل في «الإمام الأعظم» أو الخليفة الَّذي يجسد وحدة الأُمَّة، ويقود مسيرتها[١].

وقد صحَّ الحديث النبوي بوجوب البيعة للإمام: «**من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهليَّة**»[٢].

فهذا التفرق والتجزئة والتمزق بين أمة الإسلام، يرفضه دينهم، ويدعوهم أنْ يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا، ولا يرجعوا كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض.

وحذفوا من الإسلام كذلك: موالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، ونسوا قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وحذفوا من الإسلام: ضرورة التربية الإسلاميَّة، والثقافة الإسلاميَّة، الَّتي يجب أنْ يتعاون عليها البيت والمدرسة، والجامع والجماعة، حتَّى تنشأ أجيالٌ مسلمةُ العقل والعاطفة والسلوك.

وحذفوا من الإسلام كثيرًا من الأحكام القطعية الَّتي تتعلق بالتشريع المدني، كحرمة الربا، والاحتكار والقمار، وبالتشريع الجنائي مثل إقامة الحدود على السرقة والزنى والقذف وشرب الخمر وغيرها.

فهل يسع مسلمًا السكوت على حذف ما حذف من الإسلام؟ فيحل ما حرمه الله، ويحرم ما أحله الله، ويسقط ما فرضه الله؟

وهل يقبل مسلم رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن إمامًا ومنهاجًا: أنْ يسجن الإسلام في ركن ضيق، ويفسح

(١) انظر في ذلك كتابنا: الأُمَّة الإسلامية حقيقة لا وهم صـ ٢٨ ـ ٣١.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥١)، عن عبد الله بن عمر.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المجال للفلسفات الوافدة، والتشريعات الوضعية، والنظم الأجنبيَّة، والتقاليد الغربيَّة، تفرض نفسها وحكمها على الحياة الإسلاميَّة الَّتي هي دخيلة عليه، وغريبة عنها؟

لقد كان المسلمون ـ أو كثير منهم ـ في الأزمنة الماضية، مولعين بالزيادة في الإسلام، بإضافة طقوس وعبادات وأذكار إليه، وهي ليست منه، ولكن العلماء الراسخين الملتزمين بالكتاب والسُّنَّة، ردوها على أصحابها، الَّذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، متمسكين بالحديث النبوي الصحيح: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[(١)].

أما مسلمو العصر الحديث، فهم مولعون بالحذف من الإسلام ـ كما رأينا ـ فهم يريدونه عقيدة بلا شريعة، أو إيمانًا بلا عمل، أو عبادة بلا أخلاق، أو أخلاقًا بلا جهاد، أو زواجًا بلا طلاق، أو دعوة بلا دولة، أو حقًّا بلا قوَّة، أو مصحفًا بلا سيف[(٢)].

لهذا قام حسن البنَّا من أوَّل يوم يجاهد في استرداد ما انتقص من أطراف الإسلام وينادي بشموله، حتَّى يستوعب كل شؤون الحياة، رُوحِيَّة وماديَّة، فرديَّة واجتماعيَّة، اقتصاديَّة وسياسيَّة، أخلاقيَّة وثقافيَّة، محليَّة ودوليَّة.

علمت دعوة الإخوان النَّاس أنَّ الإسلام ذو شعب خمس:

١ ـ شعبة تتجه إلى النفس، فتصلحها بالعقيدة والعبادة والأخلاق.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

(٢) انظر في ذلك محاضرتنا: الإسلام الذي ندعو إليه صـ ١١ ـ ١٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠هـ.

QaradawiBooks.com

٢ ـ وشعبة تتجه إلى المجتمع، فتصلحه بالتنمية والعدالة والتكافل الشامل.

٣ ـ وشعبة تتجه إلى الدولة، فتصلحها بالشورى والعدل والنصيحة.

٤ ـ وشعبة تتجه إلى الأُمَّة الكبرى، فتصلحها بالوحدة والتلاحم.

٥ ـ وشعبة تتجه إلى الكون، فتصلحه بالعمارة والقيام بحقِّ الاستخلاف في الأرض[١].

والحق أنَّ تاريخ الفكر الإسلامي خلال عصوره المختلفة، لم يعرف أحدًا من رجاله، من أي طائفة كانت، من المتكلمين أو الفقهاء أو الأثريين أو المتصوِّفة، أو حتَّى من الفلاسفة، نادى بفصل العقيدة عن الشريعة، أو الدين عن الدولة، أو الرسالة عن الحكم.

وأوَّل من نادى بذلك هو أحد أبناء العصر، الشيخ علي عبد الرازق، في كتيبه الشهير «الإسلام وأصول الحكم» الَّذي رحَّب به المبشرون والمستشرقون وعبيد الفكر الغربي.

وقد أحدث الكتاب ضجَّة في الأُمَّة، وبخاصَّة أنَّ مؤلفه أزهري، وانبرى الكثيرون للرد عليه، منهم الشيخ محمَّد بخيت المطيعي، والشيخ محمَّد الخضر حسين، وكلاهما كان علامة زمانه.

كما اجتمعت هيئة كبار العلماء في الأزهر، وقرَّرت سحب شهادة العالميَّة من المؤلف، وإخراجه من زمرة العلماء، وتحريم الوظائف المدنيَّة والدينيَّة عليه.

(١) انظر شرح هذه الشعب في كتابنا: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي صـ ٦٦ ـ ٩١، فصل: الفَهم الشمولي للإسلام والتحذير من تجزئة الإسلام، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

وقد روي عن المؤلف أنَّه رجع عمـــا قاله في هذا الكتاب من أفكار تخالف إجماع المسلمين، وأنَّ قوله بأن الإسلام رسالة رُوحِيَّة فحسب! كلمة أجراها الشيطان على لســـانه، وقد نقل ذلك الدكتور محمَّد عمارة في بعض كتبه ووثَّقه.

حسن البنَّا والسياسة:

لقد لقيَ حســـن البنَّا من العنت والكنود والأذى ما يعلم الله به، من أجل أنْ يُفهم النَّاس أنَّ الإسلام يهتم بسياسة المجتمع والأُمَّة والدولة، كما يهتم بالعبادة، وأنَّه لا يجوز للمسلم أنْ يُشغل بصلاته وصيامه فقط، ولا يهمه أمر أُمَّته فـــي مشـــارق الأرض ومغاربهـــا، فالمؤمنون إخوة، والمسلمون أمة واحدة، وأنَّ المســـلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن لم يهتم لأمر المسلمين فليس منهم.

وحاول خصوم الإخوان أنْ يشوِّشـــوا عليهم بقولهـــم: خلطوا الدين بالسياســـة، وأطلق بعض الماكرين من خصوم الفكرة الإســـلاميَّة على الإسلام الشامل، الَّذي لم يعرف المســـلمون غيره طوال القرون، إسلام القرآن والسُّنَّة، إســـلام الصحابة والتابعين، إســـلام الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والمحدثين والمتصوِّفة، وجميع المسلمين ـ أطلق عليه اسم: «الإسلام السياسي»! كأنَّ هناك إسلامات متعددة، فهناك الإسلام الروحي والكهنوتـــي، وهناك الإســـلام الأخلاقي، وهناك الإســـلام الاجتماعي، وهناك الإسلام السياسي.

والإسلام ـ كما شرعه الله، وكما بلَّغه رسوله ـ لا بدَّ أنْ يكون سياسيًّا؛ لأنَّ شريعته شريعة شـــاملة، والفقه الإسلامي تناول الحياة كلها من أدب قضاء الحاجة إلى بناء الدولة، واختيار الخليفة.

QaradawiBooks.com

ولقد قال حسن البنَّا مستنكرًا: إذا كان الإسلام شيئًا غير السياسة، وغير الاجتماع، وغير الاقتصاد، وغير الثقافة، فما هو إذن؟ أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر؟ أم هو هذه الألفاظ الَّتي هي ـ كما تقول رابعة العدوية ـ استغفار يحتاج إلى استغفار[1]؟ ألهذا نزل القرآن نظامًا محكمًا مفصلًا: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩][2]؟

نظرة في وضع مصر عند ظهور الإخوان:

لقد نشأت دعوة الإخوان، بعد سقوط الخلافة بأربع سنوات أو خمس، وبعد ظهور كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وبعد افتتان كثير من المثقفين بالحضارة الغربيَّة، ومذاهبها وفلسفاتها، وبعد إلحاح هؤلاء على تثبيت فكرة: أنَّ الدين شيء، والسياسة شيء آخر، وأنَّ الغرب لم يتقدم إلَّا عندما فصل الدين عن الدولة، أو الدولة عن الدين، وأنَّنا لن نخطو إلى الأمام إلَّا إذا نسجنا على منواله، ونهجنا نهجه، حذو القذة بالقذة.

وكان سلوك كثير من الجماعات الدينيَّة في مصر يكاد يؤكد هذه الفكرة الغربيَّة عن محيط الثقافة الإسلاميَّة، وكثيرًا ما نصوا في لوائحهم وأنظمتهم الأساسيَّة: أنَّهم جماعات دينيَّة ولا صلة لها بالسياسة.

وأسوأ من ذلك كله: أنَّ هذه الجماعات ـ على ما كان لها من فضل ومن جهد مشكور في النواحي الدينيَّة ـ لم يكن بين بعضها وبعض من الوئام والتفاهم، ما يجعل منها جبهة واحدة متراصة في مقاومة النزعات

(١) إحياء علوم الدين (٣١٣/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) انظر كتابنا: شمول الإسلام صـ ٦٦ ـ ٧٣، مبحث: الإسلام والسياسة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

QaradawiBooks.com

التغريبية والعلمانيَّة الغازية، والمسلحة بسلاح المكر والدهاء، والَّتي تلبس لبوس «العلميَّة» و«العصرية» و«التجديدية» وغير ذلك من العناوين البراقة، الَّتي يحسبها الظمآن ماءً، حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

لا نعجب إذا رأينا في مصر مثلًا: جماعات «أنصار السنة المحمدية» و«الجمعيَّة الشرعيَّة» و«شباب سيِّدنا محمد» و«جميعة الشُّبَّان المسلمين» وجماعات «الطرق الصوفيَّة» وغير ذلك، وليس بينهم جميعًا إلَّا التراشق بالتهم، وادِّعاء كل منهم أنَّه على الحق وحده، وأنَّ غيره على الباطل، بل ربَّما امتدَّ هذا التراشق إلى حدِّ تكفير بعضهم بعضًا، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

موقف التجمعات الدينيَّة في مصر عند ظهور دعوة البنَّا:

وقد بيَّنت موقف هذه الجماعات في شرح الأصل الأوَّل من الأصول العشرين، وكان ممَّا قلته: «وكان بين هذه الجماعات كلها عيب مشترك، هو اهتمام كل واحدة منها بناحية معينة من رسالة الإسلام، والتركيز عليها، وإهمال النواحي الأخرى، أو إسقاطها من الحساب، وربَّما عابت الَّذين يشتغلون بها ويوجهون عنايتهم إليها.

فجماعة «أنصار السنة المحمدية» تهتم بأمر «العقيدة» وتصفيتها من شوائب الشرك الأكبر والأصغر، ومحاربة المبتدعة الَّذين يسمُّونهم «القبوريين» ممَّن يقدسون «الأولياء» ويطوفون بـ «الأضرحة»، وشنِّ الغارة على الَّذين يؤوِّلون آيات الصفات وأحاديث الصفات، كالجمعيَّة الشرعيَّة وغيرها. وأكبر عدوٍّ لأنصار السنة هو «المتصوِّفة» المحدثون منهم والأقدمون، المعتدلون والمتطرفون، النظريون والعمليون.

QaradawiBooks.com

و«الجمعيَّة الشـرعيَّة» تُعنى بالعبادة وبخاصَّـة الصلاة علمًا وعملًا، وتهتم بأدائها على ما جاءت به السُّنَّة، وتحارب الابتداع وتبذل في ذلك وسعها، وتنشـئ مسـاجد خاصَّة بها، ولكنَّها تتبنى ـ مثل معظم علماء الأزهر ـ مذهب الأشـاعرة في تأويل آيات الصفـات وأحاديثها، ولهذا شـبَّت الحرب بينها وبين أنصار السـنة، وكان لها لهيب واسـتعار دام سنوات طوالًا.

و«جمعيَّة الشُّـبَّان المسـلمين» معنية بالجانب الثقافـي، فهي تدعو لإلقاء المحاضرات، وعقد الندوات، كما تهتم بالنشاط الرياضي، الَّذي جذب إليها بعض الشباب.

و«شباب سيِّدنا محمَّد» عنوا بموضوع السفور والاختلاط، وما يتعلَّق بالمرأة المسـلمة، وجعلوا ذلك شـغلهم الشـاغل، ووقفوا ضدَّ تيارات التحلل والإباحية، وتبنوا أكثر الأقوال تشـددًا فـي كل ما يتعلق بالمرأة والأسـرة، ولا سـيَّما ما يتعلق بلقاء الرجل والمرأة، وموضوع اللباس والزينة، وأنكروا على كل من قال بإباحة كشـف الوجه والكفين. وكان النشاط في هذا الميدان هو أكبر همهم وغاية سعيهم.

وأمَّا «الطرق الصوفيَّة» فبعض رجالها مخلصون صادقون، وبعض منهم مقلـدون جاهلـون، وآخـرون دجَّالـون مرتزقـون... وحتى المخلصون الصادقون منهم عاشـوا في زاوية ضيقة من زوايا الصرح الإسلامي الكبير، وكل ما يهمهم هو الجانب الروحي التعبدي الفردي أو الاجتماعي المحدود بحدود الطريقة، وإنْ لم يخل ذلك كله ـ عند كثير منهم ـ من الابتـداع في العبـادات، والانحراف فـي العقيدة، والسلبية في الأخلاق.

QaradawiBooks.com

هذا هو موقف الجماعات الدينيَّة، وهذا ما كان يشغلها من قضايا جزئية، عند ظهور دعوة الأستاذ البنَّا.

أما أمر الإسلام باعتباره شريعة ونظام حياة، وأمر المسلمين باعتبارهم أمة واحدة.

أما غلبة القوانين الوضعية على شريعة الإسلام، وغلبة الأفكار الأجنبيَّة على فكرة الإسلام، وغلبة الإباحية الغربيَّة على تقاليد الإسلام، وغلبة الاستعمار الصليبي على ديار الإسلام وأمة الإسلام.

أما الشريعة الَّتي أهملت، والحدود الَّتي عُطِّلت، والأُمَّة الَّتي مُزِّقت، والخلافة الَّتي حُطِّمت، والدين الَّذي عزل عن توجيه الحياة وقيادة المجتمع...

أما هذا كله، فلم تشغل هذه الجماعات أنفسها به ـ على خطورته وأهميته ـ إلَّا بصورة ضئيلة، وفي أحيان ومناسبات نادرة نتيجة لوجود بعض الأشخاص الأيقاظ الواعين الَّذين لم تكن تخلو من عدد منهم جماعة من هذه الجماعات.

كانت جُلُّ هذه الجماعات الدينيَّة ـ برغم نياتها الطيبة، وجهودها المشكورة ـ مع الإسلام أشبه بالعميان في القصة الهندية الشهيرة، الَّذين صادفوا فيلًا، فأمسك كل واحد منهم بجزء منه ظنَّه هو الفيل، فلما سئلوا عن وصف الفيل، قال أحدهم: إنَّه عظم مدبب أملس. لأنَّه لم يمسك إلَّا بنابه، وقال الثاني: بل هو جسم ضخم مفرطح. لأنَّه قد أمسك ببطنه، وقال ثالث: بل هو عمود أسطواني قائم. لأنَّه كان قد أمسك برجله، وقال رابع قولًا آخر، لأنَّه أمسك بذيله، وقال خامس غير ما قاله الأربعة، لأنَّه

QaradawiBooks.com

أمسك بخرطومه، وكل واحد من هؤلاء لم يصف الفيل، وإنْ قال حقًّا في نفسه؛ لأنَّه وصف ما عرفه منه فحسب، ولو عرف الفيل كلَّه كما خلقه الله، وكما يعرفه أهل البصر لغيَّر رأيه، وعدل قوله ووصفه.

وكذلك كان هؤلاء، ظنَّ بعضهم أنَّ الإسلام في العقيدة وحدها، وآخر في العبادة أولًا، وثالث في الحشمة والعفاف قبل كل شيء، ورابع في طهارة القلب، وكل واحد من هذه الأمور صحيح، ولكنَّه ليس كلُّ الإسلام، وإنَّما هو جانب واحد منه.

ولا مانع شرعًا ولا عقلًا من أنْ تهتمَّ جماعة من الجماعات الإسلاميَّة بجانب واحد من الإسلام، تتخصص فيه، وتركز عليه نشاطها وجهودها، ويكون الاختلاف بين بعضها وبعض اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. إنَّما الممنوع أنْ تنكر النظرة الشاملة للإسلام، وأن تعتقد وتشيع أنَّ الجانب الَّذي تعني به هو الإسلام وحده، وأن تنكر على الآخرين جهودهم في الميادين الأخرى، وألَّا نتعاون معهم في القضايا الكبرى.

موقف الأحزاب السياسيَّة:

وإلى جوار هذه الجماعات والفرق الدينيَّة، كان هناك جماعات من نوع آخر: جماعات سياسيَّة هي الَّتي تسمى «الأحزاب» كان يغلب على هذه الأحزاب ـ بصفة عامَّة ـ «الوطنيَّة العلمانيَّة»، فقد سبقت «الوطنيَّة» ظهور «القوميَّة» وخصوصًا في مصر، وإن لم تخل هذه الأحزاب من رجال متدينين في خاصَّة أنفسهم وسلوكهم الشخصي، إذ لم تكن هذه الأحزاب عقائدية بالمعنى الَّذي عرف به بعد ذلك في بلاد عربية أخرى غير مصر.

QaradawiBooks.com

وكان معظم قادة الأحزاب من الرجال الَّذين تثقفوا ثقافة أجنبيَّة عن طريق البعثات إلى أوربا، أو عن طريق المدارس الأجنبيَّة والتبشيريَّة في أوطانهم نفسها، أو عن طريق المنهج المسموم الَّذي وضعه «دنلوب» وأمثاله من المبشرين وأعوان المستعمرين المسيطرين على أزمَّة التعليم والتوجيه. وكانت فكرة هؤلاء عن الإسلام صورة مطابقة من فكرة الأوربيين عن المسيحيَّة، فهو مجرد علاقة بين المرء وربه، أي هو دين «لاهوتي» محض، لا علاقة له بنظام الدولة ولا بشؤون الحياة والسياسة والحكم، فهذه تخضع لتطور الزمن، وتجارب الفكر الإنساني، الَّذي يضيف كل يوم جديدًا إلى تراث الحضارة وحياة الإنسان.

كما أنَّ الفكرة السائدة لدى جمهور المثقفين بالثقافة الحديثة: أنَّ الدين والعلم طريقان متقابلان لا يلتقيان، وأنَّ الأُمَّة الناهضة الَّتي تريد التقدم بحقٍّ هي الَّتي تسلك سبيل العلم، وتنشئ عليه أبناءها، وتقيم بناءها، وتدع الدين في ركن قصي من حياتها[1].

مقاومة التجزئة المصطنعة لرسالة الإسلام:

هذا هو الإطار الَّذي وضع فيه الإسلام، وهذا هو الفهم السائد له حين ظهور دعوة الإخوان المسلمين، وكان على مؤسس الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يواجه هذا الفهم القاصر لرسالة الإسلام، وأن يبرز الجانب الثقافي والتشريعي والاجتماعي والسياسي والجهادي منه.

وأن يقاوم هذه التجزئة المصطنعة لدعوته الشاملة، هذه التجزئة الَّتي تريد أنْ تجعل الإسلام «نصرانيَّة» أخرى تتخذ اسم الإسلام، وهو منها براء.

(١) رددنا على هذا الفهم الخاطئ ردًّا علميًّا في كتابنا: بينات الحل الإسلامي صـ ١٥ ـ ٦٨، فصل: الدين في عصر العلم، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، فليرجع إليه.

QaradawiBooks.com

لهذا أكَّد الإمام الشهيد هذا المعنى وكرَّره في رسائله ومقالاته وأحاديثه ومحاضراته: معنى «شمول الإسلام» كما شرعه الله ورسوله، وتميَّز بذلك عن سائر الجماعات الأخرى حتَّى سمِّي ذلك «إسلام الإخوان المسلمين» كما في رسالة «المؤتمر الخامس».

ولا غرو أنْ كان الأصل الأوَّل من الأصول العشرين في رسالة «التعاليم» ـ الَّتي وضعها حسن البنَّا ليوضح فيها أركان الدعوة ـ يقرر ذلك بجلاء ووضوح فيقول: «الإسلام نظام شامل، يتناول مظاهر الحياة جميعًا، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوَّة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء»[1].

اهتمت دعوة الإخوان المسلمين بالتركيز على الجوانب الإسلاميَّة الَّتي أغفلت عمدًا أو جهلًا من رسالة الإسلام مثل: الدولة والأُمَّة والجهاد والاقتصاد والثقافة والتربية والفكر والقانون، وما إلى ذلك، بعد أنْ بذل الاستعمار جهوده الجبارة وأنفق ملايين طائلة، وربَّى تلاميذ مخلصين لأفكاره، يعملون بكل ما أوتوا لتجريد الإسلام من معنى «الحكم والدولة» كما فعل علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» وكما طبق ذلك كمال أتاتورك في تركيا، وتجريده من معنى «الجهاد والقوة» كما دعا إلى ذلك غلام أحمد القادياني في الهند، ومن تبعه من صنائع الإنجليز، فقد كان أكبر هَمِّ «القادياني» أنْ يثبت دعوتين كبيرتين:

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة رسائل الإمام صـ ٣٥٦.

QaradawiBooks.com

إحداهما: طاعة ولي الأمر، ولو كان كافرًا.

والثانية: إبطال الجهاد في سبيل الله.

ولا يستفيد من هاتين الدعوتين أحد غير الاستعمار المتسلِّط على ديار المسلمين، المتحكم في رقابهم، والمستلب لخيراتهم.

لماذا تبنَّى الإمام البنَّا فكرة الشمول؟

ولم يكن للإمام البنَّا وجماعته خيار في تبنِّي هذا الشمول لمعنى الإسلام لأسباب ثلاثة:

شمول تعاليم الإسلام:

الأول: أنَّ الإسلام الَّذي شرعه الله لم يدع جانبًا من الحياة دون آخر، فهو ـ بطبيعته ـ شامل لكل نواحي الحياة، ماديَّة ورُوحِيَّة، فرديَّة واجتماعيَّة، حتَّى إنَّ أطول آية في كتاب الله أنزلت في شأن من شؤون الدنيا هو كتابة «الديون».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والقرآن الَّذي يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ...﴾ [البقرة: ١٨٣]، هو نفسه الَّذي يقول في السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، وهو الَّذي يقول فيها: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ١٨٠]، ويقول في السورة ذاتها:

QaradawiBooks.com

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢١٦]. عبَّر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة واحدة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾.

فهذه الأمور كلُّها ممَّا كتبه الله على المؤمنين، أي فرضه عليهم: الصيام في الأمور التعبُّديَّة، والقصاص في القوانين الجنائيَّة، والوصية فيما يسمَّى «الأحوال الشخصيَّة»، والقتال في العلاقات الدوليَّة.

وكلها تكاليف شرعية يتعبَّد بتنفيذها المؤمنون، ويتقرَّبون بها إلى الله، فلا يتصور من مسلم قبول فرضية الصيام، ورفض فرضية القصاص أو الوصية أو القتال.

إنَّ الشريعة الإسلاميَّة حاكمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلَّا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعيَّة الخمسة، كما قرَّر ذلك الأصوليون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى المِلَّة.

وقد دلَّ على هذا الشمول: القرآن والسُّنَّة، فقد قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ ما ترك أمرًا يقرِّبنا من الله إلَّا وأمرنا به، ولا ترك أمرًا يبعدنا عن الله إلَّا نهانا عنه، حتَّى تركنا على المحجَّة البيضاء: «**ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالك**»[1].

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مُخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، والحاكم في العلم (٩٦/١)، عن العرباض بن سارية.

QaradawiBooks.com

فالإسلام هو رسالة الحياة كلها، ورسالة الإنسان كله، كما أنَّه رسالة العالم كله، ورسالة الزمن كله[١].

غير مرخصة للطباعة

الإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه:

الثاني: أنَّ الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض.

وقد اشتدَّ القرآن في إنكار هذا المسلك على بني إسرائيل، فقال تعالى في خطابهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ولما أحبَّ بعض اليهود أنْ يدخلوا في الإسلام بشرط أنْ يحتفظوا ببعض الشرائع اليهوديَّة، مثل تحريم يوم السبت، أبى الرسول عليهم ذلك إلَّا أنْ يدخلوا في شرائع الإسلام كافة.

وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨][٢].

وخاطب الله سبحانه رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

---

(١) انظر في ذلك كتابنا: الخصائص العامة في الإسلام صـ ١٠٥ ـ ١٢٤، خصيصة: الشمول، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي صـ ٦٦ ـ ٩١، مبحث: الفهم الشمولي للإسلام والتحذير من تجزئة الإسلام.

(٢) يقول ابن كثير في تفسير الآية: يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله، أنْ يأخذوا بجميع عُرا الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك. تفسير ابن كثير (٥٦٥/١)، تحقيق سامي محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

فهنا يُحذِّر الله رسوله من غير المؤمنين أنْ يصرفوه عن بعض أحكام الإسلام، وهو خطاب لكل مَن يقوم بأمر الأُمَّة مِن بعده.

والحقيقة أنَّ تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات لا تؤتي أكلها إلَّا إذا أخذت متكاملة، فإنَّ بعضها لازم لبعض، وهي أشبه «بوصفة طبية» كاملة مكونة من غذاء متكامل، ودواء متنوع، وحمية وامتناع من بعض الأشياء، وممارسة لبعض التمرينات؛ فلِكَيْ تحقق هذه الوصفة هدفها، لا بدَّ من تنفيذها جميعًا، فإنَّ ترك جزء منها قد يؤثر في النتيجة كلها.

الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم:

الثالث: أنَّ الحياة نفسها وحدة لا تنقسم، وكل لا يتجزأ.

ولا يمكن أنْ تصلح الحياة إذا تولَّى الإسلام جزءًا منها كالمساجد والزوايا يحكمها ويوجِّهها، وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية، وأفكار بشرية، وفلسفات أرضية، توجِّهها وتقودها.

لا يمكن أنْ يكون للإسلام المسجد وحده، ويكون للعلمانيَّة المدرسة والجامعة والمحكمة والتلفاز والإذاعة والصحافة والكتاب والمسرح والسينما، والسوق والشارع، والبرلمان والوزارة، والجيش والشرطة، وبعبارة أخرى: الحياة كلها!

كما لا يمكن أنْ يصلح الإنسان إذا كان توجيه الجانب الروحي له من اختصاص جهة كالدين، والجانب المادي والعقلي له من اختصاص جهة أخرى كالدولة اللادينيَّة.

QaradawiBooks.com

فالواقع أن لا مثنويَّة في الإنسان ولا في الحياة، فليس فيه ولا فيها انقسام ولا انفصال.

إنَّه هو الإنسان بروحه ومادته، وبعقله ووجدانه وبدنه، فلا فصل ولا تفريق، كما يؤيِّد ذلك العلم الحديث نفسه، وكذلك الحياة.

إنَّ الإنسان لا ينقسم، والحياة أيضًا لا تنقسم.

وكل الفلسفات والمذاهب الثورية أو «الأيديولوجيات» الانقلابية في التاريخ وفي عصرنا: ذات طابع كلي شمولي، ولهذا ترفض تجزئة الحياة، وتأبى أنْ تسيطر على جزء منها دون جزء، بل لا بدَّ أنْ تقودها كلها، وتُوجِّهها جميعًا وَفقًا لفلسفتها، ونظرتها الكليَّة للوجود وللمعرفة وللقيم، ولله والإنسان والتاريخ.

يقول أحد الاشتراكيين العرب المعروفين[1] في تبرير هذا الاتجاه: «إنَّ فهم الاشتراكيَّة على أنَّها نظام اقتصادي فحسْب، هو فهم خاطئ؛ فالاشتراكيَّة تقدم حلولًا اقتصاديَّة لمسائل كثيرة، ولكن هذه الحلول جميعًا ليست إلَّا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكيَّة، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق، ولا يتعرف إلى الأسس الَّتي تقوم عليها الاشتراكيَّة، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة الَّتي تذهب إليها الاشتراكيَّة»، «... فالاشتراكيَّة مذهب للحياة، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد إلى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها.

(١) هو د. منيف الرزاز، الذي انتخب زمنًا ما أمينًا عامًّا لحزب البعث الاشتراكي العربي في كتابه: دراسات في الاشتراكية، الذي صدر عام ١٩٦٠م، ويحمل مقالات لعدد من قادة البعث.

QaradawiBooks.com

وأن تكون اشـــتراكيًّا يعني: أنْ يكون لك فهم اشتراكي لكل هذا الَّذي ذكـــرت، وأن يكون لك كفاح اشـــتراكي يضـــم كل هذا الَّذي ذكرت».

ثم يؤكِّـــد الكاتب أنَّ هذه النشـــرة الشـــاملة ليســـت مقصورة على الاشتراكيَّة، وإنَّما هي الأساس في المذاهب الاجتماعيَّة الأخرى.

ولقد برَّر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعيَّة، واتساع نطاقها بحيث تتســـع إلى كل المجالات، وأنْ تضـــع الحلول لكل المشـــكلات بأن: «... سبب هذه النظرة الشاملة أنَّ الحياة نفســـها شيء واحد، تيار واحد لا يعرف هذا التقسيم الَّذي يخترعه عقلنا، لكي يسهل على نفسه إدراك حقائق الحياة، ثمَّ ينسى أنَّه هو نفســـه الَّذي قام بهذا التقسيم، ويظن أنَّ الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل.

فالحياة لا تعرف شـــيئًا اســـمه الاقتصاد، منفصلًا عن شـــيء اسمه الاجتماع، وشيء آخر اسمه السياسة.

الحياة شـــيء متكامل متصل، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس، لنْ يتمكن من القيام بهـــذا التحليل والدرس، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته، فهو مضطرٌّ إلى أنْ يقسم الحياة إلى أوجه، وإلى ألوان، وإلى أنواع من العلاقات، فيسمِّي بعضها اقتصادًا، ويسمِّي بعضها الآخر سياســـة، وبعضها اجتماعًا، وأخلاقًا، ودينًا، وتاريخًا، وأدبًا، وعلمًا، إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر.

الحياة كالنهر، شيء واحد متصل مستمر، وكذلك حياة أي مجتمع، كبير أو صغير ـ أمة أو أسرة، حكومة أو حزب.

QaradawiBooks.com

فموقف أيِّ مجتمع إزاء الحريات السياسيَّة يقرِّر موقفه من الاقتصاد، وموقفه من النظم الاقتصاديَّة، يقرر موقفه من الحريات السياسيَّة، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ، إلى آخر هذه السلسلة الَّتي لا تنتهي».

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول: «... بهذا المعنى، تصبح كلمة الاشتراكيَّة إذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حالة اقتصاديَّة معينة فحسب، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها» اهـ.

هذه هي طبيعة العقائديات والأيديولوجيات الانقلابية كلها، فلماذا يراد للإسلام وحده ـ وهو بطبيعته رسالة شاملة: عقيدة وشريعة وأخلاقًا وحضارة ـ أنْ يقصر رسالته على المساجد والمحاكم الشرعيَّة؟!

ولعلَّه لو رضي بذلك، ما تركوه يستقل بهذه المساجد يوجهها كما يريد، ولا بتلك المحاكم يقضي فيها بما يشاء[1].

إنَّ المسيحيَّة الَّتي يقول إنجيلها: دعْ ما لقيصرَ لقيصر، وما لله لله[2]. حين وجدت الفرصة والقوَّة لم يسعها أنْ تدع شيئًا لقيصر، ولم تستطع إلَّا أنْ تسود، وتوجه الحياة كلها الوجهة الَّتي تؤمن بها، مثل كل الأيديولوجيات الدينيَّة والعلمانيَّة قديمًا وحديثًا، وكان البابوات هم الَّذين

(١) في عدد من بلاد المسلمين اعتدت الحكومات العلمانية على الجزء الباقي لهم من التشريع وهو المتعلق بالأسرة أو ما سمي «الأحوال الشخصية» كما في تركيا وتونس، كما أنَّ المسجد لم يعد حرًّا في أنْ يقول كلمة الإسلام كما يشاء، بل كما تشاء السلطة! وفي تونس: تعتبر صلاة الجماعة في المسجد تهمة تلاحق صاحبها وتعرضه للمساءلة، ولا سيما إذا كان من الشباب. ومدارس تحفيظ القرآن في تركيا للأطفال تعتبر مخالفة للدستور!

(٢) إنجيل متَّى (٢١/٢٢).

QaradawiBooks.com

يتوِّجون «القيصر» ويراقبونه ويوجهونه ويلزمونه بما يريدون وما لا يريدون.

فإذا كان هذا شأن المسيحيَّة، فكيف بالإسلام الَّذي يأبى أنْ يقسم الإنسان بين مادَّة وروح منفصلتين، أو يقسم الحياة بين الله وقيصر، وإنَّما يجعل قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد؟!

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]»[1].

شمول الحركة بعد شمول الفكرة:

ولم يقف الإخوان بالشمول الإسلامي عند حدود النظر والفكرة، بل وصلوا بهذا الشمول إلى مستوى العمل والحركة.

ورأينا الأستاذ البنَّا يعلن في «رسالة المؤتمر الخامس» أنَّ حركة الإخوان تضم كل المعاني الإصلاحية، وكل النواحي الإيجابيَّة الَّتي تفتقر إليها الأُمَّة، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر، واجتمع في رحابها ما تفرَّق لدى جماعات شتَّى.

وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته، والتقت عندها آمال محبي الإصلاح الَّذين عرفوها وفهموا مراميها، وتستطيع أنْ تقول ولا حرج عليك، إنَّ الإخوان المسلمين:

(١) انظر: شمول الإسلام صـ ٣٧ ـ ٥٠.

QaradawiBooks.com

١ ـ **دعوة سلفيَّة**؛ لأنَّهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسُنَّة رسوله.

٢ ـ **وطريقة سُنِّيَّة**؛ لأنَّهم يحملون أنفسهم على العمل بالسُّنَّة المطهَّرة في كلِّ شيء، وبخاصَّة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

٣ ـ **وحقيقة صوفيَّة**؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

٤ ـ **وهيئة سياسيَّة**؛ لأنَّهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأُمَّة الإسلاميَّة بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

٥ ـ **وجماعة رياضيَّة**؛ لأنَّهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أنَّ المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأنَّ النبي ﷺ يقول: «**إنَّ لبدنك عليك حقًّا**»[1]، وأنَّ تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أنْ تؤدى كاملة صحيحة إلَّا بالجسم القوي، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بدَّ لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح في طلب الرزق، ولأنهم تبعًا لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضيَّة عناية تضارع وربَّما فاقت كثيرًا من الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها.

٦ ـ **ورابطة علميَّة ثقافيَّة**؛ لأنَّ الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة، ولأنَّ أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف، ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصيام، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

٧ ـ **وشـــركة اقتصاديَّة**؛ لأنَّ الإســـلام يُعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه، هو الَّذي يقول نبيُّه ﷺ: «**نعم المـــال الصالح للرجل الصالح**»[(١)]، ويقول: «**من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له**»[(٢)]، «**إنَّ الله يحبُّ المؤمن المحترف**»[(٣)].

٨ ـ **وفكـــرة اجتماعيَّـــة**؛ لأنَّهم يعنـــون بأدواء المجتمع الإســـلامي ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأُمَّة منها.

وهكذا نرى أنَّ شمول معنى الإســـلام قد أكسب فكرتنا كل مناحي الإصلاح، ووجَّه نشـــاط الإخوان إلى كل هذه النواحي، وهم في الوقت الَّذي يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعًا، ويعلمون أنَّ الإسلام يطالبهم بها جميعًا.

ومن هنـــا كان كثير مـــن مظاهر أعمـــال الإخوان يبدو أمـــام النَّاس متناقضًا وما هو بمتناقض.

فقد يرى النَّاس الأخ المســـلم فـــي المحراب خاشـــعًا متبتلًا يبكي ويتذلل، وبعد قليل يكون هو بعينه واعظًا مدرسًـــا يقرع الآذان بزواجر

---

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع (٢/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في مشكلة الفقر (١٩)، عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه الطبراني في الأوســـط (٧٥٢٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٣٨): رواه الطبراني في الأوســـط وفيه جماعة لم أعرفهم. وضعَّفه العراقي في تخريج الإحياء صـ ٥٣٦. عن ابن عباس. ومن الأحاديث الصحيحة في هذا الباب ما رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢): «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أنْ يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٨٩٣٤)، والكبير (٣٠٨/١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٨١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٣١): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف. وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٠٤)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

الوعظ، وبعد قليل تراه نفسه رياضيًّا أنيقًا يرمي بالكرة أو يدرب على العدْو أو يمارس السباحة، وبعد فترة يكون هو بعينه في متجره أو معمله يزاول صناعته في أمانة وفي إخلاص.

هذه مظاهر قد يراها النَّاس متنافرة لا يلتئم بعضها ببعض، ولو علموا أنَّها جميعًا يجمعها الإسلام، ويأمر بها الإسلام، ويحض عليها الإسلام، لتحقَّقوا فيها مظاهر الالتئام، ومعاني الانسجام، ومع هذا الشمول فقد اجتنب الإخوان كلَّ ما يؤخذ على هذه النواحي من مآخذ، ومواطن النقد والتقصير[1].

* * *

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٢١ ـ ١٢٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٢

الاتجاه إلى التجميع والتوفيق لا إلى التنفير والتفريق

وممَّا لا يخطئه الدارس لحركة الإخوان المسلمين: أنَّها منذ بداية انطلاقها تحرص كلَّ الحرص على التقريب بين المتباعدين، وعلى التجميع بين المتفرِّقين، وعلى التوفيق بين المتخاصمين، في إطار العاملين للإسلام، من الجماعات والأفراد والمؤسسات.

وأعلن الأستاذ البنَّا من قديم: أنَّ دعوته تبني ولا تهدم، وتجمع ولا تفرِّق، وهذا ما جعل الإخوان منذ نشأتهم، يهتمون بأمور أربعة ضرورية:

الأول: هو الاعتدال في النظر إلى الأمور، وتبنِّي الوسطية المتوازنة في الحكم على الأشياء والمواقف، والأشخاص والهيئات والأعمال، دون غلوٍّ ولا تقصير.

الثاني: وهو ثمرة للموقف الأوَّل، وهو التسامح في معاملة المخالفين، أو التعامل «مع الآخرين» كما يعبِّرون اليوم، وبهذا نقول ما روي عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. ونجد الإمام الشهيد هنا قد تبنَّى قاعدة المنار الذهبية، الَّتي وضعها العلَّامة المجدِّد محمَّد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي الَّتي تقول: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

QaradawiBooks.com

وقد ظنَّ كثير من الإخوان أنَّ هذه العبارة من كلام الأستاذ البنَّا لإيرادها في بعض رسائله، وقد كان يتعامل مع الآخرين بالفعل على أساسها.

الثالث: هو الرفق في التعامل مع المخالفين، فإنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله، وما دخل الرفق في شيء إلَّا زانه، ولا نزع من شيء إلَّا شانه، وأولى النَّاس بالرفق هم رجال الدعوة، الَّذين ينبغي أنْ تتسع صدورهم للجميع، ولا يضيقوا ذرعًا بأحد، وإن بلغ في خصومته ما بلغ.

وأعظم أسوة لنا في ذلك هو رسولنا ﷺ، الَّذي خاطبه الله تعالى بقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الرابع: تبني المنهج النبوي في التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، كما أوصى الرسول الكريم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل، حين أرسلهما إلى اليمن، فقال: «**يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»(١).

وروى عنه أنس قوله: «**يَسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**»(٢).

ومنهج التيسير والتبشير دائمًا يجمع ولا يُفَرِّق، ويُقَرِّب ولا يباعد، ويحبِّب ولا يبغِّض.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسِّيَر (١٧٣٤)، عن أنس.

QaradawiBooks.com

الأصول العشرون واتجاهها إلى التجميع:

وفي ضوء هذا المعنى الكبير الاتجاه إلى التجميع والتوفيق لا إلى المباعدة والتفريق ـ كتب حسن البنَّا «أصوله العشرين» الشهيرة في رسالة «التعاليم» الَّتي جعلها أساسًا لوحدة الفهم بين الإخوان المجاهدين الصادقين من جماعة الإخوان المسلمين.

وهي الأصول الَّتي عني الكثيرون بشرحها والتعليق عليها ما بين مختصر ومطول.

وقد كنتُ شرحتها من قديم شرحًا سُجِّل في عدد من الأشرطة، لقي قبولًا لدى المهتمين بالجانب الفكري، من الإخوان، ومن غيرهم في بعض الأحيان. ثمَّ أخذت في شرحها كتابةً شرحًا مفصلًا في سلسلة «نحو وحدة فكريَّة للعالمين للإسلام» صدر منها أربعة أجزاء.

ولا بأس أنْ أقتبس بعض ما كتبته عن هذه الأصول وطبيعتها ومزاياها، ومَن المخاطبون بها، وذلك في شرح الأصل الأوَّل المتعلق بـ «شمول الإسلام».

مَن المخاطبون بهذه الأصول؟

وهنا نجيب عن السؤال المهم في هذا الموضع، وهو: من الَّذين خاطبهم حسن البنَّا بهذه الأصول العشرين؟

ومن الواضح أنَّه خاطب بهذه الأصول صنفين من الناس:

الأوَّل: يتحدَّد في الإخوان العاملين أو المجاهدين من جماعة «الإخوان المسلمين».

QaradawiBooks.com

فمن المعلوم أنَّ «الإخوان» هيئة عامَّة، قامت لتجديد الإسلام في عقول المسلمين ونفوسهم وحياتهم: اعتقادًا وفكرًا وخُلُقًا وسلوكًا. وقد ضمَّت في صفوفها ألوانًا مختلفة من الناس، منهم السلفي، ومنهم الصوفي، منهم المتمسك بمذهبه، ومنهم من لا يرى التمذهب، منهم المحافظ الميَّال إلى القديم، ومنهم المتحرِّر الميَّال إلى الجديد. منهم المثقف بالثقافة الشرعيَّة، ومنهم المثقف بالثقافة المدنيَّة، إلخ.

وهذه الأمزجة والاتجاهات المختلفة تحتاج إلى «قواسم مشتركة» في الفكر، تجمع بينها، على اختلاف نزعاتها، وتوحِّد مفاهيمها الأساسيَّة في القضايا الكليَّة، والمسائل الدينيَّة الكبرى، وإنْ بقي الاختلاف في الفرعيات والتفصيلات الَّتي يتعذر أنْ يتفق النَّاس عليها.

الصنف الثاني: يتمثل في الجماعات والفئات الدينيَّة المختلفة، الَّتي كانت تضمها الساحة المصريَّة، يوم كتب الإمام البنَّا هذه الأصول، وهي شبيهة إلى حد كبير بما نحن عليه اليوم، وقديمًا قال الشاعر العربي: ما أشبه الليلة بالبارحة! وقال من قال من الغربيين: التاريخ يعيد نفسه!

ومهما اختلف النَّاس في صدق هذه المقولة، فإن ممَّا لا يجحد أنَّ كثيرًا من المواقف والأوضاع قد تتكرر أو تتشابه إلى حدٍّ بعيد.

أجل، كانت عين البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو يكتب هذه الأصول العشرين ـ مركزة على الجماعات الدينيَّة المختلف بعضها مع بعض، الَّتي تتبادل التجريح والاتهام، إلى حدِّ التفسيق بل التكفير.

وقد رأى ذلك بعيني رأسه، ولمس آثاره براحتيه، فمنذ بزغ فجر دعوته بمدينة الإسماعيليَّة، حيث الجماعات الدينيَّة ذات الاتجاه السلفي أو السني تمثل اتجاهًا، وهي فيما بينها تتقاذف التهم، ثمَّ الجماعات

QaradawiBooks.com

الصوفيَّة بطرقها ومشايخها وأتباعها وشاراتها، تمثل اتجاهًا آخر، معاديًا ومناقضًا للاتجاه الأوَّل، وبينهما الحرب جدلية لا يخمد أوراها.

ثم هناك العلماء والوعاظ والخطباء الَّذين لا ينتمون لأحد المعسكرين، والذين لا يعجبون أولئك ولا هؤلاء، ولا يعجبهم أيضًا أولئك ولا هؤلاء.

كان هذا ما رآه ولمسه حسن البنَّا في الإسماعيليَّة، ثمَّ ما رآه بعد ذلك في القاهرة ـ بصورة أكبر ـ بين الاتجاهات الدينيَّة المختلفة.

ولما كان الرجل مشغول الفكر والقلب بتوحيد الأُمَّة المسلمة، الَّتي فرَّقتها الخلافات من كل جانب، حتَّى قاتل بعضها بعضًا في أيام الحرب العالميَّة الأولى، وقد سقطت آخر راية كانت تجمع أمة الإسلام تحت ظل العقيدة، وهي راية الخلافة سنة ١٩٢٤م، وبرزت النزعات القوميَّة والوطنيَّة، بديلًا للوحدة الإسلاميَّة، والقوميَّة الإسلاميَّة.

لهذا كان من المهم ـ بل من الضروري ـ توحيد الجبهة الداخليَّة الإسلاميَّة بكل وسيلة ممكنة: جبهة الداعين إلى الإسلام، والرافعين لشعاراته المتنوعة، والعمل على تضييق دائرة الخلافات الدينيَّة والفكريَّة بينهم، وجمعهم على «الحد الأدنى» من الأصول والمفاهيم الإسلاميَّة الَّتي توحِّد ولا تفرِّق، وتقرِّب ولا تباعد.

وحين أنشئ اتحاد للجماعات الدينيَّة في مصر، تقدَّم الشهيد بهذه الأصول المركزة، لتكون محورًا تلتقي عليه هذه الجماعات المختلفة.

من مزايا هذه الأصول:

ومن هنا نلاحظ في هذه الأصول عدَّة أمور:

QaradawiBooks.com

أولًا: أنَّها تتجه غالبًا إلى المسائل الَّتي تختلف فيها وجهات النظر، بين المدارس الدينيَّة قديمًا وحديثًا، كالخلاف بين السلف والخلف من المتكلمين، والخلاف بين الاتجاه الصوفي والاتجاه السلفي، والخلاف بين أنصار التقليد المذهبي و«اللامذهبيين».

ثانيًا: أنَّها مصوغة بحكمة واعتدال؛ لأنَّها تتجه إلى التجميع والتوفيق، لا إلى الإثارة والتفريق، بين أتباع هذه المدارس، إذا توافر القدر الضروري من الفهم والإخلاص والتسامح.

ثالثًا: أنَّه قصد فيها إلى التركيز والإيجاز، لا إلى الشرح والتفصيل؛ لأنَّ التوسع والتفصيل في هذه الأمور، يتيح فرصة أكبر للخلاف، وتعدُّد الآراء وتضارُبها، وهو عكس المقصود.

رابعًا: أنَّها لم تعن كثيرًا بالتوجه إلى العلمانيين والمثقفين ثقافة غربيَّة، ولو كان ذلك من قصدها واهتمامها، لأضافت إلى هذه الأصول أصولًا أخرى.

ولهذه حين أردت أنْ أقدم معالم الإسلام لهؤلاء في كتابي «الإسلام والعلمانيَّة وجهًا لوجه» ذكرت عشرين أصلًا أخرى، ذات مضمون آخر، ووجهة أخرى[1]، وأعتقد أنَّه لو كان الإمام الشهيد مكاني لفعل مثل ما فعلت، ولكل مقام مقال.

اتجاه التجميع والتوفيق:

ولا ريب أنَّ الاتجاه التوحيدي والتوفيقي، في هذه الأصول واضح كلَّ الوضوح، وحينما بدأت أكتب في شرح هذه الأصول، وعلى الأصح أنشر

(١) انظر كتابنا: الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه صـ ٢٧ ـ ٤١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

بعض ما كان عندي من شـــرحها، عندما بدأت مجلة «الدعوة» في الظهور في أوائل السبعينيَّات بإشراف المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني رَحِمَهُ اللَّهُ، جعلت لها عنوانًا أساسيًّا ثابتًا هو «نحو وحدة فكريَّة إسلاميَّة».

ومن توفيق الله لنا أنْ وجدت شـــيخنا الغزالـــي ـ رحمه الله وأجزل مثوبته ـ لحظ هذا الملحظ نفسه بعد ذلك، فسمَّى كتابه الَّذي شرح فيه هذه الأصول العشرين «دستور الوحدة الثقافيَّة بين المسلمين».

وقد كان التكوين العقلي والنفسي لحســـن البنَّا يتجه أبدًا إلى البناء لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق.

وهذا هو السرُّ في أنَّ حســـن البنَّا لم يحسم الرأي في بعض الأمور، وتركها لكل فريق يرى فيها رأيه، حســـبما يلوح له مـــن الأدلَّة، كما في موضوع «التوسل» بالنبي أو بالصالحين.

فبعد أنْ أكَّد ضرورة أنْ يكون المدعو والمتوســـل إليه هو الله تعالى ذكر أنَّ قضيَّة التوســـل «بجاه النبي ونحوه» تدخل في مســـائل «الفروع العمليَّة» الَّتي يبحث فيها علم «الفقه» وليســـت من «الأصول العقائدية» الَّتي يبحث فيها علم «التوحيد»؛ لأنَّها تتعلق بالخلاف في كيفيَّة الدعاء، فتخرج بذلك من العقيدة إلى العمل.

وبعض المتحمســـين لوجهة معينة يعيبون على الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه لم يحســـم في هذا الأمر، برأي قاطع، وذلك لأنَّهم ينظرون من زاوية غير زاويته، ويسعون إلى هدف غير هدفه، ويسلكون سبلًا غير سبيله.

فالرجـــل يرى أنْ يجمع الأُمَّـــة على الأهداف الكبرى، وأن يحشـــد صفوفها ـ على اختلاف وجهاتها ـ في مقابلة القوى المعادية للإســـلام

QaradawiBooks.com

جهرًا، والمتربصة به سـرًّا، ويحرص على أنْ تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفًّا كأنَّهم بنيان مرصوص.

وليس معنى ذلك أنْ يتنازل عن أساسيات الإسلام، فهذا غير وارد في هذا المقام بحال من الأحوال.

ولهذا أنكر ادعاء الكشف والإلهام والرؤى، واعتبارها مصدرًا للأحكام والسلوك، وأنكر الخرافات والشركيات المتعلقة بالتمائم والرقى والكهانة وزيارة القبور والغلو في الأولياء والكرامات ونحوها.

كما أنكر الابتداع في الدين، وشرع ما لم يأذن به الله، إلخ، ودعا إلى التمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، والرجوع إليهما في معرفة أحكام الإسلام. فالتجميع والتوفيق الَّذي حرص عليه الإمام البنَّا إنَّما هو في الأمور الَّتي تتعدَّد فيها الاجتهادات، وتختلف فيها وجهات النظر، فلا بأس من تركها دون حسم.

وهذا هو شأن الراسخين من أهل العلم، الَّذين كثيرًا ما يسألون فيقولون: لا ندري، أو يذكرون أقوال أهل العلم قبلهم واختلافهم فيها، ولا يرجحون قولًا على قول.

وقد روي هذا عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في عدد من المسائل، وعقب على ذلك الإمام الرازي في «المحصول» فقال: هذا يدلُّ على كمال منصبه في العلم والدين.

أما العلم فلأنَّ كل من كان أغوص نظرًا، وأدق فكرًا، وأكثر إحاطة بالأصول والفروع، وأتم وقوفًا على شرائط الأدلة: كانت الإشكالات عنده أكثر.

QaradawiBooks.com

أما المصرُّ على الوجه الواحد طول عمره ـ في المباحث الظنية ـ بحيث لا يتردَّد فيه، فذلك لا يكون إلَّا من جمود الطبع، وقلة الفطنة، وكلال القريحة، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات.

وأما الدين فمن وجهين:

الأول: أنَّه لما لم يظهر له فيه وجه الرجحان: لم يستح من الاعتراف بعدم العلم، ولم يشتغل بالترويج والمداهنة، بل صرَّح بعجزه عما هو عاجز فيه. وذلك لا يصدر إلَّا عن الدين المتين.

كيف ـ وقد نقل عن عمر رضي الله عنه ـ اعترافه بعدم العلم، في كثير من المسائل[1] وجميع المسلمين عدُّوا ذلك من مناقبه وفضائله، فكيف جعلوه عيبًا ههنا؟!

والثاني: وهو أنَّه لم يقل ابتداءً: «إنِّي لا أعرف هذه المسألة» بل وجد المسألة واقعة بين أصلين، فذكر وجه وقوعها بينهما، وكيفيَّة اشتباهها بهما. فلما لم يظهر له الرجحان تركها على تلك الحالة، ليكون ذلك بعثًا له على الفكر بعد ذلك، وحثًّا لغيره من المجتهدين على طلب الترجيح.

«وهذا هو اللائق بالدين المتين، والعقل الرصين والعلم الكامل، بل من أنصف واعترف بالحق، علم أنَّ ذلك ممَّا يدلُّ على رجحان حاله، على حال سائر المجتهدين: في العلم والدين»[2].

---

(١) نحو هذا روي عن سيدنا عمر في الحديث المتفق عليه: «وددت أنَّ رسول الله ﷺ لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عهدًا: الجَدُّ، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا». رواه البخاري في الأشربة (٥٥٨٨)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٢).

(٢) المحصول للرازي (٣٩٥/٥، ٣٩٦)، تحقيق د. طه جابر العلواني، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

وما لاحظه الإمام البنَّا منذ نحو نصف قرن ـ من الحاجة إلى التجميع والتوفيق ـ لا زلنا نلاحظه إلى اليوم.

ففي البلاد الَّتي زرتها داخل العالم الإسلامي، وفي الجاليات والتجمعات الإسلاميَّة الَّتي التقيت بها خارج العالم الإسلامي، وفي المؤتمرات والندوات الَّتي شاركت فيها في أقطار شتَّى في المشرق والمغرب ـ كان هناك سؤال مشترك يتكرر ويلح ويضغط علينا نحن الداعين للإسلام، والمنتمين إلى الجماعات والحركات الإسلاميَّة.

هذا السؤال يقول: لماذا يظل الخلاف قائمًا بين الجماعات الإسلاميَّة؟ ولماذا لا تتوحد كلها في جماعة أو حركة إسلاميَّة عالمية كبرى، بدل هذه الجماعات المتفرقة المتناثرة؟! إنَّ الاتحاد يقوِّي القلة، والاختلاف يضعف الكثرة، فلماذا الاختلاف بينها؟ أليست كلها تعمل لنصرة الإسلام، وإقامة دولة الإسلام؟! أو ليس الإسلام هدف الجميع، ومنطق الجميع؟ فلماذا يتفرَّقون ولا يجتمعون؟ ولماذا يختلفون ولا يتوحدون؟

وكم تمنَّى دعاة مخلصون أنْ تقوم في عصرنا حركة إسلاميَّة عالمية واحدة، تضم كل الحركات، وتستوعب كل الطاقات، فتكون أقدر على التصدي لتكتلات القوى المعادية، ومؤامرات الصهيونية، والصليبيَّة، والشيوعية والوثنية، الَّتي قد تختلف بينها وتتفق علينا.

ومما لا يخفى على دارس أنَّ هناك عقبات جمة تقف في سبيل هذه الوحدة المرغوبة.

فالوحدة تقتضي الاتفاق على عدَّة أمور:

١ ـ تتفق أولًا على الأهداف، وعلى ترتيبها.

QaradawiBooks.com

٢ ـ ثمَّ تتفق ثانيًا على المناهج والوسائل الَّتي تتخذ لتحقيق الأهداف المنشودة.

٣ ـ ثمَّ تتفق ثالثًا على القيادة والثقة بإخلاصها وكفايتها، وقدرتها على استخدام تلك الوسائل لتحقيق تلك الأهداف.

وهذا ليس من اليسير أنْ يتوافر إلَّا داخل الجماعة الواحدة.

ولهذا أرى أنَّ الحلم بالحركة الَّتي تستوعب كل الحركات، أو الجماعة الَّتي تضم كل الجماعات: حلم جميل، ولكنَّه ـ بمنطق الواقع ـ بعيد التحقيق.

واعتقادي الَّذي سجَّلته في أكثر من كتاب: أنَّه ليس من الضروري توحيد الجماعات الإسلاميَّة، وصبها في قالب واحد. بل يكفي التقريب بينها، وإزالة أسباب التنافر والتناكر بين بعضها وبعض، والعمل على أنْ يكون بينها قدر من التنسيق والتفاهم والتعاون. بحيث يكمل بعضها بعضًا، وبحيث تقف في القضايا الكبيرة جبهة واحدة، كالبنيان المرصوص.

وبهذا يكون اختلافها اختلاف تنوُّع وثراء، لا اختلاف تناقض وصراع. ومما يعين على هذا التقارب والتفاهم والتعاون: ما ذكرناه من ضرورة توفير «حد أدنى» من «المفاهيم المشتركة» الَّتي تجمع بين المتفرقين، وتقارب بين المتباعدين، وتوثق الصلة بين المتقاربين. وهذا ما يمكن أنْ تؤديه هذه الأصول إلى حدٍّ كبير[1].

* * *

(١) انظر كتابنا: شمول الإسلام صـ ٢٧ ـ ٣٤.

QaradawiBooks.com

٣

العناية بالتكوين المتكامل

من الخصائص الَّتي تميزت بها دعوة الإخوان المسلمين عما سبقها وما عاصرها من دعوات الإصــلاح: العناية بالتكوين: تكوين الطلائع أو الحراس الَّذين يجسدون جيل النصر المنشود.

وذلك أنَّ الحركة تعمل على توعية الجماهير الغفيرة ودعوتهم العامَّة إلى الإسلام، ثمَّ تســتخلص منهم العناصر الصالحة، والمستعدة للبذل والتضحية، وحمل أعباء الجنديَّة في ســبيل الله، وهؤلاء هم الَّذين يوجه إليهم التكوين المتكامل.

أهم عناصر هذا التكوين ثلاثة أساسيَّة، وهي:

١ ـ التثقيف العقلي.

٢ ـ الإيقاظ الروحي.

٣ ـ الترابط الأخوي.

وقد عبَّر الإمام البنَّا عن هذه العناصر الثلاثة يومًا، فسمَّاها:

١ ـ الفهم الدقيق.

٢ ـ والإيمان العميق.

٣ ـ والحبُّ الوثيق.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وعبَّر عنها الداعية المعروف الدكتور سعيد رمضان في مقال قديم له عن «أواصر الجماعة المؤمنة» فاعتبرها: العاطفة، والفكرة، والتنظيم.

المهم هنا: أنَّ هذا التكوين بعناصره الثلاثة ممَّا تميَّزت به دعوة الإخوان، فلم تكن دعوة: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، أو دعوة عبد الرحمٰن الكواكبي، وأمثالهم من المصلحين الإسلاميين تعنى بجانب التكوين أو التربية أو البناء، إنَّما تعنى بالتوعية والإيقاظ والتنوير العام.

أما حسن البنَّا فقد رأى أنَّ التوعية العامَّة لا تكفي وحدها لإصلاح الأُمَّة وتغيير ما بأنفسها، حتَّى يغيِّر الله ما بها، وأنَّه لا بديل عن التجنيد والتربية والبناء لتحقيق الغاية المنشودة.

وكان حسن البنَّا يرى أنْ يتبع المنهاج النبوي في ذلك، وأنَّ النبي ﷺ قد جعل أكبر همِّه طوال العهد المكي هو تكوين الجيل الربَّاني، والرعيل القرآني الأوَّل، من خلال تعهُّد دائم، وصحبة مباركة، ومراقبة إيجابيَّة، وكانت «دار الأرقم» في مكَّة هي أشهر دار للتربية الأساسيَّة الَّتي خرَّجت أوَّل أجيال الإسلام وأفضلها، الَّذين وصفوا بأنَّهم «رهبان الليل وفرسان النهار». وأنَّهم «يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع».

وأعظم ما وصفوا به: ما جاء في كتاب الله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

QaradawiBooks.com

١ ـ التثقيف العقلي:

العنصر الأوَّل في التكوين هو: ما يتعلق بتثقيف الفكر، وتنوير العقل، فالإسلام دين ينشئ «العقليَّة العلميَّة»[(١)] ويرفض «العقليَّة الخرافية» أو «العامِّيَّة» الَّتي تعتمد على الظن في موضع اليقين، أو تعتمد على الهوى والعواطف في مقام لا يغني فيه إلَّا الحقائق الموضوعيَّة. وهو ما يرفضه القرآن الكريم الَّذي يذم المشركين بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، ويقول في السورة نفسها: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وفي سورة أخرى يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

والعقليَّة العلميَّة هي الَّتي ترفض التقليد الأعمى، سواء كان للأجداد والآباء، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، أم كان للسادة والكبراء كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] وقد تكرَّر هذا المعنى في جملة سور من القرآن الكريم[(٢)].

والعقليَّة العلميَّة الَّتي ينشئها الإسلام هي: الَّتي تؤمن بوجوب النظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء؛ فالكون

(١) انظر كتابنا: العقل والعلم في القرآن صـ ٢٤٩ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

(٢) منها: سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة سبأ، وغيرها.

QaradawiBooks.com

كله مسرح للفكر والتأمُّل، وكذلك التاريخ ومصاير الأمم. وكذلك الإنسان بكل آفاقه الروحيَّة والماديَّة. يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولا تقبل العقليَّة الإسلاميَّة دعوى بلا بينة؛ فهي تعتمد البرهان في العقليات، والتوثيق في النقليات، والتجربة في الحسِّيَّات. يقول القرآن لأصحاب العقائد: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤]، وفي مقام النقل: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]، وفي مقام آخر يقول: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

ومن ثمَّ كان بدء الوحي القرآني بهذه الآيات: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. والقراءة باب العلم ومفتاحه.

ولذا حرص الإمام البنَّا على أنْ تكون «الثقافة» أو «العلم» أو «الفهم» من مقوِّمات شخصية المسلم.

فمن تكوين الفرد المسلم كما في رسالة التعاليم: أنْ يكون مثقفَ الفكر، كما يكون سليم العقيدة، صحيح العبادة، متين الخلق، قوي الجسم.

وفي رسالة «دعوتنا في طور جديد» يتحدث عن الفرد المسلم المنشود، فيذكر أنَّ الإسلام يريد فيه إدراكًا صحيحًا يتصور الصواب

QaradawiBooks.com

والخطأ، كما يريد فيه وجدانًا شاعرًا يتذوق الجمال والقبح، وإرادة حازمة لا تضعف ولا تلين أمام الحق. كما تحدَّث فيها عن العقليَّة الغيبية، والعقليَّة الماديَّة الحسية، والعقليَّة الَّتي تؤمن بالغيب في مجاله، والحسِّ في مجاله، وهي عقلية المسلم المتوازنة.

وقد تحدَّث الإمام عن أركان «البيعة» وهي تعبير عن التعهد للعمل بصدق وإخلاص لتحقيق أهداف الجماعة، والجهاد والتضحية في سبيلها، والثبات عليها. فجعل أوَّل هذه الأركان «الفهم»، وهي كلمة أدق وأعمق من مجرد كلمة «العلم».

وأراد بـ «الفهم» أنْ يوقن الأخ المسلم: أنَّ فكرته «إسلاميَّة صميمة» وأن يفهم الإسلام كما يفهمه الإخوان، سعيًا إلى «وحدة الفهم والعقل المشترك»، وأن يفهم الإسلام في حدود «الأصول العشرين» الموجزة كل الإيجاز.

وهذه الأصول العشرين: خلاصة لقراءات واسعة ومطولة في المصادر الإسلاميَّة، وقد قصد بها أنْ تكون إشارات ومعالم تهدي الأخ المسلم في مفارق الطرقات، وتنير له الدرب في المشتبهات. بحيث ينهج النهج الوسط، فلا يتنطَّع مع المتنطِّعين، ولا يتسيَّب مع المتسيِّبين. ولا يتخذ المواقف المتشنِّجة من القضايا ذات الوجهين أو الأوجه.

فهو يأخذ من التصوُّف خير ما فيه، ولكن يرفض ما فيه من بدع، على أنْ يفرق بين البدعة الأصلية والبدعة الفرعية، وبين البدعة الفعلية والبدعة التركية، وبين المتفق عليه والمختلف فيه.

كما يرفض الشركيات الَّتي قبلها بعض المتصوِّفة من التمسح بالقبور والطواف حولها والاستعانة بأهلها، وهم لا يملكون لأنفسهم

QaradawiBooks.com

ـ فما بالك بغيرهم ـ ضرًّا ولا نفعًا. قال الأستاذ: ولا نتأوَّل لهذه الأعمال، سدًّا للذريعة.

وكذلك رأيناه يقف من المذاهب والمتمذهبين موقفًا عدلًا، فلم يوجب التقليد للمذاهب، كما قال بعضهم، ولم يحرِّم التقليد لها بإطلاق، كما قال بعض آخر، بل قال: «لكلِّ مسلمٍ لم يبلغ درجةَ النظر في أدلَّة الأحكام الشرعيَّة: أنْ يتَّبع إمامًا من أئمَّة الدِّين، ويحسن به أنْ يتعرف على أدلَّة إمامه ما استطاع، وأن يتقبَّل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صحَّ عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتَّى يبلغ درجة النظر»[1]. وهذا من أعدل ما قيل، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ما يُؤيِّد هذا.

وهو قد رفض القبوريَّات والشركيَّات الصريحة، ولكنَّه لم يحسم القول في قضيَّة التوسُّل، وقال إنَّه خلاف في كيفيَّة الدعاء، ما دام المدعو المتوسَّل إليه هو الله وحده، فهو إذن من مسائل العمل، لا من مسائل الاعتقاد.

وهذا فقه صحيح، وقد قال بمثله الإمام محمَّد بن عبد الوهاب في بعض كتبه. وسنذكره بالتفصيل في الباب الأخير من هذا الكتاب، عندما نتحدَّث عن «الإخوان والعقيدة».

وفي الأصل الثامن عشر قال: والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحِّب بالصالح والنافع من كل شيء، **والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق النَّاس بها.**

(١) الأصول العشرين في رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٥٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي الأصل التاسع عشر نبَّه على أمر مهم مكمل للأصل السابق، فيقول: وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنَّهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علميَّة صحيحة، بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنِّيَّين، فالنظر الشرعي أولى بالاتباع، حتَّى يثبت العقلي أو ينهار[1].

ومن قديم أثبت الإمام ابن تيمية أنَّ صحيح المنقول لا يتعارض أبدًا مع صريح المعقول، وألَّف في ذلك كتابه الكبير «درء تعارض العقل والنقل» الَّذي صدر في عشرة أجزاء.

ولم يقم عندنا نحن المسلمين صراع بين العقل والوحي، أو بين العلم والدين، كما حدث في أوربا في عصورها الوسطى، وقد بيَّنت في عدد من كتبي أنَّ الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين، وهما متكاملان لا متناقضان.

وكان الأستاذ البنَّا حريصًا على تثقيف إخوانه بالرسائل والمقالات، كما رصد لذلك: حديث الثلاثاء من كل أسبوع، يتناول فيه غالبًا حلقة في سلسلة، مثل نظرات في كتاب الله، نظرات في السُّنَّة أو في السيرة، أو في التزكية وإصلاح القلوب، أو غيرها. ويجيب عن أسئلة السائلين، بما يزيح الشبهات، ويُصحِّح المفاهيم.

كما كانت مجلة الإخوان الأسبوعيَّة، ثمَّ الجريدة اليوميَّة بعد ذلك، تحمل زادًا أوليًّا للتثقيف المطلوب. وفي المنهاج التربوي للإخوان: حد أدنى، يجب تحصيله، ثمَّ يجب على كل أخ أنْ يثقف ذاته ما استطاع، وأن ينهل من العلم بقدر ما يتسع له واديه.

(١) انظر: الأصول العشرين من رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٥٨، ٣٥٩.

QaradawiBooks.com

وفي الفتـــرة الأخيرة من حياة الإمام الشـــهيد شـــعر بـــأنَّ الإخوان يحتاجون إلى ثقافة أكثر تركيزًا وعمقًا، ممَّـــا تعرضه الجريدة اليوميَّة أو المجلة الأســـبوعيَّة، أو الرســـائل الإخوانيَّة، فعمل على إنشـــاء «مجلة الشـــهاب» لتســـد هذا الفراغ، وبالفعل كانت مجلة علميَّة رصينة، وكان يرجو لها أنْ تخلف «مجلة المنار» الشـــهيرة، الَّتي كان يصدرها العلامة رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان الأستاذ البنَّا يحرِّر معظم أبوابها، فكان يكتب في التفسير، وفي العقائـــد «الله»، وفي «أصول الإســـلام كنظام اجتماعي»، وفـــي «الرواية والإسناد» في أصول الحديث ومصطلحه، وفي التاريخ الإسلامي.

وكان يكتـــب فيهـــا كبـــار العلمـــاء والمتخصصين، أمثال الشـــهيد عبد القادر عودة، والأستاذ مصطفى الزرقا، وغيرهما.

وللأســـف لم يصدر منها غير خمســـة أعداد، ثمَّ كان قدر الله، بحلِّ الإخوان، واستشهاد الأستاذ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأحســـب أن لو قدَّر الله تعالى وامتدَّ به العمر وواتاه التوفيق، لترك للإخوان ميراثًا كبيرًا في جوانب الثقافة الإسلاميَّة، يشرح الفكرة، ويوحد المفاهيم الأساسيَّة، ولكنَّه ترك ـ على كل حال ـ من المناهج والمشاعل ما يضيء لهم الطريـــق، ومن إخوانه وتلاميذه من يكمل المســـيرة على بصيرة بإذن الله.

والمكتبة الإســـلاميَّة اليـــوم الَّتي ســـاهم فيها الإخـــوان وأنصار فكرتهم: حافلة بما يفيد ويغني ويشـــبع في جوانب شـــتَّى من الثقافة الإسلاميَّة، وكلها ملك لمن يريد أنْ يزداد فهمًا ومعرفة بدينه ورسالته وحضارته وأمته.

QaradawiBooks.com

٢ ـ الإيقاظ الروحي:

والعنصر الثاني في «التكوين الإخواني» هو «الإيقاظ الروحي» الَّذي يعنى بتجديد الإيمان بالله تعالى، واليقين بالآخرة، وتقوية المعاني الربَّانية في القلب، من التوكُّل على الله، والإنابة إليه، والإخلاص له، والمحبة له ولأوليائه، والأنس بذكره، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والاعتزاز بالانتماء إليه، والثقة بنصره وتأييده، والحياء منه، والشعور برقابته، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه والرضا بقضائه، وحسن الأدب معه، واستشعار تقواه في كلِّ عمل وكلِّ حال، إلى آخر ما يعنى به رجال التصوُّف الصادقون.

والوصول إلى هذا ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى رياضة مستمرة، ومجاهدة طويلة لهذه النفس الأمَّارة بالسوء، وتصميم على تزكية النفس بالتخلية والتحلية: التخلية من رذائل الشرك والنفاق والجاهليَّة، والتحلية بفضائل التوحيد والإيمان والإسلام والإحسان. وهذا هو أساس الفلاح في الأولى والآخرة: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

ولا يتم هذا إلَّا في مناخ يساعد عليه، يجد فيه المرء المرشد الموجه إلى الله، والبيئة النظيفة المعينة على الخير، كما يجد الأخ الصالح، الرفيق في الدرب، حامل مسك الهدى، الَّذي يدلُّ على الله منطقه، ويذكِّر بالآخرة حاله، ويرغِّب في الخير سلوكه.

وهذا ما حرص عليه الإمام البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، قولًا وفعلًا، ونظرًا وتطبيقًا. فقد أعلن أنَّ الإخوان إلى جوار أنَّها دعوة سلفيَّة، وطريقة سنية، وهيئة سياسيَّة، إلخ هي حقيقة صوفيَّة.

QaradawiBooks.com

وفي مقام آخر يجيب الأستاذ من يسأل من الناس: ما أنتم أيُّها الإخوان؟ وما حقيقتكم؟ فإنَّا لم نعرفكم بعد، فضعوا لأنفسكم عنوانًا نعرفكم به.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: نحن أيُّها النَّاس دعوةُ القرآنِ الحقِّ الشاملة الجامعة: طريقة صوفيَّة؛ لإصلاح النفوس، وتطهير الأرواح، وجمع القلوب على الله العلي الكبير.

وجمعيَّة خيريَّة نافعة، ومؤسسة اجتماعيَّة قائمة، وحزب سياسي نظيف[١].

فانظر: كيف بدأ بهذا المعنى الربَّاني الكبير، وقدَّمه على العمل الاجتماعي والخيري، والعمل الوطني والسياسي؛ لأنَّه الأساس الأوَّل للبناء، والشرط الأوَّل للفلاح.

وهو لم يكتف بالقول والإشادة بهذا الجانب الخطير في حياة الجماعة. بل أنشأ المؤسسات التربويَّة الَّتي تعين على هذا التكوين المنشود، مثل «الأسرة» وهي حلقة صغيرة لها نقيب مسؤول عنها، يربي فيها الإخوان بعضهم بعضًا: بالتدارس والتفاهم والتناصح والتعاون. و«الكتيبة» وهي عبارة عن «ليلة» تقام في سبيل الله، يتعبَّد فيها الإخوان بتلاوة القرآن وذكر الله وقيام الليل، ودرس العشاء ودرس الفجر، وقراءة الأدعية المأثورات، وأداء التمرينات الرياضيَّة الصباحية، مع قليل من النوم، وتناوب في الحراسة في الليل، ثمَّ الانصراف في الصباح كل إلى عمله أو منزله. ومثل ذلك: «المخيم» يتم فيه مثل ذلك. مع المحاضرات والمناقشات والأناشيد الإسلاميَّة ـ لعدَّة أيام[٢].

(١) مجموعة الرسائل صـ ٢٥٢.

(٢) راجع في التربية الربانية لدى الإخوان كتابنا: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

QaradawiBooks.com

أهمية الجانب النفسي «الروحي» والخلقي:

عرف الأستاذ البنَّا تاريخ الأمم والنهضات وتاريخ الدعوات والرسالات، وعرف من قراءته للتاريخ: أنَّ نهضات الأمم ورسالات الأنبياء ودعوات المصلحين، لا تنجح ولا تنتصر إلَّا بالرجال المؤمنين الأقوياء، الَّذين يعتبرون بمثابة البناة والحرَّاس. كما قال تعالى لرسوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وعرف الأستاذ البنَّا أنَّ بناء هؤلاء الرجال هو أهم ما ينبغي أنْ يعنى به المصلحون، وأنَّ له الأولوية على ما سواه.

ومن قرأ للأستاذ البنَّا أو استمع إلى محاضراته ودروسه، وجده يؤكد هذه المعاني، ويكرِّرها، ويعرض لها بأكثر من أسلوب في أكثر من مناسبة، دلالة على وضوحها في ذهنه، وعمقها في نفسه، وأهميتها في نفسه، وأهميتها عنده.

وكل من قاد الإخوان بعد البنَّا مضى في هذا الطريق، وأكَّد هذه المعاني. وحسبي أنْ أذكر هنا قول المرشد الثاني حسن الهضيبي: «أقيموا دولة الإسلام في صدوركم، تقم على أرضكم». وما أبلغها من كلمة.

من أين نبدأ؟

يقول حسن البنَّا في رسالة «إلى أيِّ شيء ندعو الناس» تحت عنوان «من أين نبدأ»: «إنَّ تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ: تحتاج من الأُمَّة الَّتي تحاول هذا أو الفئة الَّتي تدعو إليه على الأقل، إلى «قوة نفسية عظيمة» تتمثل في عدَّة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلوُّن ولا غدر، وتضحية

QaradawiBooks.com

عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له، يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه، والخديعة بغيره. على هذه الأركان الأولية الَّتي هي من خصوص النفوس وحدها، وعلى هذه القوَّة الرُّوحيَّة الهائلة، تبنى المبادئ وتتربَّى الأمم الناهضة، وتتكوَّن الشعوب الفتية، وتتجدَّد الحياة فيمن حرموا الحياة زمنًا طويلًا.

وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لا يصل إلى الخير، ولا يحقق أملًا، وحسبه أنْ يعيش في جوٍّ من الأحلام والظنون والأوهام ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

هذا هو قانون الله تعالى وسنَّته في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

وهو أيضًا القانون الَّذي عبَّر عنه النبي ﷺ في الحديث الشريف الَّذي رواه أبو داود: «**يوشك الأمم أنْ تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلَّة نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسولَ الله، وما الوهن؟ قال: «**حبُّ الدنيا وكراهية الموت**»[1].

أو لستَ تراه ﷺ قد بيَّن أنَّ سبب ضعف الأمم وذلة الشعوب: وهن نفوسها، وضعف قلوبها، وخلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة، وصفات الرجولة الصحيحة، وإن كثر عددها، وزادت خيراتها وثمراتها.

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

QaradawiBooks.com

وإنَّ الأُمَّة إذا رتعت في النعيم، وأنست بالترف، وغرقت في أعراض المادَّة، وافتتنت بزهرة الحياة الدنيا، ونسيت احتمال الشدائد، ومقارعة الخطوب، والمجاهدة في سبيل الحق، فقل: على عزَّتها وآمالها العفاء»[1].

يظنُّ كثيرٌ من النَّاس أنَّ الشرق تعوزه القوَّة الماديَّة، من المال والعتاد وآلات الحرب والكفاح، لينهض ويسابق الأمم الَّتي سلبت حقه، وهضمت أهله، ذلك صحيح ومهم، ولكن أهم منه وألزم: القوَّة الروحيَّة، من الخلق الفاضل، والنفس النبيلة، والإيمان بالحقوق ومعرفتها، والإرادة الماضية، والتضحية في سبيل الواجب، والوفاء الَّذي تنبني عليه الثقة والوحدة، وعنهما تكون القوَّة.

لو آمن الشرق بحقِّه، وغيَّر من نفسه، واعتنى بقوة الروح، وعني بتقويم الأخلاق، لأتته وسائل القوَّة الماديَّة من كل جانب، وعند صحائف التاريخ الخبر اليقين.

يعتقد الإخوان المسلمون هذا تمام الاعتقاد، وهم لهذا دائبون في تطهير أرواحهم، وتقوية نفوسهم، وتقويم أخلاقهم، وهم لهذا يجاهدون بدعوتهم، ويريدون النَّاس على مبادئهم، ويطالبون الأُمَّة بإصلاح النفوس وتقويم الأخلاق.

وهم لم يبتدعوا ذلك ابتداعًا شأنهم في كل ما يقولون، ولكنَّهم يستمدُّون من القاموس الأعظم، والبحر الخضم، والدستور المحكم، والمرجع الأعلى، ذلك هو كتاب الله تعالى، وقد سمعت من قبل تلك المادة الخالدة من ذلك القانون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

(١) مجموعة رسائل الإمام صـ ٤٥، ٤٦.

QaradawiBooks.com

ولقد كشف القرآن عن هذا المعنى في كثير من آياته، بل إنَّه ضرب لنا مثلًا تطبيقيًّا خالدًا، واضحًا كل الوضوح، صادقًا كل الصدق، في قصة بني إسرائيل، تلك القصة الرائعة الَّتي ترسم لكلِّ أُمَّة يائسة طريق التكوين.

يقظة الروح: الإيمان والعزة والأمل:

ويعود إلى ذلك المعنى الكبير لشرحه ويؤكده في رسالة «دعوتنا في طور جديد» فيقول: «وينظر النَّاس في الدعوات إلى مظاهرها العمليَّة وألوانها الشكليَّة، ويهملون كثيرًا النظر إلى الدوافع النفسية والإلهامات الرُّوحيَّة، الَّتي هي في الحقيقة مدد الدعوات وغذاؤها، وعليها يتوقف انتصارها ونماؤها، وتلك حقيقة لا يجادل فيها إلَّا البعيد عن دراسة الدعوات وتعرف أسرارها. إنَّ من وراء المظاهر جميعًا في كل دعوة روحًا دافعة، وقوَّة باطنة، تسيِّرها وتهيمن عليها وتدفع إليها، ومحال أنْ تنهض أمة بغير هذه اليقظة الحقيقيَّة في النفوس والأرواح والمشاعر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولهذا أستطيع أنْ أقول: إنَّ أوَّل ما نهتم له في دعوتنا، وأهم ما نعوِّل عليه في نمائها وظهورها وانتشارها: هذه اليقظة الرُّوحيَّة المرتجاة، فنحن نريد أوَّل ما نريد يقظة الروح، حياة القلوب، صحوة حقيقية في الوجدان والمشاعر، وليس يعنينا أنْ نتكلم عما نريد بهذه الدعوة من فروع الإصلاح في النواحي العمليَّة المختلفة بقدر ما يعنينا أنْ نركز في النفوس هذه الفكرة. ثمَّ يقول: نحن نريد نفوسًا حيَّة قوية، قلوبًا جديدة خفَّاقة، مشاعر غيورة ملهبة، أرواحًا طموحة متطلِّعة متوثبة، تتخيل مثلًا عليا، وأهدافًا سامية لتسمو نحوها، وتتطلَّع إليها، ثمَّ تصل إليها.

QaradawiBooks.com

ويستشهد الإمام البنَّا لصحة فكرته هذه، بعمل الرسول ﷺ، وما ربَّى عليه أصحابه، وما قذف في قلوبهم من معان ومشاعر، ميَّزتهم عن الناس، وحلَّقت بهم في آفاق عليا، فهو يتحرَّى بدعوته نهج الدعوة الأولى، وأن تكون هذه الدعوة الجديدة، صدًى حقيقيًّا لتلك الدعوة السابقة، الَّتي هتف بها رسول الله ﷺ في بطحاء مكَّة قبل ألف ومئات من السنين، فهو يريد أنْ يقف بين يدي الأستاذ الأوَّل، سيِّد المربين، ليتلقَّى عنده دروس الإصلاح من جديد.

ماذا صنع النبي الكريم مع أصحابه الغرِّ الميامين؟

لقد قذف في قلوبهم ـ أوَّل ما قذف ـ أنَّ ما جاء به هو الحق، وأنَّ ما عداه هو الباطل، وأنَّ رسالته خير الرسالات، وأنَّ نهجه أفضل المناهج، وأنَّ شريعته تتضمن أعدل الأحكام وأكمل النظم الَّتي تتحقَّق بها سعادة الناس، وتلا عليهم من كتاب الله ما يزيد هذا المعنى ثباتًا في النفس، وتمكُّنًا في القلب، فآمنوا بهذا واعتقدوه، وصدروا عنه.

وقذف في قلوبهم: أنَّهم ما داموا أهل الحق وما داموا حملة رسالة النور وغيرهم يتخبَّط في الظلام، وما دام بأيديهم هدي السماء لإرشاد الأرض، فهم إذن يجب أنْ يكونوا أساتذة الناس، وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه، يحنو عليه ويرشده ويقوِّمه ويسدِّده، ويقوده إلى الخير، ويهديه سواء السبيل.

وقذف في قلوبهم: أنَّهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحق، معتزين بانتسابهم إليه، فإنَّ الله معهم، يُعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيِّدهم، ويمدُّهم إذا تخلَّى عنهم الناس، ويدافع عنهم إذا أعوزهم النصير، وهو معهم أينما كانوا، وإذا لم ينهض معهم جند الأرض

QaradawiBooks.com

تنزل عليهم المدد من جند السماء، وأخذوا يقرؤون هذه المعاني واضحة في كتاب الله.

وبهذه المشاعر الثلاثة: الإيمان بعظمة الرسالة، والاعتزاز باعتناقها، والأمل في تأييد الله إيَّاها: أحياها الراعي الأوَّل في قلوب المؤمنين من صحابته بإذن الله، وحدَّد لهم أهدافهم في هذه الحياة، فاندفعوا يحملون رسالتهم، معتدِّين بتكريم الله إيَّاهم، واثقين بنصره وتأييده، فدانت لهم الأرض، وفرضوا على الدنيا حضارة الأخلاق، وبدَّلوا فيها سيئات الماديَّة الجامدة، إلى حسنات الربانيَّة الخالدة، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

أثر اليقظة الرُّوحيَّة في التغيير:

كان حسن البنَّا شديد الإيمان بأنَّ التغيير النفسي والروحي هو أساس كل تغيير وإصلاح، وأنَّ على الدعاة والمصلحين أنْ يبذلوا جهدهم الفكري والدعوي والعملي، لإيقاظ الأرواح، وإحياء القلوب، وتنبيه الضمائر، وتحريك المشاعر، وتجديد الإيمان، وأنَّ ذلك سيعمل عمله، ويؤتي أكله حسب سُنَّة الله في الخلق، فهذه اليقظة الروحيَّة هي «المفتاح» لقفل البشريَّة.

يوضِّح حسن البنَّا ذلك بعباراته البليغة السَّلِسة البيِّنة، فيقول:

(أ) ستعمل هذه اليقظة عملها في الفرد، فإذا به نموذج قائم لما يريده الإسلام في الأفراد. إنَّ الإسلام يريد في الفرد وجدانًا شاعرًا يتذوَّق الجمال والقبح، وإدراكًا صحيحًا يتصوَّر الصواب والخطأ، وإرادة حازمة لا تضعف ولا تلين أمام الحق، وجسمًا سليمًا يقوم بأعباء الواجبات

QaradawiBooks.com

الإنسانيَّة حق القيام، ويصبح أداةً صالحةً لتحقيق الإرادة الصالحة وينصر الحق والخير.

وقد وضع الإسلام تكاليفه الشخصيَّة على القواعد الَّتي توصل إلى هذه النتائج كلها، ففي العبادات الإسلاميَّة أفضل ما يصل القلب بالله، ويربي الوجدان الشاعر والإحساس الدقيق، وفي النظر الإسلامي ما يرقى بالعقول والألباب، ويدفعها إلى كشف ستائر الكون ومعرفة دقائق الوجود.

وفي الخلق الإسلامي ما يربي الإرادة الحازمة، والعزيمة الماضية الصارمة، وفي النظام الإسلامي في الطعام والشراب والمنام وتوابع ذلك من شؤون الحياة ما لو اتبعه الفرد لحفظ جسمه من مهلكات لا دواء لها، ولظلَّ في وقاية من فواتِكِ الأمراض.

ولهذا نوجب على الأخ المسلم أنْ يتعبَّد بما أمره الله به ليرقى وجدانه، وأنْ يتعلم ما وسعه ليتَّسع إدراكه، وأنْ يتخلَّق بأخلاق الإسلام لتقوى إرادته، وأنْ يلتزم نظام الإسلام في الطعام والشراب والنوم ليحفظ الله عليه بدنه من غوائل الأمراض والأسقام، والإسلام حين يضع هذه القواعد لا يضعها للرجال ويدع النساء، ولكنَّ الصنفين في هذه الناحية الفرديَّة في الإسلام سواء، فعلى الأخت المسلمة أنْ تكون كالأخ المسلم في رقَّة وجدانها وسمو إدراكها، ومتانة خلقها، وسلامة بدنها.

(ب) وسيكون لهذا الإصلاح الفردي أثره في الأسرة، ذلك أنَّ الأسرة مجموعة أفراد، فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة ـ وهما عماد الأسرة ـ استطاعا أنْ يكوِّنا بيتًا نموذجيًّا وفق القواعد الَّتي وضعها الإسلام، وقد وضع الإسلام قواعد البيت فأحكم وضعها، فأرشد إلى

QaradawiBooks.com

حسن الاختيار، وبيَّن أفضل الطرائق للارتباط، وحدَّد الحقوق والواجبات، وأوجب على الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج حتَّى تينع وتنضج في غير عبث ولا إهمال، وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجيَّة من المشكلات أدقَّ علاج، واختطَّ في كل نظراته طريقًا وسطًا لا تفريط فيه ولا إفراط.

(ج) وإذا صلحت الأسرة فقد صلحت الأُمَّة، وإنَّما الأُمَّة مجموعة هذه الأسر، وإنَّما الأسرة أُمَّة مصغَّرة والأُمَّة أسرة مكبَّرة، وقد وضع الإسلام للأمة قواعد الحياة الاجتماعيَّة السعيدة، فعقد بين بنيها آصرة الأخوَّة وجعلها قرينة الإيمان، ورفع مستوى هذه الصلة إلى المحبة بل إلى الإيثار، وقضى على كل ما من شأنه أنْ يمزِّق هذه الروابط أو يضعف هذه الوشائج، وحدَّد الحقوق والواجبات والصلات، فللأبوة حقُّها وعليها واجبها، وللبنوة مثل ذلك، ولذوي القربى حقوقهم وعليهم واجباتهم، وفصَّل مهمة الحاكم والمحكوم أدقَّ تفصيل، وبيَّن للمعاملات بين النَّاس أحكامها بأفصح بيان، ولم يجعل لأحدٍ على أحدٍ فضلًا إلَّا بالتقوى فلا سيِّدَ ولا مسود، ولا أمراء ولا عبيد، ولكن النَّاس في ذوات الله سواسية كأسنان المشط، إنَّما يتفاوتون بعمل الصالحات، وكذلك حدَّد صلات الأمم بعضها ببعض، وبيَّن حقوق كل صنف فيها وواجباته، ولم يدع من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها[1].

٣ ـ الترابط الأخوي:

والعنصر الثالث من عناصر «التكوين» الأساسيَّة لدى الإخوان هو: الترابط الأخوي.

(١) رسالة دعوتنا في طور جديد ضمن مجموعة الرسائل صـ ٢٣٣ ـ ٢٣٦.

QaradawiBooks.com

فقد عني حسن البنَّا بهذا العنصر منذ تأسيس الجماعة، بل إنَّ الاسم الَّذي اختاره لهذه الجماعة، يتضمن هذا المعنى بوضوح، فهو يضم معنيين كبيرين: الإسلام والأخوَّة «الإخوان المسلمون».

وكان البنَّا يركز على معنى الأخوَّة، وربطها بالجانب الرباني، بحيث تكون أخوَّة في الله، ومحبَّة في الله، فأوثق عُرا الإيمان: الحبُّ في الله، والبغض في الله، وهل الإيمان إلَّا الحبُّ والبغض؟

وكان في أحاديث الثلاثاء في المركز العام للإخوان بالقاهرة، يبدأها عادة بإشعال لهب هذه العاطفة الإيمانيَّة الجيَّاشة: عاطفة الحب في الله، ويذكر من الآيات والأحاديث ما يبقي عليها حيَّة دافئة.

مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقوله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلَّا لله، وأن يكره أنْ يعود في الكفر كما يكره أنْ يقذف في النار**»(١).

وقوله: «**سبعة يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه**» وذكر منهم «**ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه**»(٢).

وسمعته في أكثر من مناسبة يردد هذا الحديث: «**إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظِلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ إلَّا ظلِّي**»(٣).

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.
(٣) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٦)، وأحمد (٧٢٣١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

كان حسن البنَّا حريصًا كل الحرص على أنْ ترتبط أعضاء جماعته، برباط وثيق لا تنفصم عراه، وليس ذلك أفضل من رابطة «الأخوة الإسلاميَّة».

فإذا كان النَّاس تربطهم في هذه الدنيا روابط شتَّى، رابطة الدم والنسب، أو رابطة الطين والأرض، أو رابطة اللغة واللسان، أو رابطة المصلحة المشتركة، أو غير ذلك من الروابط الماديَّة والدنيويَّة الزائلة، أو المعرَّضة دومًا للزوال، فإنَّ رابطة الأخوة الإيمانيَّة هي الأخلد والأبقى، وهي الأعزُّ والأقوى؛ لأنَّها رابطة قامت لله وفي الله، وما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

لقد كان حسن البنَّا مؤمنًا بضرورة العمل الجماعي لنصرة الدعوة الإسلاميَّة، وتحرير الأرض الإسلاميَّة، وتوحيد الأُمَّة الإسلاميَّة، وتحقيق آمالها الكبرى في النهوض والبناء والترقِّي، وأداء دورها الربَّاني في هداية العالم إلى نور الله.

بل كان حسن البنَّا هو الواضع الأوَّل لأسس العمل الجماعي الإسلامي، وأنَّ العمل الفردي ـ مهما تكن نيَّة أصحابه وإخلاصهم وتفانيهم ـ لا يمكنه أنْ يحقِّق أهداف الإسلام الكبيرة والبعيدة.

ولهذا كانت الأوامر والتوجيهات القرآنية والنبويَّة محرِّضة على التوحيد والتعاضدَّ والتعاون والتضامن، فإنَّ اليد وحدها لا تصفق، ويد الله على الجماعة، والشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا.

يؤكد هذا: أنَّ القوى المعادية للإسلام وأُمَّته، لا تعمل بصورة فرديَّة، أو بقوى متناثرة أو مبعثرة، بل تعمل في صورة جماعات وتكتلات

QaradawiBooks.com

منظمة، حـدَّدت غاياتهـا، وعيَّنت طرائقهـا، واختير رجالهـا وقادتها، ورصدت لها مصادر التمويل الدائمة والطارئة.

فلا يجوز أنْ نقابل هذه القوى المتجمعة بأعمال فرديَّة متفرقة، تعجز أنْ تنصر صديقًا أو تقهر عدوًّا.

وما دامت الجماعة ـ على حـدِّ تعبيرنا ـ فريضة وضـرورة: فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقـع، فلا بدَّ لهذه الجماعة من رابط قوي يربط بين أفرادها، أشبه بما نسـمِّيه «المونة» أو «الإسمنت» الَّذي يربط «لبنات البناء» بعضها ببعض، حتَّى يكـون كما جاء في الحديث: «**يشـدُّ بعضه بعضًا**»[1]، أو كمـا قال الله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وهذا الرباط هو الأخوة الصادقة، الَّتي هي صنو الإيمان ودليله، كما قـال تعالـى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجـرات: ١٠]. وكما فـي الحديث الصحيح: «**المسـلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسـلمه** ـ أي لا يتخلَّى عنه ـ **ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**»[2].

ولا تكـون الأخـوة صادقـة إلَّا إذا تجـرَّدت عن أعـراض الدنيا، وتمحَّضت للدين، وخلُصت لوجه الله تعالى، وهـذا هو الحب في الله، الَّذي كثرت في فضله الأحاديث.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ من عباد الله عبادًا ليسـوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشـهداء**»! قيل: من هم لعلَّنا نحبُّهم؟

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٨١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) سبق تخريجه صـ١٨٩.

QaradawiBooks.com

قال: «**هم قوم تحابُّوا بنور الله، من غير أرحام ولا أنساب** ـ أي لا تجمعهم قرابة ولا نسب ـ **وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**»، ثمَّ قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢][(١)].

وقال رجلٌ لمعاذ بن جبل: والله إنِّي لأحبك لله! فقال: آلله؟ قال الرجل: قلتُ: آلله. فأخذ بحبوة ردائي، فجذبني إليه، وقال: أبشر، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ**»[(٢)].

وقد شاعت هذه الأحاديث وأمثالها في جوِّ الإخوان، وحفظوها وتناقلوها، ونبتت في ظلها عواطف فيَّاضة، ومشاعر دفَّاقة، من مشاعر الحب في الله، والارتباط على دينه، كوَّنت رابطة لا تعدلها ولا تقاربها رابطة، وكما قال الأستاذ سعيد رمضان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا رباط أقوى من العقيدة، ولا عقيدة أقوى من الإسلام.

وكان الإمام البنَّا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتبر هذا الرباط الأخوي هو المظهر الثاني للقوة المنشودة، بعد قوَّة العقيدة، وهو قوَّة الأخوة والوحدة والارتباط، وتأتي بعدها قوَّة الساعد والسلاح، وكان أخشى ما يخشاه على الإخوان: أنْ تتفرَّق كلمتهم، وينفرط عِقْد أخوتهم، وقال لهم مرة: أنا لا أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا الروس، ولا غيرهم من طغاة الغرب أو الشرق، ولكنِّي أخشى عليكم حقًّا من أمرين اثنين:

---

(١) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١١٧٢)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٧٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وصحَّحه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٣).

(٢) رواه أحمد (٢٢٠٣٠)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن حبان في البر والإحسان (٥٧٥)، وصحَّح النووي إسناده في رياض الصالحين (٣٨٢).

QaradawiBooks.com

أولهما: أنْ تعصوا الله تعالى وتفرِّطوا في جنبه، فيتخلى عنكم، ويكلكم إلى أنفسكم.

والثاني: أنْ تتفرَّقوا فلا تجتمعوا إلَّا بعد فوات الفرصة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وفي رسالة التعاليم جعل «الأخوة» أحد أركان البيعة، وقال في شرحها: وأريد بالأخوة: أنْ ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأوَّل القوَّة: قوَّة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب: سلامة الصدر (أي من الحسد والبغضاء والأحقاد) وأعلاه: مرتبة الإيثار ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه؛ لأنَّه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به ـ كانوا بغيره، «**وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[(١)]، «**والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضًا**»[(٢)]، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة: ٧١]. وهكذا يجب أنْ نكون[(٣)] اهـ.

وهي كلمات مركَّزة، تتضمن معاني كبيرة.

---

(١) رواه أحمد (٢١٧١٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٥٤٧)، والنسائي في الإمامة (٨٤٧)، والحاكم في التفسير (٤٨٢/٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه النووي في المجموع (١٨٧/٤)، عن أبي الدرداء.

(٢) سبق تخريجه صـ ٢٥٤.

(٣) رسالة التعاليم ضمن مجموعة رسائل الإمام صـ ٣٦٤.

QaradawiBooks.com

ولم يكتف الأستاذ البنَّا رحمة الله عليه بهذا البيان والتأكيد، فقد كان من مزايا الرجل: أنَّه يربط العلم بالعمل، والفكر بالحركة، والنظر بالتطبيق.

ومن أجل ذلك أسَّس «نظام الأسر» وهو نظام فذ، ابتكره الأستاذ، مستفيدًا من تجربته الصوفيَّة، ومن قراءاته العلميَّة، ومن ممارسته العمليَّة، وهدفه أنْ يرفع مستوى الأخوة لدى الإخوان من الكلام والنظريات إلى الأفعال والعمليات.

وجعل الأستاذ لهذا النظام أركانًا ثلاثة:

١ ـ **التعارف**، ويعني به: التعارف والتحابَّ بين الإخوان بروح الله تعالى، واستشعار معنى الأخوة الصحيحة الكاملة فيما بينهم، والاجتهاد ألَّا يعكر صفو علاقتهم شيء، وهذا يقتضي أنْ يتكاشف أعضاء الأسرة فيما بينهم، وأن يعرف كل منهم ظروف أخيه وحاجاته ومشكلاته، وقدراته وإمكاناته.

٢ ـ **والتفاهم**، ويعني به: الاستقامة على منهج الحق، وتنفيذ ما أمر الله به، وإقصاء ما نهى الله عنه، وحساب النفس حسابًا وقتيًّا على الطاعة والمعصية، ولينصح كل أخ أخاه متى رأى فيه عيبًا، وليتقبل الأخ نصح أخيه بسرور وفرح، وليشكر له ذلك. وليحذر الأخ الناصح أنْ يتغيَّر قلبه على أخيه المنصوح قيد شعرة، وليحذر المنصوح من العناد والتصلب وتغيُّر القلب على أخيه الناصح له ولو بمقدار شعرة، فإنَّ مرتبة الحب في الله هي أعلى المراتب، والنصيحة ركن الدين.

٣ ـ **والتكافل**، هو الركن الثالث، يعني به: أنْ يحمل الإخوان بعضهم عبء بعض، ويتعهد بعضهم بعضًا بالسؤال والبر، وليبادر إلى مساعدته ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

QaradawiBooks.com

وأوصى الأستاذ كل أسرة أنْ يكون لها لقاء أو اجتماع أسبوعي، ورسم لهم ما يشغلون به وقتهم خلال الاجتماع.

أ ـ من تدارس شؤونهم الخاصة، وما يعرض لهم من مشكلات شخصية أو دعويَّة، والتذاكر حول حلولها، في جوٍّ من صدق المودة، وإخلاص التوجه إلى الله، وفي ذلك توطيد للثقة وتوثيق للرابطة «**والمؤمن مرآة أخيه**»[1]، وبذلك يتحقق التصوير النبوي للمؤمنين أنَّهم كالجسد الواحد.

ب ـ ومن ذلك: التذاكر حول شؤون الإسلام، وتلاوة الرسائل والتوجيهات الواردة من القيادة، ولا محل في الأسرة للجدل أو الخصومة أو الحدَّة ورفع الصوت، قال الأستاذ: «فذلك حرام في فقه الأسرة» ولكن بيان واستيضاح في حدود الأدب والتقدير المتداول من الجميع.

ج ـ المدارسة النافعة في كتاب من الكتب القيمة، أو أكثر من كتاب.

ثم رسم الأستاذ بعد ذلك مناهج عمليَّة من الرحلات الثقافيَّة والرياضيَّة، والجبلية، وصيام يوم في الأسبوع، وصلاة الفجر جماعة، على الأقل مرَّة في يوم معين كل أسبوع.

وقد طوَّر الإخوان نظام الأسرة ووضعوا مناهج تربويَّة متكاملة، لا تزال تتطوَّر وتتجدَّد.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٨)، والبيهقي في قتال أهل البغي (١٦٧/٨)، وحسَّن إسناده الحافظ في بلوغ المرام (٣٠٩/١)، وحسَّن إسناده الألباني في الأدب المفرد (١٧٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقد كان لهذه الـــروح، وهذه المفاهيـــم، وهذه الأنظمـــة أثرها في الإخوان، حتَّى ضُرب بهم المثل في قوَّة التآلف والترابط، حتَّى قال أحد الصحفيين يومًا فـــي مصر: هـــذه الجماعة الَّتي إذا عطـــس أحدهم في الإسكندريَّة قال له مَنْ في أسوان: يرحمك الله[1]!

* * *

(١) هو الأستاذ إحسان عبد القدوس رَحِمَهُ اللَّهُ في مقال أو تحقيق صحفي قديم نشره في مجلة آخر ساعة، بالقاهرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الباب الثالث

الإخوان المسلمون
ثمار وآثار

- من ثمار الحركة وآثارها.
- الإخوان والمحن.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

من ثمار الحركة وآثارها

استطاعت الحركة الإسلاميَّة من خلال جهادها في هذا القرن أنْ تحقق عدَّة مكاسب في ميدان الفكر، وفي ميدان الشعور، وفي ميدان العمل.

أ ـ في المجال الفكري:

ففي الميدان الفكري استطاعت الحركة أنْ تقاوم الغزو الثقافي الوافد، وتهزمه هزيمة ساحقة في عدَّة معارك، وتعيد إلى جماهير غفيرة من المسلمين الثقة بالإسلام ورسالته وحضارته.

فقد مرَّ زمن غير قصير، كان الفكر الغربي فيه هو القائد المسيطر، وكانت كلمته هي العليا، وكان تياره ينفرد بالتأثير والتوجيه، وامتلاك زمام التربية والثقافة والإعلام.

وكان التيار الإسلامي يناوشه برفق، أو يخاطبه بلغة الدفاع، ويحاوره بأسلوب الاعتذار.

واليوم يتجاوز الفكر الإسلامي هذا الموقف، وينتقل من الدفاع إلى الهجوم، ومن الاعتذار إلى المواجهة، ومن الانبهار بالحضارة الغربيَّة إلى الكشف عن خوائها وقصورها ومظاهر إفلاسها.

نسخة مجانية

وأصبح الَّذين كانوا يدعون من قبل إلى تقليد الحضارة الغربيَّة، بخيرها وشرِّها وحلوها ومرِّها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، في حاجة إلى الدفاع عن أنفسهم، بل البراءة من دعواهم، وعدد منهم انتقل إلى الخط المخالف، وانضمَّ إلى قافلة الدعاة إلى الإسلام.

لقد أصبحت «الهوُية الإسلاميَّة» حقيقة واقعة، بعد أنْ كانت مثار جدل، وموضع خصام من التيارات المخالفة، وأضحى «الانتماء إلى الإسلام» محل اعتزاز ومباهاة، بعد أنْ وجد من أراد أنْ ينتسب إلى البحر المتوسط، أو ينتسب إلى الغرب، أو يربط نسبه بالجاهليات القديمة، الَّتي حرَّر الله المسلمين منها ومن ضلالاتها بنعمة العقيدة، ونور الإسلام.

لم تعد مشكلة الهُوية والانتماء قائمة، كما كانت أمام سطوة الاستعمار الثقافي، والغزو الفكري، وغدونا نقول: نحن عرب مسلمون، وهنود مسلمون، وإندونيسيون مسلمون، وماليزيون مسلمون، وفرس مسلمون، وإفريقيون مسلمون، بل أمسى الكثيرون يقولن: نحن مسلمون قبل كل شيء.

وكسبت الهُوية الإسلاميَّة عقولًا وأقلامًا كانت في الصف المناوئ للإسلام فترة من الزمن، فغدت في كتيبته المدافعة عنه، الذائدة عن حياضه، كما رأينا في أمثال: إسماعيل مظهر، صاحب الفكر الدارويني، ود. مصطفى محمود، الَّذي ارتحل من الشكِّ إلى الإيمان، وخالد محمَّد خالد، الَّذي أصابته فترة انقلب فيها على الإسلام وشموله في كتبه: «من هنا نبدأ» و«الديمقراطيَّة أبدًا» و«لكيلا تحرثوا في البحر» وغيرها، وسرعان ما عاد إلى خطه الأصلي، وأصدر كتابه «الدولة في الإسلام» وما بعده.

QaradawiBooks.com

وطاردت الحركة الإسلاميَّة، الفكرة العلمانيَّة المستوردة الَّتي تعزل الدين عن المجتمع وعن الدولة وسياستها، وتحصره في نطاق العبادة والشعائر، والتدين الفردي السلبي، وخاضت معركة طويلة لإثبات شمول الإسلام، وربطه بالحياة والمجتمع، وأصبحت القاعدة العريضة من المسلمين ـ بفضل جهود الحركة الإسلاميَّة وأنصارها ومؤيِّديها ـ تؤمن بأنَّ الإسلام دعوة ودولة، عبادة وقيادة، صلاة وجهاد، روحانية وعمل، مصحف وسيف، وتستدلُّ لذلك بالنصوص المحكمة من القرآن والسُّنَّة، وبالمواقف العمليَّة الثابتة للرسول الكريم ﷺ وخلفائه الراشدين، وصحابته الأكرمين، وبالتاريخ المديد للأمة الإسلاميَّة، الَّتي لم تعرف قط هذا الفصام النكد، والازدواج المشؤوم، الَّذي قسم الحياة وشطر الإنسان بين الله وقيصر، حسب النظرة الكنسية المتوارثة، فللَّه المعبد، ولقيصر الحياة كلها بعد ذلك، فيجب أنْ يُترك ما لقيصر لقيصر، وما لله لله! على حين تقوم فكرة الإسلام على أنَّ الحياة لا تتجزأ، وأنَّ الإنسان لا ينشطر، وأن قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، الَّذي له ما في السماوات وما في الأرض، ومن في السماوات ومن في الأرض، وله الخلق والأمر.

واستطاع الفكر الإسلامي في مجال القانون والاقتصاد أنْ يثبت جدارة التشريع الإسلامي وتفوُّقه على القوانين الوضعية، وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، وسبقه كثيرًا من المبادئ والنظريات الَّتي لم يصل إليها القانون الغربي إلَّا منذ وقت قريب، ولم يبلغ فيها شأو التشريع الإسلامي.

ولم يثبت هذا عند حدِّ القانون المدني فقط، بل تعدَّاه إلى القانوني الجنائي والدولي والدستوري والمالي وغيرها.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وكسب الفكر الإسلامي كثيرًا من رجال القانون الوضعي نفسه، مثل كثير من رجال الاقتصاد الوضعي، فغدوا من أكبر الدعاة إلى تشريع الإسلام، وبيان مزاياه.

وحسبنا أنْ نذكر منهم أمثال حسن الهضيبي ـ المرشد الثاني للإخوان، والشهيد عبد القادر عودة، ومحمد عبد الله العربي، وعيسى عبده، ومحمود أبو السعود، وأحمد النجار وغيرهم رحمهم الله، وأجيالًا أخرى من بعدهم، قد لا تقل عنهم فضلًا.

وقدمت عشرات ومئات الأطروحات للماجستير والدكتوراه في الجامعات العربيَّة والإسلاميَّة حول موضوعات شتَّى في جوانب الدراسات الإسلاميَّة: في القانون والاقتصاد والتربية والسياسة والاجتماع والفلسفة والتاريخ وغيرها.

وأصبحت المكتبة الإسلاميَّة حافلة بآلاف الكتب في شتَّى ميادين الثقافة الإسلاميَّة[1]، بعضها يعتبر موسوعات، وبعضها متوسط، وبعضها قصير.

وغدا الكتاب الإسلامي هو الكتاب الأوَّل في سوق التوزيع، وخصوصًا بين الشباب المثقف، كما شهدت بذلك «الأرقام» الَّتي لا تكذب، في معارض الكتب الَّتي تقام في مختلف بلاد العرب والإسلام.

(١) قدم أ. د. محمد نجاة الله الصديقي في المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة ١٩٧٦م قائمة ببليوجرافية حول الدراسات الاقتصادية والإسلامية في اللغات العربية والأوردية والإنجليزية، فكانت عدة مئات والآن تضاعفت مرات ومرات، وفي كل المجالات الأخرى نجد مثل ذلك.

QaradawiBooks.com

ب ـ في المجال الشعوري:

وفي مجال الشعور والعاطفة، استطاعت الحركة الإسلاميَّة أنْ تعبِّئ مشاعر الجماهير الإسلاميَّة، على امتداد أرض الإسلام ـ شرقًا وغربًا ـ اهتمامًا بأمر الإسلام والمسلمين في كل مكان، وأنْ توقد شعلة الحماس في صدر الإنسان المسلم لمعاضدة أخيه المسلم، ونصرة قضايا تحرير الأرض الإسلاميَّة من إندونيسيا شرقًا إلى مراكش غربًا ـ وعلى رأسها جميعًا أرض النبوات المقدَّسة: فلسطين والمسجد الأقصى، وقضايا الأقليات الإسلاميَّة المضطهدة هنا وهناك، وقضايا الدعوة والجهاد في سبيل الإسلام.

واستطاعت الحركة الإسلاميَّة في كثير من القضايا أنْ تنتقل بالمسلمين من مرحلة الوطنيَّة الضيِّقة والقوميَّة المحدودة إلى آفاق الإسلاميَّة الواسعة، فينظروا إلى أنفسهم ـ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتباعد أوطانهم ـ باعتبارهم «أُمَّة واحدة» كما أمرهم الله، لا أممًا متفرقة، كما أراد لهم الاستعمار.

ولقد سمعت الأستاذ حسن البنَّا يتحدث في مؤتمر «المطالب الوطنيَّة المصريَّة» في مدينة طنطا، وكان يتحدث حول محاور ثلاثة حدَّدها رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الكلمات: قضيتنا، وسيلتنا، دعوتنا.

وكان من حديثه عن المحور الأوَّل «قضيتنا»: أنَّها تشمل قضيَّة الوطن الصغير، وقضيَّة الوطن الكبير، وقضيَّة الوطن الأكبر.

أمَّا الوطن الصغير: فهو «وادي النيل» شماله وجنوبه، لا بدَّ أنْ يجلو الإنجليز عن كل شبرٍ فيه، وتتحرَّر أرضه، ويتوحَّد الوادي كله تحت راية واحدة.

QaradawiBooks.com

وكان يقول: إنَّ مصر هي السودان الشمالي، وإنَّ السودان هي مصر الجنوبية.

أما الوطن الكبير، فهو «الوطن العربي» من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي، وهذه كانت التسمية المتوارثة له، وهو ـ في الحقيقة ـ فارسي من جهة، وعربي من جهة أخرى، ولذا أطلق عليه بعد ذلك «الخليج العربي».

وكان المركز العام للإخوان ملاذًا للمطرودين من أوطانهم والمجاهدين في سبيل تحريرها من الشرق العربي ومغربه.

وتحدث هنا عن قضيَّة فلسطين ومحوريتها وأهميتها، وضرورة التركيز عليها، والتنبيه لما يجري في أرضها، وفرضية التصدِّي لمكر الصهيونية، وتوعية الأُمَّة بأهدافها وأطماعها في الأرض المقدَّسة، والقدس الشريف والمسجد الأقصى.

وكان حسن البنَّا من أوائل من وعوا خطر الصهيونية على فلسطين، وعلى العرب والمسلمين، وله في ذلك مواقف وجهود تُذكر فتُشكر، وله هنا اتصال وثيق وقديم بمفتي فلسطين ومجاهدها الأكبر الحاج أمين الحسيني.

وأما الوطن الأكبر فهو «الوطن الإسلامي» من جاكرتا إلى مُرَّاكش[1]، أو من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، فكل أرض دنَّسها الاستعمار في هذا الوطن يجب أنْ تحرَّر، ويجب على أهلها أنْ يجاهدوا العدو الغاصب حتَّى يجلو عنها مذؤومًا مدحورًا، ويجب على المسلمين

(١) كانت كلمة «مراكش» في أدبيات ذلك العصر تعبيرًا عن دولة «المغرب» الحديثة.

QaradawiBooks.com

في أنحاء العالم أنْ يأخذوا بأيديهم ويساعدوهم بالمال وبالرجال، حتَّى يخلِّصوا بلدهم من نير الاستعمار.

وذكر هنا ما قررته كتب الفقه: لو أنَّ امرأة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها، وعبَّر عن ذلك أدب الحركة وشعرها بمثل هذه الأبيات:

ولستُ أَرْضَى سِوَى الْإِسْلَامِ لِي وَطَنًا ... الشَّامُ فِيهِ وَوَادِي النِّيلِ سِيَّانِ
وَحَيْثُما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي بَلَدٍ ... عَدَدْتُ أَرْجَاءَه مِنْ لُبِّ أَوْطَانِي[1]
وَطَنِي الْإِسْلَامُ لَا أَبْغِي سِوَاهُ ... وبَنُوهُ حَيْثُ كَانُوا إِخْوَتِي
مِصْرُ وَالشَّامُ وَنَجْدٌ وَرُبَاهُ ... مَعَ بَغْدَادَ جَمِيعًا أُمَّتِي[2]
يَا أَخِي فِي الْهِنْدِ أَوْ فِي الْمَغْرِبِ ... أَنَا مِنْكَ، أَنْتَ مِنِّي، أَنْتَ بِي
لَا تَسَلْ عَنْ عُنْصُرِي أَوْ نَسَبِي ... إِنَّهُ الْإِسْلَامُ أُمِّي وَأَبِي[3]

وكان من ثمرات ذلك وقوف شعوب الإسلام مع قضيَّة فلسطين من موريتانيا إلى جاكرتا، وكان بغض النظر عن مواقف حكوماتهم، حتَّى الأقليات الإسلاميَّة ـ رغم سوء ظروفها وحرج مواقفها ـ لم تنس أنَّها من أمة الإسلام الكبرى.

ومما يذكر هنا أنَّ من الأسباب المباشرة الَّتي أدَّت إلى محنة المسلمين في الفلبين: موقفهم ضدَّ سفارة إسرائيل في مانيلا، فقد ثاروا عليها وتظاهروا ضدَّها، رغم بُعد الشقة بين فلسطين والفلبين.

(١) البيتان من قصيدة بين القاهرة وبغداد لعبد الحكيم عابدين.
(٢) البيتان من نشيد الإسلام لعبد الحكيم عابدين.
(٣) نشيد: مسلمون، في ديواننا: نفحات ولفحات صـ ٢٣٨ ـ ٢٤٤.

QaradawiBooks.com

جـ ـ في المجال العملي والتربوي:

وفي مجال العمل، كان أهم وأعظم ما نجحت فيه الحركة: تربية أجيال مسلمة، كانت ضائعة ـ أو على وشك الضياع ـ بين تيَّارات الجاهليَّة الغربيَّة الوافدة، ومكر الصليبيَّة الحاقدة، وتضليل الشيوعية الجاحدة، ورواسب عصور التخلف الجامدة.

جعلت الحركة أكبر همِّها تكوين جيل مسلم يحسن الفهم للإسلام بشموله وتوازنه، ويحسن الإيمان به، بحيث يجسِّد إيمانه في العمل به، والغيرة عليه، والدعوة إليه، وبذل النفس والنفيس في سبيله.

وأن يتوحَّد هذا الجيل: فكريًّا بوحدة الأهداف والمفاهيم والأصول الجامعة، وعاطفيًّا بتعميق معاني الأخوة والحب في الله، وعمليًّا بالالتحام في تنظيم واحد، يقوم على الطاعة المبصرة لقيادة مؤمنة، ويحترم الشورى والتواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى.

وقد وضعت الحركة لذلك المناهج، وحدَّدت الوسائل، ورسمت الطريق، من الأسرة والكتيبة والمخيم، ومن العبادة، والقراءة، والرياضة وخدمة المجتمع، إلى غير ذلك.

حرصت الحركة على أنْ تقوم هذه التربية على أساس من الشمول والتكامل، فتشمل الجسم بالرياضة، والعقل بالثقافة، والروح بالعبادة، والخلق بالفضيلة، وتعد الفرد للدين والدنيا، حتَّى يكون نافعًا لنفسه ولأمَّته، صالحًا في نفسه، مصلحًا لغيره، لا يقتصر على التدين الشخصي بالصلاة والصيام والذكر، بل يضم إلى ذلك تدينًا إيجابيًّا بالدعوة إلى الخير والغيرة على الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل الجماعي لنصرة الإسلام، والعودة به إلى قيادة الحياة من جديد.

QaradawiBooks.com

كان حسن البنَّا يقول: نريد جيلًا يحمل الإسلام، وليس يحمله الإسلام!

وهذا كلام صحيح، فهناك أناس من المسلمين يحملهم الإسلام عبئًا على ظهره، كذلك الصنف الَّذي ذمَّه القرآن بقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ...﴾ [النحل: ٧٦].

فهؤلاء لا يقدمون للإسلام شيئًا، ولا ينفعون فكرته ولا أمته بنقير ولا قطمير.

في مقابل هؤلاء: من يحملون الإسلام فكرةً واضحة في رؤوسهم، وعقيدةً راسخة في نفوسهم، وأخلاقًا موجِّهة لسلوكهم، وتواصيًا بالحقِّ والصبر لمن حولهم، ودعوة للعالم كله إلى صراط الإسلام المستقيم، وللمسلمين ليحتكموا إلى شرعه، ويتَّحدوا على فهمه، ولغير المسلمين ليهتدوا بنوره، ويخرجوا من شركهم إلى توحيده، ومن إباحيتهم إلى طهارته، ومن رذائلهم إلى فضائله، ومن غلُوِّهم وتفريطهم إلى وسطيته، هؤلاء هم حملة المشاعل الربَّانية، فهم ورثة الأنبياء، وهمزة الوصل بين الأرض والسماء، وهذا هو الجيل الَّذي عاش حسن البنَّا ليكوِّنه في ظل الإسلام، وتحت راية القرآن.

وقد مثل هذا الجيل كل الشرائح الاجتماعيَّة، على اختلاف منازلها وتفاوت ثقافاتها ومداركها، من مثقفين «أطباء ومهندسين ومحاسبين وعلميِّين ومعلمين...» وطلبة وعلماء دين وتجار وموظفين وعمال وفلاحين، ووجهاء، وضبَّاط وجنود، ورجال ونساء، من مختلف الأعمار.

QaradawiBooks.com

وقد كان أوَّل ما لفت المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي ـ جزاه الله عن الإسلام خيرًا ـ إلى دعوة الإخوة: أنَّه لاحظ عند بعض أقاربه من القرويِّين والفلاحين وعيًا غير معتاد لأمثالهم في أمر الدين والحياة والمسائل العامَّة، فسأل عن مصدر هذا الوعي، وعرف أنَّهم ينتمون إلى جماعة الإخوان.

وقد فصلت بعض القول في التربية الإخوانيَّة وخصائصها وآثارها في كتيِّب مستقل نشرته من قبل تحت عنوان «التربية الإسلاميَّة ومدرسة حسن البنَّا» فليرجع إليه.

وحسبنا هنا أنَّ المعارك الحربيَّة الَّتي خاضها الإخوان اختيارًا، والمحن المتلاحقة الَّتي أُلقوا في أتونها اضطرارًا، قد أثبتت كلتاهما أصالة هذه التربية وتفوقها، وأنَّها أثمرت حقًّا جيلًا ربانيًّا فريدًا، مسلم الفكر والعاطفة والروح والسلوك، جديرًا بشرف الانتماء إلى «حزب الله» و«عباد الرحمٰن» وكتائب الإيمان، وأن يوصف بما وصف به أسلافه من قبل، أنَّهم «رهبان الليل وفرسان النهار»، جيلًا أشبه بما وصف به الأنصار رضي الله عنهم: أنَّهم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع[1]، لا تزلزله الشدائد، ولا تسحقه الانتصارات، لا يغريه وعد، ولا يثنيه وعيد، بل تزيده المحن والأهوال ثباتًا في دينه، ويقينًا على يقينه، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

(١) رواه الواقدي عن ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين عن محمود بن لبيد. كما ذكره الخطابي في غريب الحديث (٦٨٢/١)، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، نشر دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

QaradawiBooks.com

كما أثبتت هذه التربية صدق الأخوة، وقوَّة الترابط ـ القائم على الحب في الله ـ بين أبناء الجماعة، وقد ظهر أثر ذلك أيام المحن فلم يخذل بعضهم بعضًا، ولم يتخلَّ بعضهم عن بعض، بل كانوا كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضه بعضًا، ودخل كثير منهم السجون لمساعدته أسر إخوانه المعتقلين، وذلك من حقوق الأخوة، كما قال القائل:

إِنَّ أَخَاكَ الحقَّ من كان معكْ ومن يَضُرُّ نَفْسَه لِيَنْفَعَكْ!
ومن إذا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ شتت فيك شمله ليجمعك[1]!

د ـ في الجهاد:

عملت الحركة الإسلاميَّة على إحياء معنى «الجهاد الإسلامي» ولم تقف به عند جهاد النفس والشيطان، وإن كان ذلك جزءًا أصيلًا من مناهجها التربويَّة، ولكنَّها ارتفعت به، ليشمل جهاد قوى الاستعمار في الخارج، وقوى الطغيان في الداخل، وجعلت الحركة جهادها حول محورين: تحقيق الفكرة الإسلاميَّة، وتحرير الأرض الإسلاميَّة.

وتحقيق الفكرة الإسلاميَّة يعني: تحقيق حياة إسلاميَّة متكاملة، حياة توجهها العقيدة، وتحرسها العبادة، وتحكمها الشريعة، وتضبطها الأخلاق، وتجمِّلها الآداب والتقاليد، حياة يعيش بها الفرد المسلم في مجتمع مسلم يأخذ بيده بدل أنْ يعوقه، ويساعده على الالتزام بدل أنْ يقهره على التفلُّت، ويمارس إسلامه حرًّا بلا ضغط ولا تنازلات، ولا يشعر فيها بتناقض بين ضميره وواقعه، أو بين عقيدته ومجتمعه.

(١) من شعر أبي العتاهية، كما في ديوانه صـ ٣١٥، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

وتحرير الأرض الإسلاميَّة يعني: أنَّ كل أرض دخلها الإسلام، وقام بها حكمه، وارتفعت فيها مآذنه، يجب أنْ تحرر من كل سلطان أجنبي كافر، وكل حكم طاغوتي فاجر، وهذا فرض عين على أهلها، ثمَّ من حولهم الأقرب فالأقرب، حسب حاجة الجهاد وأعبائه ومطالبه، حتَّى يشمل المسلمين كافة.

وعلى المسلمين في أنحاء الأرض أنْ يساعدوهم بما يستطيعون من مال ورجال وعتاد حتَّى ينتصروا، فالمسلمون ـ حيثما كانوا ـ أمة واحدة، يسعى بذمَّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، أي: لا يتركه لعدوه يتحكَّم فيه وهو يتفرج.

ولهذا وقف أبناء الحركة ـ ومسقط رأسها مصر ـ وراء كل القضايا الإسلاميَّة، بدءًا بقضيَّة الوطن الخاص وادي النيل، شماله وجنوبه، ومرورًا بقضايا الوطن العربي في مشرقه وعلى رأسها: قضيَّة فلسطين أرض المقدَّسات والنبوات، وسوريا ولبنان، وفي مغربه مثل قضايا تونس والجزائر ومراكش، وانتهاءً بقضايا الوطن الإسلامي الأكبر، مثل قضايا إندونيسيا وباكستان وكشمير، وغيرها من قضايا المسلمين في آسيا وأفريقيا، وقضايا الأقليات الإسلاميَّة المهضومة المضطهدة في أنحاء كثيرة من العالم، بل قضايا الأكثريات الإسلاميَّة المضيَّعة والمسحوقة، كما في أرتيريا والحبشة والجمهوريات الإسلاميَّة في الاتحاد السوفيتي، فهذه الجمهوريات قد عدت في عقود من السنين في حساب الأقليات المسلمة وهي في حقيقتها أوطان إسلاميَّة أصيلة، ضُمَّت قسرًا إلى الاتحاد السوفيتي، ووُضعت قهرًا تحت الستار الحديدي.

QaradawiBooks.com

وكان في المركز العام للإخوان قسم أساسي يسمَّى «قسم الاتصال بالعالم الإسلامي» مهمته الاهتمام بالمسلمين في أنحاء العالم، وجمع المعلومات منهم، واستقبالهم إذا وفدوا، والاتصال بهم، ونصرة قضاياهم.

جعلت الحركة شعارها وعلَمها مصحفًا يحوطه سيفان، كتب تحت عبارة «وأعدوا» إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كما جعلت أحد هتافاتها الرئيسيَّة: «الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

ولقد طبقت الحركة عملًا ما نادت به هتافًا وشعارًا، وخاضت معارك جهادية فعلية، ضدَّ الصهيونيين في فلسطين، وضدَّ الإنجليز في مصر، وقدَّمت الحركة من خيرة أبنائها للفداء، ممَّن ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. واحتفظ سجل الشهداء بقائمة مشرِّفة من أبناء الدعوة الأبرار، عبروا عن إيمانهم بدمائهم الزكية، وتركوا الآخرين من دعاة الوطنيَّة والقوميَّة العلمانيَّة يعبِّرون بالكلمات الجوفاء، تلوكها ألسنة ثرثارة، أو تسود بها صحف تقول في الصباح ما يكذبه المساء!

لا يتَّسع المجال للحديث عن جهاد الإخوان في فلسطين ضدَّ اليهود، وما تجلى فيه من روائع الفداء والإيثار، وآيات التضحية والبطولة، الَّتي أعادت للناس صورًا مضيئة من عهود الصحابة وتابعيهم بإحسان، ومثل ذلك جهاد الإخوان في القناة ضدَّ الإنجليز ـ وقد أتيح لي أنْ أتشرف بالمشاركة في جزء منه ـ وما ضربه شباب الإخوان من مثل، وقد كُتِبت في ذلك كُتُبٌ كتبها شهود عيان، مثل: «الإخوان المسلمون في حرب

QaradawiBooks.com

فلسطين» و«الإخوان المسلمون والمقاومة السرية في قناة السويس» كلاهما للأستاذ كامل الشريف، و«كفاح الشباب الجامعي في قناة السويس» للأستاذ حسن دوح.

ولا يزال للحركة أبناء صادقون، أخلصهم الله لدينهم، وأخلصوا دينهم لله، نذروا أنفسهم للجهاد في أرض فلسطين، لتحرير أرض النبوات من رجس الصهيونية، وتحرير القدس الشريف والمسجد الأقصى المبارك، أولئكم هم أبناء حركة المقاومة الإسلاميَّة «حماس».

هؤلاء الَّذين أقضُّوا مضاجع الصهاينة الطغاة المستكبرين في الأرض، ونغَّصوا عليهم عيشهم، وهم يبذلون جهودهم الجبارة للتخلص منهم، وتحريض السلطة الفلسطينية عليهم، وها هي واشنطن تقول لهم: حماس عدوكم وعدونا معًا، فعلينا أنْ نتعاون للقضاء عليها.

وهم يسمون جماعة «حماس» وإخوانهم في «الجهاد» جماعات «الإرهاب»، والإرهاب الحقيقي يكمن في إسرائيل، إنَّها الإرهابي الأكبر، الَّذي يسفك الدماء، ويقتل الأبرياء، ويغتصب الديار، ويشرِّد الأحرار، ولا يبالي في سبيل تحقيق أهدافه بإيمان ولا قيم ولا أخلاق.

هـ ـ في ميدان الاقتصاد:

وكان من ثمار الحركة الإسلاميَّة: تعبئة الشعور الشعبي ضدَّ «الربا» الَّذي آذن الله مرتكبيه بحرب من الله ورسوله، واعتبره الرسول ﷺ من الموبقات السبع[1]، ولعن آكله ومؤكله، وكاتبه وشاهديه[2]، وظهرت عشرات بل مئات من الكتب للكشف عن مزايا «الاقتصاد الإسلامي»

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم (١٥٩٧)، وأحمد (٣٨٠٩)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

والتحرر من الاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي، وعقدت المؤتمرات والندوات، واختفت تلك الأفكار «الانهزامية» الَّتي كانت تحاول تسويغ الربا، وتفريخ الفتاوى لإباحته، واكتسحها تيار «الصحوة الإسلاميَّة» الجارف، وقامت حملة بل حملات، تنادي بضرورة إيجاد «بنوك إسلاميَّة» خالية من الفوائد الربوية، وتحقق الحلم، وبطلت مقولة الَّذين كانوا يقولون: الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والفوائد عصب البنوك، فلا تحلموا ببنوك بلا فائدة!

وقامت عشرات البنوك الإسلاميَّة، وهي تزداد وتتَّسع وتنمو يومًا بعد يوم، حتَّى أنشأ كثير من البنوك الربوية العريقة «فروعًا» للمعاملات الإسلاميَّة، بل فعل ذلك بعض البنوك العالميَّة الشهيرة.

كما قامت شركات ومؤسسات إسلاميَّة، تقوم على أساس التعامل وَفْق أحكام الشريعة الإسلاميَّة الغراء، مثل: «شركات التأمين» الإسلاميَّة، الَّتي تقوم على أساس التعاون والتكافل، لا على أساس الاسترباح من التأمين.

وقد أدَّى ذلك إلى إحياء «فقه المعاملات» الَّذي كان مهجورًا، وإلى صدور دراسات اقتصاديَّة ومحاسبية وإداريَّة في ضوء الشريعة، يصعب حصرها.

وأنشئت «مراكز أبحاث» للاقتصاد الإسلامي، و«أقسام علميَّة» في بعض الجامعات للاقتصاد الإسلامي.

وتخصَّص أساتذة مرموقون في الاقتصاد الإسلامي، وصلوا إلى مرتبة الأستاذية بالجامعة.

QaradawiBooks.com

وأُسِّست «مجلات» متخصِّصة في خدمة الاقتصاد الإسلامي، وأمسى «الاقتصاد الإسلامي» معترفًا به في مجال الدراسات الأكاديمية في داخل العالم الإسلامي وخارجه.

غير مرخصة للطباعة

و ـ في ميدان خدمة المجتمع:

وكان للحركة الإسلاميَّة دورها البارز في خدمة المجتمع، وقد أنشأ الأستاذ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ في داخل جماعة الإخوان: أقسام البر والخدمة الاجتماعيَّة.

وأراد بذلك أنْ تؤدي الجماعة واجبها في خدمة المجتمع من حولها، والنهوض به في شتَّى ميادينه، بحسب قدرة الجماعة وإمكاناتها الماديَّة والبشريَّة، ولا سيَّما العناية بالمستضعفين في الأرض من الناس، من الفقراء واليتامى والأرامل والمرضى، وغيرهم من الفئات المسحوقة الَّتي تكدح ولا تجد من ثمرات كدحها ما يكفيها ومن تعول تمام الكفاية.

والحديث الشريف يقول: «**هل تُنصرون وتُرزقون إلَّا بضعفائكم**»[1]، يشير الحديث إلى أنَّ هؤلاء الضعفاء المسحوقين هم عدَّة الإنتاج في السلم، وعدة النصر في الحرب، فلا بدَّ من وجوب العناية بهم، وبحقوقهم ومطالبهم.

أنشأ الإخوان المستوصفات والعيادات لعلاج المرضى، والدور لرعاية اليتامى، ونظَّموا أمر الزكوات لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل والعجزة.

وأسَّسوا لجانًا لإصلاح ذات البين، وحتى لا تتفاقم الخلافات بين الناس، وتتحول شرارتها إلى نار تأكل الأخضر واليابس.

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٦)، عن سعد.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأسَّسوا المدراس لتعليم أبناء المسلمين، والحضانات لتعليم أطفالهم، وظهرت آثار ذلك في «المجتمع المصري» وفي كل مجتمع وجد فيه الإخوان.

وألَّف الأستاذ محمَّد شوقي زكي كتابه «الإخوان والمجتمع المصري» وهي رسالة جامعية بينت آثار الإخوان في هذا المجال، وهي واضحة لكل ذي عينين.

وأذكر أنِّي حين زرت الأردن سنة ١٩٥٢م وأنا طالب بكليَّة أصول الدين، مبعوثًا من الأستاذ الهضيبي المرشد العام للإخوان، دارت بيني وبين أعضاء «حزب التحرير» في مدينة الخليل مناقشة حادة حول مشروعيَّة «العمل الخير» الَّذي يقوم به الإخوان في مراكزهم وشعبهم.

كان من رأي حزب التحرير أنَّ هذا العمل معطِّل للدعوة، ومخدِّر للشعب، وأنَّ هذا ليس من عمل الأفراد، ولا الجماعات، وإنَّما هو من مهمة «الدولة المسلمة»، وكل عمل من هذا النوع يعوق إقامة الدولة، ويصرف طاقات الجماعة في سبيل غير سبيل الدعوة الَّتي يجب أنْ تستأثر بكل الجهود.

وقلت لهؤلاء الإخوة الَّذين جادلوني: تعالوا نتحاور بالحجة وها هي حجتي:

أولًا: إنَّ المسلم مأمور بفعل الخير، كما هو مأمور بالعبادة والجهاد، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

QaradawiBooks.com

فعلاقة المؤمن بربه: العبادة والركوع والسجود، وعلاقته بمجتمعه: فعل الخير، وعلاقته بأعدائه: الجهاد حق الجهاد.

ولا يسع المؤمن إلَّا أنْ يستجيب لأمر ربه، ولا يمكنه أنْ يقول إذا رأى جائعًا يستطيع أنْ يطعمه، أو عريانًا يمكنه أنْ يكسوه، أو مريضًا يستطيع أنْ يعالجه، أو مشرَّدًا يستطيع أنْ يؤويه: سأدعك حتَّى تقوم الدولة الإسلاميَّة! فهذه واجبات فورية لا يجوز إرجاؤها بحال.

ثانيًا: إنَّ الدعوة ليست بالكلام وحده ـ شفهيًّا كان أم مكتوبًا ـ فالدعوة بالعمل وخدمة النَّاس وحل مشكلاتهم، وتقديم الخير لهم، تفتح قلوبهم للدعوة، ربَّما بأكثر ممَّا تفتحها المحاضرات والكتب.

وهذا ما يفعله «المنصِّرون» في العالَم وفي ديارنا، يتحببون إلى النَّاس بخدمتهم، وعلاج مرضاهم، ومساعدة فقرائهم، وتعليم جهالهم.

ثالثًا: إنَّ في الجماعات أصنافًا من الناس، بعضها لا يصلح للجانب الدعوي النظري، ولا يقدر عليه، ولكنَّه يملك قدرة عمليَّة، وطاقة تنفيذية، فبدل أنْ يبقى هذا الصنف عاطلًا بلا عمل ولا إنتاج، يكلف بتوظيف طاقته في عمل الخير، فيستفيد ويفيد، ولن يضيع عند الله مثقال ذرة من عمل الخير.

رابعًا: إنَّ هناك هدفًا بعيدًا، وأهدافًا قريبة، ولا تناقض بين الانشغال بالأهداف القريبة الميسورة، حتَّى تتاح الفرصة لتحقيق الهدف البعيد المنشود.

فالهدف البعيد هو «إقامة الدولة الإسلاميَّة» الَّتي تعلي كلمة الله في الأرض وتمكِّن لدينه، وتحقِّق مقاصده، وهذا ليس في أيدينا، إنَّما هو في يد القدر الأعلى، وَفْق أسباب نعلم بعضها، ونجهل بعضها.

QaradawiBooks.com

فلا نستطيع أنْ نظل قاعدين مهمتنا انتظار إقامة الدولة، أشبه بالذين لا يعملون شـــيئًا، حتَّى يظهر «المهدي المنتظر» فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا.

وهذا ما رفضه آية الله الخمينـــي، ولم ينتظر حتَّى يخرج المهدي من مغارته، بل دعا إلى «ولاية الفقيه» الَّذي يقوم مقام المهدي في غيابه.

لهذا كان عملنا في خدمة مجتمعاتنا، والإسهام في كشف الغمة عنها، وتفريج كرباتها، عملًا مشروعًا حتَّى يهيِّئ الله الفرصة للهدف الكبير.

وقد شبهت هذا بمن يزرع النخيل، وأشجار الزيتون في حديقته، فإنَّ هذه الأشجار لا تؤتي ثمرتها إلَّا بعد عدَّة سنوات، وهنا يشتغل المزارع الناجح هذه الفترة من الزمن في زراعة الأرض محصولات مفيدة سريعة الإنتاج مثل الخضراوات من الخيار والطماطم والفلفل ونحوها. وأحسب أنَّ عمل هذا الفلاح أو البســـتاني عمل مقبول، لا يلومه عاقل عليه؛ لأنَّه انتفع بـــالأرض وبالوقـــت وبالطاقة فيما يفيـــد، ورحم الله امـــرءًا بذل ما يستطيع، وأجَّل ما لا يستطيع.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الإخوان والمحن

ولا يستطيع كاتب أو مؤرخ أو مراقب يتحدث عن الحركة إلَّا أنْ يخص بالذكر ما أصابها من محن متلاحقة، غدت أبرز معالم تاريخها، فلم يكن تاريخ الحركة يومًا مفروشًا بالورود والرياحين، بل محفوفًا بالمكاره، مليئًا بالأشواك، مضرَّجًا بالدماء، سُنَّة الله في حملة الهداية الربانيَّة من قبل، ولن تجد لسُنَّة الله تبديلًا ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] إنَّها البأساء في الأموال، والضرَّاء في الأبدان، والزلزلة في النفوس.

ولا عجب فإنَّ الحركة قد دعت إلى نظام حياة جديد، تقوم فلسفته كلها على الإسلام، ويستمدُّ أصوله من أحكامه ووصاياه، وهو نظام يخالف في كثير من النواحي ما ألفه النَّاس واعتادوه في شؤون الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتشريع والثقافة والفنون، ويصطدم بمفاهيم الكثيرين وبمصالحهم وشهوات أنفسهم، كما أنَّ كثيرًا من غير المسلمين يتوجَّسون خيفةً من هذا النظام، ويخشون أنْ يكون فيه جور على حقوقهم، وبعضهم يضمر له الكراهية جهلًا أو عصبية.

QaradawiBooks.com

وكما يزعج كثيرًا من غير المسلمين في الداخل، يخيف أكثر منهم في الخارج، ويزداد خوفهم إذا لمسوا نجاح الدعوة، وأحسوا بالاستجابة لها من فئات الشعب، وأنَّها تقترب ـ إذا سارت الأمور بطبيعتها ـ من تحقيق أهدافها الكبيرة، ولو مرحلة مرحلة، مع جهل شديد بحقائق الإسلام، وخوف غامض من انتصاره، ساعد على ذلك عوامل تاريخية قديمة محورها الأحقاد، وعوامل استعمارية جديدة محورها الأطماع.

هنا تتجمع شتَّى القوى المعادية، الحاقدة والخائفة والطامعة، والكارهة والرافضة والعميلة والمضلِّلة للوقوف في وجه هذه القوَّة النامية.

لقد اجتمع سفراء بريطانيا وأمريكا وفرنسا في «فايد» ـ معسكر القوات البريطانية ـ بمنطقة قناة السويس، وأجمعوا على ضرورة حل «الإخوان المسلمين» وضغطوا على الحكومة المصريَّة برئاسة محمود فهمي النقراشي باشا، فاستجابت لهم، ونفَّذت ما أرادوا.

ولم يعد هذا سرًّا، فقد انكشف الغطاء، وغدت الوثائق السرية بمرور الزمن في الإمكان الاطِّلاع عليها.

وكان هذا لخدمة «الوليد الجديد» إسرائيل، الَّتي أعلن هؤلاء الكبار أنَّها خلقت لتبقى، وأنَّ بقاء التيار الإسلامي يعتبر خطرًا قويًّا يهدِّدها في وجودها، وفي استمرارها، وفي نموِّها، وأحلامها في التوسُّع والامتداد، حتَّى يكون ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل!

المحنة الأولى للإخوان في عهد فاروق:

فكان «الحل الأول» للإخوان في عهد الملك فاروق وفي عهد حكومة النقراشي في الثامن من ديسمبر سنة ١٩٤٨م (٨ ديسمبر ١٩٤٨م)،

QaradawiBooks.com

وفتحت المعتقلات في الطور وهايكستب لتضم الآلاف من رجال الإخوان المسلمين، إلَّا رجلًا واحدًا لم يعتقل، بل ترك حرًّا طليقًا وهو حسن البنَّا، مرشد الجماعة ومؤسسها.

وكان الجميع يعجبون، كيف يُعتقل الجنود ويُترك القائد؟ ولكن عرف السبب، فبطل العجب، لقد تُرك المرشد لأمر بيَّتوه له بليل، ونفَّذوه جهرة، وفي شارع من أكبر شوارع القاهرة والرجل خارج من دار الشُّبَّان المسلمين، وأمام مبناها، قبيل غروب الشمس، وبعد أنْ تلقى استدعاء مجهولًا إلى المركز العام للجمعيَّة، وقد كان إسعافه ممكنًا، لولا أنَّ الطبيب المعالج رفض أنْ يزوِّده بالدم المطلوب، خضوعًا للأوامر العليا[1]! اغتالوا الرجل القرآني، والمعلم الرباني، والمصلح الإسلامي، برصاصات آثمة، أطلقها عملاء فاروق، هدية له في عيد ميلاده (١١ فبراير ١٩٤٩م)[2].

وقد أثبتت ذلك التحقيقات الَّتي أجريت بعد قيام الثورة، وحوكم الَّذي اشتركوا بالتدبير أو التنفيذ، وقضي عليهم بالسجن مددًا متفاوتة.

ولقد استطاع الإخوان أنْ يحوِّلوا معتقلهم في الطور وهايكستب إلى جامع للعبادة، وجامعة للعلم، ونادٍ للرياضة، وندوة للأدب والثقافة، ومعهد للتربية والتكوين، وبرلمان للتشاور والتفاهم.

ومن اطلع على نظام الحياة اليومي في المعتقل رأى هذا بوضوح، فقبل الفجر بأكثر من ساعة، يبدأ المعتقلون في الاستيقاظ للتهجُّد وقيام

(١) انظر: الإخوان المسلمون لميتشل صـ ١٦٤ وما بعدها.

(٢) ميلاد فاروق في (١١) فبراير، والاغتيال كان في (١٢) فبراير.

QaradawiBooks.com

الليل، ولا زلت أذكر ذلك الأخ الَّذي كان يمر في جنح الليل بين عنابر المعتقلين، وهو ينشد بصوت ندي:

يا نائمًا مستغرقًا في المنام قم فاذكر الحيَّ الَّذي لا ينام
مولاك يدعوك إلى ذكره وأنت مشغول بطيب المنام

وسرعان ما نجد عنابر المعتقل تدوي بتلاوة القرآن كدوي النحل، حتَّى إذا أذن المؤمن لصلاة الفجر، هرع الجميع إلى المسجد للصلاة خلف إمامهم خاشعين.

وكان المسجد قطعة من أرض المعتقل حددت معالمها ببعض الحجارة والطوب، وكان إمام مسجدنا الشيخ محمَّد الغزالي، الَّذي كان في بداية الثلاثينيات من عمره، وكان يتوقد ذكاءً وحماسًا وغيرة، وقد وكل إليه الإخوان قيادة المعتقلين، فطالب بحقوقهم في الطعام وغيره، والذي نهبته القيادة العسكريَّة للمعتقل، واتفق على أنْ يسلم المعتقلون أنصبتهم جافة وهم يتولون طهيها وإعدادها.

وبعد صلاة الفجر يكون ختام الصلاة، وقراءة الأدعية والأذكار المأثورة، ثمَّ تبدأ حلقات شرعية، مع الشيخ سيد سابق، أو مع الشيخ الغزالي، أو مع غيرهما.

ثم تبدأ التمرينات الرياضيَّة يقوم بها الأخ محمَّد المهدي عاكف، فإذا ما فرغ منها حان وقت الإفطار، وبعده فترة حرة للراحة والتنظيف والتزاور.

ثم تبدأ محاضرات عامَّة، تعقبها مناقشات في قضايا إسلاميَّة وثقافيَّة متنوعة، حتَّى يحين وقت الظهر، فيستعد الجميع للصلاة ثمَّ لتناول الغداء فالراحة حتَّى صلاة العصر، وبعدها تبدأ جولة أخرى من المحاضرات والندوات والمناقشات إلى المغرب، وبعد صلاة المغرب

QaradawiBooks.com

تأتي فترة تناول العشاء ثمَّ صلاة العشاء، وبعدها فترة حرة قصيرة ثمَّ ينام الجميع، حتَّى من لم يرد أنْ ينام؛ لأنَّ العنبر يسع نحو أربعين شخصًا، فلا يمكن أحدهم أنْ يضيء النور ليقرأ ويوقظ الآخرين.

فهكذا كان يتوزع النشاط اليومي بين العبادة والثقافة والرياضة والتزاور والعمل في خدمة الجميع، ولهذا قلنا عن هذا المعتقل بلغة المزح: معتقل الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩م، السفر والمصاريف، والإقامة والتكاليف، على حساب الحكومة المصريَّة!

وهو ما سجَّلته في قصيدة لي حينما قلت:

قالوا: إلى السِّجْنِ، قُلْنَا: شُعْبَةٌ فُتِحَتْ ... لِيَجْمَعوُنَا بِهَا في الله إخوانا
قالوا: إلى الطُّورِ، قلنا: الطورُ مُؤْتَمَرٌ ... فيه نُقَرِّر ما يَخْشَاهُ أعدانا!
فَهوَ المصلَّى نُزَكِّي فيه أَنْفُسَنا ... وهو الْمَصِيفُ نُقَوِّي فيه أَبْدَانَا
مُعَسْكَرٌ صاغنا جُنْدًا لِمَعْرَكَةٍ ... ومعهدٌ زادنا بالحقِّ عِرْفَانَا
مَنْ حَرَّمُوا الجَمْعَ مِنَّا فوقَ أربعةٍ ... ضَمُّوا الألوفَ بِغَابِ الطُّورِ أُسْدَانا!
رَامُوه مَنْفًى وَتَضْيِيقًا، فكان لنا ... بنِعْمَةِ الحبِّ والإيمانِ بُسْتانا!
هذا هو الطورُ شاؤوا أنْ نذوبَ بِه ... وشاء ربُّكَ أنْ نَزْدَادَ إيمانا[1]

المحنة الثانية في عهد الثورة (يناير ١٩٥٤م):

وكان الحلُّ الثاني للإخوان في عهد الثورة، الَّتي آزرها الإخوان، قبل أنْ تقوم، وبعد أنْ قامت، وكانوا حماة ظهرها، والمدافعين الأُول عنها

(١) وهي قصيدة: ذكرى المولد، انظر: نفحات ولفحات صـ ٦٦، ٦٧، وقد ألقيت في ميدان السيدة زينب بالقاهرة بعد خروجنا من المعتقل.

QaradawiBooks.com

يوم لم يكن لها من يناصرها ويدافع عنها، ويحرس المنشآت الأجنبيَّة والوطنيَّة من تخريب المخربين.

كان هذا الحل في ١٣ يناير ١٩٥٤م، وذلك حين اصطدم طلاب الإخوان بجامعة القاهرة مع أنصار الحكومة، وكان في هذا الاجتماع الزعيم نواب صفوي زعيم حركة فدائيات إسلام في إيران، وكنت حاضرًا في هذا التجمع الكبير، ممثلًا لجامعة الأزهر، وقد أحرقت سيارة جيب لهيئة التحرير «حزب الحكومة»، واشتعل الموقف، واجتمع مجلس الثورة في المساء، وقرر «حل الإخوان» واعتقالهم، أو اعتقال قياداتهم والمؤثرين فيهم، فزج بعضهم في السجن الحربي، وبعضهم في معتقل العامرية، بجوار الإسكندريَّة، وكنت ممَّن اقتيد إلى هذا المعتقل أولًا، ثمَّ نقلت مع مجموعة من الإخوة إلى السجن الحربي، ولا ندري: لماذا نقلنا[1]؟

على أية حال، لقد ساءت علاقة الإخوان بالثورة، ولم يقبلوا أنْ يساقوا كالقطيع لتنفيذ ما يريد عبد الناصر الَّذي أراد أنْ يؤدبهم بالسجن والاعتقال، حتَّى تلين قناتهم وتنحني رؤوسهم، ولكن الأمور جرت على غير ما يريد، وحدثت تحركات في الجيش، انتصارًا لمحمد نجيب القائد الرسمي للثورة، ومظاهرات من الشعب أشهرها مظاهرة «عابدين» الَّتي قادها الشهيد عبد القادر عودة، وكانت النتيجة الإفراج عن الإخوان في أواخر مارس ١٩٥٤م، وزار عبد الناصر الأستاذ حسن الهضيبي مرشد

(١) كنا ستة نودي علينا، ثم أخذنا، وكان البعض يظنونه إفراجًا عنا، فإذا هو نقل إلى السجن الحربي، أما الستة فهم: محمود عبده، عز الدين إبراهيم، محمود حطيبة، محمود نفيس حمدي، أحمد العسال، يوسف القرضاوي.

QaradawiBooks.com

الإخوان في منزله، واعتذر له عما أصاب الإخوان، واعتبر هذا مصالحة للإخوان، ولكن عبد الناصر قد بيَّت لهم أمرًا في نفسه حين يخرج من المأزق وينتصر في الأزمة.

المحنة الثالثة (أكتوبر ١٩٥٤م):

وكانت المحنة الثالثة للإخوان بعد أشهر قليلة من هذه المصالحة، حين اشتدت قبضة عبد الناصر على زمام الأمور وتخلص من محمَّد نجيب، وبدأ يتفرغ للإخوان باعتقالات فرديَّة شتى، والقيام بتعذيب هؤلاء المعتقلين تعذيبًا شديدًا، دون إعلان، كما فعل مع محمَّد المهدي عاكف وآخرين، وظلت الأزمة تشتد، والموجة تعلو وتعلو، حتَّى كانت حادثة المنشية في أكتوبر ١٩٥٤م، الَّتي تعرض فيها ناصر للاغتيال، وقد أثيرت شكوك وشبهات كثيرة حول هذه الحادثة، حتَّى من بعض رجال الثورة أنفسهم، ولكنَّها كانت سببًا مباشرًا لإعلان الحرب جهرة وبصورة شاملة على الإخوان، واعتقال الألوف منهم، الَّذين سيقوا إلى السجون الحربيَّة وغيرها، وجرت عليهم ألوان من التعذيب لم تعرفها مصر قبل ذلك، لقد أكلت السياط اللحوم، وارتوت بالدماء، وسحقت الآلات الجهنمية العظام، وسلطت الكلاب على البشر، وعلق الرجال في الزنازين، وسهر عليهم زبانية العذاب ليالي طوالًا، ومات من مات تحت أدوات التعذيب، وكنت شاهد عيان في هذه المحنة كما كنت شاهدًا فيما قبلها من محن، إلَّا أنَّ هذه المحنة فاقت كل تصور، وجاوزت كل حد، في سحق كرامة الإنسان وإهانته وإذلاله وإيلامه حسيًّا ومعنويًّا.

ولقد رأيت بعيني رأسي بعض الَّذين ماتوا تحت العذاب، ثمَّ لفوا في «بطانية» ليدفنوا بعد ذلك في صحراء العباسية «مدينة نصر» الآن.

QaradawiBooks.com

المحنة الرابعة (١٩٦٥م):

وهذه المحنة الثالثة ـ على قسوتها وهولها ـ كانت أخف وطأة من «المحنة الرابعة» الَّتي حدثت سنة ١٩٦٥م وأعلن عنها ناصر من «موسكو» وأنَّه سيضرب بيد من حديد ولن يرحم، وصدرت الأوامر باعتقال عشرات الألوف من الإخوان، من المدن والقرى ومن كل الفئات والأعمار، وزادت هذه المحنة على سابقتها باعتقال بعض النساء، مثل الحاجة زينب الغزالي، ومن استخدام أساليب أفظع من أساليب ١٩٥٤م، بعضها يستحي الإنسان من ذكره، وقد عافاني الله من تلك المحنة، فقد كنت في قطر، ولم أنزل في ذلك الصيف إلى مصر، لأمر أراده الله، وعافية الله أوسع لنا.

ولا شكَّ أنَّ هذه المحن العاتية ـ في ظاهر أمرها ـ عوَّقت الحركة وصدَّت عن سبيلها، وأخافت الكثيرين ممَّن يود الانتماء إليها، وحرمت البلاد من كفايات مخلصة غابت عن الساحة رغمًا عنها، إما إلى الأبد بالاستشهاد، أو مددًا بلغت أحيانًا عشرين سنة كاملة تحت أقبية السجون، كما أثرت جسميًّا ونفسيًّا في ألوف من المعتقلين، وعطَّلت كثيرًا من الطلاب عن جامعاتهم، وغيَّبت نشاط الإخوان العلني عن الساحة سنين غير قليلة، وكان في ذلك خسارة لا شكَّ فيها على الشعب المصري ـ بل الوطن العربي والإسلامي في مجموعه.

منح وراء المحن:

ولكن هذه المحن كانت في جوهرها وعاقبتها منحًا، كما قال الإمام الشهيد: ورب ضارة نافعة.

QaradawiBooks.com

لقد كان فيها تمييز وتصفيــة، وتطهير للصف من الخبيث والدخيل، وصدق الله إذ يقــول: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ولا حاجة بالحركة إلى الَّذين يعبدون الله على حرف، فإنْ أصابه خير اطمأنَّ به وإنْ أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولا إلى من يقول: آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة النَّاس كعذاب الله.

ورحم الله الشاعر الَّذي قال:

جَــزَى اللهُ الشَّــدَائِدَ كُلَّ خَيْــرٍ عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي(١)

وكان فيها «تمحيص وتربية»، فالإنسان في الشدائد يكون أقرب إلى الله وأبعد عــن الدخَن، وألصق بالفطرة، فالمحنــة تصقل معدنه، وتنفي خبثه، كما ينفي الكير خبث الحديد.

وكما قال تعالــى معقِّبًا على محنة المســلمين في «أحــد» بعد أنْ أصابهم ما أصابهم: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وكان فيها «تجميــع وتقوية»، وكمــا يقول جمال الديــن الأفغاني: «بالضغط والتضييق تلتحــم الأجزاء المبعثرة»، فقد قــوَّت هذه المحن الصلة بين الإخوان بعضهم وبعض، وازدادوا تعارفًا وتآلفًا، وحمل القوي منهم الضعيف، وتكافلوا فيما بينهم، ودخل منهم من دخل الســجون، لمساعدة أسر إخوانه من المعتقلين.

(١) هو أمير المؤمنين المســتنصر بالله الحفصي، أمير تونس الموحدي، كما في أعلام المغرب والأندلس فــي القرن الثامن لابن الأحمــر صـ ٩٨، تحقيق د. محمد رضوان الداية، نشــر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

QaradawiBooks.com

ولقد أثبتت تلك المحـــن الكبار في حياة الحركـــة: أصالتها وثباتها وقدرتها على البقاء، واستعصاءها على التذويب والإفناء.

إنَّها تكمن ولكنَّها لا تزول، وتنكمش ولكنَّها لا تموت!

وســـرُّ قوتها يرجع إلى قوَّة الحق الَّذي تؤمن بـــه وتدعو إليه، وهو الإســـلام الخالد، وإلى رصيده الثابت في فطرة الشعوب المسلمة، وفي أعماق قلوبها، وعلى رأسها الشعب المصري الَّذي لا يحركه شيء، كما تحركه كلمة الإيمان، وإلى التربية الإســـلاميَّة المتكاملة الطويلة المدى، العميقة الجذور، لجنود الحركة، الَّذين أعدَّهم صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وممارسة الذكر والفكر، والتفقه في الدين، وصفاء الأخوة في الله، ومعاناة الخشونة، والتشوُّق للجهاد، واعتياد البذل والتضحية في ســـبيل الله، لتحمـــل كل ما يصيبهم فـــي ذات الله، متمثِّليـــن قول ذلك الصحابي الَّذي وضعه المشركون على خشبة الصلب ليُقْتَل:

ولســـتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَصْرَعِي!
وذلك فـــي ذاتِ الإلٰهِ، وإنْ يَشَـــأْ ... يُبَارِكِ عَلَى أَوْصَالِ شِـــلْوٍ مُمَزَّعِ[1]!

وكما قـــال صاحب «النونيـــة»[2] يخاطب طاغـــوت مصر في محنة ١٩٥٤، ١٩٥٦م:

أَظَنَنْتَ دَعْوَتَنَا تَمُـــوتُ بِضَرْبَةٍ؟ ... خَابَـــتْ ظُنُونُكَ فَهْيَ شَـــرُّ ظُنُونِ
إِنَّـــا لَعَمْـــرِي إنْ صَمَتْنَـــا بُرْهَـــةً ... فالنَّارُ فِـــي البُـــرْكَانِ ذَاتُ كُمُونِ

(١) الصحابي هو ســـيدنا خبيب بن عدي. والحديث رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) من قصيدتنا: ملحمة الابتلاء، في ديواننا: نفحات ولفحات صـ ٨١ ـ ١٢٩.

QaradawiBooks.com

بَلِيَتْ سِيَاطُكَ، وَالْعَزَائِمُ لَمْ تَزَلْ ... مِنَّا كَحَدِّ الصَّارِمِ الْمَسْنُونِ
تَاللهِ مَا الطُّغْيَانُ يَهْزِمُ دَعْوَةً ... يَوْمًا، وَفِي التَّارِيخِ بَرُّ يَمِينِي
ضَعْ فِي يَدَيَّ الْقَيْدَ، أَلْهِبْ أَضْلُعِي ... بالسَّوْطِ، ضَعْ عُنُقِي عَلَى السِّكِّينِ
لَنْ تَسْتَطِيعَ حِصَارَ فِكْرِيَ سَاعَةً ... أَوْ نَزْعَ إِيمَانِي وَنُورَ يَقِينِي
فالنُّورُ فِي قَلْبِي، وَقَلْبِي فِي يَدَيْ ... رَبِّي، وَرَبِّي نَاصِرِي ومُعِينِي
سَأَعِيشُ مُعتصمًا بِحَبْلِ عَقِيدَتِي ... وَأَمُوتُ مُبْتَسِمًا لِيَحْيَا دِينِي!

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الباب الرابع

الإخوان المسلمون
ردود على تساؤلات واتهامات

- الاتهامات الظالمة.
- الإخوان وتسييس الدين.
- الإخوان وخط المدرسة الإصلاحية.
- الإخوان والأقليات الدينيَّة.
- الإخوان والعنف.
- الإخوان وإقامة الدولة المسلمة.
- الإخوان والمشروع الحضاري.
- الإخوان والعقيدة.
- الإخوان والتصوُّف.
- خاتمة، لماذا يعادون الإخوان؟

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الاتهامات الظالمة

لا أعرف في التاريخ الحديث جماعة ظُلمت، وكيلت لهم التهم جزافًا، كما ظُلمت جماعة الإخوان، لقد ظلمت ـ كما يقول المثل ـ ظلم الحسين رضي الله عنه.

وأعجب شيء يلحظه الدارس المراقب أنَّها تتَّهم بالشيء ونقيضه في آن واحد، فيتهمها قوم بشيء ويتهمها آخرون بضدِّه تمامًا، وهذا بدوره يسقط هذه التُّهم كلها، ولا يجعل لها اعتبارًا.

فهناك من يُسمَّون «التقدميين» الَّذين يرمون الجماعة بالرجعيَّة والجمود، والرجوع بالأُمَّة إلى الوراء، والمحافظة على القديم، بل من الكاتبين في الفكر الإسلامي من يتَّهمهم بأنَّهم انتكسوا بحركة التجديد بعد الأفغاني ومحمد عبده، ومالوا بها إلى المحافظة والتزمُّت!

على حين نجد من المتديِّنين وأتباع بعض الجمعيَّات والاتجاهات الدينيَّة: من يرمي الجماعة بالتحرُّر الزائد، والترخُّص في الدِّين، والمسايرة للتطوُّر، ومن ينكر عليهم فتح باب الاجتهاد، والخروج عن تقليد المذاهب المتبوعة، وتبنِّي بعض الآراء الجديدة.

وهناك من المتصوِّفة من يعد الجماعة من «الوهابيين» وتلامذة مدرسة الإمامين «ابن تيمية وابن القيِّم» ويحسبهم على «السلفيين» ويعتبرهم خصومًا لُدًّا للتصوُّف وأهله!

QaradawiBooks.com

في حين نجد من السلفيين من يصنف الإخوان مع «الطرق الصوفيَّة» ويحشـــرهم في زمرة «القبوريين» لمجرد أنَّ حسن البنَّا نشأ صوفيًّا، وأنَّه اعتبر «التوسل» من المسائل الخلافيَّة، وأنَّه خلاف في كيفيَّة الدعاء وليس من مسائل العقيدة!

والإخوان في نظر الأحزاب السياســيَّة والهيئات العلمانيَّة: جماعة دينيَّة غمست يدها في السياسة والسعي إلى الحكم، وما ينبغي لها أنْ تلوث نفسها بأوحال السياسة، ولا أنْ تدخل مع الأحزاب في الصراع من أجل الحكم.

وهي في نظر آخرين من الإســلاميين قد قصَّــرت في خوض غمار السياسة، ولم تستغل قوتها وشعبيتها كما ينبغي في السعي إلى الحكم، وانتزاعه بالقوة أو بالقانون من أيدي الطغاة والمنحرفين الَّذين أفســدوا البلاد، وأذلوا العباد.

وهي في نظر الملك فاروق وحاشــيته وحكوماتــه المتعاقبة، وعند الإقطــاع والإقطاعيين: جماعة شــعبيَّة ثوريــة متطرِّفة، تعــادي الملك والمَلَكِيَّة والطبقات الأرســتقراطيَّة والإقطاعيَّة والرأســماليَّة المتسلِّطة، وتحرِّض الفئات الشعبيَّة المستضعفة من الفلاحين والعمَّال على السادة الإقطاعيين والرأســماليين، وتعمل على قلب نظام الحكم بالقوَّة، وكم للإخوان من قضايا وتحقيقات سجلت ضدَّهم تحت هذه الدعوى.

أمَّا في نظر الشيوعيين واليســاريين وأشباههم، فهي «جماعة يمينيَّة» محافظة، موالية للملك والإقطاع والطبقات الحاكمة المتجبرة، ولم يشفع للإخوان عند «جماعة اليســار» ما قاسوه من محن وتعذيب على يد هذه الطبقات، وما قدَّموه من ضحايا وشــهداء على رأســهم إمــام الجماعة ومؤسسها عليه رحمة الله.

QaradawiBooks.com

والإخوان في نظر بعض الشباب الملتزمين بالعمل الإسلامي، والمنتمين لبعض الجماعات الإسلاميَّة: متساهلون، بل مفرطون في التساهل في أمور الدين، فكثير منهم يلبسون «البدلة» ولا يقصِّرون الثياب، ويستعملون «الفرشاة» بدل السواك، ويحلقون لحاهم، أو يهذبونها ويأخذون منها إنْ هم أطلقوها.

هذا مع أنَّ آخرين في الصف المقابل: بعضهم من المسلمين، وبعضهم من غير المسلمين: يرمون الإخوان بالتشدُّد في الدين، والتصلب فيه، وأنَّهم لا يجارون العصر، ولا يلينون لمقتضيات التطور!

وقد اتُّهمت الجماعة على ألسنة أجهزة الإعلام الحكوميَّة في عهد المَلَكِيَّة وعهد الثورة بالدموية والإرهاب واستعمال العنف، واستخدمت لذلك النكت والكاريكاتير، مستغلين بعض حوادث قام بها أفراد من الجماعة، بعضها كان ضدَّ مصالح يهودية أو بريطانية في مصر، وبعضها كان تصرفًا خاصًّا من بعض أفراد الجماعة مثل قتل الخازندار.

وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من الجماعات المنتسبة إلى الإسلام، مثل جماعة صالح سرية، وجماعة شكري مصطفى، الَّتي أطلقوا عليها جماعة التكفير والهجرة ـ واسمها عند مؤسسيها: «جماعة المسلمين» ـ ومثلها: «جماعة الجهاد» و«الجماعة الإسلاميَّة» في صعيد مصر: تتَّهم الإخوان بالضعف والاسترخاء، وخيانة مبدأ «الجهاد» الَّذي قامت عليه من قبل وجعلت منه شعاراتها: «الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا» فأصبحت تؤْثر المسالمة مع قوى الجاهليَّة، كما اتهموها بالتهاون والتفريط في حق الأعضاء، وتسليمهم لكلاب الصيد، وسلطات التعذيب بلا مقاومة ولا صدام.

QaradawiBooks.com

ومنذ مدة قرأت كتابًا لواحد من رجال «جماعة المسلمين» أو جماعة «التكفير» هذه ينقل عن صاحبه وأميره «شكري» أنَّه قال في صدد حديث له عن «الإخوان»: إنِّـي أتهم بالخيانة العظمى أولئـك الرجال من قادة الحركة الإسلاميَّة، الَّذين قادوا رجالهم إلى التهلكة وفرطوا في أعناقهم، وأوردوهم قيعان السجون، وأسلموهم لجلاديهم وللمشانق، إلخ، فانظر كيف يُتَّهم الإخـوان بالخيانة العظمى؛ لأنَّهم لم يقاتلوا الشـرطة الَّذين قبضوا عليهم، وأسلموهم إلى المشانق أو السجون!

وهذا شأن الأُمَّة الوسط أو الجماعة الوسـط، والفكرة الوسط: أنَّها دائمًا ملومة من الطرفين المتقابلين، طرفي الإفراط والتفريط.

اتِّهامات الغربيين للإخوان:

وليس هذا شـأن الإخوان مع الجماعات الدينيَّة والسياسـيَّة داخل بلادنا فحسْـب، بل هذا شـأنها مع الآخرين من الغربيين والشـرقيين، واليمينيين واليساريين، والرأسماليين والشيوعيين.

يقول د. محمود أبو السعود، في مقدمة ترجمته لكتاب د. ريتشارد. ب. ميتشل عن الإخوان.

«وهل الغرب، سواء من اهتم منهم بالفكرة الدينيَّة «المستشرقون» أم من اشـتغل بالفكر السياسـي: ينظرون إلى حركة الإخـوان من زاوية عاطفتهم المسيحيَّة أو اليهوديَّة أو الصابئة، أو من خلال مصالح الغرب الاسـتعمارية، وفي الحالتين نجد منهم ذلك الخوف مـن قيام «الدولة الإسلاميَّة» الَّتي دوَّخت الغرب قرونًا طويلة، وتدفعهم الرهبة من انتشار الدعـوة الإسـلاميَّة الإخوانيَّة، الَّتـي تؤلِّـب عليهم ذكريـات التفوق

QaradawiBooks.com

الإسلامي، ولا ينهض بهم علمهم ولا أمانتهم العلميَّة، حتَّى يسموا فوق التحيز في الحكم، أو حتَّى يروا الأمور على حقيقتها.

والمتصفح لكتابات هؤلاء وأمثالهم عن الإخوان يخرج بحصيلة تدعو إلى العجب، بل كثيرًا ما تبعث في النفس الرثاء إن لم تكن السخرية، فبينما يعتبرهم اليساريون من الرجعيين الَّذين رفعوا شعار «العودة إلى الماضي» نرى الرأسماليين يرمونهم باليسارية والثورية، وبينما يرى فريق من كتاب الغرب أنَّهم فئة تقدمية خطرة على المذاهب الغربيَّة، نجد فريقًا آخر يرميهم بالتزمُّت والعنف والتنظيم العسكري «أو الفاشي»، وهكذا دواليك.

فالإخوان في نظر الشيوعيين: انتهازيون عملاء للإنجليز المستعمرين.

والإخوان في نظر المنحازين للديمقراطيَّة الرأسمالية: اشتراكيون مقنعون أو فاشيون إرهابيون.

والإخوان في نظر الأوربيين: دعاة إلى عودة الإمبراطورية الإسلاميَّة البغيضة، الَّتي تحاول أنْ تُكْرِه النَّاس حتَّى يكونوا مسلمين مؤمنين.

وأغرب ما سمعت في هذا الصدد: ما ذكره لي شخصيًّا أحد كبار موظفي القصر في عهد الملك فاروق، إذ أبلغني أنَّ فاروق كان يعتقد أنَّ الإخوان يحصلون على مدد مالي سخي... من اليابان[1]!

كل هذا هراء وافتراء، ولن يثبت أبدًا في التاريخ، إذ لن يسجل التاريخ مثل هذه المزاعم الباطلة، مهملًا ما تركته الدعوة الإخوانيَّة من

(١) هو اللواء الطيار حسين عاكف، وللرجل تاريخ بطولي في حرب فلسطين وإن غاب عن الكثيرين. م. أبو السعود.

QaradawiBooks.com

حركة تجاوبت أصداؤها مع قلوب ملايين من البشر، فدفعتهم إلى المطالبة بضرورة الرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما زالت هذه الدعوة حية قوية تحتل الأفكار والقلوب، وتنطلق بها الألسن، وإنْ صدر قرار بحل هيئتها الرسميَّة، وصودرت أموالها، وقُتل من قادتها من قُتل، وعُذِّب وشُرِّد واضطهد منهم العدد الغفير[1].

وسنعرض في الصحائف التالية للاتهامات الَّتي وجِّهت إلى الإخوان من خصومهم ـ على اختلاف ألوانهم من ملاحدة وعلمانيين ودينيين ـ ونردُّ عليها بالبيِّنات الَّتي تأتي عليها من القواعد، والله تعالى يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ويقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

* * *

(١) من مقدمة أبو السعود لكتاب ميتشل الإخوان المسلمون صـ ١٨، ١٩.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

١
الإخوان و«تسييس الدين»

غير مرخصة للطباعة

ومن التُّهم القديمة الجديدة الَّتي وجِّهت إلى الإخوان: «سيَّسوا الدين» أو خلطوا الدين بالسياسة، أو أدخلوا الدين في السياسة والسياسة في الدين.

وقد قال أحد الحكام يومًا: لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين!

وشاعت على الألسنة والأقلام في السنوات الأخيرة هذه العبارة «الإسلام السياسي» يريدون به: الإسلام الَّذي يدعو إلى الحكم بما أنزل الله، وإلى تحكيم شرعه فيمن آمن به، وإلى تحرير أرض الإسلام، ومقاومة كلِّ معتدٍ عليها، والعمل على توحيد الأُمَّة العربيَّة والإسلاميَّة ـ أو على الأقل ـ التقريب بينها، بدل أنْ يجافي بعضها بعضًا، أو يضرب بعضها وجوه بعض.

وحين يشرح هؤلاء ـ من خصوم الإخوان ـ مضمون «الإسلام السياسي» لا يكتفون بما ذكرنا، بل يضمنونه معنى العنف والقتل العشوائي، وإرهاب الآمنين، والتعصب ضدَّ الآخرين، والانغلاق على الماضي، والانقطاع عن الحاضر، وإغفال المستقبل.

فإذا اعترفت بأنَّ السياسة جزء من الإسلام إذا استمدت منه، وسارت في ضوئه: ألزموك بما لم تلتزم به، وحكموا عليك بأنَّك من أنصار العنف والإرهاب والدموية.

وأحب أنْ أقول هنا: إنَّ الإخوان ليسوا هم الَّذين «سيَّسوا الدين» بل شارع هذا الدِّين ـ وهو الله ﷻ ـ هو الَّذي «سيَّسه» حين شرع فيه من الأحكام ما يتعلق بالسياسة.

وأخبرني بربك: في أي باب نحسب هاتين الآيتين من كتاب الله إذا لم نحسبهما في السياسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

إنَّ الإمام ابن تيمية جعل هاتين الآيتين محورًا لكتابه «السياسة الشرعيَّة في إصلاح الراعي والرعية».

وبعده جاءت جملة آيات توجب الاحتكام إلى الله تعالى ورسوله، ختمت بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

ومثلها في سورة النور، حيث يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ...﴾ إلى أنْ يقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥١].

أوَليست هذه الآيات وأمثالها في صميم السياسة، بل أصول السياسة، لأنَّها تتعلق بتحديد «المرجعية» العليا للأمة والدولة.

QaradawiBooks.com

وماذا يقول هؤلاء الَّذين «يَلِتُّون ويعجنون» عن تسييس الدين في هذه الآيات من سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧].

سيقولون: إنَّها نزلت في أهل الكتاب، في شأن تحكيم التوراة والإنجيل، ونقول لهم: نعم هي كذلك، ولكنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم هل ما أنزل الله على المسلمين دون ما أنزل على أهل الكتاب، حتَّى إذا تركوا الحكم بما أنزل عليهم كانوا كافرين أو ظالمين أو فاسقين، وإذا ترك المسلمون الحكم بما أنزل عليهم من القرآن، لم يوصفوا بكفر ولا ظلم ولا فسوق؟

أو: هل يكيل الله سبحانه بكيلين، فإذا ترك أهل التوراة والإنجيل كتابهم حكم عليهم بما ذكر، وإذا ترك المسلمون قرآنهم لم يحكم عليهم بما حكم على من قبلهم، فأين عدل الله على الناس؟!

وقد رددنا على ذلك في كتبنا الأخرى بما يقطع كل شك[1].

من قرأ القرآن وجد فيه كثيرًا من الآيات الَّتي تتعلق بالسياسة الداخليَّة، والسياسة الخارجية، والعلاقة بالآخرين في حالة الحرب، وفي حالة السلم، وهذا لا يخفى على من له أدنى إلمام بالقرآن الكريم، وقد رأينا القرآن المكي يربط المسلمين ـ وهم قلَّة مستضعفة في مكَّة ـ بالصِّراع السياسي والعسكري العالمي من حولهم، صراع

(١) انظر كتابنا: من فقه الدولة في الإسلام صـ ١٠١ ـ ١١٧.

QaradawiBooks.com

الدولتين الكبريين اللتين تتنازعان السيادة على العالم: دولة الفرس في الشرق، ودولة الروم البيزنطية في الغرب، ويتدخل في الجدل الَّذي دار بين المشركين والمسلمين حول المستقبل، ولمن يكون النصر في النهاية، فقد كان المسلمون ينتصرون للروم، ويؤمنون بأنَّ الغلبة لهم باعتبارهم نصارى أهل كتاب، فهم أقرب إليهم، وكان المشركون ينتصرون للفرس؛ لأنَّهم مجوس يعبدون النار، فهم أقرب إلى عبدة الأوثان.

ونزل القرآن يؤيد المسلمين في الآيات الأولى من سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

ومن قرأ السُّنَّة النبويَّة وجد فيها ذلك بتفصيل أكثر، كما وجد ذلك واضحًا في سيرة الرسول ﷺ العمليَّة، فقد كان هو الإمام الأعظم، كما كان القاضي الأحكم، والمفتي الأعلم، على حدِّ تعبير الإمام القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

و«الإمام الأعظم» يعني الرئيس الأعلى للدولة، وقد كان هو ذلك بلا نزاع، فلم يكن بجواره ملك أو أمير يدير أمور السياسة، على حين يتفرغ هو لشؤون الدين والدعوة، بل كانت الدعوة والدولة في يديه، كان هو الَّذي يؤمُّ النَّاس في الصلاة، ويقودهم في الحرب وفي السلم، ويعقد المعاهدات ويلقى الوفود، ويعيِّن الولاة والقضاة والمعلمين، ويبعثهم إلى البلاد الَّتي دخلت في الإسلام.

(١) أنوار البروق في أنواء الفروق للقرافي (٢٠٥/١) الفرق السادس والثلاثون، نشر عالم الكتب.

QaradawiBooks.com

ومن المعروف في فقه السياسة الشرعيَّة: أنَّ هناك نوعًا من التصرفات النبويَّة يطلق عليها الفقهاء أنَّها «تصـرف بمقتضى الإمامة» أي بمقتضى الرئاسة العليا للدولة.

وهذه ليسـت مثل التصرفات الَّتي تكون بمقتضـى التبليغ عن الله تعالى، وهذه كما قالوا في حديث: «**من أحيا أرضًـا ميتة فهي له**»[(١)]، إذ قال أبو حنيفة ومن وافقه: هذا قاله بمقتضى إمامته، فلا يملك أحد أرضًا أحياها إلَّا بإذن الإمام[(٢)].

وقرَّر الفقهاء من جميع المذاهب أنَّ الشريعة حاكمة على جميع أفعال المكلفين، لا يخرج فعل منها ـ في أي مجال كان ـ عن دائرة الشريعة، إذ لا بدَّ أنْ تعطيه حكمًا من الأحكام الشرعيَّة الخمسة المعروفة.

والقرآن يُؤكِّد هذه الشموليَّة حين يقول خطابًا للرسول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ويقول في ختام سـورة يوسـف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

حتى قال ابن عبَّاس ترجمان القرآن: لو ضاع منِّي عقال بعير لوجدته في كتاب الله[(٣)]!

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٣٩)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. والترمذي في الأحكام (١٣٧٩)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٧٥)، عن جابر.

(٢) انظر كتابنا: السُّنة مصدرًا للمعرفة والحضارة صـ ١٢ ـ ٨١، فصل: الجانب التشريعي في السنة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٤/٣٠، ٣١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

فإذا كان الإنجيل يقول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله[١]. فإنَّ القرآن يجعل قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فللَّه ما في السماوات وما في الأرض، ومن في السماوات ومن في الأرض، وهو الحاكم الأعلى لخلقه، هو وحده الَّذي من حقِّه أنْ يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم، ومن واجبهم أنْ يطيعوه طاعة مطلقة تمثل عبوديتهم له، وانقيادهم لأمره.

ولقد قرَّر الأصوليون: أنَّ «الدين» هو إحدى الضروريات الخمس أو الست، الَّتي قام عليها بنيان التكاليف الشرعيَّة وهي: الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وزاد بعضهم: العرض.

فالذين يريدون أنْ يحصروا الإسلام في «الدين» وحده ينسون هذه الحقيقة الَّتي أجمع عليها الأصوليون.

إنَّ «شمولية الإسلام» ليست من ابتداع الإخوان، بل هي ما قرَّره القرآن والسُّنَّة وأجمعت عليه الأُمَّة، وتأسَّست عليها ثقافة وحضارة، وامتدَّ به تاريخ وتراث.

وكل المصلحين الكبار الَّذين سطعت نجومهم في آفاق الأُمَّة، وحاولوا النهوض بها في العصر الحديث، كلهم أدخلوا السياسة في الدينِ والدينَ في السياسة: محمَّد بن عبد الوهاب، والسنوسي، والمهدي، والأمير عبد القادر، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وابن باديس، وغيرهم، كلهم نظروا إلى الإسلام تلك النظرة الشاملة الَّتي لا تفرق بين دين وسياسة، فهم جميعًا مشتركون في «تسييس الدين».

(١) إنجيل متَّى (٢١/٢٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فليس حسن البنَّا بدعًا في المصلحين، ولا دعوته بدعًا في دعوات الإصلاح والتجديد.

والحاكم الَّذي أعلن أنْ لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة، كثيرًا ما رأيناه، وسمعناه، يتحدث باسم الدين، تأييدًا لسياسته، ويطلب من علماء الدين إصدار الفتاوى تبريرًا لموقفه.

والملتزمون بالإسلام شأنهم شأن سائر المواطنين، من حقهم أنْ يمارسوا السياسة وَفْق معتقداتهم ومفاهيمهم، ولا يجوز أنْ يحرموا منها لمجرد أنَّهم متدينون.

إنَّ المسلم يستطيع أنْ يدخل في أعماق السياسة وهو مستغرق في عبادته لربه، وهذا ما نشاهده فيما يسمَّى «قنوت النوازل» فيجوز للمسلم أنْ يدعو في صلاته على الصهاينة المعتدين على فلسطين، وعلى الصرب المعتدين على البوسنة والهرسك أو كوسوفا، أو على غيرهم ممَّن يعتدي على حرمات المسلمين.

كما أنَّ المسلم يمكنه أنْ يقرأ من القرآن ما يشتمل على آيات في ميادين الحياة المختلفة كالجهاد وإقامة العدل، والحكم بما أنزل الله، وغيرها، ولا يستطيع أحد أنْ يعترض عليه في قليل أو كثير.

وبهذا تسقط تهمة «تسييس الدين» عن الإخوان كما تسقط غيرها من التُّهم ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٢

الإخوان وخطُّ المدرسة الإصلاحيَّة

ومن التُّهم العجيبة الَّتي وجِّهت إلى الإخوان من بعض المشتغلين بالفكر: أنَّهم خرجوا عن خط مدرسة الإصلاح والتجديد الإسلاميَّة، الَّتي مثَّلها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وكانت تمثل العقلانية الإسلاميَّة المتفتحة على العصر، الَّتي لا تقف عند حرفية النصوص، ولكن تُعْمِل فيها التأويل، فتوازن بين النص والمصلحة، أو بين النقل والعقل، أو بين الشريعة والحكمة كما عبَّر ابن رشد.

والحق أنَّ الإخوان لم يخرجوا عن خط هذه المدرسة، في الإصلاح والتجديد، والتوفيق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، والموازنة بين النصوص الجزئية والمقاصد الكليَّة للشريعة، مستفيدين من كل قديم نافع، ومرحِّبين بكل جديد صالح.

ولكن ينبغي أنْ نلاحظ: أنَّ هذه المدرسة الإصلاحية قد تطورت في تفكيرها ومفاهيمها وتوجُّهاتها، فكانت في أوَّل أمرها تدعو إلى فلسفة عامَّة تتلخص في الثورة على الاستعمار وأعوانه من طغاة الحكام، وعلى تفرق الكلمة الَّتي مزَّق الأُمَّة الواحدة، ولهذا كان عنوان هذه المدرسة أو شعارها في مرحلتها الأولى: «الجامعة الإسلاميَّة».

QaradawiBooks.com

وكان هذا مناسبًا للرجل الأوَّل في هذه المدرسة، وهو جمال الدين الأفغاني الَّذي كان أقرب إلى الفيلسوف أو رجل الحكم والسياسة منه إلى عالم الشريعة.

فلمَّا كان تلميذه الشيخ الإمام محمَّد عبده ـ العالم الأزهري المتمكن ـ بدأت المدرسة تتَّضح معالمها الشرعيَّة أكثر، وتستبين سماتها وملامحها، بثقافة الشيخ محمَّد عبده الشرعيَّة المستنيرة، الَّتي تنزع نزعة عقلية، وكأنَّها تجمع بين محافظة الأشاعرة وتحرُّر المعتزلة، وكان الشيخ المصري أميل من أستاذه الأفغاني إلى التنوير العقلي، منه إلى التغيير السياسي.

ثم جاء تلميذ الشيخ عبده: العلَّامة الإمام محمَّد رشيد رضا، فضم إلى علم شيخه علوم أهل الأثر، ولا سيَّما علم الإمامين المجددين: ابن تيمية وابن القيِّم، وتبحَّر الشيخ في علوم السُّنَّة، وفقه السلف، ومعارف العصر، وبهذا أخذت مدرسة الإصلاح في «الانضباط» أكثر وأكثر، وأصبحت ترجع إلى الأدلة الشرعيَّة في كل قضيَّة، وتوازن بينها في غير تعصب ولا جمود، وتنتهي إلى الرأي الَّذي يجمع بين السلفيَّة والتجديد حقًّا.

والشيخ حسن البنَّا مشى على نهج الشيخ رشيد، واقتفى أثره، وإنْ بدا في بعض الأحيان أقرب إلى التشدد، كما في قضايا المرأة والشورى والتعدديَّة ونحوها. ولا ننسى أنَّ «المدرسة العقليَّة» الَّتي يمثلها الشيخ جمال الدين، والشيخ محمَّد عبده متهمة عند جمهور أهل العلم من المسلمين بالانبهار بالحضارة الغربيَّة إلى حدِّ الإسراف في تأويل النصوص القطعية، مسايرةً للفكر الغربي.

QaradawiBooks.com

والمنصف يرى ذلك بيِّنًا في كلام الشيخ محمَّد عبده عن قصة آدم وعن الملائكة في سورة البقرة، وعن الطير الأبابيل في سورة الفيل، وهو تأويل غير سائغ، حتَّى إنَّ الدكتور طه حسين أنكر تأويل الطير الأبابيل بميكروبات مرض الجدري وما شابه ذلك، لبعده عن النسق القرآني، والأسلوب العربي.

ومن العدل أنْ نقول: إنَّ الشيخ رشيد ـ وإن نقل ذلك عن شيخه ـ لم يتبنَّه ولم يدافع عنه أو يؤيده.

وربما رأى بعض أهل الفكر أنَّ الشيخ جمال الدين كان أكثر تحررًا من الشيخ محمَّد عبده، وأنَّ الشيخ محمَّد عبده كان أكثر تحررًا من الشيخ رشيد، وأنَّ الشيخ رشيد كان أكثر تحررًا من الشيخ البنَّا.

وقد يكون هذا صحيحًا، وربَّما عبر عن هذا بتعبير آخر، وهي أنَّ الشيخ محمَّد عبده كان أقرب إلى الانضباط بأصول الشرع من شيخه الأفغاني، وكذلك كان الشيخ رشيد رضا بالنسبة لشيخه محمَّد عبده، وكذلك الشيخ البنَّا بالنسبة لشيخه رضا.

وهذه أمور نسبية قد تختلف من شيخ إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى، ومن عصر إلى آخر، ولكنَّ المهمَّ أنَّ روح هذه المدرسة قائم، وهو الموازنة بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، وبين النقل الصحيح والعقل الصريح، وبين النص الجزئي والمقصد الكلي للشريعة، وأنَّها تستلهم الماضي، وتعايش الحاضر، وتستشرف المستقبل.

كما أنَّ دعوة البنَّا لم تكن مقصورة على «النخبة» بل كان من مزاياها أنَّها تخاطب كل الشعب بكل فئاته، ومن الخاصَّة والعامة، والنخب والجماهير، وربَّما كانت الجماهير فيها أوضح، كما بيَّن ذلك د. إسحاق الحسيني في دراسته عن الإخوان.

QaradawiBooks.com

ولا ننسى أنَّ الأستاذ البنَّا قد توفي، وهو ابن الثالثة والأربعين، وكان عقله مرنًا متفتحًا، قابلًا للتجدُّد والتطوُّر، ولم يكن رَحِمَهُ ٱللَّهُ جامدًا ولا منغلقًا، كما يبدو من تراثه ومن مواقفه المختلفة، ولقد بدأ صوفيًّا، وانتهى أقرب إلى السلفيَّة، أو انتهى إلى «صوفيَّة متسلفة» أو «سلفيَّة متصوفة».

وكذلك بدأ بالعموميات، ثمَّ بدأ في أواخر حياته بالخوض في بعض التفصيلات، كما في كتابه «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» ففيه عرض لنظام الحكم ونظام الاقتصاد وغيرهما.

وأستطيع أنْ أقول: إنَّ روح مدرسة البنَّا هي الوسطية الَّتي تقوم على التكامل والتوازن والاعتدال، دون غلو ولا تفريط، ولا طغيان ولا إخسار، كما في قول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٨، ٩].

إنَّ الإمام حسن البنَّا أنشأ هذه المدرسة الفكريَّة الحركيَّة الدعويَّة، ولكنَّه لم يجمِّدها، ولم يحنِّطها، ولم يحجر على أحدٍ من أبنائها أنْ يجتهد، وأن يبدع، وإن خالفه في اجتهاده، فلم يدَّع هو لآرائه وأفكاره القداسة أو العصمة، بل قال في الأصل السادس من أصوله العشرين الَّتي جعلها أساسًا لوحدة الفهم عند العاملين لخدمة الإسلام: «كلُّ أحدٍ يُؤْخذ من كلامه ويترك إلَّا المعصوم ﷺ وكلُّ ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم، موافقًا للكتاب والسُّنَّة قبلناه، وإلَّا فكتاب الله وسُنَّة رسوله أولى بالاتباع، ولكنَّا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدَّموا»[1].

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٥٧.

QaradawiBooks.com

فإذا كان يسعنا أنْ نخالف السلف على فضلهم، فخلافنا للخلف مقبول وللمحدثين والمعاصرين أولى.

ومدرسة حسن البنَّا تسع المختلفين من أهل الفكر، وإن كان بعضهم أقرب من بعض إلى الخطِّ الأصلي للحركة، وبعضهم أبعد.

فلا عجب أنْ وجدنا في مصر وفي غيرها من الأقطار العربيَّة مفكرين متفاوتين فيما بينهم في التوسعة والتضييق، وفي المرونة والتشديد، مثل محمَّد الغزالي وسيد قطب في مصر، ومصطفى السباعي وسعيد حوى في سوريا، وحسن الترابي ومعارضيه في السودان، وراشد الغنوشي ومعارضيه في تونس، وغيرهم وغيرهم.

وأنا شخصيًّا قد أجتهد في قضايا لم ألتزم فيها تمامًا برأي الإمام البنَّا، وأنا أعلم أنَّه ستقر عينه بذلك، فقد كان يسرُّه أنْ يرى أتباعه أحرارًا يفكرون ويجدون، لا أسارى أو عبيدًا يقلدون.

وعلى هذا الأساس اجتهدت في قضايا الديمقراطيَّة والتعدديَّة وترشيح المرأة للمجالس النيابيَّة، والتعامل مع غير المسلمين، وغيرها: اجتهادات قد تخالف اجتهاد إمامنا الشهيد، وأحسب ـ والعلم عند الله ـ أنَّه لو امتدَّ به العمر، وعايش ما عايشنا لغيَّر اجتهاده في كثير من القضايا، كما قال أصحاب أبي حنيفة في بعض ما خالفوا فيه إمامهم: لو عاش حتَّى رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، لقال بمثل ما قلنا! وأحمد الله تعالى أنَّ جماعة الإخوان قد تبنت في سنواتها الأخيرة كثيرًا من المفاهيم والآراء الَّتي اجتهدت فيها، وناديت بها، مثل قضيَّة التعدديَّة والمرأة، وصدر عن مكتب الإرشاد للإخوان بيانان أو قراران واضحان في ذلك، يمكن مراجعتها في ملاحق هذا الكتاب.

QaradawiBooks.com

وقد قال ذلك الأستاذ البنَّا في الأصل الخامس من أصوله العشرين حول العمل برأي الإمام «ولي الأمر» ومجالاته وشروطه، وأكَّد أنَّه قد يتغير بتغير الظروف والأوضاع، شأن كل رأي أو اجتهاد بشري، لا بدَّ أنْ يتأثَّر بالزمان وبالمكان ومجال الإنسان، حتَّى قالت مجلة الأحكام العدليَّة في إحدى موادها: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان[١].

وقد تحدَّث الأستاذ البنَّا في بعض رسائله عن سعة التشريع الإسلامي، وأنَّ الإسلام وضع من القواعد الكليَّة، ما يترك للمسلم بابًا واسعًا في الانتفاع بكل تشريع نافع مفيد، ولا يتعارض مع أصول الإسلام ومقاصده، وأثاب على الاجتهاد بشروطه، وقرَّر قاعدة المصالح المرسلة، واعتبر العرف، واحترم رأي الإمام[٢].

بل نقرأ في رسائل الإمام البنَّا هذه الكلمات الرائعة، المعبرة عن فقه عميق لرسالة الإسلام، يتجاوز مؤثرات الزمان والمكان، ولا يحصر الإسلام في فهم عصر معين أو بيئة معينة، فنحجر بذلك ما وسَّع الله، ونعسِّر ما يسَّر الدين.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في «رسالة المؤتمر الخامس» الشهيرة: «يعتقد الإخوان المسلمون: أنَّ أساس التعاليم الإسلاميَّة ومعينها هو: كتاب الله تعالى، وسُنَّة رسوله ﷺ، اللذان إنْ تمسكت بهما الأُمَّة، فلن تضل أبدًا، وأنَّ كثيرًا من الآراء والعلوم الَّتي اتصلت بالإسلام، وتلونت بلونه: تحمل

(١) انظر كتابنا: السياسة الشرعية صـ ٢٨٧ ـ ٣٠٥، فصل: فقه الواقع.

(٢) رسالة في مؤتمر طلبة الإخوان ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٦٥، وانظر كتابنا: السياسة الشرعية صـ ٧٥ وما بعدها. حول المصلحة المرسلة، واعتبار رأي الإمام وتغيره بتغير الظروف.

QaradawiBooks.com

لون العصور الَّتي أوجدتها، والشعوب الَّتي عاصرتها، ولهذا يجب أنْ نستقي النظم الإسلاميَّة، الَّتي تُحمل عليها الأُمَّة، من هذا المعين الصافي، معين السهولة الأولى، وأنْ نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأنْ نقف عند هذه الحدود الربانيَّة، حتَّى لا نقيِّد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتَّفق معه، والإسلام دين البشريَّة جميعًا»[1] اهـ.

هذه فقرة تعبر أبلغ التعبير وأصدقه عن توجُّه حسن البنَّا، وسعة أفقه، وعمق فهمه لدينه، وأنَّ النظم الإسلاميَّة الَّتي تحمل عليها الأُمَّة في عصرنا يجب ألَّا نستقيها من فقه عصر معين أو بلد معين، أو مذهب معين، أو كتاب معين، أو مدرسة معينة من مدارس الفقه أو الفكر، بل استقاؤها من «معين السهولة الأولى» على حدِّ تعبير الأستاذ، أي: من نصوص القرآن والسُّنَّة، كما كان يفهمها الصحابة والتابعون، وقد كانوا أفقه النَّاس لمقاصد الشريعة وروح الإسلام، وأكثر النَّاس تيسيرًا على عباد الله، وأبعدهم عن التشديد والتعقيد والتعسير، مع وجوب الاستفادة من فقه كل العصور، وكل البلدان، وكل المذاهب والمدارس، دون تعصب، ولا التزام بما لم يلزمنا الله به.

اعتراف ونقد ذاتي:

ولا أنكر أنَّ في حركة الإخوان في بعض الأحيان، وفي بعض الأقطار، ولدى بعض الأفراد والقيادات أحيانًا: ميلًا إلى التشدُّد، تأثرًا بالمدارس الأخرى الَّتي لها وجود في الساحة الإسلاميَّة، ويظهر هذا في الإبقاء على القديم، ومقاومة التجديد، أو الميل إلى الآراء المتشددة، الَّتي تنظر إلى النصوص الجزئية، وتغفل المقاصد الكليَّة، أو الَّتي تأخذ

(١) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١٢٠، ١٢١.

QaradawiBooks.com

دائمًا بالأحوط، ولا تأخذ بالأيسر، رغم حاجة النَّاس إليه، ولكن هؤلاء لا يمثلون ـ اليوم ـ التيار الغالب في الحركة.

وهذا ما دعاني في بعض كتبـي[١]: أنْ أتحدَّث عن ضرورة التجديد، وشرعيته، حتَّى يحق الحق، ويزهق الباطل.

ولا بأس أنْ أقتبس بعض ما كتبته هنا، لما فيه من دلالة على وجود التجدد والنقد الذاتي في مسيرة الإخوان، وقبول الفكر العام في جماعة الإخوان لهذا النقد البناء، ولا ريب أنَّ ذلك يعتبر ظاهرة صحيَّة[٢].

الإسلام أقر شرعية التجديد:

لا يقال هنـا: إنَّ الحركة إسـلاميَّة المصـدر والوجهـة والأهداف والمبادئ، والإسلام واحد لا يتعدد، ثابت لا يتجدد.

لأنَّنا نقول أولًا: إنَّ الإسلام نفسه قد أقرَّ شرعية التجديد بما جاء في الحديث الَّذي رواه أبوداود والحاكم وغيره وصحَّحه الأئمة الثقات: «**إنَّ الله تعالى يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يُجدِّد لها دينها**»[٣].

فالتجديد مشـروع وثابت وواقـع بالنص، وليس بعد بيان رسـول الله ﷺ بيان، فلا ينبغي أنْ نخاف من كلمة التجديـد في الدين، بعد أنْ صحَّ بها الحديث، إنَّما الَّـذي ينبغي هنا أنْ نحدِّد معنى «التجديد» حتَّى لا يتلاعب المتلاعبون بالدِّين وحقائقه باسم تجديدهم المزعوم، وما هم من التجديد في كثير ولا قليل.

---

(١) انظر كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية صـ ٩٢ ـ ٩٦.

(٢) يؤكد ذلك: أنَّ الإخوان قرَّروا دراسة هذا الكتاب في مناهجهم التربوية والثقافية على جميع المستويات، كما أخبرني الثقات.

(٣) سبق تخريجه صـ٤٩.

QaradawiBooks.com

وقد بيَّنت في دراسة لي حول هذا الحديث الشريف: المراد بـ «التجديد» وجوانبه ومن يقوم به.

وخلاصة القول فيه: أنَّ تجديد شيء ما لا يعني إزالته، واستحداث شيء آخر مكانه، بل تجديده يعني إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأول مرة، والمحافظة كل المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه، وعدم المساس بها.

وهذا ينطبق على الماديَّات والمعنويَّات، فتجديد بناء أثري، قصر أو معبد أو مسجد، لا يعني هدمه وبناء آخر مكانه على أحدث طراز، بل إبقاءه والحرص على إرجاعه إلى صورته الأولى ما أمكن ذلك، فهذا هو التجديد الحقيقي.

وتجديد الدين يشمل تجديد الفهم والفقه فيه، وهذا تجديد فكري، كما يشمل تجديد الإيمان به، وهذا تجديد روحي، وتجديد العمل له والدعوة إليه، وهذا تجديد عملي.

وكل عصر يحتاج إلى تجديد يناسبه، ليجبر القصور، ويستكمل النواقص ويعالج الأدواء.

على أنَّ هناك منطقة لا يدخلها تجديد بحال، وهي منطقة «القطعيَّات» الَّتي قال فيها الإسلام كلمته البيِّنة الحاسمة، سواء في مجال العقائد أم العبادات، أم الأخلاق، أم التشريع، وهي تمثِّل «الثوابت» الَّتي تجسِّد الوحدة العقدية والفكريَّة والشعورية والسلوكية للأمة المسلمة.

وقد شرحت ذلك في كتب أخرى فليرجع إليها[1].

(١) انظر على سبيل المثال كتابنا: الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط =

QaradawiBooks.com

ضرورة التجديد في الوسائل:

ونقول ثانيًا: إنَّ الحركة ـ وإنْ كانت إسلاميَّة المصدر والوجهة والأهداف والمبادئ ـ تتَّخذ من المناهج والوسائل والأنظمة الاجتهادية ما تراه أصلح لخدمة دينها والتمكين له في الأرض، حسبما يقتضيه الزمان والمكان والحال.

فهذه المناهج والوسائل والأنظمة ليست خالدةً خلود الإسلام نفسه، وليس لها ثبات المبادئ والأصول الإسلاميَّة، بل هي أدوات أثمرها الاجتهاد البشري لإحياء الإسلام وتجديده في الأنفس والحياة، وهي قابلة للتطعيم والاقتباس من خير ما عند الآخرين، كما هي قابلة للتطور والتغير.

والإمام حسن البنَّا الَّذي وضع القواعد الأولى للعمل الحركي المنظَّم لتجديد الإسلام، لم يدَّع العصمة لنفسه ولا الخلود لوسائله الَّتي ألهمه الله الاهتداء إليها، وهي وسائل بالغة الروعة والقوة، وحقَّ للشهيد سيِّد قطب أنْ يسمِّيها «عبقريَّة البناء»، وحقَّ للمرشد الموفَّق الأستاذ عمر التلمساني أنْ يسمِّيه «القائد الملهم الموهوب»، وحقَّ لشيخنا الغزالي أنْ يصفه بأنَّه «مجدد القرن الرابع عشر الهجري»، ومع هذا يجب أنْ تخضع هذه الوسائل والأنظمة للتقويم ما بين الحين والحين، كما يفعل رجال التربية في مناهجهم الَّتي يقرِّرونها، ويؤلفون

= صـ ٢٢٥ ـ ٢٤٥، فصل: معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم، نشر دار القلم، الكويت، ط ٣، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، وكتابنا: من أجل صحوة راشدة صـ ٣٩ ـ ٥٦، فصل: الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

الكتب في ضوئها، ثمَّ لا تمر سنوات حتَّى يعيدوا النظر فيها، بالإضافة أو الحذف أو التحوير والتعديل، وهذا أمر لازم لكلِّ عملٍ بشري مهما بلغ من الدقَّة والإتقان.

حسن البنَّا لم يكن جامدًا:

وحسن البنَّا نفسه لم يكن جامدًا، بل كان دائمَ التجديد والتطوير للوسائل والأساليب في أبنية الحركة ومؤسساتها وأنظمتها.

ولن يضيق الشهيد حسن البنَّا في قبره إذا خالفه بعض أبنائه وأتباعه في قضيَّة من القضايا الَّتي كان له فيها رأي من قبل، مثل ما ذكرته من اجتهادات، قد لا يوافق ظاهرها ما ذهب إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكذلك إذا أضاف إلى أصوله ما يرى أنَّه مكمل لها، كما فعل الشيخ الغزالي في شرحه للأصول العشرين في كتابه الَّذي سمَّاه «دستور الوحدة الثقافيَّة للمسلمين».

ولا يوجد مانع شرعي ولا عرفي ولا عقلي من إعادة البحث في الوسائل والأنظمة التربويَّة داخل الجماعة، مثل نظام الأسرة والكتيبة، وما يمكن أنْ يطعم به، أو يضاف إليه، أو يحذف منه.

وكذلك البحث في الوسائل السياسيَّة في ضوء المستجدات والمتغيرات المحلية والإقليمية والعالميَّة، وما تقضي به من دخول في جبهات أو مخالفات، أو مهادنات أو مشاركات، حسبما توجبه المصلحة العليا للإسلام، وللأمة وللحركة، وفي ظل الظروف الآنية والموضعيَّة الحاكمة، فلكل قُطر ظروفه، ولكل مرحلة حكمها، ولكل مجموعة قدراتها وضروراتها وملابساتها، الَّتي هي أدرى بها من غيرها.

QaradawiBooks.com

والحركة هنا ـ مثلها كمثل الفقه وغيره من علوم الشـريعة ـ لا تحيا وتنمو وتزدهر إلَّا بفكـر المجدِّدين المجتهديـن، ولا تذوي وتنكمش وتعقم إلَّا بفكر المقلِّدين الجامدين، إنْ صحَّ أنَّ ما عندهم يسمَّى «فكرًا».

الجمود آفة خطرة:

إنَّ الجمود آفة مـن آفات الفكـر الحركي «المؤطَّر» وهـو عائق من العوائق الداخليَّة في الحركة الإسـلاميَّة، كما بيَّنت ذلك في كتابي «الحل الإسلامي فريضة وضرورة»[1] وكما أكدت ذلك في رسالتي «أين الخلل؟».

الجمود على شكل معين في التنظيم، وعلى وسائل معينة في التربية، وعلى صورة معينة فـي الدعوة، وعلى مراحل معينـة في الوصول إلى الهدف، وعلى أفكار معينة في السياسـة... ومن حاول أنْ يغير من هذا الشـكل أو تلك الوسـيلة، أو هذه الصورة أو تلـك المراحل، أو تلك الأفكار، أو يعـدِّل فيها بالزيـادة والنقص، قوبل بالرفض الشـديد، أو الاتهام والتنديد.

ولا زلت أؤكِّد أنَّ التجديـد الَّذي نريده لا يعني إلغـاء القديم، بل تطويره وتحسـينه وتحديثه والإضافة إليه، وبخاصَّة ما يتعلق بالوسـائل والأدوات والكيفيَّـات، فهـي أمـور مرنة قابلـة للتطويـر والتحويل، والاسـتفادة من إمكانات العصر، ومما عند الآخريـن، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحـق بها، ولا يعني هـذا أنْ نفتعل التجديد، ونحن في غير حاجة إليه، إلَّا التظاهر الزائف بأنَّنا من أنصار التجديد!

(١) انظر كتابنا: الحل الإسـلامي فريضة وضرورة صـ ٢١٨ ـ ٢٢٠، مبحث: الجمود، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

ما أخشاه على الحركة الإسلاميَّة:

ولقد قلت في هذا المقام معبرًا عن خشيتي على الحركة من الجمود:

إنَّ أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلاميَّة أنْ تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها، وأنْ تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد، وتقف عند لون واحد من التفكير لا يقبل وجهة نظر أخرى، تحمل رأيًا مخالفًا في ترتيب الأهداف، أو في تحديد الوسائل، أو في تعيين المراحل، أو في تقويم الأحداث والمواقف، أو في تقدير الرجال والأشخاص، أو في غير ذلك، ممَّا يدخل في دائرة الاجتهاد البشري، الَّذي من شأنه أنْ يتطور ويتغير بتغير العوامل والمؤثرات، وقديمًا قال فقهاؤنا: يجب أنْ تتغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد.

وعندئذٍ تتسرَّب الكفايات العقليَّة القادرة على التجديد والابتكار، من بين صفوف الحركة، كما يتسرب الماء من بين الأصابع، ولا يبقى في النهاية إلَّا المحافظون المقلِّدون الَّذين يحبُّون أنْ يبقى كلُّ قديم على قدمه، وأنَّ ما نعرفه خيرٌ ممَّا لا نعرفه، وما جرَّبناه أفضل ممَّا لم نجرِّبه.

ونتيجة هذا: أنْ تحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها، وأنْ تصاب في النهاية بالجمود، أو العقم الَّذي أصاب الفقه والأدب في عصور التقليد، وأنْ يتقوقع هؤلاء على ذواتهم يأسًا من أي عمل مثمِر للإسلام، أو يعملوا فرادى نافضين أيديهم من جدوى أي عمل جماعي، أو يحاولوا مع آخرين خوض تجربة جماعية أخرى لا تدري عواقبها.

إنَّ من أهم ما أضرَّ بالعقل المسلم قديمًا، وأضرَّ به حديثًا، شيوع تلك المقولة الَّتي تقول: ما ترك الأوَّل للآخر شيئًا! وليس في الإمكان أبدع ممَّا كان!

QaradawiBooks.com

ولا ينفع العقل المسلم شـــيء مثل شيوع الفكرة المضادَّة الَّتي تقول أبدًا: كم ترك الأوَّل للآخر، وكم في الإمكان أبدع ممَّا كان ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

تطوُّر محمود:

ولقد رأيت الإخوان في السنوات الأخيرة، يعقدون حلقات، ويقيمون ندوات فيما بينهم، لتقويم أداء الجماعة، ومراجعة مســـيرتها، والاجتهاد في معرفة نقاط الضعف في ذلك للعمل على تلافيها، وعلاج أســـبابها، ومعرفة نقاط القوَّة، للاستزادة منها، وهو لون إيجابي من النقد الذاتي أو محاسبة النفس، الَّتي أمر بها الإسلام.

كما أنشؤوا مراكز للبحوث والدراســـات، يقوم عليها شباب متطلع طموح، نرجو لها غدًا مشرقًا بإذن الله.

وهذا بلا ريب تطـــوُّر محمود، وهو ما يؤمَّل مـــن جماعة كبيرة مثل الإخوان، لها امتداد في أكثر من سبعين بلدًا في العالم.

ولقد رأينا قيادة الإخوان تصدر قرارات متميزة، تعبر عن هذا التطور، وتبتعد عن الحرفية والجمود علـــى القديم، وخصوصًا ما يتعلق بالمرأة، وبالتعدديَّة السياســـيَّة، خلافًا لما يظنُّ أنَّه خـــلاف رأي الإمام البنَّا عليه رحمة الله.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٣

الإخوان والأقليَّات الدينيَّة

ومن التُّهم الَّتي قد يشوِّش بها مشوِّشون: دعوى أنَّ الإخوان متعصبون ضدَّ الأقليَّات الدينيَّة، وأنَّهم لا يعطونهم حق المواطنة كالمسلمين، مع أنَّهم من أهل البلاد الأصليين، وأنَّهم يطالبونهم بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ولا يبدؤونهم بالسلام، وإذا لقوهم في الطريق اضطروهم إلى أضيقه، وأنَّهم يمنعونهم من وظائف الدولة، ولا سيَّما من الوظائف العسكريَّة في الجيش أو في الشرطة، إلخ.

ونقول لهؤلاء: لا ريب أنَّ الإسلام قد أقرَّ تعدُّد الأديان، وجعل ذلك واقعًا بمشيئة الله تعالى، ولو شاء لجمع النَّاس على الهدى، كما أنَّ حساب الضالين على ضلالهم إنَّما موعده يوم القيامة، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ومع هذا جعل الإسلام لليهود والنصارى منزلة خاصَّة، وسمَّاهما «أهل الكتاب» أي التوراة والإنجيل، وإنْ حرَّفا وبدَّلا، ولكن يظل هؤلاء أهل دين سماوي في الأصل، يؤمنون ـ بالجملة ـ بالله، ويؤمنون برسله، ويؤمنون بالآخرة، ويتعبدون لله، ويعترفون بالقيم الأخلاقيَّة.

غير مرخصة للطباعة

فلا غرو أنْ أباح الإسلام مؤاكلتهم ومصاهرتهم حين قال القرآن: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وبهذا ارتقى الإسلام إلى أفق في التسامح لم يسمُ إليه أحد من قبل، وأجاز للمسلم أنْ تكون زوجته وربة بيته، وشريكة حياته، وأم أولاده: كتابية، ومعنى هذا: أنْ يكون أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم وأولادهم كتابيين، ولهم حقوق أولي القربى وصلة الرحم.

واعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين من اليهود الَّذين وقفوا ـ للأسف ـ موقف العداوة والمحاربة للدعوة الإسلاميَّة ولنبيِّها ﷺ.

ولذا دخلت بلاد مسيحيَّة كاملة في الإسلام ولم يدخل إلَّا أفراد قلائل من اليهود في الإسلام.

ثم إنَّ أهل الذمَّة من أهل الكتاب لهم حقوق أخص وأعمق من غيرهم، بوصفهم من «أهل دار الإسلام».

ثم كانت الوصية بالأقباط أكثر من غيرهم في عدَّة أحاديث صحيحة، منها: حديث أمِّ سلمة أنَّ الرسول ﷺ أوصى عند وفاته فقال: «**الله الله في قِبْط مصر، فإنَّكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله**»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: «**إنَّكم ستفتحون مصر، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّة ورحِمًا**»، وفي رواية:

(١) رواه الطبراني (٢٦٥/٢٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦٧٨): رجاله رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

«**ذمَّة وصِهْرًا**»[1]. قال العلماء: الرحم: أنَّ هاجر أمَّ إسماعيل منهم، والصهر: أنَّ مارية أمَّ إبراهيم ابن النبيِّ ﷺ منهم.

وكان الأستاذ البنَّا يعي تعاليم الإسلام جيدًا في ذلك، ويتعامل مع الأقباط بروح التسامح الإسلامي الأصيل، الَّذي يصدر عن العقيدة لا عن النفاق السياسي، الَّذي يظهر غير ما يبطن.

ولقد كان في اللجنة السياسيَّة للإخوان بعض الأقباط المعروفين من رجال السياسة المحنَّكين.

ولا زلت أذكر حينما حضر الإمام البنَّا إلى مدينة طنطا لعقد المؤتمر الوطني الكبير (بعد انتهاء الحرب العالميَّة الثانية) لشرح الأهداف والمطالب القوميَّة، وقد عقد مثل هذا المؤتمر في عواصم المديريات (المحافظات) في مصر، كان يصطحب معه أحد الأقباط المتخصِّصين، ليتحدَّث في قضيَّة «قناة السويس» واسمه ناصف ميخائيل، وذلك ليؤكد معنى التضامن الوطني بين الأغلبيَّة المسلمة والأقليَّة القبطية، وأنَّ مصر لهم جميعًا.

ولقد سئل حسن البنَّا عن مسألة الجزية، فقال: إنَّ مسألة الجزية أصبحت اليوم غير ذات موضوع ما دام كل المواطنين ينخرطون في الخدمة العسكريَّة، ويدافعون عن الوطن، سواء بسواء، وقد كان المسلمون قديمًا هم الَّذين يدفعون ضريبة الدم، فعلى الآخرين أنْ يدفعوا ضريبة المال.

يريد الأستاذ أنْ يقول ما قاله بعض الفقهاء من قديم: أنَّ أهل الذمة إذا اشتركوا مع المسلمين في القتال ضدَّ أعدائهم، سقطت عنهم الجزية.

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٣)، بروايتيه.

QaradawiBooks.com

وكان الأستاذ البنَّا يُفَسِّر دفع الجزية بأنَّه «بدل خدمة عسكريَّة»، وقد كان غير المسلمين سعداء، بدفع هذا البدل في الزمن الماضي، بل كان كثير من موسري المسلمين يدفعون هذا البدل لإعفاء أبنائهم من الجنديَّة، قبل عصر التجنيد الإجباري.

وكان حفظة القرآن الكريم يعفــون من هذه الخدمة، فلم يكن النَّاس ينظرون إلى الجنديَّة نظرتنا إليها اليوم.

موقف حسن البنَّا:

يقول الدكتور حســان حتحوت فــي مقالة له نشــرتها «مجلة الأُمَّة القطرية» تحت عنوان «تهمة التعصب»: «فماذا عن قنا؟ البداية حفل كبير زاخر، على رأســه علماء المسلمين وقســس الأقباط، وعلى ذكر قسس الأقباط فإنَّ كثيرين يحاولــون أنْ يلصقوا بالرجل ودعوته تهمة التعصب ضدَّ النصارى، أو التفرقة بين عنصري الأُمَّة، ويشــهد الله ومن حضر من الصادقيــن أنَّ العكس هــو الصحيح، فلــم يكن الرجــل داعية بغض ولا تفرقة، وكان يبرهن أنَّ الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلاميَّة لا يمكن أنْ تكون مصدر إزعاج للأقباط؛ لأنَّها ســتطبق علينا وعليهم على السواء، وأنَّها لا تصادر نصرانيَّة النصراني.

وقد وجدت دعوة الرجــل صداها وتصديقها لــدى ذوي الفهم من المسلمين والأقباط.

ويكفي أنْ أذكر بأنَّ الأستاذ «لويس فانوس» من زعماء الأقباط كان من الزبائن المســتديمين لدرس الثلاثاء الَّذي يلقيه حسن البنَّا، وكانت بينهما صداقة وطيدة.

QaradawiBooks.com

وأنَّ حسن البنَّا عندما تقدَّم مرشـــحًا لانتخابات البرلمان كان وكيله الَّذي يمثله في مقر إحدى اللجان الانتخابية رجلًا قبطيًّا.

وأنَّ البنَّا لما اغتيل ومنعت الحكومة أنْ يشـــيع في جنازة، لم يمش وراء نعشه إلَّا رجلان هما والده ومكرم عبيد السياسي النصراني.

وأذكـــر أنَّنا كنا ونحـــن طلاب نزور جمعيات الشُّـــبَّان المســـيحيَّة لنتحدث عن موقف الإســـلام من النصرانيَّة، فنخرج وقد شـــعرنا أنَّهم أقرب النَّاس مودة»[1].

وشهادة ثانية: شكَّل مكتب إرشاد الجماعة لجنة سياسيَّة عليا برئاسة وكيـــل الجماعة وعضوية ســـكرتير الجماعة وعضو مـــن أعضاء مكتب الإرشـــاد، و(٩) أعضاء آخرون منهم ثلاثة من كبار الأقباط هم الأســـتاذ وهيب بك دوس المحامي، والأستاذ لويس فانوس عضو مجلس النواب، والأستاذ كريم ثابت الصحفي الكبير.

وثالثة: أرسل الإمام حسن البنَّا رسالة تهنئة إلى توفيق دوس بمناسبة انتخابه عضوًا فـــي مجلس الشـــيوخ المصري، ردَّ عليهـــا دوس بتهنئة بمناسبة صدور جريدة «الإخوان المســـلمون» اليوميَّة وتأكيده على نزعة الإخوان القوميَّة.

ورابعة: رد توفيق غالي من أقباط مصر على مقالات لسلامة موسى في عهد الإمام حســـن البنَّا، اتَّهم فيها موســـى الإخوان بأنَّهم يثيرون الفتن الطائفيَّة.

(١) مقال من سير الرجال: حسن البنا، مجلة الأمة القطرية صـ ٢٧، عدد (٥٥)، السنة (٥)، رجب ١٤٠٥هـ ـ آذار (إبريل) ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

وقد أكَّد توفيق غالي في رده: «إنِّي أعترف بأنَّهم «الإخوان المسلمين» أشرف الجماعات مقصدًا، وأنبلهم خلقًا، ولن أقدم دليلًا إلَّا أنَّ شعبتهم يجاورها المسيحيون من كل جانب، ومع ذلك لم نَرَ منهم إلَّا كل أدب وتقدير لإخوانهم المسيحيين، وأنَّ شعبتهم بقسم الصيادين الزقازيق تجاور الكنيسة ولا ينظرون إليها إلَّا بكل احترام»[١].

حسن الهضيبي:

ولم تتوقَّف هذه السياسة بعد استشهاد الإمام حسن البنَّا، بل التزم بها الإخوان المسلمون دينًا وأصلًا، فكان مرشدوه الأمناء: حسن الهضيبي وعمر التلمساني ومحمد حامد أبو النصر على نفس السياسة ونفس المنوال.

ففي كتاب «حسن الهضيبي الإمام الممتحن» ذكر الأستاذ جابر رزق رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان «من خلطائه المسيحيين»: «وكانت باكورة ولايته القضاء في مدينة جرجا من صعيد مصر، حيث تعلو في الطبقة المثقَّفة نسبة المسيحيِّين الَّذين تهيِّئ لهم مراكزهم وثقافتهم الاختلاط بقاضي المدينة ونظرائه من كبار الموظفين.

فإذا بهم يلتفون حوله، ويحيطونه بفيض من مشاعر الحب والتقدير، ويعلنون أنَّهم يحسدون عليه إخوانهم المسلمين، ويتمنَّون لو كان في طائفتهم مثله»[٢].

---

(١) مجلة الإخوان المسلمون، السنة (٤)، العدد (١٠٣)، بتاريخ ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ ـ ٢٥ مايو ١٩٤٦م.

(٢) حسن الهضيبي الإمام الممتحن لجابر رزق صـ ١٨٩، نشر دار اللواء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

عمر التلمساني:

وقد نشرت مجلة «الدعوة» تحت عنوان: «وأين نصيبنا من هذا الحب؟» السطور التالية لمرشدنا الراحل عمر التلمساني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ القول بأنَّ الإخوان يقوم تشكيلهم على أساس ديني يسبِّب الفرقة، قول يردُّه الواقع، ويدحضه الكثير من الحجج والبراهين:

أولًا: الأُمَّة المصريَّة تتكون من ديانتين أساسيتين، الإسلام والمسيحيَّة، وبلغ التسامح الديني بالأغلبيَّة المسلمة أنْ كان من رؤسائها ووزرائها مسيحيُّون، وكان يرأس مجلس النواب مسيحي...»[(١)].

ثانيًا: قامت جماعة الإخوان في عام ١٩٢٨م، فلم يثبت في تاريخها يومًا من الأيام أنَّها دعت إلى فرقة، أو هتفت بعنصرية دينيَّة، أو نادت بحرمان غير المسلمين ممَّا يستمتع به المسلمون، بل كان القسس يحضرون احتفالاتها، ويلقون فيها كلماتهم من وجهة نظرهم لا من وجهة نظر الإخوان المسلمين، ولم يعترض عليهم أو يقاطعهم أحد.

ثالثًا: كيف يكون التشكيل الرسمي للإخوان مدعاة إلى التفريق بين أفراد الأُمَّة وهم لا يحرمون على مسيحي أنْ يبتني كنيسة، أو أنْ يشتغل بوظيفة، أو أنْ يؤدي شعائره الدينيَّة آمنًا مطمئنًّا، إذا طالب المسيحيون بحزب مسيحي، فما الخوف من ذلك؟ أليس هذا واقع الأُمَّة فعلًا: مسلمون ومسيحيون، وكل ينادي بصلاحية دينه وإصلاح المجتمع؟

(١) مجلة الدعوة، العدد (١٤)، شعبان ١٣٩٧هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

محمد حامد أبو النصر:

س ـ العلاقة مع الأقباط تشغل بال كثيرين لدرجة أنَّ عددًا من أحزاب المعارضة بدأ يتسابق للحصول على أصواتهم، هل تتصورون تعاونًا بين الإخوان والأقباط في الانتخابات؟

ج ـ علاقتنا بالأقباط كانت وما زالت طيبة، على مدى السنوات السبعين الماضية، منذ نشأة الجماعة، لم يقع حادث يعكِّر صفوها، وكان للإمام حسن البنَّا مستشارون من الأقباط، وكان عدد من الأقباط يحرص على حضور محافل الجماعة، وحين أبعد الإمام البنَّا إلى قنا كتب القساوسة هناك مذكرات إلى الحكومة تنصفه.

س ـ هل توافقون على إنشاء الأقباط حزبًا سياسيًّا خاصًّا بهم؟

ج ـ الحزب السياسي أهم أهدافه الوصول إلى السلطة والحكم بمقتضى منهج، فهل تعتقد أنَّ الأقباط وهم نحو خمسة في المائة من أبناء مصر يسعون إلى ذلك؟ إنَّ مثل هذه الادعاءات ظهرت في الفترة الأخيرة لتبرير محاربة الجماعة، والواقع يكذِّب هذه الادعاءات، فمع حرية إنشاء الأحزاب لم يفكر الأقباط في إنشاء حزب في الأربعينيات حين كانت الجماعة منتشرة في كل أنحاء مصر، ومع ذلك نرحِّب بحزب للأقباط إذا شاؤوا[1].

مصطفى مشهور:

س ـ إذا وافقت لكم الحكومة بحزب إسلامي سيطالب الأقباط بحزب ممَّا يرشح لوقوع فتنة طائفية؟

(١) جريدة الحياة بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩٩٥م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ج ـ الفتنة الطائفيَّة تعبير أطلقه الرئيس الراحل أنور السادات من خياله، فليس في الواقع أي توتُّر طائفي بين المسلمين والأقباط، وأتذكر أنَّ الشيخ حسن البنَّا ذهب ذات مرَّة إلى الصعيد، وألقى سلسلة محاضرات، وبعد أنْ عاد إلى القاهرة علمنا أنَّ عددًا من القساوسة في محافظة قنا رفعوا مذكرة إلى رئيس الوزراء يطلبون فيها تطبيق الشريعة الإسلاميَّة؛ لأنَّ محاضرات الشيخ البنَّا أوضحت لهم الحقوق الكاملة الَّتي يتحصل عليها القبطي في مجتمع إسلامي، من هنا أقول: إنَّه لا توجد فتنة طائفية ونحن أحرص النَّاس على حقوق المواطن القبطي في مصر.

الأقباط والشيوعيون:

س ـ نفترض جدلًا أنَّ الأقباط طالبوا بحزب، فما هو رأيكم؟

ج ـ نحن نؤيد ذلك، هنا ثلاثة عشر حزبًا في مصر، فما المانع أنْ يكون هناك خمسة عشر أو حتَّى عشرون حزبًا، وأن نعطي الرأي العام فرصة اختيار الحزب الَّذي يميل إليه، أليست هذه هي الديمقراطيَّة الَّتي تتحدَّث عنها الحكومة[1]؟

في حديث إلى جريدة الحياة:

العلاقة بين «الإخوان» والأقباط طيبة جدًّا منذ أيام البنَّا، وكانت هناك لجنة سياسيَّة في عهد المرشد الأوَّل ممثل فيها أقباط، ولم تحدث طوال تاريخ الجماعة خلافات بيننا وبينهم، والمصريون ما زالوا يذكرون دور

(١) جريدة المستقلة بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

«الإخوان» في احتواء الفتنة الطائفية الَّتي تفجرت في حي الزاوية الحمراء قبل مقتل السادات[١].

وفي حديث آخر:

هل معنى ذلك أنَّ الحكومة لو وافقت للجماعة على إنشاء حزب فإنَّه سينضم في تنظيمه أقباط؟

إذا كان هناك أقباط يوافقون على برنامج الإخوان الإسلامي، ويتقبلون مبدأ الإسلام هو الحل، فلم لا نقبلهم معنا[٢]؟!

كلامٌ حُرِّف عن موقف الإخوان من الأقباط:

ولقد نشرت الصحف كلامًا نسب إلى المرشد الحالي للإخوان الأستاذ مصطفى مشهور حول الأقباط والجزية، أنكره هو، وقال: إنَّه حُرِّف، وهذا يكفينا منه، وهو المتفق مع تراث الجماعة، ومواقف مؤسسها وتصريحاته، وكتابات علمائها لمدة سبعين عامًا، وخصوصًا ما كتبه المرشد الثاني الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

موقفنا من الأقليات:

هذا، وقد عرضنا لموقف الإسلام من الأقليات في أكثر من كتاب، منها «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» ورسالة «الأقليات الدينيَّة والحل الإسلامي» وكتاب «أولويات الحركة الإسلاميَّة» وبعض الفتاوى والبحوث في كتابنا «فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، وكتابنا «من فقه الدولة في الإسلام»، كما بيَّنَّا ذلك في محاضرات شتَّى في أكثر من بلد.

(١) جريدة الحياة بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٩٦م.

(٢) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٩٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأعتقد أنَّ اجتهادنا في هـذه القضيَّة الكبيرة قد استبانت معالمه، واتضحت صورته في ضوء الأدلة الشرعيَّة، ولقي القبول من جمهرة الإخوان.

غير مرخصة للطباعة

كيف تحل مشكلة الأقليات الدينيَّة؟

ويمكن أنْ أقتبس بعض ما كتبته هنا، لإيضاح موقف الاجتهاد الإسلامي المعاصر من هذه القضيَّة الخطيرة، الَّتي يشعلها أعداء الأُمَّة بين الحين والحين، لأغراض في أنفسهم، لإثارة الفتنة الطائفيَّة، حتَّى إنَّهم في أمريكا اليوم ـ بتأثير اللوبي الصهيوني ـ يزعمون أنَّ الأقباط مضطهدون دينيًّا في مصر، وهو زعم لا أساس له. ويتلخَّص موقفنا فيما يلي:

١ ـ لا وجه لدعوى بعض النَّاس وجلهم من العلمانيين الَّذين لا يوالون الإسلام ولا المسيحيَّة: أنَّ الاتجاه إلى الحل الإسلامي والشرع الإسلامي ينافي مبدأ الحريَّة لغير المسلمين، وهو مبدأ مقرر دوليًّا وإسلاميًّا، فقد نسوا أو تناسوا أمرًا أهم وأخطر، وهو أنَّ الإعراض عن الشرع الإسلامي والحل الإسلامي من أجل غير المسلمين ـ وهم أقليَّة ـ ينافي مبدأ الحريَّة للمسلمين في العمل بما يوجبه عليهم دينهم، وهم أكثرية.

وإذا تعارض حق الأقليَّة وحق الأكثرية، فأيهما نقدم؟

إنَّ منطق الديمقراطيَّة ـ الَّتي يؤمنون بها ويدعون إليها ـ أنْ يقدَّم حقُّ الأكثرية على حق الأقليَّة.

هذا هو السائد في كل أقطار الدنيا، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس، فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين، وإنَّما بحسب نظام ما أنْ ينال قبول الأكثرية ورضاهم، بشرط ألَّا يحيف على الأقلين، ويظلمهم

QaradawiBooks.com

ويعتدي على حرماتهم، وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أنْ يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم، وينفذوا شريعة ربهم حتَّى يرضى الله عنهم.

ولو لم تفعل الأقليَّة الدينيَّة ذلك، وتمسكت بأنْ تنبذ الأكثرية ما تعتقده دينًا يعاقب الله على تركه بالنار، لكان معنى هذا أنْ تفرض الأقليَّة ديكتاتورية على الأكثرية، وأنْ يتحكم مثلًا ثلاثة ملايين أو أقل، في أربعين مليونًا أو أكثر، وهذا ما لا يقبله منطق ديني ولا علماني.

٢ ـ وهذا على تسليمنا بأنَّ هنا تعارضًا بين حق الأكثرية المسلمة وحق الأقليَّة غير المسلمة.

والواقع أنَّه لا تعارض بينهما، فالمسيحي الَّذي يقبل أنْ يحكم حكمًا علمانيًّا لا دينيًّا، لا يضيره أنْ يحكم حكمًا إسلاميًّا، بل المسيحي الَّذي يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة، ينبغي أنْ يرحِّب بحكم الإسلام؛ لأنَّه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء، والجزاء في الآخرة، كما يقوم على تثبيت القيم الإيمانيَّة، والمثل الأخلاقيَّة، الَّتي دعا إليها الأنبياء جميعًا، ثمَّ هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصَّة، فكيف يكون هذا الحكم ـ بطابعه الرباني الأخلاقي الإنساني ـ مصدر خوف وإزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر؟ على حين لا يزعجه حكم لا ديني علماني يحتقر الأديان جميعًا، ولا يسمح بوجودها ـ إنْ سمح ـ إلَّا في ركن ضيِّق من أركان الحياة؟!

من الخير للمسيحي المخلص أنْ يقبل حكم الإسلام، ونظامه للحياة، فيأخذه على أنَّه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة، ويأخذه المسلم على أنَّه دين يرضي به ربه، ويتقرَّب به إليه.

QaradawiBooks.com

ومن الخير للمسيحي ـ كما قال الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أنْ يأخذه المسلمون على أنَّه دين؛ لأنَّ هذه الفكرة تعصمهم من الزلل في تنفيذه، وعين الله الساهرة ترقبهم، لا رهبة الحاكم الَّتي يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان[1].

ومن هنا رحَّب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامي بوصفه السَّدَّ المنيع في وجه الماديَّة الملحدة الَّتي تهدد الديانات كلها على يد الشيوعية العالميَّة، كما نقلنا ذلك من كلام العلامة فارس الخوري[2].

وأود أنْ أصحح هنا خطأً يقع فيه كثيرون، وهو الظنُّ بأنَّ القوانين الوضعية المستوردة من الغرب المسيحي قوانين لها رحم موصولة بالمسيحيَّة، فهذا خطأً مؤكد، والدارسون لأصول القوانين ومصادرها التاريخيَّة يعرفون ذلك جيدًا، بل الثابت بلا مراء أنَّ الفقه الإسلامي أقرب إلى المسيحيَّة والمسيحيين في أوطاننا من تلك القوانين؛ لأصوله الدينيَّة من ناحية، ولتأثره بالبيئة المحيطة الَّتي هم جزء منها.

٣ ـ والادِّعاء بأنَّ سيادة النظام الإسلامي فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم، ادِّعاء غير صحيح.

فالإسلام ذو شعب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة. فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد، وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في

(١) رسالة دستورنا للأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين صـ ١٤ ـ ١٥، نشر مكتبة المنار، الكويت.

(٢) انظر كتابنا: بينات الحل الإسلامي صـ ٢١٤ ـ ٢٤٧.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الأولى يقول تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وفي الثانية يقول ﷻ في أسلوب جازم: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وجاء عن الصحابة في أهل الذمة: «اتركوهم وما يدينون»[١].

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدُّون عباداتهم ويقيمون شعائرهم، في حرية وأمان، كما هو منصوص عليه في العهود الَّتي كُتبت في عهد أبي بكر وعمر، ومثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء «القدس».

ومن شدة حساسية الإسلام أنَّه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين، لما لهما من صبغة دينيَّة، باعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى ـ مع أنَّ الزكاة ضريبة مالية، والجهاد خدمة عسكريَّة ـ وكلَّفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرؤوس، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين، وهي ما يسمَّى «الجزية».

ولئن كان بعض النَّاس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسموه ما يشاؤون، فإنَّ نصارى بني تغلب من العرب طلبوا من عمر أنْ يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية، وقبل منهم عمر، وعقد معهم صلحًا على ذلك، وقال في ذلك: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[٢]!

(١) ذكره ابن الهمام في فتح القدير (٣٦٢/٩)، نشر دار الفكر.

(٢) انظر: الحاوي الكبير للماوردي (٣٤٦/١٤)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أما شعبة الأخلاق فهي ـ في أصولها ـ لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض.

بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون الَّذين ينظم علائق النَّاس بعضهم ببعض: علاقة الفرد بأُمَّته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية، وبالدول الأخرى.

فأمَّا العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيَّرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا، ولا يجبرون على شرع الإسلام.

فمن اختار منهم نظام الإسلام في المواريث مثلًا ـ كما في بعض البلاد العربيَّة ـ فله ذلك، ومن لم يرد فهو وما يختار.

وأمَّا ما عدا ذلك من التشريعات المدنيَّة والتجاريَّة والإداريَّة ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق، وترتضيها الأغلبيَّة.

وبعض المذاهب الإسلاميَّة لا تلزم أهل الذمة أو غير المسلمين بالتشريع الجنائي مثل إقامة الحدود والعقوبات الشرعيَّة، كقطع يد السارق، وجلد الزاني أو القاذف، ونحو ذلك، وإنَّما فيها التعزيز.

وتستطيع الدولة الإسلاميَّة الأخذ بهذا المذهب إذا وجدت فيه تحقيق مصلحة، أو درء مفسدة، كما فعلت ذلك جمهورية السودان الإسلاميَّة، بالنسبة للمناطق الَّتي تسكنها أغلبيَّة غير إسلاميَّة.

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصَّة يحتكمون إليها إن شاؤوا، وإلَّا لجؤوا إلى القضاء الإسلامي، كما سجَّل ذلك التاريخ.

QaradawiBooks.com

وبهذا نرى أنَّ الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه في دينهم واجبًا، ولا على فعل أمر يرونه عندهم حرامًا، ولا على اعتناق أمر ديني لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم.

كل ما في الأمر أنَّ هناك أشياء يحرِّمها الإسلام مثل الخمر والخنزير، وهم يرونها حلالًا، والأمر الحلال للإنسان سعة في تركه، فللمسيحي أنْ يدع شرب الخمر ولا حرج عليه في دينه، بل لا أظنُّ دينًا يشجع شرب الخمور، ويبارك حياة السكر والعربدة، وكل ما في كتبهم: أنَّ قليلًا من الخمر يصلح المعدة[١]، ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم في موقفهم من الخمر والسكر.

وكذلك بوسع المسيحي أنْ يعيش عمره كلَّه ولا يأكل لحم الخنزير، فأكله ليس شعيرة في الدين، ولا سنة من سنن النبيين، بل هو محرَّم في اليهوديَّة قبل الإسلام، ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أنْ يأكلوا الخنزير، ويشربوا الخمر، ويتاجروا فيهما فيما بينهم، وفي القرى الَّتي تخصهم، على ألَّا يظهروا ذلك في البيئات الإسلاميَّة، ولا يتحدوا مشاعر المسلمين، وهذه قمة في التسامح لا مثيل لها[٢].

سؤال. د. جورج إسحاق:

ومنذ عدَّة سنوات دعيت من قبل نقابة الأطباء في مصر لندوة حول «المشروع الحضاري الإسلامي» في «دار الحكمة» بالقاهرة، وكان

(١) هو من أقوال بولس، وليس من قول المسيح عليه السلام. انظر: رسالة بولس إلى تيموثاوس (٢٣/٥).

(٢) انظر كتابنا: بينات الحل الإسلامي صـ ٢١٤ ـ ٢٤٧، فصل: الأقليات الدينية والحل الإسلامي. وقد نشرت في رسالة مستقلة من رسائل ترشيد الصحوة، وانظر أيضًا كتابنا: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

QaradawiBooks.com

المفروض أنْ يشاركني أحد الأساتذة المعروفين[1]، ولكنَّه اعتذر، فانفردت بإلقاء الموضوع، وبيان مقومات مشروعنا الحضاري الإسلامي، والذي يعمل على إصلاح الفرد، وإسعاد الأسرة، وترقية المجتمع، وبناء الأُمَّة الفاضلة، وإقامة الدولة العادلة، وإنشاء عالم متعارف وعلاقات إنسانيَّة سوية.

وبعد ذلك كانت أسئلة ونقاشات وتعليقات، وكان من أبرز هذه الأسئلة: سؤال من الأخ الدكتور جورج إسحاق الَّذي سأل بصراحة: أين موقعنا، يا دكتور قرضاوي ـ نحن الأقباط ـ في هذا المشروع؟ هل نظل أهل ذمة؟ أو نحن مواطنون؟ هل ستطالبنا بدفع الجزية أو ندفع ما يدفع المسلمون؟ هل نحرم من وظائف الوطن أو يأخذها من يستحقها منَّا بأهليته؟ إلخ. هذا النوع من الأسئلة.

وقلت للدكتور إسحاق: إنَّ المشروع الحضاري هو لأهل دار الإسلام جميعًا، المسلمين منهم وغير المسلمين، وفقهاء المسلمين متفقون على أنَّ أهل الذمَّة من «أهل الدار» أي دار الإسلام وإن لم يكونوا من «أهل الملة». ومعنى أنَّهم من أهل الدار أنَّهم مواطنون، ينتمون إلى الوطن الإسلامي، فهم مسلمون بحكم انتمائهم إلى الدار أو الثقافة والحضارة، وهذا ما عبَّر عنه الزعيم المصري القبطي المعروف مكرم عبيد حين قال: أنا نصراني دينًا، مسلم وطنًا! وهذا ما قلته للدكتور لويس عوض حين زارنا في الدوحة مشاركًا في إحدى الندوات، وطلب منِّي أنْ أعقب على الندوة، فقلت له: أنا مسلم بمقتضى العقيدة والملة، وأنت مسلم بمقتضى الثقافة والحضارة.

(١) وهو أ. د. إسماعيل صبري عبد الله وزير التخطيط في عهد عبد الناصر، ومن ممثلي الفكر اليساري في مصر.

QaradawiBooks.com

وكلمة «الذمة» كثيرًا ما تفهم خطأ، ويظنُّ بعض النَّاس أنَّها كلمة ذم أو انتقاص، مع أنَّ معناها: العهد والضمان أي أنَّهم في عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين وفي ضمانهم، لا يجوز أنْ ينتقض عهدهم أو تخفر ذمتهم من أحد.

وإذا كانت كلمة «أهل الذمة» تؤذي الأقباط وأمثالهم، فإنَّ الله لم يتعبدنا بها، وقد حذف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ما هو أهم منها، (كما ذكرنا من قبل) وهي كلمة «الجزية» المذكورة في القرآن، حين طلب بنو تغلب ذلك، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن عرب، ونأنف من كلمة «جزية»، ونريد أنْ تأخذ منا ما تأخذ باسم الزكاة أو الصدقة، كما تأخذ من المسلمين، فقبل منهم ذلك، ونظر إلى أصحابه وقال: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم[1].

وفي عصرنا يتأذى إخواننا من المسيحيين وغيرهم من هذه التسمية، فلا مبرر للإصرار على بقائها، والعبرة للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني.

ولقد ذهبت من قديم في كتابي «فقه الزكاة»[2] إلى أنَّ ولي الأمر المسلم يجوز له أنْ يأخذ من غير المسلمين في الدولة الإسلاميَّة ضريبة تساوي فريضة الزكاة، ولنسمها «ضريبة التكافل» توحيدًا للميزانية والإجراءات بين أبناء الوطن الواحد والدار الواحدة، وأيَّدت ذلك بأدلَّة شرعية من داخل الفقه الإسلامي، وهذا ما أخذت به جمهورية السودان منذ عهد نميري.

(١) سبق تخريجه صـ٣٣٥. وانظر كتابنا: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها صـ ٢١٦.

(٢) فقه الزكاة (١/١١٦ ـ ١٢١)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

وقد ذكرت في «فقه الزكاة»[١] أنَّ من فقهاء المسلمين عددًا أجازوا دفع الزكاة لغير المسلمين، وقد نقل ذلك عن عمر رضي الله عنه.

ومما يذكره التاريخ أنَّ عناصر من أهل الكتاب أسهمت في بناء الحضارة الإسلاميَّة أيام ازدهارها، لا تزال أسماء بعضهم معروفة مشهورة.

ولقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة، وهو ما قرَّره القاضي الماوردي وغيره من فقهاء السياسة الشرعيَّة.

والعامل المهم هنا هو: وجود الثقة المتبادلة بين الفريقين وألَّا يتطلع غير المسلمين إلى المناصب الَّتي لها طبيعة دينيَّة، كما لا يجوز للمسلمين أنْ يتدخلوا في الشؤون الدينيَّة لغير المسلمين، أو يضيقوا عليهم فيها بغير حقٍّ.

والأصل العام في التعامل هو هذه القاعدة الَّتي يتناقلها المسلمون خاصتهم وعامتهم: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

وهذا، فيما عدا ما اقتضاه الاختلاف أو التميُّز الديني بطبيعة الحال لكل من الطرفين، فهم غير مطالبين بالصلاة ولا بالصيام ولا بزكاة الفطر ولا بالكفارات، ولا بالحج وغيرها من فرائض الإسلام.

ومن المهم جدًّا أنْ يكون من حقِّ الأكثرية المسلمة أنْ تحتكم إلى شريعة ربها، وتطبّقها في شؤونها، على ألَّا تحيف على حقوق الأقليَّة، ويجب على الأقليَّة ألَّا تضيق صدرًا بذلك، وهو ما كان عليه الأقباط طوال العصور الماضية الحديثة، قبل كيد الاستعمار ومكره، ولم نرهم يتبرمون بالنصِّ على أنَّ دين الدولة الإسلام، بل رأيت كثيرًا من عقلاء

(١) فقه الزكاة (٢/٧١٢ ـ ٧١٤).

QaradawiBooks.com

المسيحيين في مصر وفي غيرها طالبوا مخلصين بوجوب تطبيق الشريعة وأحكامها وحدودها، ورأوا في ذلك العلاج الناجع للجرائم والرذائل في مجتمعاتنا.

وكما أنَّ الأقليَّة رضيت بالقوانين المستوردة من الخارج، ولم تجد في ذلك حرجًا، فأولى بها أنْ ترضى بشريعة الإسلام، فهي قطعًا أقرب إلى المثل العليا الَّتي جاءت بها المسيحيَّة من القوانين الأجنبيَّة، ثمَّ هي قوانين «الدار» الَّتي تعيش فيها الأقليَّة وتتعامل معها، فالمسلم يتقبل الشريعة على أنَّها دين وانقياد لله، وغير المسلم يتقبلها على أنَّها قانون ونظام، شأنه شأن سائر الأنظمة والقوانين.

قلت هذا الكلام أو نحوه في الإجابة عن سؤال د. جورج إسحاق، وصفَّق الحاضرون إعجابًا وقبولًا، وبعد انتهاء الندوة، جاء الدكتور إسحاق يشدُّ على يدي، ويقول لي: ليتك يا دكتور قرضاوي تأتي إلى الكنيسة لتقول هذا للأقباط في عقر دارهم، فإنَّ عندهم هواجس ومخاوف كثيرة من تطبيق شريعة الإسلام، وربَّما ساهم في هذا الخوف بعض المتشدِّدين من المسلمين.

وقلت للدكتور: أنا لا أمتنع عن هذا إذا دُعيت، والواجب علينا البيان والبلاغ حتَّى لا تلتبس الأمور، وتفهم الحقائق على غير وجوهها، ويستغل أعداء الأُمَّة ذلك، ليوقدوا نار الفتنة، ويضربوا أبناء الأُمَّة الواحدة بعضهم ببعض، وهم المستفيدون أولًا وآخرًا.

الآراء الفقهيَّة المتشددة مرهونة بظروفها:

أما الآراء المتشددة والمضيِّقة، والَّتي تتمسك بحرفية ما جاء في بعض الكتب الَّتي كتبت في زمن غير زمننا، ولمجتمع غير مجتمعنا،

QaradawiBooks.com

وفي ظروف غير ظروفنا، فهي لا تلزمنا، وقد قرَّر المحققون من علمائنا: أنَّ الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والعـرف والحال، وقد تغيَّر كل شيء في حياتنا كمًّا وكيفًا، عما كان عليه أيام هؤلاء الفقهاء.

وأما حديث: «**لا تبدؤوهم بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق**»[1] فهذا مقيَّد بأيام الصراع والحرب، لا بأيام الاستقرار والسلام، وقد كان بعض الصحابة يقرأ السلام على كلِّ من لقيه من مسلم وغير مسلم، عملًا بالأمر بإفشاء السلام.

وهل من المعقول أنْ يبيح الإسلام للمسلم الزواج بالمسيحيَّة ولا يبيح له أنْ يسلِّم عليها؟ وهل يمنع الولد أنْ يسلِّم على أمه أو على خاله أو خالته أو جده أو جدته؟ وقد أمره الله بصلة الرحم، وإيتاء ذي القربى؟

وحسبنا هذا النص القرآني العام المحكم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] فالقسط هو العدل، والبر هو الإحسان، وهو شيء فوق العدل، والعدل: أنْ تعطي الحق، والبر: أنْ تعطي فوق الحق، العدل: أنْ تأخذ ما لك من حقٍّ، والبر: أنْ تتنازل عن بعض حقك أو عن حقك كله، وهذا ما رغَّب فيه القرآن في التعامل مع المسالمين من غير المسلمين.

* * *

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٦٧)، وأحمد (٧٦١٧)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

٤

الإخوان والعنف

ومن التُّهم الَّتي ألصقت بالإخوان ـ ولا زالت ـ تهمة استخدام العنف أو الإرهاب، وحين تذكر جماعات العنف المسلح في عصرنا، يسارع ذوو الغرض والهوى لإدخال جماعة الإخوان فيهم.

وهذا لعمري، من الاعتساف والتحريف، والظلم المبين الَّذي لا يخفى على دارس منصف، فالإخوان ـ من الناحية النظرية ـ لم يجيزوا استخدام القوَّة الماديَّة إلَّا في مجالات معينة، وبشروط واضحة، بيَّنها الإمام البنَّا في رسائله بوضوح، كما في رسالة المؤتمر الخامس وغيرها، ومن هذه المجالات: مقاومة الاحتلال الإنجليزي لمصر، والاحتلال الصهيوني الاستيطاني في فلسطين.

وقد اشترك الإخوان بالفعل في قتال الصهاينة سنة ١٩٤٨م في حرب فلسطين، وكان لكتائبهم دور مشهور، وبطولات قارعة رائعة، وشهداء أطهار أبرار، شهد لهم بها رجال كبار من قادة الجيش المصري، وإن كان جزاؤهم بعد ذلك أنَّهم أُخذوا من الميدان إلى المعتقلات.

كما كان لهم دور معروف غير منكور في معارك القناة، حيث شارك شبابهم في الجامعات والأزهر وغيرها، وكان لهم شهداء معروفون، وكان لاستخدام العنف في غير الميدان دور محدود، قُصد به ضرب المصالح

QaradawiBooks.com

اليهوديَّة والبريطانية، ردًّا على المجازر الهائلة الَّتي وقعت في فلسطين على أيدي العصابات المسلحة الَّتي استباحت كل المحرمات.

ولو جُمع كل ما فعل الإخوان لضرْب تلك المصالح، لم يبلغ عشر معشار ما كانت تقوم به الجماعات المسلَّحة اليوم في مصر أو في الجزائر في يوم واحد.

فما عرف عن الإخوان أنَّهم قتلوا سائحًا أو اعتدوا على قبطي، أو قتلوا امرأة، أو طفلًا صغيرًا، أو شيخًا كبيرًا، كما شاهدنا ما يفعله هؤلاء الوحوش الَّذين يذبحون النَّاس بأبشع الآلات وأشنع صور القتل، ولا يتورعون عن قتل النساء والولدان، والزراع والرهبان، ممَّن لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل، ولا نعجة ولا حمل! فمن غير المقبول والمعقول أنْ يلحق الإخوان بهؤلاء المفترسين.

وهناك حوادث معروفة من أعمال العنف منسوبة إلى الإخوان، لها ظروفها وملابساتها: ومن العدل أنْ توضع في إطارها الزمني، فقد كان الاغتيال السياسي معروفًا عند الوطنيين منذ اغتيال بطرس باشا غالي، وأمين عثمان، وغيرهما، وكان الرئيس السادات ممَّن اتُّهم في مقتل أمين عثمان.

فمن ذلك: حادثة قتل القاضي الخازندار في ظروف معروفة زينت لبعض الشباب المتحمس أنْ يقتلوا هذا القاضي، ولم يكن ذلك بأمر الأستاذ البنَّا ولا بإذنه أو علمه، وقد استنكر وقوع هذا الحادث. ومن الإنصاف أنْ يوضع الحدث في ظرفه الزمني، مقرونًا بالباعث عليه، حتَّى لا يأخذ أكبر من حجمه، ولم يتكرر هذا من الإخوان قط، ولم يفكروا في أخذ ثأرهم، حتَّى من القضاة

QaradawiBooks.com

العسكريين الَّذين حكموا عليهم أحكامًا لا يشك إنسان موضوعي أنَّها قاسية ظالمة.

وبعد ذلك كان قتل النقراشي رئيس الوزراء والحاكم العسكري الَّذي يحمل تبعة «حل الإخوان» واقتيادهم إلى المعتقلات بالآلاف، وتعريضهم للتعذيب والفصل والتشريد والتجويع، حتَّى الَّذين كانوا يقاتلون الصهاينة في فلسطين نقلوا من الميدان إلى الاعتقال، فقام شاب من الإخوان بمساعدة بعض زملائه في «النظام الخاصِّ» بقتله، وهو ما حاول الأستاذ حسن البنَّا الحيلولة دون وقوعه، ولقي بعض الرجال المسؤولين، وحذَّرهم من أنْ يتهور بعض شباب الإخوان ويحدث ما لا تحمد عقباه، فقالوا له بعبارة صريحة: ماذا يفعلون؟ سيقتلون رئيس الوزراء، ليكن إن ذهب عير ـ أي حمار ـ فعير في الرباط!

وقد استدعي الأستاذ البنَّا بعد مقتل النقراشي، وحقِّق معه، ثمَّ أفرج عنه، إذ لم تثبت أية صلة له بالحادث.

والحادثة الثالثة: محاولة نسف محكمة الاستئناف الَّتي كانت تضم أوراق قضايا الإخوان، وهو الحادث الَّذي أغضب الأستاذ البنَّا كثيرًا، وجعله يسارع بإصدار بيانه الشهير الَّذي نشرته الصحف، وفيه يقول: هؤلاء ليسوا إخوانًا، وليسوا مسلمين!

والواقع أنَّ الجماعة بعد حلِّها ليست مسؤولة عن مثل هذه الحوادث؛ لأنَّها ليست موجودة حتَّى تُساءل، ولم يحدث بعد ذلك أي حادث عنف إلَّا ما كان من محاولة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندريَّة في أكتوبر سنة ١٩٥٤م، وهو حادث تكتنفه الشبهات من كل جانب، وقد شكَّك فيه بعض رجال الثورة أنفسهم مثل حسن التهامي.

QaradawiBooks.com

ولو أخذنا الأمور على ظواهرها، فليست الجماعة مسؤولة عنه، ولم يثبت في التحقيق أنَّها هي الَّتي دبَّرته، وإنَّما هو من تدبير هنداوي دوير ومجموعته.

على كل حال، هذا تاريخ قديم، ولم يثبت بعد ذلك أنَّ الإخوان استخدموا العنف من سنة ١٩٥٤م حتَّى اليوم، رغم ما وقع عليهم من عسف وظلم، وقتل علني لقادتهم، بحكم القضاء العسكري، والتعليق على أعواد المشانق، مثل الشهداء: عبد القادر عودة ـ محمَّد فرغلي ـ يوسف طلعت ـ إبراهيم الطيب، أو لشبابهم بحكم التحرش المثير داخل السجن، كما في حادث سجن طرة الشهير، الَّذي قتل فيه السجَّانون مسجونيهم علانية، وسقط ثلاثة وعشرون شابًّا من خيرة الشباب شهداء في سبيل الله، لم يصنعوا جرمًا إلَّا أنَّهم طالبوهم بتحسين أحوالهم، والسماح لذويهم أنْ يزوروهم، كبقية سجناء الدنيا.

وقد أعدم بعد ذلك: سيِّد قطب، وعبد الفتاح إسماعيل، ومحمد يوسف هواش، ولم يريقوا قطرة دم واحدة، إلَّا ما قيل: إنَّهم كانوا ينوون كذا وكذا، واقتيد الإخوان بعشرات الألوف إلى السجون والمعتقلات، وعذِّبوا تعذيبًا لم يُسبق له مثيل، ورغم توسط الكثيرين واحتجاج الكثيرين على إعدام سيِّد قطب، لم يستجب عبد الناصر لهم، وأصرَّ على قتله.

وهناك أفراد قتلوا تحت سياط التعذيب في السجن الحربي بعد أنْ سهر عليهم الجنود القساة يتعاورون عليهم واحدًا بعد الآخر، كلَّما تعب هذا من الجلد والإيذاء، أخذ عنه صاحبه، فمن هؤلاء المعذبين من تحمَّل جسده، وإن بقي طوال عمره يعاني من آثار العذاب ما يعاني،

QaradawiBooks.com

ومنهم من نفدت طاقته، وعجز عن الاحتمال، فخرَّ قتيلًا بين أيدي هؤلاء الوحوش، وهم لا يبالون.

أعرف من هؤلاء صديقنا الشيخ محمَّد الصوابي الديب، خريج كليَّة الشـــريعة، وزميلنا في بعثة الأزهر للجهاد في القنـــاة، الَّذي احتيل عليه فجيء به من جدة، بعد أنْ بقي فترة في القاهرة، مختبئًا في بيت العلامة الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصريَّة عليه رحمة الله، ولما سئل أخونا: أين قضى تلك الفترة قبل ســـفره إلى جدة، رفض أنْ يبوح باسم الشيخ حتَّى لا يؤذى في شيخوخته، وصبر على العذاب حتَّى لقي ربَّه.

وقد كان كثيـــرون يطالبون الإخوان أنْ يأخـــذوا بثأرهم من الضباط الَّذين اشـــتهروا بتعذيبهم، مثل حمزة البســـيوني قائد السجون الحربية، الَّذي كان يقول في صلف وغرور: لا قانون هنا، أنا وحدي القانون! بل تطاول بجرأة ووقاحة علـــى مقام الألوهية، حيـــن كان الإخوان يقولون تحت وطأة التعذيب: يا رب، يا رب، فيقـــول متبجِّحًا: أين ربكم هذا؟ هاتوه لي، وأنا أحطه في زنزانة!

هذا الطاغية تركه الإخوان ومن عاونه لقدر الله الأعلى، فســـخر منه القدر، حيث تحطَّمت ســـيارته فـــي طريق الإســـكندريَّة القاهرة، وقطِّع جسمه أشلاء، وقد عرف أهل القرية الَّتي قتل أمامها ومُزِّق شرَّ ممزق من هو صاحب السيارة، فكانوا يقولون: أخزاه الله، لقي جزاء ما قدَّمت يداه.

المهم أنَّ الإخوان لم يفكروا في الانتقام من ظالميهم، وتركوا الأمر لربهم ينتقم لهم، إنَّه عزيز ذو انتقام، وهو سبحانه يمهل ولا يهمل.

فسبحان الله، جماعة بهذه الروح المسامحة مع أقسى ظالميها، كيف تُتَّهم بالعنف أو بالإرهاب، وهي منهما براء؟!

QaradawiBooks.com

مسؤولية الإخوان عن جماعات العنف:

ومن التُّهم الَّتي توجه إلى الإخوان باستمرار، وتلوكها الألسنة والأقلام: أنَّ «جماعات العنف» ظهرت من تحت عباءتهم، مثل جماعات «الجهاد» و«الجماعة الإسلاميَّة» و«جماعة التكفير» وغيرها من الجماعات الَّتي نشأت في مصر، واتخذت العنف نهجًا لها، وسبيلًا لتحقيق أهدافها.

والحقُّ الَّذي لا ريب فيه: أنَّ بعض هذه الجماعات مثل جماعة «التكفير» تعتبر «انشقاقًا» على الإخوان، وليس «امتدادًا» للإخوان.

وقد بدأت بذور هذه الجماعة في السجن الحربي، كما بيَّنَّا كيف تسلسل تفكيرهم في كتابنا «الصحوة الإسلاميَّة بين الجحود والتطرف» وانتهى بهم الأمر إلى «تكفير النَّاس بالجملة» ابتداءً بالذين يتولون تعذيبهم بلا رحمة، ثمَّ من يأمرهم بهذا التعذيب من الحكام، ثمَّ من يسكت على هؤلاء الحكام من الشعوب.

وقد اعتزلت هذه الفئة الإخوان في السجون، وكانوا لا يصلون معهم، وقام بينهم وبين الإخوان جدل طويل، وردَّ عليهم مرشد الجماعة الثاني الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقولات سجلها ونشرها بعد ذلك في كتابه «دعاة لا قضاة».

وقد نقلت فيما سبق أنَّ شكري مصطفى أمير جماعة التكفير ومؤسِّسها اتهم قادة الإخوان بالخيانة العظمى؛ لأنَّهم لم يقاوموا رجال الأمن والشرطة وسلموا جلود إخوانهم للسياط، ورقابهم للمشانق.

فكيف يعتبر الإخوان مسؤولين عن هؤلاء الَّذين انشقوا عنهم، واتهموهم بأبشع التهم؟

QaradawiBooks.com

إنَّ هذا أشبه بمن يحمِّل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه وزر جماعة «الخوارج» الَّذين كانوا جنودًا في جيشه، ثمَّ انشقوا عنه وخرجوا عليه، ورموه بالكفر، وتحكيم الرجال في دين الله، ثمَّ تآمروا عليه وقتلوه غيلة رضي الله عنه !

هل يقبل عاقل هذا المنطق الأعوج؟ أنْ يحمل المرء تبعة من يخرج عنه، ويتمرَّد عليه، وينصب له الحرب والعداء؟

هذا ما تتبنَّاه ـ للأسف الشديد ـ أجهزة الإعلام المصريَّة والعربيَّة وتُردِّده ولا تملُّه، وما يكرره كتاب علمانيون أو ماركسيون يعادون الإخوان، بل يعادون رسالة الإسلام.

وأما جماعة «الجهاد» و«الجماعة الإسلاميَّة» في مصر فليست انشقاقًا من الإخوان، بل هي جماعات نشأت من أوَّل يوم، احتجاجًا على الإخوان، وإنكارًا عليهم أنَّهم خانوا «مبدأ الجهاد» الَّذي أعلنوه طريقًا لهم، وشعارًا يتغنَّون به «الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

ويفسرون الجهاد باستخدام العنف في مقاومة الحكام الَّذين لا يحكمون بما أنزل الله، باعتبار أنَّ هذا كفر بواح عندهم فيه من الله برهان.

والإخوان لم يخونوا مبدأ الجهاد كما زعم هؤلاء، ولكن «الجهاد» ليس معناه «القتال» بل الجهاد مراتب وأنواع أوصلها الإمام ابن القيِّم في كتابه الشهير «زاد المعاد» إلى ثلاث عشرة مرتبة، واحدة منها فقط هي: قتال الكفار بالسيف[1]، وهذا له دوافعه وشروطه، كما في جهاد إخواننا

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥ ـ ١١)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

الأفغان ضدَّ الغزو السوفيتي وإخواننا في البوسنة والهرسك ضدَّ التوحش الصربي، وكذلك إخواننا في كوسوفو الآن، وغيرهم من المسلمين الَّذين يعانون من الاضطهاد الديني والعنصري في أنحاء الأرض، وأعظم هذا الجهاد: هو جهاد إخواننا في فلسطين ضدَّ العدوان الإسرائيلي المغتصب، والإخوان ـ حيثما كانوا ـ يُؤيِّدون هذا اللون من الجهاد بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم، وبكل ما يستطيعون، فالمسلمون أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، والمسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، أي: لا يتخلى عنه. ويمثل الإخوان في الجهاد الفلسطيني حركة المقاومة الإسلاميَّة «حماس» الَّتي يؤيدها كلُّ حرٍّ شريف، مسلمًا كان أو غير مسلم.

أما فيما عدا هذا الجهاد العسكري، الَّذي يوجَّه فيه السلاح إلى أعداء الأُمَّة، فعندهم أنواع أخرى من الجهاد الَّذي تحتاج إليه الأُمَّة، ولا يرتاب أحدٌ في أنَّه فريضة وضرورة.

فالجهاد بالدعوة وتبليغ الرسالة وإقامة الحجة إحدى هذه المراتب، وهي المذكورة في سورة الفرقان المكية: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذا الجهاد متاح اليوم بصورة لم تعهد من قبل: عن طريق الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئيَّة، وعن طريق الإذاعات الموجهة، والقنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت وغيرها من الوسائل والآليات الَّتي تحتاج إلى طاقات بشرية هائلة، وإلى أموال طائلة، وإلى جهود مكثفة لم نقم بواحد في الألف منها! مع أنَّ هذا ـ كما قلت وأقول دائمًا ـ هو جهاد العصر.

QaradawiBooks.com

والجهاد بتحمل المتاعب والمحن والشدائد في سبيل الدعوة والصبر عليها، إحدى هذه المراتب، وهي مذكورة في سورة العنكبوت المكية: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٦].

وجهاد الظَّلَمة والفَجَرَة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف في وجه الباطل، وقول «لا» للمسرفين الَّذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون: إحدى هذه المراتب، وهو ما جاء في حديث ابن مسعود الَّذي رواه مسلم في «صحيحه»: «**ما من نبيٍّ بعثه الله في أمة قبلي، إلَّا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنَّته، ويقتدون بأمره، ثمَّ إنَّها تخلف من بعدهم خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[1].

وجهاد الحكام الظلمة باليد ـ أي بالقوة العسكريَّة ـ إنَّما هو لمن يستطيعه، ومن لم تكن معه هذه القوَّة انقلب فرضه إلى المجاهدة باللسان، فمن عجز انتقل فرضه إلى الجهاد بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

والإسلام يُشدِّد في استخدام القوَّة الماديَّة، حتَّى لا تؤدي محاولة إزالة المنكر إلى منكر أكبر منه، وهو ما سجَّله التاريخ والواقع.

وفي عصرنا لا يملك الجهاد باليد إلَّا «القوات المسلحة» وهي في يد الحكومة؛ لأنَّها جزء من أجهزتها.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٠)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

والذين يفكرون أنْ يقاوموا القوات المسلحة ببعض فئات من الشعب: مخطئون يقينًا، مخطئون عسكريًّا؛ لأنَّهم لم يفهموا إمكانات الجيوش الحديثة وقدراتها، ومخطئون دينيًّا؛ لأنَّهم يلقون بأيديهم إلى التهلكة، ويعرِّضون أنفسهم لمخاطر لا قِبل لهم بها، والحديث الشريف يقول: «**لا ينبغي لمؤمن أنْ يذلَّ نفسه**». قيل: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «**يتعرض من البلاء لما لا يطيق**»[1]. كما أنَّهم هنا قد يقتلون من لا يجوز قتله، والأصل في الدماء الحظر والتشديد.

وجماعات الجهاد في مصر وفي الجزائر وفي غيرها ترى ـ بإمكاناتها المحدودة ـ أنْ تقاتل القوات المسلحة، وتنسى الفارق الهائل في القدرة الماديَّة عند الطرفين، كما تنسى أنَّ الجندي في القوات المسلحة إنَّما هو آلة في ترس، لا يملك أنْ يعصي أمرًا لمن فوقه، فعلام يقتل؟

ومن ناحية أخرى، لا يبالي هؤلاء من يقتل من الأبرياء، من الرجال، والنساء، والولدان، الَّذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا، وقد نهى الرسول الكريم عن قتل النساء والصبيان في الحرب «الرسميَّة» بين المسلمين وأعدائهم، حين تلتقي الجيوش وجهًا لوجه، فلا يقتل إلَّا من يقاتل.

المهم أنَّ فقه الإخوان في «الجهاد» يخالف فقه هذه الجماعات الجديدة.

كما أنَّ فقه الإخوان في «التغيير» يخالف فقهها؛ فالإخوان يرون أنَّ التغيير لا بدَّ أنْ يتم أولًا داخل النفس الإنسانيَّة، فالإنسان يقاد من

(١) رواه أحمد (٢٣٤٤٤)، وقال مُخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي (٢٢٥٤)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٠١٦)، كلاهما في الفتن، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٩٧)، عن حذيفة بن اليمان.

QaradawiBooks.com

داخله لا من خارجه، من ضميره لا من يده، وهذا ما قرَّره القرآن في صورة قانون اجتماعي عام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا طريق طويل، ولكن لا طريق غيره يوصل إلى الغاية.

وقد رددت على فقه هذه الجماعات في استخدام العنف في محاضرات وخطب وحلقات تلفزيونية في الفضائيات المعروفة، مثل برنامج «الشريعة والحياة» في قطر، وبرنامج «المنتدى» في تليفزيون أبو ظبي، وفي «دار الرعاية» في لندن، وغيرها.

وبيَّنت أنَّ حسن النيَّة والرغبة في نصرة الدين عند هذه الجماعات لا يبرِّر لها ما تفعل، فقد كان الخوارج صُوَّامًا قُوَّامًا عُبَّادًا، ولم يغن عنهم ذلك من الله شيئًا، وأمر الرسول بقتالهم وقتلهم، لخطرهم على المجتمع، وصحَّت الأحاديث في ذمِّهم من عشرة أوجه، كما قال الإمام أحمد[1].

لا يكفي حُسن النيِّة إذن، فمن النَّاس من زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا!

بل إنَّ هذه الجماعات يخالف فقهها فقه الإخوان في قضايا كثيرة في السياسة الشرعيَّة، وفي الجوانب الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة والفنية والإعلامية وغيرها.

فهم متشدِّدون في قضايا المرأة، وفي قضايا التعدديَّة السياسيَّة، وفي اقتباس بعض أساليب الديمقراطيَّة وضماناتها مثل الانتخاب، والتصويت بالأغلبيَّة، وإلزامية الشورى، وتحديد مدة الأمير أو الرئيس، إلخ.

(١) نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٥٣٦/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

وكذلك في العلاقة بغير المسلمين من المواطنين، وعلاقة الدولة الإسلاميَّة بغيرها: هل أساسه السلم أو الحرب؟ وإلى أيِّ حدٍّ تتدخَّل الدولة في شؤون الاقتصاد؟

فالعجب أنْ يقال: إنَّ هذه الجماعات خرجت من «معطف» الإخوان، وهي تناقض الإخوان فكرًا وأسلوبًا، وتتَّهم الإخوان بأنَّهم فرطوا في الدين، وتعتبر اجتهادهم في قضايا العصر: ضربًا من التبعية والخضوع لتيار التغريب والغزو الفكري! أعني أنَّ هذه الجماعات المسلحة تضاد الإخوان، وتناقضها في توجهاتها، وهي ليست كذلك في مصر وحدها، بل هي كذلك في الجزائر وغيرها.

بيانات الإخوان المتكررة تدين العنف:

في السنين الأخيرة أوضح الإخوان موقفهم من العنف بكل الصراحة والوضوح في بيانات رسميَّة معلنة ومنشورة يدينون فيها العنف ويستنكرونه ويرفضونه بكل أشكاله وصوره، وأيًّا كانت مصادره وبواعثه، وذلك على أساس فهمهم لقيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه، كما سبق أنْ أكَّد الإخوان مرارًا على ضرورة إيقاف أعمال العنف والعنف المضاد، من منطلق وقاية البلاد من نزيف الدم الَّذي حرَّمه الله والحفاظ على المجتمع من الانهيار الاجتماعي والخراب الاقتصادي والذي لن يستفيد من ورائه إلَّا أعداء الإسلام وخصوم المسلمين.

لقد أدَّى الإخوان المسلمون دورهم بالنسبة لهذه القضيَّة على أكمل وجه ممكن، وبما تتيحه طاقاتهم وإمكاناتهم، فعقدوا لذلك العديد من الندوات والمحاضرات والمؤتمرات واللقاءات العامَّة، وأصدروا البيانات والنشرات والكتيبات لتوعية المواطنين (وبخاصة الشباب)

QaradawiBooks.com

وتنبيه الرأي العام لمخاطر العنف والعنف المضاد وأثره السلبي على أمن واستقرار مصر، فضلًا عن دورها الريادي تجاه أمتها العربيَّة والإسلاميَّة، كما أنَّ الإخوان حالوا ـ من خلال التربية المستمرة والتوجيه المباشر للشباب ـ دون وقوع عشرات الآلاف منهم في براثن أعمال العنف، وكم لهذا آثاره وانعكاساته البعيدة المدى على تحجيم هذه الأعمال وعدم تناميها وانتشارها.

وقد ظهر للشعب المصري، بل وللعالَم كلِّه في شتَّى بقاع الأرض ما تحمله دعوة الإخوان المسلمين من حكمة واعتدال وبُعد نظر، وحرص على إسعاد البشر، كل البشر، ولم يحدث خلال الأزمات الماضية والحالية على كثرتها ـ والَّتي كان من الممكن أنْ تعصف بأمن الوطن واستقراره ـ أنْ استغلَّ الإخوان أية فرصة لتصفية حسابات، أو ممارسة أي عمل من أعمال العنف ـ ولو على المستوى الفردي ـ أو عقد اتفاقات أو تشجيع ممارسات من شأنها أنْ تضر بالصالح العام، بل كانوا حريصين كل الحرص على أمن وسلامة وطنهم، وهدوء واستقرار مجتمعهم، وذلك من منطلق إيمانهم بربهم، وحبهم إسلامهم، والتزامهم بأصول دعوتهم. [بيان الإخوان بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٩٤م].

وقد تعدَّدت البيانات الصادرة عن الجماعة والَّتي تدين العنف، وتعبر فيها عن رأيها في هذا الخصوص، وقد قامت كل الصحف في مصر والحكوميَّة والحزبيَّة بنشرها في حينها، إمَّا كاملة أو مقتطفات منها، بحيث لم يعد في مصر أحد يجهل رأي الإخوان في هذه القضية، وكان من أبرز البيانات الَّتي صدرت، ذلك البيان الجامع الصادر في ٣٠ من ذي القعدة ١٤١٥هـ الموافق ٣٠ من إبريل ١٩٩٥م، والذي جاء فيه: «لقد أعلن الإخوان المسلمون عشرات المرات خلال السنوات الماضية: أنَّهم

QaradawiBooks.com

يخوضون الحياة السياسيَّة ملتزمين بالوسائل الشرعيَّة، والأساليب السلمية وحدها، مسلحين بالكلمة الحرة الصادقة والبذل السخي في جميع ميادين العمل الاجتماعي، مؤمنين بأنَّ ضمير الأُمَّـــة ووعي أبنائها هما في نهاية الأمر الحكم العادل بين التيارات الفكريَّة والسياسيَّة، الَّتي تتنافس تنافسًا شـــريفًا في ظل الدســـتور والقانون، وهم لذلك يجـــدِّدون الإعلان عن رفضهم لأســـاليب العنف والقســـر ولجميع صور العمل الانقلابي الَّذي يمزِّق وحدة الأُمَّة، والذي قد يتيح لأصحابه فرصـــة القفز على الحقائق السياســـيَّة والمجتمعية، ولكنَّه لا يتيح لهم أبدًا فرصة التوافق مع الإرادة الحرَّة لجماهيـــر الأُمَّة، كما أنَّه يمثل شـــرخًا هائلًا في جدار الاســـتقرار السياسي، وانقضاضًا غير مقبول على الشرعيَّة الحقيقيَّة في المجتمع.

وإذا كان جو الكبت والقلق والاضطراب الَّذي يسيطر على الأُمَّة قد ورَّط فريقًا من أبنائها في ممارســـة إرهابية، روَّعت الأبرياء وهزَّت أمن البلاد، وهدَّدت مسيرتها الاقتصاديَّة والســـلمية، فإنَّ الإخوان المسلمين يعلنون ـ في غير تردُّد ولا مداراة ـ أنَّهم برآء من شـــتَّى أشكال ومصادر العنف، مستنكرون لشتى أشكال ومصادر الإرهاب، وأنَّ الَّذين يسفكون الدم الحرام أو يعينون على سفكه شركاء في الإثم، واقعون في المعصية، وأنَّهم مطالبون في غير حزم وبغير إبطاء أنْ يفيئوا إلى الحقِّ، فإنَّ المسلم من سلم النَّاس من لســـانه ويده، وليذكروا ـ وهم في غمرة ما هم فيه ـ وصية الرســـول ﷺ في حجة وداعه: «**أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى يوم القيامة، كحرمة يومكم هذا في عامكم هذا في بلدكم هذا**»[1].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩)، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

أما الَّذين يخلطــون الأوراق عامدين، ويتهمــون الإخوان ظالمين، بالمشاركة في هذا العنف والتورط في ذلك الإرهاب، متعللين في ذلك بإصرار الإخوان على مطالبة الحكومة بألَّا تقابــل العنف بالعنف، وأنْ تلتزم بأحكام القانون والقضاء، وأنْ تســتوعب في دراســتها ومعالجتها لظاهرة العنف جميع الأســباب والملابســات، ولا تكتفــي بالمواجهة الأمنية ـ فإنَّ ادعاءاتهم مردودة عليهم بســجل الإخــوان الناصع كرابعة النهــار، على امتداد ســنين طويلة، شــارك الإخوان خــلال بعضها في المجالس النيابيَّة والانتخابات التشريعيَّة، واستُبعدوا خلال بعضها الآخر عن تلك المشاركة، ولكنَّهم ظلوا على الدوام ملتزمين بأحكام الدستور والقانون، حريصين على أنْ تظل الكلمة الحرة الصادقة ســلاحهم الَّذي لا سلاح غيره، يجاهدون به في سبيل الله «لا يخافون لومة لائم». والأمر في ذلك كله ليس أمر سياســة أو مناورة، ولكنَّه أمر دين وعقيدة، يلقى الإخوان المســلمون عليهما ربهم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشــعراء: ٨٨، ٨٩]». [الإخوان المســلمون، ٣٠ من ذي القعدة ١٤١٥هـ ـ ٣٠ من إبريل ١٩٩٥م].

شهادات المسؤولين للإخوان:

ولعلَّه من المناســب هنا أنْ نورد شهادات للمسؤولين الرسميين في مصر عن موقف جماعة الإخوان المسلمين من هذه القضيَّة، يثبت كذلك كذب كل ما يقال عنهم بعد ذلك:

تصريح الرئيس حسني مبارك:

فقد صرح الرئيس محمَّد حسني مبارك لجريدة «لوموند» الفرنسية أثناء زيارته لفرنســا سنة ١٩٩٣م، بتصريح نشــرته الصحف المصريَّة

QaradawiBooks.com

وفي مقدمتها جريدة «الأهرام» بتاريخ ١ نوفمبر ١٩٩٣م قال فيه: «إنَّ هناك حركة إسلاميَّة في مصر تفضل النضال السياسي على العنف، وقد دخلت هذه الحركة بعض المؤسسات الاجتماعيَّة واستطاعوا النجاح في انتخابات النقابات المهنية مثل الأطباء والمهندسين والمحامين».

شهادة وزير الداخليَّة المصري:

ولم يكن رئيس الجمهورية هو الوحيد من رجال السلطة الَّذي أكَّد انقطاع أي صلة للإخوان بالعنف والإرهاب، بل إنَّ وزير الداخليَّة الحالي اللواء حسن الأَلفي في مؤتمره الصحفي الَّذي عقده، ونشرت وقائعه بتاريخ ١٤ من إبريل ١٩٩٤م، سئل عن علاقة الإخوان بتنظيم الجهاد أو الجماعة الإسلاميَّة ـ وهما المنظمتان اللتان يتهمها النظام باستخدام العنف ـ فكان رده: «الإخوان جماعة لا يرتكب أفرادها أعمال عنف، بعكس تلك المنظمات الإرهابية»[1].

شهادة خبير الأمم المتحدة:

كما أكَّد ذلك الخبراء والمختصون في هذا المجال وعلى رأسهم خبير الإرهاب الدولي المصري بالأمم المتحدة اللواء أحمد جلال عز الدين ـ والذي قام الرئيس مبارك بتعيينه عضوًا بالبرلمان عام ١٩٩٥م ضمن العشرة الَّذين يحق لرئيس الجمهورية تعيينهم ـ حيث صرح في مقابلة موسعة له عن «الإرهاب والتطرف» مع جريدة «الأنباء» الكويتية: «إنَّ الإخوان المسلمين، حركة دينيَّة سياسيَّة ليس

(١) جريدة الجمهورية، وجريدة الأهرام، عدد ١٤ إبريل ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

لها صلة بالإرهاب والتطــرف... وإنَّ الإخوان في نظر عدد كبير من تنظيمات العنف يعتبرونهم متخاذلين وموالين للســلطة ومتصالحين معها...»[١].

شهادة د. مصطفى الفقي:

كما أنَّ الدكتور مصطفى الفقي مدير مكتب الرئيس حســني مبارك لشؤون المعلومات، قد أعلن في مؤتمر الإدارة العليا بالإسكندريَّة: «نحن نقبل مشاركة التيار الإســلامي المعتدل، والمتمثل في جماعة الإخوان المسلمين ومنحها الشرعيَّة بشروط، أبرزها: إعلانهم نبذ العنف ومقاومته علنًا، وقبول مبدأ الديمقراطيَّة بكل صيغها، وفي مقدمتها تداول السلطة والأحزاب والحوار»[٢].

الإخوان والتنظيمات السرية:

فليس لدى الإخوان المســلمين أية تنظيمات ســرية أو النيَّة لعمل تنظيمات تعمل تحت الأرض بعيدًا عن الأعين، فليس هذا من مناهجهم أو توجُّههم فضلًا عن أنَّ العمل السري يضرُّ بالعمل الدعوي.

فأمَّا أنَّ التنظيمات السريَّة لا تتفق ومنهج الإخوان، فذلك واضح من خلال حركتهم ونشاطاتهم في مجالات كثيرة ومتعددة عبر العقود الأخيرة، كما أنَّ لافتاتهم وملصقاتهم موضوعة في كل مكان من أرض مصر شاهدة على أنَّهم يعملون في وضح النهار وأنَّهم موجودون وسط الميدان يعيشون مع النَّاس ويمتزجون بهم ويشاركونهم أفراحهم وأتراحهم.

(١) جريدة الأنباء الكويتية، العدد (٦٥٦٠)، الصادرة بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٩٤م.

(٢) جريدة الوفد المصريَّة، عدد ١ نوفمبر ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

لقد دخل الإخوان المسلمون انتخابات مجلس الشعب في عامي ١٩٨٤، ١٩٨٧م، كما أنَّهم خاضوا انتخابات مجلس الشورى عام ١٩٨٩م، والمحليات عام ١٩٩٢م، هذا فضلًا عن الانتخابات المتعاقبة للنقابات المهنية المختلفة.

وكان تحرك الإخوان في هذه الانتخابات جميعها علنيًّا وظاهرًا وبارزًا بشعاراتهم وهتافاتهم ولقاءاتهم وبياناتهم، وهم الآن موجودون في النقابات المهنية المختلفة ونوادي هيئة تدريس الجامعة، والجمعيات والمجالس المحلية، ومن خلال الانتخابات النزيهة الحرة.

ولا يستطيع أحد أنْ ينكر دورهم في مجلس الشعب عامي ٨٤، ٨٧ وتكوينهم لتكتل نيابي باسم جماعة الإخوان المسلمين، وكيف أنَّهم أثروا الحياة النيابيَّة بأفكارهم وآرائهم وتوجيهاتهم في كل الاتجاهات السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ولذلك كان لمجلس الشعب في هذين الفصلين التشريعيين مكانته ونصيبه في اهتمامات الناس.

ولم يختلف الإخوان المسلمون يومًا ما عن الإدلاء بدلوهم وتبيان آرائهم ومواقفهم في أية قضيَّة محليَّة أو إقليميَّة أو دوليَّة.

فلماذا بعد كل هذا يلجأ الإخوان لعمل تنظيمات سرِّيَّة؟

وأمَّا أنَّ التنظيمات السرية تضر بالعمل الدعوي فهذا يرجع إلى أنَّ التنظيمات السرية تعمل في ظلام، والظلام بطبيعته يستحيل معه ـ مهما كانت القيادة نشطة وواعية ومتحركة وجادة ـ متابعة كل الأفراد «خاصة إذا كان عددهم عظيمًا» من حيث العقيدة والأفكار والسلوكيات والأخلاق، ومدى مطابقة هذا من عدمه مع العقيدة الصحيحة، والأفكار الأصيلة للدعوة، والسلوكيات والأخلاق الأساسيَّة للإسلام.

QaradawiBooks.com

ولأنَّ الإخوان المسلمين ينتمون إلى أهل السُّنَّة والجماعة، ويعتبرون أنفسهم جماعة من المسلمين فإنَّ عقيدتهم وفكرتهم من حيث النقاء والأصالة لا تشوبُها شائبة، كما أنَّ مناهجهم واضحة ومتميزة من حيث اعتمادها على الكتاب والسُّنَّة والفهم الصحيح الَّذي أجمع عليه أهل العلم الثقات، وبالتالي فهم حريصون على ألَّا تُشوَّه دعوتهم من قبل فرد أو مجموعة. ومخافة أنْ تنحرف الدعوة عن مسارها الأصلي، ينبذ الإخوان المسلمون العمل السري، ويرونه خطرًا على دعوتهم وعلى أفرادهم.

إنَّ العمل الدعوي في وضح النهار يكشف في وقت مبكر وبدون عناء أي انحراف يصيب العقيدة أو الفكر، كما أنَّه يفضح أي سلوك يخالف تعاليم الإسلام وهديه، وحتى لو حدث هذا فإنَّه يمكن معالجته سريعًا وبشكل ميسور، أو أنْ تنفي الدعوة عن نفسها الخبث فتتخلَّص ممَّا يريد أنْ يعلق بها.

غير أنَّ بعض الكُتَّاب من غير المنصفين يحاول الآن وبشكل مبتسر إيهام الرأي العام بأنَّ جماعة الإخوان صاحبة تاريخ عريق في التنظيمات السرية وأعمال الاغتيالات، إلخ، مستشهدين ببعض الأعمال الفرديَّة الَّتي انزلق إليها أفراد من النظام الخاص في الأربعينيات والَّتي أدانتها قيادة الإخوان في حينها.

ومن الحقِّ والإنصاف القول بأنَّ ظروف البلاد في الأربعينيات ومطلع الخمسينيات من هذا القرن اقتضت أنْ يشكل الإخوان ـ كغيرهم من الجماعات الوطنيَّة في ذلك الوقت ـ نظامًا من بعض الأفراد المحبين للتضحية والاستشهاد للقيام بعمليات جهادية ضدَّ المحتل الإنجليزي الغاصب الَّذي كان جاثمًا على صدر مصر، وأيضًا عصابات

QaradawiBooks.com

صهيون الَّتي كانت ولا تزال تعربد بكل الوحشـــية والإجرام في أرض فلســـطين، وقد أدَّى هذا النظام الخاص دوره على أروع ما يكون الأداء حيث شهدت ضفاف القناة وثرى أرض فلسطين بطولات خارقة وأعمالًا استشهادية فذة للإخوان المســـلمين يفخر بها كل غيور على بلاده، وقد انتهى النظام الخاص بانتهاء مسبِّبات قيامه منذ أكثر من أربعين سنة ولم يعد له وجود إلَّا الذكرى[1].

المحاكمات العسكريَّة للإخوان:

ويبقى هنا ســـؤال: إذا كان هذا هو موقف الإخوان بوضوح، فما سرُّ هذه المحاكمات العســـكريَّة، والإجراءات الأمنية، الَّتـــي تُتَّخذ في حقِّ الإخوان بخصوص تنظيمات سرية تكتشف ما بين الحين والحين؟

ولكي أجيب عن هذا السؤال أود أنْ أسجل هنا خلاصة لقاء تم بيني وبين ضابط مهم مســـؤول عن الإخوان في أمن الدولة، زارني في بيتي بالقاهرة، في صيف ســـنة ١٩٩٥م وكان لقاؤه معي غاية في الأدب، وقال لي: هل عندك مانع أنْ أوجِّه إليك بعض الأسئلة لأسمع إجابتك عنها؟

قلت له: لا مانع قط، أنا رجـــل من مهمتي أنْ أتلقى أســـئلة النَّاس وأجيب عنها.

قال: ما رأيك في المحاكمات العســـكريَّة؟ والأحكام الَّتي صدرت فيها؟

قلت: هل تريد رأيي بصراحة.

قال: نعم.

(١) الإخوان المسلمون، بتاريخ ٣٠ من ذي القعدة ١٤١٥هـ ـ ٣٠ من إبريل ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

قلت: الأحكام العسكريَّة كانت قاسية، بل شديدة القسوة، على أناس لم يقترفوا جرمًا، ولم يمارسوا عنفًا. فمن المعلوم لديكم أنَّ الإخوان منذ خرجوا من سجون عبد الناصر إلى اليوم، لم يثبت في حقِّهم أنَّهم استخدموا العنف أو شاركوا فيه، ولا لمرة واحد.

بل أنتم ـ ولا شك ـ تعلمون الصدامات الَّتي وقعت بين شباب الإخوان في الصعيد وشباب جماعة الجهاد. حيث يتهمون الإخوان بالتخلي عن مبدأ «الجهاد» والمهادنة للسلطة، والاستسلام للطواغيت، إلخ.

قال: ولكن لا يزال في الإخوان جماعات تتدرب على السلاح؟

قلت: جماعة الإخوان جماعة كبيرة، وممتدة في شرائح متنوعة من الشعب، ولا يبعد أنْ يوجد فيها عشرة أو عشرون يفكرون مثل هذا التفكير إن صحَّ ذلك، وأنا أحكم على المجموع لا على الجميع، والمهم هو الاتجاه العام في الجماعة، الَّذي تقوم عليه التربية والثقافة والتوجيه العام. وقد كان الإخوان قديمًا يحتاجون إلى هذا النوع من التدريب العسكري حين لم يكن هناك تجنيد إجباري، أما في عصر التجنيد الإجباري فكل المصريين يدخلون الجيش، فلا حاجة لمثل هذا التدريب.

ثم عاد الحديث إلى الأحكام العسكريَّة. وقلت له فيما قلت: ولماذا المحاكمات العسكريَّة لأناس مدنيين ليس فيهم عسكري واحد؟ ثمَّ هم لم يمارسوا أيَّ عمليات عسكريَّة ولم يتَّجهوا إلى العنف أو يجيزوه بوجه من الوجوه، فيما أعلم عنهم، أو عمن أعرفه منهم على الأقل.

أعرف من الدفعة الأولى الدكتور عصام العريان، أعرفه منذ كان طالبًا في كليَّة الطب، وكان أميرًا للجماعة الإسلاميَّة، وقد كان حريصًا على أنْ ينتقل بالطلاب من الغلو والتشدُّد إلى الوسطية، وكان يستعين بي

QaradawiBooks.com

وبشيخنا الغزالي على ذلك. وأعرفه بعد أنْ نضج وأصبح وجهًا إسلاميًّا مصريًّا مشـرِّفًا، له حضور واضح في المؤتمرات والنـدوات الَّتي تعقد داخل مصر وخارجها. ومـاذا ارتكب عصام العريـان حتَّى يحكم عليه بخمس سنوات؟

وأعرف من الدفعة الثانية: الدكتور عبد الحميد الغزالي، وهو أسـتاذ متخصص في الاقتصاد الإسلامي، ومدير لمعهد البحوث والتدريب في البنك الإسـلامي للتنمية، وقد جمعتني به حلقات وندوات ومؤتمرات خاصَّة بالاقتصاد الإسـلامي، وهو يعيش بجدة منذ سنوات، وليس من نشطاء الإخوان.

قال: ولكنَّه صار من نشطاء الإخوان بعد أنْ توفيت زوجته.

قلت: هو لحق! إنَّه عاد من جدة منذ عدَّة أشهر فقط.

قال: ولكن الإخوان يقيمون تنظيمات مخالفة للقانون؟

قلت له: سأسـلِّم معك بما تقـول. ولكن لماذا تلجئـون الإخوان لمخالفة القانون؟

أنتم تعلمون أنَّ الإخـوان جماعة موجودة بالفعـل، وتنمو وتتكاثر ككل كائن حي، فلماذا لا تسمحون لها بالوجود القانوني؟ أنتم سمحتم بذلك للشـيوعيين والناصريين والقوميين وسـائر الفئات، إلَّا الإخوان، أليس الإخوان مصريين؟ أهم مسـتوردون من خارج تراب الوطن أم هم جزء منه؟

إنَّ الصواب في ذلك: أنْ يسمح للإخوان بالعمل علانية فوق الأرض، وتحت سـمع الدولة وبصرها، وبإذن من القانون، بدل أنْ تلجئهم إلى

QaradawiBooks.com

العمل تحت الأرض. فهذا من حقهم بوصفهم مصريين، والتزامهم بالدين وبالإسلام لا يجوز أنْ يكون سببًا في حرمانهم من ممارسة حقوقهم المشروعة.

ثم قلت: وقد كان الإخوان موجودين بالفعل منذ عهد الرئيس الراحل السادات، وكان الأستاذ التلمساني، يُدعى في الاجتماعات المختلفة باعتباره مرشدًا للإخوان!

قال: ولكن الأستاذ التلمساني، كان عنصرًا ملطفًا بطبيعته الهادئة، وشخصيته الطيبة، ثمَّ لم يكن التنظيم محكمًا كما هو محكم اليوم.

قلت: الَّذي أراه مخلصًا: أنَّ علاج هذا كله يكمن في الاعتراف بالإخوان كجماعة لها كيانها وأهدافها ونشاطها في حدود النظام العام والقانون.

ونحن أحوج ما نكون إلى تجميع كل القوى، وتوحيد صفوف الأُمَّة للبناء، والتنمية والرقي بوطننا بعيدًا عن التوترات والصراعات.

أنا أقول هذا بوصفي مصريًّا مسلمًا، يحب الخير لوطنه، والإعزاز لدينه، وقد علَّمتني رحلاتي المختلفة إلى أقطار العالم: أنَّ مصر من أرجى بلاد الله لنصرة الإسلام، إن لم تكن أرجاها جميعًا.

أنا أقول لك هذا بصراحةِ العالِم، لا بمناورة السياسي، وأنا ليس لي أي وضع تنظيمي في الإخوان!

قال: نحن نعلم أنَّه ليس لك أي وضع تنظيمي في الإخوان داخل مصر، ولكن في التنظيم العالمي ألا يوجد لك مشاركة فيه؟

قلت: كان لي مشاركة من قبل، ثمَّ استعفيت منذ سنين، لأتفرغ لخدمة الإسلام بالعلم والفكر والدعوة، وأعتبر نفسي ملك المسلمين

QaradawiBooks.com

جميعًا، لا ملك الإخوان وحدهم. وهذا لا يعني أنِّي أتنكَّر لفكر الإخوان أو لدعوتهم، وهم قد يعتبروننني منظِّرهـــم أو مفتيهم، كما أنَّ كتبي تعدُّ من مراجعهم الأولية، وهم أوَّل النَّاس قراءة لها.

وهناك أسئلة أخرى جرت في هذه المقابلة، لا تهمنا هنا، إنَّما الَّذي يهمنا هو التعليق على الأحكام العسكريَّة.

وبعد أكثر من ســاعة، انتهت المقابلة، وانصرف الضابط المسؤول مشــكورًا، ولم أعرف الهدف من وراء المقابلة، ولعله مجرد التعرف أو التعارف، المهم أنِّي قلت ما أعتقد أنَّه الحق، وبالله التوفيق.

شهادة كاتب منصف:

وقبل أنْ أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة، قرأت مقالًا يعتبر غاية في العلميَّة والإنصاف، يتحدث عن حســن البنَّا بمناسبة مضيِّ خمسين سنة على استشهاده، وهو للكاتب الصحفي المعروف، الأستاذ صلاح عيسى، والرجل لا يتهم بالتحيز للإخوان المســلمين، ولا للتيار الإسلامي، بل هو محسوب على الفكر اليســاري، ولكنَّه كتب ما كتب، إحقاقًا للحقِّ، وإبراءً للذمة، وإنصافًا للحقيقة والتاريخ.

نشرت هذا المقال جريدة «الشرق» اليوميَّة القطرية (يوم الأحد ١٩ من ذي القعدة ١٤١٩هـ ٧ مارس ١٩٩٩م) تحت عنوان: حســن البنَّا.. لا عنف ولا تزمت.

ويســرني أنْ أســجِّل هذا المقال وهذه الشــهادة العادلة هنا، محيِّيًا صاحبها على حياده ونزاهته وعلميته. يقول الكاتب: «الذين يضعون فأس اتجاهات التيارات الإســلاميَّة في مصر والعالم العربي نحو التزمت ثمَّ

QaradawiBooks.com

العنف، في عنق الشيخ «حسن البنَّا» مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الَّذي غاب عن دنيانا في مثل هذه الأيام منذ خمسين عامًا، يسيئون عن عمدٍ قراءة وقائع التاريخ، ويقحمونه في الصراع السياسي القائم الآن، بينهم وبين التيار الإسلامي بمجمل فصائله، فلا يسيئون ـ بوضعهم الجميع في سلة واحدة ـ لوقائع التاريخ فحسب، ولكنَّهم ـ وهذا هو الأخطر ـ يؤجِّجون نيران العنف، حيث يتوهمون أنَّهم سيقضون عليه، ويقودون الأُمَّة إلى صراع عبثي لا جدوى من ورائه، يتوهم خلاله، كل تيار من تياراته الرئيسية في الحركة السياسيَّة العربيَّة، أنَّ باستطاعته استئصال الآخرين، وبذلك تطيش خطواتها نحو المستقبل في الألفية الثالثة، كما طاشت في الألفية الثانية.

وما يتجاهله الَّذين يحمِّلون «الشيخ حسن البنَّا» المسؤوليَّة عن نشأة تيار العنف، هو أنَّ تشكيل المنظمات شبه العسكريَّة كان موضة لدى كل التيارات السياسيَّة في الثلاثينيات في إطار النتائج الإيجابيَّة الَّتي حققتها نظم الحكم في ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية، الَّتي نجحت استنادًا إلى عسكرة المجتمع، في استعادة ما أضاعته الحرب العالميَّة الأولى من حقوق البلدين الوطنيَّة، وأنَّ فرق الجوالة الَّتي أنشأها «البنَّا» وعرفت بفرق القمصان الكاكية، لم تكن الوحيدة في الساحة، فقد كانت هناك «فرق القمصان الخضراء» الَّتي شكلتها جماعة «مصر الفتاة» وكان من أعضائها «جمال عبد الناصر»، بل إنَّ «الوفد» وهو الحزب الديمقراطي العتيد قد شكل هو الآخر «فرق القمصان الزرقاء»، وكل الشواهد التاريخيَّة تُؤكِّد أنَّ «جوالة الإخوان» كانت أكثر هذه الفرق انضباطًا، سواء من الناحية الأخلاقيَّة أو من ناحية الالتزام بالقانون.

QaradawiBooks.com

ومما يتجاهلونه كذلك أنَّ الإخوان المسلمين، لم يكونوا هم الَّذين بدؤوا باستخدام الرصاص في الحوار السياسي مع القوى السياسيَّة المحلية، فقد كان أوَّل استخدام له في هذا الاتجاه عام ١٩٢٢م وقبل ست سنوات من تشكيلهم، عندما اغتال مجهولون يشك في أنَّهم من المتعاطفين مع «الوفد» اثنين من زعماء «الأحرار» الدستوريين إبان الصراع العنيف بين الطرفين. كما أنَّ أحدًا من الإخوان المسلمين، لم يشارك في محاولات الاغتيال الَّتي تعرض لها «إسماعيل صدقي» وأركان الانقلاب الديكتاتوري الَّذي تزعمه طوال النصف الأوَّل من الثلاثينيات، وكان أحد أعضاء «مصر الفتاة» هو الَّذي حاول اغتيال «مصطفى النحاس» عام ١٩٣٧م.

ولم يكن استخدام العنف ضدَّ الاحتلال البريطاني في الأربعينات، قاصرًا على الإخوان، فباستثناء الشيوعيين الَّذين لا يؤمنون ـ من حيث المبدأ ـ بالعنف الفردي، فقد كان اللجوء للعنف لإجبار المحتلين على الجلاء أو على الأقل، تنفيذ معاهدة ١٩٣٦م، والرحيل عن المدن الكبرى إلى قاعدة قناة السويس، يكاد يكون توجُّهًا عامًّا، بين التيارات السياسيَّة الجديدة، كالحزب الوطني الجديد، ومصر الفتاة، فضلًا عن كثير من المنظَّمات السرية الشبابية الَّتي استلهمت تجارب المقاومة السرية ضدَّ الاحتلال النازي لدول أوربا، وخاصة فرنسا، بل إنَّ هذه الموجة قد شملت كذلك قواعد شبابية تنتمي إلى الأحزاب التقليدية ومنها «الوفد».

ولم يكن الإخوان وحدهم، هم الَّذين غيروا في النصف الثاني من الأربعينات اتجاه رصاصاتهم من صدور جنود جيش الاحتلال إلى صدور المصريين، فالذي قتل أحمد ماهر أوَّل ضحية تسقط نتيجة لهذا

QaradawiBooks.com

التغيير لم يكن إخوانيًّا، بل كان من المنتمين لشباب الحزب الوطني ولم يكونوا أصحـــاب نظرية هذا التوجـــه، لأنَّ صاحبها هـــو ضابط الجيش المفصول آنذاك «أنور الســـادات» الَّذي تعرَّف إلى مجموعة من الشُّبَّان يتزعمهم «حسين توفيق» كانوا يقومون بعمليات مقاومة سرية ضدَّ ضباط وجنود ومؤسسات جيش الاحتلال ويمكنون له، انطلاقًا من تصور يرى، أنَّ تطهير البلاد من عملاء الاحتلال وجواسيســـه، هـــو المقدمة الأولى للانتصار عليه. وهو التيار الَّذي تواءم مع سعي القصر الملكي للثأر من خصومه من الوفديين وأســـفر عن اغتيال أمين عثمـــان، وعن محاولتين لاغتيال مصطفى النحاس زعيم الوفد.

وليس «حسن البنَّا» هو الَّذي أسس تيار التزمت في الفكر الإسلامي، إذ الحقيقة أنَّ هذا التيار قد تأسس ضدَّه ونشأ متمردًا على قيادته، وكان وراء أوَّل انشـــقاق عن جماعته أســـفر عام ١٩٣٧م عن تشـــكيل «جماعة شباب محمد» الَّتي اتَّهمته بالقعود عن الجهاد، وبالاكتفاء بمساندة ثوار فلسطين الَّذين يجاهدون ضدَّ الصهيونية بالكلمات وليس بالقتال الفعلي، وبمهادنة القوى الَّتي تماطل فـــي تطبيق الشـــريعة وبالتواطؤ مع الَّذين لا يحكمون بما أنزل الله، وطالبته بالتخلي عـــن قيادة الدعوة، أو اتخاذ موقف جهادي واضح، يجابه الحكومة بأنَّهـــا كافرة، ويقاوم المنكر في المجتمع بالعنف. وكانت «مصر الفتاة» في سياق التنافس مع «الإخوان» هي الَّتي ارتادت على الصعيد الحركي، طريق مقاومة المنكر باليد، حين قام أنصارها عام ١٩٣٩م بالهجوم على الحانات لتحطيمها والاعتداء على روَّادها، وفي المرَّتين قاوم «البنَّا» هـــذا الاتجاه، وأعلن أنَّه ضدَّ الخروج عن القوانين مهما كان رأيه في درجة إسلاميتها.

QaradawiBooks.com

والذين يضعون فأس المسؤوليَّة عن العنف الديني الَّذي تفشَّى منذ ذلك الحين في أنحاء مختلفة من المنطقة العربيَّة، في رقبة «حسن البنَّا» يتجاهلون أنَّ المسؤول الأوَّل عن ذلك، هم الَّذين شجعوا بل تآمروا على إقامة دولة دينيَّة في المنطقة عن طريق العنف، والذين سعوا إلى ذلك عن طريق هجرة استيطانية، تحوَّلت إلى أحزاب سياسيَّة صهيونية علنية، لكل منها جناح عسكري سري، تتعاون جميعها في ممارسة العنف ضدَّ أصحاب البلاد الأصليين، من المسلمين والمسيحيين، لكي تطردهم منها وتحل محلهم.

وكان ذلك هو التحدي الَّذي استجاب له «البنَّا» فاتبع نفس الطريقة ولكن لهدف مضاد، وشرع ـ بمشورة المجاهدين الفلسطينيين ـ في تشكيل الجهاز الخاص للإخوان المسلمين، ليكون بمثابة جناح عسكري للجماعة، يجند طاقات الشُّبَّان الأكثر حماسًا واستعدادًا للتضحية، من خلال دراسات فقهيَّة حول نظرية الجهاد في الفقه الإسلامي، وبرامج للتدريب العسكري للأسلحة والمتفجرات، لكي يكونوا مؤهَّلين لمواجهة الغزو الصهيوني والاحتلال الأجنبي لبلاد المسلمين، وبصرف النظر عن مدى صواب ذلك أو عدم صوابه، فإنَّ المسؤول عن نشوء العنف الديني في المنطقة، ليس صاحب «رد الفعل» ولكنَّه صاحب «الفعل» الَّذي يملأ الدنيا الآن في بلاد الغرب صراخًا ضدَّ هذا النوع من العنف.

والشواهد التاريخيَّة تؤكد أنَّ معظم عمليات العنف الَّتي قام بها الجهاز الخاص أو تلك الَّتي قام بها قسم الوحدات الَّذي يضم ضباط الجيش وجنوده وضباط الشرطة من الإخوان ظلت في إطار الهدف الَّذي أنشئ من أجله الجهازان، وفي السياق نفسه لعمليات مشابهة، قام بها أعضاء من فرق سياسيَّة أخرى، سواء بصفتهم الحزبيَّة أو الشخصيَّة، إذ توجهت في الأساس تجاه جنود ومؤسسات جيش الاحتلال، ثمَّ بعد

QaradawiBooks.com

ذلك وحين تعقَّد الوضع بين الفلسطينيين والصهاينة في أعقاب صدور قرار التقسيم. توجَّهت ضدَّ الممتلكات اليهوديَّة ومع أنَّ تحفظًا قد يرد على عمليات من نوع نسف حارة اليهود، أو محلات مثل «شيكوريل» و«أوركو» فإنَّ الفظائع الَّتي كان يرتكبها الصهاينة ضدَّ الفلسطينيين، تجعل وقوعها أمرًا واردًا، وفضلًا عن ذلك فقد تطوَّع عدد كبير من أعضاء القسمين، ضمن أفواج المتطوعين العرب، الَّتي دخلت أرض فلسطين، قبل أنْ تدخلها الجيوش العربيَّة رسميًّا في ١٥ مايو ١٩٤٨م.

لكن الجهاز الخاص الَّذي كان قسمًا ذا استقلال شبه ذاتي، له قيادته التنفيذية وتشكيلاته الخاصَّة ولوائحه المستقلة، ولا يربطه عمليًّا بالجماعة سوى مجلس من المستشارين، ورئاسة «حسن البنَّا» ما لبث ـ بعد أنْ اتسعت عضويته، وتعاظم نفوذه ـ أن بدأ ينحو نحو مزيد من الاستقلال، ونشأ لدى بعض قيادته وخاصة «عبد الرحمٰن السندي» نزوع للانفراد باتخاذ القرار، تذرعًا بأنَّ ضرورات التنفيذ، تبيح محظور عدم استشارة المرشد العام.

ومن الإنصاف للرجل، أنْ نقول بأنَّ عمليات العنف الَّتي قام بها الجهاز الخاص، ضدَّ مصريين ـ في حياته ـ لا تتجاوز ثلاثة، هي قتل القاضي «أحمد الخازندار» بسبب أحكام قاسية أصدرها بحق بعض الَّذين قاموا بأعمال عنف ضدَّ قوات الاحتلال، من أعضاء الجهاز ومن غيرهم، واغتيال رئيس الحكومة محمود فهمي النقراشي، ردًّا على قراره بحل جماعة الإخوان ومصادرة ممتلكاتها واعتقال قاداتها، وأخيرًا محاولة نسف محكمة الاستئناف، لإحراق الأوراق السرية للجهاز الخاص، الَّتي كانت قد ضبطت في سيارة جيب لتدمير أدلة الاتهام ضدَّ قياداته وتأمين من لم يقع في أيدي الشرطة من أعضائه.

QaradawiBooks.com

ولم يكن «البنَّا» طرفًا في هذه العمليات الثلاث، فقد نفذت أولاها دون علمه، وغضب غضبًا شديدًا لوقوعها، ونفذت الثانية والثالثة بعد حلِّ الجماعة، وتفكك روابطها التنظيمية، بسبب اعتقال قادتها ومطاردة الآخرين، ووضعه هو نفسه تحت رقابة بوليسية صارمة، حالت بين الَّذين خططوا لهما وبين عرض الأمر عليه، وحالت بينه وبين الاعتراض على التنفيذ، بل إنَّه اعتبر أنَّ الرصاصات الَّتي وجهت إلى «النقراشي» قد أصابته هو نفسه، ونظر إلى محاولة نسف محكمة الاستئناف باعتبارها تحديًا له، إذ كان يجري مباحثات سياسيَّة، لكي يلغى قرار الحل، أبدى خلالها مرونة سياسيَّة وصلت إلى حدٍّ أبدى فيه استعداده، لأنْ يقصر نشاطها على الجانب الديني وحده، ويتوقف عن التدخل في الشؤون السياسيَّة.

ولم يكن استقلال الجهاز السرِّي للإخوان برؤاه وعملياته، بعيدًا عن القوانين العامَّة لهذا النوع من الأجهزة، بل إنَّه يكاد يكون تكرارًا لتجربة الجهاز السري لثورة ١٩١٩م الَّذي نشأ للقيام بعمليات عنف محسوبة ضدَّ الاحتلال، ومع أنَّ الثورة كانت قد حقَّقت أهدافها، فأُعلن الاستقلال ثمَّ الدستور، وتولَّى زعيمها سعد زغلول رئاسة الوزارة، فقد قامت مجموعة منه، باغتيال القائد البريطاني للجيش المصري، وحاكم السودان العام، فكانت النتيجة استقالة وزارة سعد، وسحب الجيش المصري من السودان وتعطيل الدستور.

والحقيقة أنَّ انشغال «البنَّا» بالحشد والتحريك والتنظيم على حساب ما كان محتَّمًا ألَّا يتأخر في القيام به، وهو صيغة فقه إسلامي يستجيب لحاجات العصر، وخاصة ما يتعلق بالمسألة السياسيَّة، لم يؤدِّ فقط، إلى

QaradawiBooks.com

المخاوف الَّتي أشاعها هذا الحشـد في نفوس بقية الفرقاء على الساحة الاجتماعيَّة والسياسـيَّة المحلية والدوليَّة، ولم يسـفر عن تعدُّد الرؤى داخل جماعته، بل انعكس كذلك داخل الجهاز الخاص، الَّذي قام بهذه العمليات الثلاث، استنادًا إلى اجتهاد خاص ببعض أعضائه لم ينظر إلى الإخوان المسـلمين كمـا كان البنَّا ينظـر إليها باعتبارهـا «جماعة من المسلمين» يجوز الخلاف معها، بل نظر إليها باعتبارها جماعة المسلمين الَّتي يتوجب حمل السلاح في وجه من يختلف معها.

ومن سوء الحظ التاريخي أنَّ الَّذين توجَّهت إليهم رصاصات الجهاز الخاص للإخوان، اسـتنادًا إلى هذا الاجتهاد الخاطـئ، لم يميزوا بين الرجل، وبين الَّذين أسـاؤوا فهـم أفكاره، ووضعوها في سـلة واحدة، فاغتالوه، وفي ظنِّهـم أنَّهم يقضون على العنف، فإذا بهم يشـعلونه في الأرض، إذ المؤكد أنَّه لولا غياب حسن البنَّا، لتغيَّر وجه النصف الثاني من القرن العشرين عما صار إليه، ولاختلف استقبالنا للألفية الثالثة عما نحن فيه». انتهى مقال الكاتب صلاح عيسى بنصِّه، لم أحذف منه حرفًا.

وقد حلَّل فيه الأحداث تحليلًا علميًّا سليمًا، دلَّ على علمه بالتاريخ، ووعيه به، ومعرفته بمـا وراء الحوادث من بواعـث، وما يؤثر فيها من تيارات وأوضاع. لقد نظر إلى الأحداث في حجمها الحقيقي، لم يحاول أنْ يكبر الصغير أو يُهوِّن الكبير، وربطها بمقدماتها ولواحقها، ووضعها في سياقها التاريخي المحلي والعالمي، فجاءت شهادته ـ والحق يقال ـ غاية في تحرِّي الحقيقة، والدقة العلميَّة، والنظرة المستوعبة، والإنصاف، في زمن قلَّ فيه المنصفون!

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥

الإخوان وإقامة الدولة المسلمة

بعض المعترضين على الإخوان يواجههم بسؤال محرج، يقول: لقد مرَّ عليكم سبعون عامًا، وأنتم تنادون بإقامة دولة إسلاميَّة، تحقِّق حكم الله في الأرض، وتمكِّن لدينه في حياة الناس، تبني المجتمع المسلم المنشود، الَّذي يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، دولة ترجع إلى الكتاب، وتستخدم الحديد والميزان، ليقوم النَّاس بالقسط، ومع هذا لم تقيموا هذه الدولة الَّتي سعيتم إليها وناديتم بها؟

ألا يدلُّ هذا على أنَّ طريقتكم خاطئة؟ أو أنَّ أهدافكم مستحيلة التحقيق؟

والجواب: أنَّ هذا السؤال فيه كثير من الخلل والخطل من عدَّة أوجه:

الدولة ليست هي الهدف الأوحد:

الوجه الأول: أنَّ إقامة الدولة المسلمة هدف أصيل، وأمل منشود، ولكنَّه ليس الهدف الأوحد، بحيث تقول: إنَّ الحركة كان لها هدف سعت إليه، ولم تُحقِّقه.

إذ الواقع أنَّ للحركة جملة أهداف دعت إليها، وحرصت عليها، وجاهدت لتحقيقها، فحقَّقت بعضها، ولم تحقق بعضًا آخر.

غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

فقد أعلن مؤسس الدعوة أنَّه يسعى لإيجاد: الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والأُمَّة المسلمة.

وقد نقلنا من الإمام البنَّا في رسالته إلى الشباب:

١ ـ **نريد أولًا**: الفرد المسلم، في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، فهذا هو تكويننا الفردي.

٢ ـ **ونريد بعد ذلك**: البيت المسلم، في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه، ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسري.

٣ ـ **ونريد بعد ذلك**: الشعب المسلم، في ذلك كله أيضًا، ونحن لهذا نعمل على أنْ تصل دعوتنا إلى كل بيت، وأن يُسمع صوتنا في كل مكان، وأن تُنتشر فكرتنا، وتتغلغل في القرى والنجوع، والمدن والمراكز، والحواضر والأمصار، لا نألو في ذلك جهدًا، ولا نترك وسيلة.

٤ ـ **ونريد بعد ذلك**: الحكومة المسلمة الَّتي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به النَّاس على هدي الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ من قبل. ونحن بهذا لا نعترف بأيِّ نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمدُّ منه.

٥ ـ **ونريد بعد ذلك**: أنْ نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي، الَّذي فرَّقته السياسة الغربيَّة، وأضاعت وحدتَه المطامع الأوربيَّة، ونحن بهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسيَّة، الَّتي تجعل من الوطن الإسلامي دويلات ضعيفة ممزَّقة يسهل ابتلاعها على الغاصبين.

QaradawiBooks.com

ولا نزاع في أنَّ الإخوان قد حقَّقوا ـ إلى حدٍّ كبير ـ بعض هذه الأهداف، بالنظر إلى تكوين الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم.

ولا يشكُّ منصف في تأثير الحركة الإسلاميَّة في تغير الأفكار والمشاعر والسلوك، لدى الكثير ممَّن كانوا قد استسلموا لتيار الحضارة الغربيَّة الزاحف، وساروا وراءها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وظهر أثر ذلك في الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.

والحكومة الإسلاميَّة لم تقم بالفعل في مصر، ولكن تهيَّأ الرأي العام لها تهيُّؤًا كبيرًا، بحيث لو ترك النَّاس أحرارًا ليختاروا لأنفسهم لاختاروا الإسلام ومُمثِّليه، كما ظهر ذلك بوضوح في الجزائر، وكما ظهر في مصر انتخابات النقابات المهنية، واتحادات الطلاب الجامعية، وانتخابات نوادي هيئات التدريس بالجامعات.

والأُمَّة الإسلاميَّة الواحدة لم تقم بالفعل، ولكن وجدت هذه الأُمَّة في عقول الكثيرين من المسلمين ومشاعرهم، كما بيَّنت ذلك في كتيب لنا بحق: «الأُمَّة الإسلاميَّة حقيقة لا وهم».

قيام حكومات إسلاميَّة:

٢ ـ على أنَّنا ينبغي ألَّا ننسى أنَّ هناك حكومة إسلاميَّة قامت ـ على أساس المذهب الشيعي ـ في إيران، وحكومة أخرى قامت على أساس المذهب السنِّي ـ في السودان. وتأثير الحركة الإسلاميَّة في إقامة هاتين الحكومتين لا ينكر، حتَّى حكومة إيران الشعبيَّة، فقد تأثَّروا بفكر الإخوان.

وقام في فترة من الزمن حكم إسلامي جزئي في الأردن، ومثله في اليمن، ومثله في تركيا، ولو كان الأمر بيد الشعوب الإسلاميَّة، تقضي

QaradawiBooks.com

أمرها بنفسها، وتختار لنفسها ما تريد، ومن تريد ما اختارت إلَّا الإسلام، ولكن القوى الغالبة على أمر المسلمين لا تمكِّنهم من ذلك، ولا تمنحهم الفرصة لذلك أبدًا، وبهذا أصبحوا كما قال الشاعر قديمًا في قبيلة تيم:

ويقضـــى الأمر حيـــن تغيب تيم ولا يســـتأذنون وهـــم شـــهود[1]!

الدولة المسلمة مسؤولية الجميع:

٣ ـ علـــى أنَّ عدم إقامة الحكومة المســـلمة أو الدولة المســـلمة، ليس مسؤولية الإخوان وحدهم، فهذا الأمر فريضة على كل المسلمين: أنْ تقودهم حكومة مسلمة تحكم بما أنزل الله، ولا تتَّبع الهوى فيضلَّها عن سبيل الله.

ويجب أنْ يسأل الجميع أنفســـهم: ماذا قدَّمنا لإقامة دولة الإسلام، فليس يكفي أنْ يسأل المسلمون الإخوان: لماذا لم يقيموا دولة الإسلام الَّتي دعوا إليها؟ فقد يجيبهم الإخوان: ومـــاذا عملتم أو بذلتم لنا حتَّى نقيمها معًا؟!

وأذكر أنَّ الداعية الشـــهير ســـعيد رمضان رَحِمَهُ اللَّهُ، ألقى محاضرة في إحدى المدن قديمًا، فســـأله بعدها أحد الحضور: يا أســـتاذ، صار لكم عشرون سنة وأنتم تخطبون وتتكلمون فماذا عملتم؟

وكان جواب الداعية الموفَّق: وأنتم صار لكم عشـــرون ســـنة وأنتم تسمعون، فماذا عملتم؟!

إنَّ الســـامع شـــريك المتكلم في تحمل التَّبِعة، وإنَّ المدعو شريك الداعي في المسؤوليَّة.

---

(١) البيت لجرير. انظر: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (٣٣٢/١)، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، نشر دار المعارف، القاهرة، ط١.

QaradawiBooks.com

بذر البذرة أم قطف الثمرة؟

بقي هنا أمر مهمٌّ، بل في غاية الأهمية، هو: أنَّ المطلوب من المسلم والواجب عليه شرعًا: أنْ يسعى لإقامة دولة الإسلام، وحكم الإسلام، حتَّى يكون للمسلمين إمام يقود أُمَّتهم، ويجسِّد وحدتهم، ويحكم شريعتهم، فرارًا من أنْ يموتوا «ميتة جاهليَّة» وهو ما حذَّر منه رسول الإسلام حين قال: «**من مات وليس في عنقه بيعة، فقد مات ميتة جاهليَّة**»[١]. وينجي المسلم من الإثم هنا: أنْ يسعى مع الساعين لإيجاد هذا الإمام.

والإنسان يملك أنْ يسعى ويجهد، ولكنَّه لا يملك أنْ يكلل سعيه بالنجاح، وهذا ما قاله النَّاس من قديم، وتحدَّث عن الشعراء، كما قال القائل:

عليَّ السعي فيما فيه نفعي وليس عليَّ إدراك النجاح[٢]!

ولقد ناقشت بعض الإخوة من حزب التحرير سنة ١٩٥٢م حين زرت الأردن لأول مرة، وقد كانوا يتبنَّون فكرة: أنَّ أي دعوة أو حركة تعمل لإقامة الدولة الإسلاميَّة، ثمَّ يمضي عليها ٢٣ سنة (وبعضهم قال: ١٣ سنة) ولا تحقق هدفها، لا بدَّ أنْ يكون طريقها خطأ.

قلت لهؤلاء الإخوة: ما قولكم في سيِّدنا نوح؟ قالوا: رسول من أولي العزم من الرسل، قلت: وما رأيكم في دعوته؟ قالوا: دعوة حق وخير وهدى. قلت: وما رأيكم في أسلوبه وطريقته؟ قالوا: أسلوب بليغ متميز،

(١) سبق تخريجه صـ٢٠١.

(٢) ينسب إلى كشاجم. انظر: محاضرات الأدباء (٣٥/١)، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

قلت: ولكن نوحًا عليه السلام ظلَّ ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، يدعو قومه، فلم يستجيبوا له، وسجَّل ذلك القرآن حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

ورغم مرور نحو ثلاثين جيلًا عليه ما آمن معه إلَّا قليل، حتَّى امرأته وابنه لم يؤمنا به، ولا غرو أنْ دعا على قومه قائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

إنَّ الداعية عليه أنْ يبذر البذرة، ويتعهَّدها بالسقي والتسميد والرعاية، ولكن قد تحول حوائل سماوية أو قدرية أو بشرية دون نضج الثمرة أو قطف الثمرة، فهو يبذر الحَبَّ، ويرجو الثمار من الرب.

إنَّ الله تعالى لن يسأل عباده يوم الحساب: لماذا لم تنجحوا؟ ولماذا لم تنتصروا؟ ولكنَّه سبحانه سيسألهم: لماذا لم تعملوا؟ لماذا لم تجاهدوا؟ ولماذا لم تحاولوا؟

فإذا عملوا وجاهدوا وحاولوا فقد ارتفع الإثم عنهم، إذ لا يُكلِّف الله نفسًا إلَّا وُسْعها.

وهنا يقول الأستاذ البنَّا: إنَّ العامل يعمل لأداء الواجب أولًا، ثمَّ للأجر الأخروي ثانيًا، ثمَّ للإفادة (أي تحقيق الهدف في الدنيا) ثالثًا.

وهو إنْ عمل، فقد أدَّى الواجب، وفاز بثواب الله، ما في ذلك من شك، متى توافرت شروطه، وبقيت الإفادة، وأمرها إلى الله، فقد تأتي فرصة لم تكن في حسبانه تجعل عمله يأتي بأبرك الثمرات، على حين

QaradawiBooks.com

أنَّه إذا قعد عن العمل، فقد لزمه إثم التقصير، وضاع منه أجر الجهاد، وحُرم الإفادة قطعًا، فأيُّ الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا، وقد أشار القرآن إلى ذلك في صراحة ووضوح: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُم عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥][1].

* * *

(١) رسالة إلى أي شيء ندعو الناس ضمن مجموعة الرسائل صـ ٥٤.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٦

الإخوان والمشروع الحضاري

ومن التُّهم الَّتي وجِّهت إلى الإخوان: أنَّه ليس لديهم «مشروع حضاري» متميِّز، يُقدِّمونه للناس، ويحلون به المشكلات المعقدة للمجتمعات الَّتي نشؤوا فيها. إنَّما كل ما عندهم مبادئ عامَّة وأفكار «هلامية» وبيانات عاطفية، تهز المشاعر، ولا تعالج المشاكل.

عند الإخوان خاصَّة ـ وعند التيار الإسلامي عامَّة ـ خطب ومحاضرات، ورسائل ومقالات، وكتب ومطبوعات، تشرح بعض جوانب من الإسلام، وربَّما كان شرح بعضها جيدًا أو ممتازًا، ولكنَّها لا تُقدِّم مشروعًا متكاملًا للنهضة والإصلاح والتجديد الحضاري، وبناء الأُمَّة من جديد، على أسس واضحة، وركائز معلومة، تقتنع بها العقول، قبل أنْ تستثار بها العواطف!

وربما خُدع بعض النَّاس بهذا الكلام، وتصوروا أنَّ الإخوان لم يقدموا «مشروعًا» للناس.

والواقع أنَّ الإخوان قدَّموا مشروعًا متكاملًا للناس في مضمونه، وإنْ لم يكن متكاملًا في شكله وصورته.

وهذا كما يقال: إنَّ الإسلام ليس لديه نظرية سياسيَّة، أو نظرية اقتصاديَّة، وهذا قد يكون مسلَّمًا بالنسبة للشكل، فليس في التراث

QaradawiBooks.com

الإسلامي شيء اسمه «النظرية السياسيَّة» أو «النظرية الاقتصاديَّة»، ولكن مادة هذه النظرية وتلك موجودة في تعاليم الإسلام وأحكامه، ومبثوثة في مصادره ومراجعه.

غير مرخصة للطباعة

دعائم المشروع الحضاري للإخوان:

مشروع الإخوان الحضاري موجود في مصادرهم، وهو يقوم على جملة دعائم:

١ ـ الإيمان بالمرجعيَّة العليا للإسلام المجسَّدة في القرآن والسُّنَّة في بناء حياتنا كلها، ثقافيَّة وتربويَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة.

٢ ـ الدعوة إلى تجديد الدين وإلى الاجتهاد في فهمه، لمن يملك شروطه، وفي مجال الاجتهاد، والنظر إلى الإسلام وأصوله بعين، وإلى العصر ومشكلاته بعين أخرى.

٣ ـ الاستفادة من كل المدارس الإسلاميَّة في علاج مشكلاتنا المعاصرة، وخصوصًا المدارس التجديديـة في تراثنا الفكري والفقهي، والانتفاع بإبداعاتها، والإضافة إليها.

٤ ـ رفض ما ألصق بالإسلام من أفهام خاطئة متخلِّفة، من رواسب عصور الهزيمة والتراجع الحضاري، عملًا بالقول المأثور: خذ ما صفا، ودع ما كدر.

٥ ـ الانتقاء ممَّا جاءتنا به الحضارة الغربيَّة، فلا نقبل كل ما جاءت به، ولا نرفضه، بل نأخذ منها ما ينفعنا وما يتفق مع قيمنا وشريعتنا، وندع ما يضرنا وما يخالف ديننا، ومن أهم ما نأخذ منها: الجوانب

QaradawiBooks.com

العلميَّة والتكنولوجية والإداريَّة، فاقتباس هذه الجوانب وإتقانها فريضة وضرورة. وهي في الواقع بضاعتنا تُرَدُّ إلينا.

٦ ـ المشروع للأُمَّة الإسلاميَّة كلها، ولكن مصر هي نقطة الانطلاق، لموقعها الديني والحضاري والتاريخي والجغرافي، ولأنَّها بلد الأزهر، والوطن الأم للحركة الإسلاميَّة، ولتجاوب جماهير شعبها مع الإسلام فكرًا وشعورًا وسلوكًا.

٧ ـ تقوم النهضة أوَّل ما تقوم على تحرير الوطن ـ المصري والعربي والإسلامي ـ من الاستعمار وآثاره الثقافيَّة والتشريعيَّة والتربويَّة والاجتماعيَّة، وإعادة بنائها في شتَّى نواحي الحياة.

٨ ـ أنْ تقوم فيه للإسلام دولة قوية تبْني عقيدته، وتحكِّم شريعته، وتثبِّت قيمه، دولة شورية مجدِّدة وملتزمة، تستلهم التراث، وتعايش العصر، تؤمن بالله ربًّا، وبالإنسان خليفة له في الأرض، وتؤدِّي الواجبات، وترعى الحقوق، وتصون الحريات، وتؤمِّن الحرمات، وتقوم بمهمتها في تعبئة قوى الشعب، وجمع كلمة العرب والمسلمين، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم.

٩ ـ العمل على إقامة مجتمع فاضل راق، جدير بالانتماء للإسلام، متحرِّر من الظلم والقهر والخوف، تحقَّق فيه تنمية إنسانيَّة شاملة، وعدالة اجتماعيَّة كاملة، وتكافلٌ إنسانيٌّ عميق، مجتمع يحارب الفقر والجهل، والمرض والرذيلة، ويجد فيه الجائع خبزه، والمريض دواءه، والقادر عمله، والمشرد مأواه، والمحتاج كفايته، والمظلوم عدالته، والمكبوت حريته.

١٠ ـ يهدف المشروع الإسلامي إلى توحيد أُمَّة الإسلام، كما أراد لها الله تعالى، وكما كانت في التاريخ، وكما يوجبه منطق العصر في ضرورة

QaradawiBooks.com

التكتلات الكبرى، ولكنَّه يؤمن بسُنَّة التدرج، ويرى أنَّ وحدة العرب وتحررهم وعزتهم، مقدمة ضرورية لوحدة الأُمَّة الإسلاميَّة وعزتها، فالعروبة وعاء الإسلام، والعربيَّة لسانه، والعرب هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته الأوَّلون، وفي الأثر: «**إذا ذلَّت العرب ذلَّ الإسلام**»[1].

١١ ـ يبدأ المشروع بإصلاح الفرد، وبنائه بناءً متكاملًا: روحيًّا بالعبادة وعقليًّا بالثقافة، وجسميًّا بالرياضة، وخلقيًّا بالفضيلة، مع التركيز على التغيير النفسي والعقلي، فهو أساس كل تغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. ثمَّ بناء البيت المسلم، فالمجتمع المسلم، فالأُمَّة المسلمة، في خطوات متدرجة، ومراحل مدروسة، وَفْق سنن الله في خلقه، بلا قفز على الواقع ولا إنكار للعوائق والصعوبات.

١٢ ـ يقوم المشروع الحضاري الإسلامي على التوعية والتثقيف للجماهير، وعلى التربية والتكوين للطلائع، وعلى الكفاح السلمي، والنضال الدستوري، والتلاحم مع الشعب، حتَّى تتغير الأُمَّة من داخلها، وتتحقق آمالها.

الإسلام الَّذي ندعو إليه:

وفي مناقشاتنا أو مناظراتنا مع العلمانيين في مصر، كانوا يقولون لنا: إنَّكم تدعوننا إلى الإسلام، ولكن لم نعرف بالضبط: أي إسلام تدعوننا إليه؟ إنَّكم تدعوننا إلى «ضبابية» غائمة أو معتمة، لا نرى فيها حاضرنا ولا مستقبلنا بوضوح ناصع.

(١) سبق تخريجه صـ ١٨٧.

QaradawiBooks.com

إنَّ الإسلام له صور عدَّة في بلاد عدَّة، تزعم أنَّها تطبِّقه، هل تدعوننا إلى إسلام إيران، أو إسلام باكستان، أو إسلام السودان، أو إسلام السعودية، إلخ؟

وأحيانًا ينسبون هذا الإسلام إلى أشخاص القائمين على هذه البلدان الإسلاميَّة، فيقولون: تدعوننا إلى إسلام الخميني أم إسلام ضياء الحق، أم إسلام النميري، إلخ؟

والحقُّ أنَّنا لا ندعو إلى إسلام مقيَّد ببلد أو بشخص أو بمذهب أو بعصر، نحن ندعو إلى إسلام القرآن والسُّنَّة، موصولًا بالواقع؛ مربوطًا بالزمان والمكان والإنسان، مشروحًا بلغة العصر، مفتوحًا للتجديد والاجتهاد من أهله في محله، مستلهمًا للماضي، معايشًا للحاضر، مستشرفًا للمستقبل، جامعًا بين الأصالة والمعاصرة، محافظًا في الأهداف، متطورًا في الوسائل، ثابتًا في الكليَّات، مرنًا في الجزئيَّات، مشدِّدًا في الأصول، ميسِّرًا في الفروع، رابطًا بين النصوص الجزئية، والمقاصد الكليَّة، منتفعًا بكل قديم صالح، مرحِّبًا بكل جديد نافع، موفِّقًا بين النقل الصحيح والعقل الصريح، ملتمسًا الحكمة من أيِّ وعاءٍ خرجت، ومستفيدًا العلوم من أيِّ جهة جاءت، في غير تعصُّب لرأي قديم، ولا عبوديَّة لفكر جديد.

ولم نكتفِ بهذا الإجمال، بل قدَّمنا معالم للإسلام الَّذي ندعو إليه، في عشرين أصلًا، نبيِّن الملامح، ونضع النقاط على الحروف. ويمكن للقارئ أنْ يطلع على هذه المعالم العشرين للإسلام الَّذي ندعو إليه في كتابنا «الإسلام والعلمانيَّة وجهًا لوجه».

QaradawiBooks.com

وفي دراستنا هذه قد وضَّحت مواقف الإخوان من جملة من القضايا المهمة والكبيرة، من خلال رسائل الأستاذ البنَّا وتراث الإخوان، مثل: موقف الإخوان من استخدام القوَّة، وموقفهم من الحكم، ومن الدستور، ومن القانون، ومن الأحزاب السياسيَّة، ومن الهيئات الإسلاميَّة، ومن الخلافات الدينيَّة، ومن الغربيين والحضارة الغربيَّة، وموقفهم من الوحدات الثلاث: الوحدة الوطنيَّة «المصريَّة»، والوحدة العربيَّة، والوحدة الإسلاميَّة، وموقفهم من الخلافة وعودتها، وأخيرًا: موقفهم من النزعة العالميَّة الإنسانيَّة.

لقد أزحنا الضباب الَّذي يتعمَّد البعض أنْ يلفَّ به هذه القضايا وموقف الإخوان منها، وبيَّنَّاه من مصادره بما لا يدع مجالًا للشك أو التشكيك.

ولا بدَّ لمن يريد أنْ يستبين مشروع الإخوان للحضارة والنهضة بالأُمَّة أنْ يراجع هذا الفصل، تحت عنوان «وضوح المواقف» وهو المقوم السابع من مقومات الدعوة المكتملة، والحركة الناجحة، والجماعة الموفقة.

هيكل والمشروع الحضاري الإسلامي:

الأستاذ محمَّد حسنين هيكل كاتب كبير في مجال السياسة، ولا يختلف اثنان في عمقه ومقدرته على الرصد والتحليل والموازنة، والتفسير، واستخلاص النتائج، الَّتي قلَّما يقدر عليها غيره. وخصوصًا في السياسة المصريَّة والعربيَّة، وإنْ كان هناك كثيرون يخالفونه فيما ينتهي إليه، لسبب وآخر.

QaradawiBooks.com

ولكنَّه إذا خاض في الجوانب الإسلاميَّة لا يحلِّق كما يحلِّق في آفاق السياسة، ولا يغوص ويتعمَّق كما يغوص ويتعمَّق في الجوانب السياسيَّة، داخليَّة وخارجية.

وهو لا يدَّعي أنَّه عالم بالإسلام أو خبير فيه، ولكنَّه قد يدخل في بعض الجوانب المتعلقة بالإسلام من قريب أو من بعيد، ويبدي فيها رأيه، فيصيب أحيانًا، أو يخطئ أحيانًا في اجتهاداته، وكلٌّ مُيسَّـرٌ لما خُلق له.

ومن ذلك: ما ذكره لجريدة «السـفير» اللبنانيَّة ـ في الصيف الفائت ١٩٩٨م ـ خاصًّا بالتيار الإسلامي «فهو لا يرى هذا التيار يصلح لشيء إلَّا للمقاومة، ولا يقوم غيره مقامه في هـذه الناحية». وهو قد أنصف التيار الإسلامي في ذلك، ولكنَّه بخسه حقَّه في الجوانب الأخرى، ويبدو من سيرة الأسـتاذ هيكل: أنَّه ليس لديه وقت يُفرغه لمتابعة التراث الفكري الضخم للتيـار الإسـلامي في شـتَّى مجـالات الحيـاة: الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة والسياسيَّة والدينيَّة.

وممَّا عجبت لـه ما قاله في حواره هذا لصحيفة «السـفير»: إنَّه لقي الشيخ حسـن البنَّا، وأنَّه وجده رجلًا طيبًا، وظريفًا جدًّا! ولكن لم يكن لديه مشـروع يقدِّمه للناس!

هل كان حسن البنَّا غير ذي مشروع؟

أحسب أنَّ الأستاذ هيكلًا ظلم الأستاذ البنَّا بهذا الحكم الَّذي ذكره، وأحسب أنَّه لم يفهم الشيخ البنَّا، أو أنَّه لم يسبر أغواره، ولم يقرأ فكره، كما ينبغي، قبل أنْ يحكم عليه هذا الحكم الجائر القاسي.

QaradawiBooks.com

علماء المنطق يقولون: الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره، وأظنُّ أنَّ «هيكلًا» لم يتصور «البنَّا» تمامًا، وربَّما كان عذره أنَّه كان في ذلك الوقت شابًّا في مقتبل العمر، ولم يجشِّم نفسه عناء البحث في دعوة البنَّا ومشروعه.

والواقع أنَّ حسن البنَّا كان لديه «مشروع» واضح في ذهنه، راسخ في وجدانه، مستقرٌّ في أعماقه، اتَّضحت له أهدافه، واتَّضحت له وسائله ومناهجه، واتَّضحت له عقباته ومعوقاته، وجنَّد لتحقيقه عقله وقلبه، ولسانه وقلمه، ووقته وجهده، ونفسه وجماعته، فكان يعرف ماذا يريد؟ وكيف يصل إلى ما يريد؟ وبمن يصل إلى ما يريد؟

وقد تحدَّثنا في القسم الأوَّل من هذا الكتاب عن دعوة البنَّا، واكتمال مقوِّماتها، ومن ذلك: وضوح أهدافها، ووضوح وسائلها، ووضوح مواقفها من القضايا الكبيرة.

كان البنَّا يُعَرِّف عن خصائص مشروعه: أنَّه «إسلامي بحت» في غاياته وفي وسائله، وفي أسسه ومنطلقاته، فهو يعتمد الإسلام مصدرًا أوَّل وأوحد لمشروعه. ولكنَّه «الإسلام الصحيح» كما سمَّاه الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيبي[1]، أو «الإسلام الأوَّل» كما سمَّاه حسن البنَّا نفسه[2]، إسلام الرسول وأصحابه قبل أنْ تشوبه الشوائب، وتلحق به الزوائد، ورواسب القرون، مفرغًا في قالب يلائم العصر، ويواكب التطور، ويفتح باب «الاجتهاد» لعلاج مشاكل الحياة بطب الإسلام، ووسطية الإسلام.

(١) وهو عنوان كتاب له، مطبعة العرب، القدس، ١٣٥٤هـ.

(٢) رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل صـ ١١٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإذا كان الإسلام هو المعيار، وهو المرجع الأعلى، فلا أظنُّ أنَّ هناك من يتَّهم حسن البنَّا بعدم فهم الإسلام، أو أنَّه يفهمه على غير وجهه الصحيح، أو يفهمه فهمًا يناقض منطق العصر في التقدم الحضاري، والرقيِّ العمراني، على أساس من النهوض العلمي، والنمو الاقتصادي والاجتماعي.

فالحقيقة أنَّ منطق العصر هذا هو منطق الإسلام، والمنهج العلمي أو التجريبي الَّذي نهض الغرب على ركائزه هو منهج اقتبسه أصلًا من الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، كما شهد بذلك مؤرِّخو العلم الغربيون، من أمثال بريفولت، ولوبون وجورج سارتون.

ومن قرأ رسائل الأستاذ البنَّا ـ على صغر حجمها ـ وجد فيها معالم مشروع شامل متكامل متوازن للنهضة والتقدم والبناء، يمزج المادة بالروح، ويوفق بين العقل والقلب، ويقرن بين المثالية والواقعية، كما يجمع بين الدين والدنيا، ويوازن بين حقوق الفرد ومصلحة المجتمع، وبين النظرة القوميَّة، والنظرة الإسلاميَّة والنظرة العالميَّة.

ولو قرأ الأستاذ هيكل رسالتين صغيرتين من رسائل البنَّا إحداهما كتبت سنة ١٩٣٦م وهي رسالة «المؤتمر الخامس» الشهيرة، والأخرى، عنوانها: «دعوتنا في طور جديد» كتبت سنة ١٩٤٢م، لوجد فيهما رؤية مركَّزة لمشروعٍ حضاري متميِّز: في منطلقاته، متميِّز في أهدافه، متميِّز في رسائله.

في هذه الرسالة الثانية نظرة عميقة تتحدث عن العقليَّة الغيبية الخرافية، والعقليَّة العلميَّة الحسية والوضعية، وعن خصائص العقليَّة الإسلاميَّة الَّتي يريدها ويكوِّنها الإسلام. وهي عقلية متوازنة، تؤمن

QaradawiBooks.com

بالغيب، ولكن لا إلى حـدِّ التصديق بالخرافة، وتؤمن بسـلطان العقل والحسِّ، ولكن لا إلى حدِّ إنكار الوحي.

وترسم طريق النهضة للأمة المسلمة بدءًا بمصر، الَّتي انتهت إليها زعامة الشعوب الإسلاميَّة، والَّتي ردَّت عن حمى الإسلام كيد المعتدين من تتار الشـرق، وصليبيي الغـرب، والَّتي تحيا حيـاة تتذبذب فيها وتتأرجح بين الإسـلام الأصيـل والتغريب الدخيـل، والذي كان من ثمراته وجـود تعليميـن: ديني ومدنـي، وقضاءين: شـرعي وأهلي، وحياتين: إسلاميَّة وإفرنجية.

ولا مناص لمصر من التحرر من هذه الثنائية الغربيَّة، ومن تأسـيس حياتنا كلها على قواعد الإسـلام، ونعني به: الإسـلام المؤسـس على الاجتهاد والتجديد.

هذا ما نادى به حسن البنَّا بوضوح وجلاء.

ربما قيل: إنَّ اعتماد الإسلام مصدرًا ومعيارًا لا يحل المشكلة؛ لأنَّ كل فئة تفسر الإسلام حسب منظورها، فلا تعرف بالضبط موقف الإسلام من القضايا الكبرى، والمشـكلات المعقدة الَّتـي تتطلَّب حلًّا وعلاجًا، يقدَّم للناس في صورة مشـروع، ولـم يفعل هذا الإمـام البنَّا؛ لأنَّه كان مشـغولًا بجمع النَّاس على الكليات والمبادئ العامَّة، ولا يعنى بعلاج الأمور التفصيلية؛ خشية أنْ يختلف النَّاس عليها، في وقت هم فيه أحوج إلى التجمُّع والتوحُّد.

وهذا صحيح ـ إلى حدٍّ ـ في وقت من الأوقات، ولكن الشـيخ البنَّا في أواخر حياته بدأ يفصل مشروعه للناس في مقالات نشرها في جريدة

QaradawiBooks.com

«الإخوان المسلمون» اليوميَّة، وجمعت بعد ذلك في كتاب تحت عنوان «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي».

وفي هذا المبحث قد تحدَّث الأستاذ البنَّا عن القضيَّة الوطنيَّة، وقضيَّة الوَحْدة، والقضيَّة الدستوريَّة، والقضيَّة الاقتصاديَّة، وقدَّم حلولًا لكلٍّ منها في ضوء الإسلام، وعرضها في الجريدة اليوميَّة لتناقش.

ولنأخذ هنا مثلًا: علاجه للقضيَّة الوطنيَّة، قضيَّة الصراع مع الاحتلال الإنجليزي، وتحددت في محورين: الجلاء، ووحدة وادي النيل.

وقدَّم الأستاذ حلَّه لقضيَّة الجلاء في ضوء رؤيته الإسلاميَّة: المفاوضة، فإنْ لم تفلح فالمقاطعة، ثمَّ «النبذ على سواء» بإعلانهم بالخصومة الصريحة وإلغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات، واعتبار الأُمَّة في حالة حرب، وتنظيم حياتها على هذا الاعتبار اقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وسياسيًّا.

وقدَّم الأستاذ حلَّه للمشكلة السياسيَّة الداخليَّة، أو مشكلة «نظام الحكم» وتتلخَّص في قبوله: «النظام الدستوري» وقبول الدستور المصري بصفة عامَّة، مع التنبيه على وجوب إزالة الغموض في بعض مواده، وعلى ضرورة تعديل «القانون» ليتَّفق مع الدستور الَّذي لم يَرَهُ يناقض الإسلام مناقضة صريحة.

ويقول المرشد: ليس في قواعد هذا النظام النيابي أو الدستوري ما يتنافى مع القواعد الَّتي وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيدًا من النظام الإسلامي ولا غريبًا عنه، وبهذا يمكن أنْ نقول في اطمئنان: إنَّ القواعد الأساسيَّة الَّتي قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام، بل إنَّ واضعي الدستور المصري قد توخوا

QaradawiBooks.com

فيه ألَّا يصطدم أي نصٍّ من نصوصه بالقواعد الإسلاميَّة، فهي إمَّا متمشية معه بصراحة، أو قابلة للتفسير بما يتفق معه.

الإصلاح السياسي لدى الإخوان:

وفي الإصلاح الداخلي: حَسْبنا أنْ نذكر هنا فقرات ممَّا ذكره ريتشارد. ب. ميتشـــل في كتابه عن «الإخوان» حول آرائهم في الإصلاح البرلماني والسياسي والإداري فيقول: تضمنت اقتراحات إصلاح البرلمان والأحزاب ما يلي:

١ ـ وضع قائمة من «الصفات» الَّتي يجب أنْ تتوافر في المرشـــحين سواء أكانوا ممثلين لهيئات أم لم يكونوا.

٢ ـ وضع حدود للدعاية الانتخابية.

٣ ـ إصلاح الجداول الانتخابية وطرق التصويت لتكون في منأى عن تلاعب ذوي المصالح الشخصيَّة وعن التصويت الإجباري.

٤ ـ فرض عقوبات رادعة على التزوير والرشوة في الانتخابات.

كذلك اقترح البنَّا تطبيق نظام الانتخابات «بالقائمة» مفضِّلًا إياه على الانتخاب المباشـــر حيث ينتمي الفرد إلى حزب سياسي، وكان يرى أنَّ هـــذه الطريقة «تحرِّر النائب مـــن ضغط الَّذين انتخبـــوه»، وتؤمِّن خدمة المصلحة العامَّة دون المصالح الشخصيَّة.

أمَّا ميدان الإصـــلاح الحكومي الآخر، فهو الجهـــاز الإداري عمومًا والتوظيف الحكومي بصفة خاصَّة. فالوجـــه الأوَّل للإصلاح هو تطبيق الإســـلام من ناحيته المعنوية، والوجه الثاني هو معالجة مســـائل العمل والإجراءات. وقد تحدَّث البنَّا طويلًا عن الوجه الأوَّل فحبَّذ:

QaradawiBooks.com

١ ـ نشر الرُّوح الإسلاميَّة في جميع المصالح الحكومية.

٢ ـ مراقبة السلوك الشخصي للموظَّف حتَّى لا توجد ثُلمة في سلوكه تُميِّز بينه كموظف حكومي وكإنسان.

٣ ـ إعادة تنظيم أوقات العمل لتسهيل أدائه وحتى يمتنع العامل من السهر ليلًا.

٤ ـ مراقبة جميع الأعمال الحكوميَّة بحيث تتَّفق مع رُوح التعاليم الدينيَّة.

٥ ـ استخدام عدد أكبر من خريجي الأزهر في الوظائف العسكريَّة والمدنيَّة.

كانت هذه الإصلاحات السمة الغالبة في موقف البنَّا من مشكلة الإصلاح في عمومها، كما تعرض لما يمس أتباعه مباشرة من المشاكل الدنيوية اليوميَّة للوظيفة العامَّة، وتضمنت آراؤه في الإصلاح بالنسبة لهذه المشاكل الإجراءات التالية:

١ ـ اختيار الموظفين الحكوميين على أساس الكفاءة دون القرابة.

٢ ـ استقرار ظروف العمل وتبسيط إجراءاته عن طريق تحديد المسؤوليَّة وإلغاء المركزيَّة.

٣ ـ تحسين أحوال صغار موظفي الدولة برفع رواتبهم وعلاواتهم وذلك لسد الهوَّة بينهم وبين كبار الموظفين، وبإيجاد تأمين قانوني ومالي مضمون لهم بحماية المرؤوسين من عسف ونزعات الرؤساء.

٤ ـ تقليل عدد الوظائف الحكوميَّة وتوزيع العمل على من يبقى توزيعًا أعدل وأقوم.

غير مرخصة للطباعة
نسخة ورقية

٥ ـ إلغاء ما هو جارٍ من «استثناءات» من القوانين يتمتع بها المقربون والأصدقاء والأقرباء[١].

قامت اللجنة الفرعية للوظيفة العامَّة المنبثقة من قسم المهن بالجماعة بوضع الكثير من البرامج لإصلاح الوظيفة الحكوميَّة ـ كما قررت اللجان الخاصَّة الَّتي شكلت في المدن الكبرى (والتي كان مزمعًا تشكيلها أيضًا في القرى) بعد الحرب العالميَّة الثانية ـ قررت تقديم مساعدة فعلية اتخذت شكل دفع مصروفات التعليم الجامعي لأولاد الموظفين الَّذين يقلُّ راتبهم عن ثلاثين جنيهًا في الشهر، وذلك «لمحاربة غلاء المعيشة»، وكانت هذه اللجان الخاصَّة تعمل في مجالها علاوة على ما كانت تقوم به الجماعة من دعوة إلى الإصلاح، خصوصًا فيما يتعلق بالأجور والضمان الاجتماعي، وهي دعوة كثيرًا ما امتلأت بها صحافة الجماعة.

وإذ كان التحرر السياسي من الاستعمار وثيق الصلة بالإصلاح السياسي فقد كان هذا الإصلاح يتضمَّن دائمًا أفكارًا عن الإصلاح العسكري.

وقد نادى البنَّا بتعميم هذا الوضع على الصعيد الوطني حينما دعا إلى «تقوية الجيش وإشعال الحماس فيه على أساس الجهاد الإسلامي».

كان الدفاع «عن الوطن» والدفاع «عن حقائق الإسلام» هما الفكرتين اللتين رددتهما المقالات العديدة في صحافة الجماعة كلما حثَّت على إصلاح عسكري، وهما فكرتان اكتسبتا أهمية أعظم بعد ثورة عام ١٩٥٢م، واقترحت الجماعة في ذلك الوقت:

(١) الإخوان المسلمون لميتشل صـ ٤١٩، ٤٢٠.

QaradawiBooks.com

١ ـ تعزيز قوى الجيش وزيادة عدده دون اعتبار لما يتضمنه ذلك من نفقة.

٢ ـ أنْ يتمَّ تدريب الضباط والجنود بحيث تقوم العلاقة بينهم جميعًا على أساس الأخوة.

٣ ـ أنْ يتَّسع نطاق التجنيد بحيث لا يبقى فرد في الأُمَّة بعد وقت معين يكون قادرًا على حمل السلاح ولا يحمله.

٤ ـ وجوب جعل التدريب العسكري بما في ذلك الفنون الحربيَّة وطرائق القتال الفعلية إجباريًّا في الجامعات والمدارس.

٥ ـ إنشاء جيش إقليمي للذين لا ينخرطون في الجيش النظامي.

٦ ـ التزام الحكومة بإنشاء الصناعات الحربية[1].

الإصلاح الاقتصادي:

وتحدَّث الدكتور ميتشل عن الإصلاح الاقتصادي الَّذي يقترحه الإخوان لإصلاح مصر والنهوض بها، فقال: لم تكد الإجراءات الاقتصاديَّة تتغير سواء في مداها أم في أهميتها النسبيَّة ضمن الفكرة الإجماليَّة للإصلاح، طوال السنين الَّتي دعت خلالها الجماعة إلى الإصلاح في مصر. على أنَّه بينما قدَّم البنَّا الإصلاحات الخلقية والسياسيَّة والثقافيَّة على الاقتصاديَّة، اعتبر بعض أتباعه الإصلاح الاقتصادي أحق بالتقديم، بل اعتبره أساسًا للإصلاح.

(١) انظر: الإخوان المسلمون لميتشل صـ ٢١٩ ـ ٢٢١، وقد اعتمد المؤلف على رسائل الأستاذ البنَّا، وبيان الإخوان الشهير بعد الثورة، الذي يتضمن رأيهم في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، إلخ.

QaradawiBooks.com

وعلى كلِّ حال، أخذت المشكلة الاقتصاديَّة تحتلُّ مكانًا أكبر في اهتمام الجماعة حتَّى من قبل البنَّا، وكان ذلك رجعًا لصدى ما يشغل الأعضاء، ولما هم في حاجة إليه إبان الأزمة الاقتصاديَّة المتزايدة في مصر، عقب الحرب العالميَّة الثانية.

وقد رأى الإخوان تحقيق الإصلاح الاقتصادي في عاملين:

١ ـ أنَّ الاستقلال الاقتصادي أساس الاستقلال السياسي.

٢ ـ أنَّ التحسُّن الاقتصادي في صورة نوع من الضمان الاقتصادي والاجتماعي ـ بالنسبة للجماهير الَّتي صرعها الفقر في مصر ـ أمر ضروري لملء الفراغ في البناء الطبقي.

وبهذا تتجنَّب البلاد فرقة وطنيَّة جديدة باسم الصراع الطبقي. وفي هذا النطاق اقترحت الجماعة بعض إجراءات الإصلاح الاقتصادي لتصدر الدولة قوانين بها، إمَّا عن طريق السلطة التشريعيَّة، أو السلطة الإداريَّة، وهي قوانين ترمي إلى جعل مصر أكثر انسجامًا مع تراثها الإسلامي:

١ ـ يجب إلغاء الربا في كل صوره، وعلى الحكومة أنْ تكون رائدة في هذا المجال بأنْ لا تقبل الفائدة في جميع معاملاتها.

ولكن إذا سلَّمنا جدلًا بأنَّ الدولة أصدرت قانونًا بإلغاء الفائدة على الودائع في المصارف، وإلغائها في الشركات والمؤسسات العامَّة والقروض الخاصة، فماذا يحدث حينئذٍ؟ سيحدث أنْ تجد رؤوس الأموال نفسها غير قادرة على زيادة الثروة إلَّا بوسيلتين عامتين، أولهما: أنْ توظف الأموال مباشرة في بعض المشروعات المثمرة والمفيدة، وذلك باستثمارها في الصناعة أو التجارة أو الزراعة، وثانيهما: أنْ توظف هذه الأموال بطريقة مربحة نافعة باستثمارها في أسهم الشركات حيث

QaradawiBooks.com

ترتفع قيمة الأسهم أو تنخفض، وكلتا الطريقتين مشروعة في الإسلام ولن تضر إحداهما بالحياة الاقتصاديَّة أي ضرر.

٢ ـ يجب تأميم مصادر الثروة في البلاد، وإنهاء السيطرة الأجنبيَّة على المرافق العامَّة والثروات المعدنيَّة، كما يجب إحلال رأس المال الوطني محل رأس المال الأجنبي، ويجب أنْ يصحب هذه الإجراءات استغلال الثروات الطبيعية في البلاد على نطاق واسع، سواء في المجال الزراعي أم التعديني[١].

٣ ـ يجب تصنيع البلاد فورًا مع إعطاء الصناعات الَّتي تعتمد على المواد الأوَّلية المحلية والصناعات الحربيَّة أهمية خاصَّة، كما يجب تشجيع الصناعات المنزلية المحلية لا لمجرد مساعدة الفقراء والمعدمين، ولكن للتمهيد لشقِّ طريق التغيير نحو خلق الروح الصناعيَّة والعصر الصناعي الجديد، ويمكن أنْ يتمَّ هذا التشجيع في ميادين الغزل والنسيج وصناعة الصابون والعطور وأعمال الصيانة[٢].

٤ ـ يجب تأميم البنك الأهلي المصري كخطوة أخرى في سبيل الإصلاح المالي، ويجب أنْ يكون لمصر مطبعتها لطبع أوراقها النقدية، وأن يكون لها دارها الخاصَّة لسكِّ النقود المعدنيَّة.

٥ ـ يجب إلغاء بورصة العقود وإصلاح السياسة القطنيَّة.

٦ ـ يجب إصلاح قانون الضرائب بحيث تفرض بشكل تصاعدي على رأس المال كما تفرض على الأرباح، ويجب استعمال حصيلة

(١) لم يدعُ برنامج ١٩٥٢م رسميًّا إلى تأميم الشركات الأجنبية، ولكنَّه كان أكثر اهتمامًا إلى حد بعيد بإصلاح الأراضي. (ميتشل).

(٢) يرى البنَّا أنَّ القرآن قد أمر المسلمين أنْ يبنوا الصناعات الثقيلة. (ميتشل).

QaradawiBooks.com

الضرائب لأغراض الدولة العامَّة ولرفع مستوى المعيشة ولخدمة مصالح الشعب. كذلك يجب أنْ يكون من أهداف الضرائب الحد من الإنفاق المفرط ومن البذخ.

٧ ـ تجب متابعة الإصلاح الزراعي دون هوادة: فيقرر حد أقصى للمِلْكِيَّة الزراعيَّة، ويباع ما زاد عنه إلى من لا يملكون أرضًا بأسعار معقولة على آماد طويلة[١].

٨ ـ يجب إصدار قانون خاص بكراء الأرض، وذلك لحماية المستأجرين من سوء استغلال أصحاب الأرض لهم بأخذهم حصَّة غير عادلة من محصول الفلاحين.

٩ ـ يجب إعادة النظر في قانون العمل والاهتمام بالإصلاحات الَّتي (أ) تضمن للعمَّال جميعًا (بما فيهم العمَّال الزراعيون) تأمينًا ضدَّ البطالة والإصابات والمرض والشيخوخة والموت. (ب) تحتم تنظيم العمل. (ج) تؤمِّن للأجير حصَّة عادلة من الكفاية الإنتاجية المتزايدة، ويجب تدريب العمَّال الصناعيين الزراعيين في مهنتهم تدريبًا أوفى حتَّى تضمن زيادة كفايتهم الإنتاجية[٢].

١٠ ـ وأخيرًا يجب أنْ يضمن لكل عامل «تأمين اجتماعي»، فلو عجز إنسان عن العمل أو لو كان عمله غير كافٍ أو كان غير قادر على العمل، فيجب على الدولة حينئذٍ أنْ تقوم بحاجاته من معين الزكاة. ويجب أنْ

(١) قبل البنَّا مبدأ الإصلاح الزراعي، ولكن يبدو أنَّه لم يلق إليه بالاً، ولم يكن ذلك حال بعض أتباعه، وخصوصًا الغزالي وقطب، كما سبق ذكره. أما الهضيبي فقد قبل المبدأ وإن اختلف مع الحكومة على الحد الأقصى. (ميتشل).

(٢) انظر أيضًا: دراسات إسلامية لسيد قطب صـ ٩٠، وذلك بخصوص موضوع إصلاح العمل.

QaradawiBooks.com

تنفق الزكاة على المحتاجين في المنطقة الَّتي جُبيت فيها حتَّى يحس الأغنياء والفقراء على سواء الشعور: «بالمسؤوليَّة المتبادلة».

فإن لم تكف لمقابلة حاجات المعوزين، كان للدولة الحق في إرغام الموسرين على زيادة ما يدفعون إلى الفقراء إنْ لم يفعلوا ذلك عن طواعية واختيار[١].

هذه بعض الملامح للمشروع الإخواني للإصلاح والتقدُّم. وهي قليل من كثير.

أعتقد أنَّ الأستاذ هيكل لو قرأ ما كتبه الأستاذ البنَّا من رسائل وخطابات ومقالات، ودرسه بتأمل وإنصاف، لغيَّر رأيه الَّذي أعلنه، وأيقن أنَّ عند الأستاذ البنَّا مشروعًا أنضج وأعمق وأوسع وأوضح، ممَّا كان عند الضباط الأحرار من «المبادئ الستة» المعروفة[٢] ومن «فلسفة الثورة» لعبد الناصر، ودوائرها الثلاث: العربيَّة والإفريقية والإسلاميَّة، وقد قيل: إنَّ الَّذي صاغ هذه الفلسفة هو الأستاذ هيكل نفسه.

أمَّا إن كان الأستاذ هيكل يريد: أنَّ الأستاذ البنَّا لم يقدِّم برنامجًا مفصَّلًا، لعلاج كل جوانب الحياة السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة، فهذا قد رددنا عليه في كتابنا «بيِّنات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغرِّبين»[٣]. وذكرنا هناك أنَّ كل الدعوات التغييرية الكبرى، ليبرالية أو اشتراكية، لم تأت بتفصيلات، إنَّما جاءت بمبادئ

(١) انظر: الإخوان المسلمون لميتشل صـ ٤٣٢ ـ ٤٣٤.

(٢) وهي: محاربة الاستعمار، والملكية، والإقطاع، وإقامة جيش قوي، وعدالة اجتماعية، وحياة نيابية سليمة، وهذه كلها سبق بها الإخوان وأصَّلوها وفصَّلوها.

(٣) بينات الحل الإسلامي صـ ١٩٩ ـ ٢١٣.

QaradawiBooks.com

عامَّة، وأصول كليَّة، وملامح مميزة، للمجتمع الَّذي ينشدونه. فلماذا يطلب هذا، من البنَّا أو من الإسلاميين وحدهم؟ ولا أحسب هيكلًا يقصد بالمشروع البرنامج المتصل.

على أنَّ المكتبة الإسلاميَّة الآن حافلة بأعمال كبيرة، وتفصيلات جمَّة، للمشروع الإسلامي، ولكن الأستاذ هيكل وأمثاله لا يتنازلون ليقرؤوا ما كتبه الإسلاميون.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

٧

الإخوان والعقيدة

يَتَّهِمُ العِلمانيُّون الإخوانَ بأنَّهم مسلمون متعصِّبون لعقيدتهم، متصلِّبون في إيمانهم، متشدِّدون في نظرتهم إلى الطوائف الأخرى.

وبعض الفصائل الأخرى من الإسلاميين ـ مثل بعض السلفيين والتحرريين ـ يتَّهمون الإخوان بأنَّهم متهاونون في أمر العقيدة، كما في قضيَّة الأولياء والقبور، وقضيَّة التوسُّل بالنبيِّ ﷺ والملائكة وأولياء الله الصالحين، وقضيَّة الآيات والأحاديث الَّتي يطلق عليها: آيات الصفات، وأحاديث الصفات، فهم في هذا من الأشاعرة وليسوا من أهل السُّنَّة! وكذلك قضيَّة الولاء والبراء، فهم يتَّهمون الإخوان بأنَّهم لا يبرؤون من الكفار ومن اليهود والنصارى وغيرهم، ويقولون عنهم: هم إخواننا، ولا أخوة بين مسلم وكافر. وهم يؤولون النصوص القطعية ـ في نظر المدَّعين ـ الَّتي تطالب بقتال هؤلاء، وأخذ الجزية منهم، وهم لا يكفِّرون الحكام الَّذين لا يحكِّمون شرع الله تعالى في جوانب الحياة كلها: اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة، مخالفين لما نطق به القرآن. بل يقول هؤلاء: إنَّ العقيدة لا تأخذ في فكر الإخوان حيِّزًا كافيًا، ولا في أدبياتهم مكانًا يليق بها.

إلى غير ذلك من التُّهم الَّتي يلصقها هؤلاء بالإخوان، وهي تُهَم لا تقف على رجلين سليمتين، ولا تستند إلى برهان بيِّن أو إلى فقهٍ صحيح.

QaradawiBooks.com

ولا أدلَّ على تهافت هذه الاتهامات من تناقضها فيما بينها، فتُهَم العلمانيِّين يرد عليها تُهَم المتشدِّدين، والعكس بالعكس.

وسنلقي شيئًا من الضوء على ذلك فيما يلي:

العقيدة أسُّ البناء:

إنَّ العقيدة في فكر الإخوان وفي دعوتهم هي: رأس الأمر، وأسُّ البناء، وروح الإسلام.

فالإسلام عقيدة، تقوم على أساسها شريعة، تتفرَّع عنها أخلاق وأعمال وينبثق منها مجتمع، تحكمه دولة. والإخوان مؤمنون كلَّ الإيمان بعقيدة الإسلام، ولكنَّهم غير متعصبين ضدَّ مخالفيهم، إلَّا إذا اعتبر الاعتزاز بالعقيدة، والحماس لها، والثقة بتفوقها، واليقين بنصر الله إياها: تعصبًا، فهم حينئذٍ أوَّل المتعصبين.

والعقيدة يعبَّر عنها في القرآن والسُّنَّة باسم «الإيمان»، والشريعة والعبادة والأخلاق يعبَّر عنها باسم «العمل»، ولا يقبل عمل بلا إيمان. كما لا ينفع إيمان بلا عمل.

وقد ركَّز الإمام البنَّا منذ فجر دعوته على بناء الإيمان لدى الدعوة، اقتداءً بما فعله رسول الله ﷺ، الَّذي ظلَّ ثلاثة عشر عامًا في العهد المكي يغرس فيها ـ قبل كل شيء ـ أصول الإيمان، وحقائق التوحيد، وعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، كما يغرس في النفوس والعقول أصول الفضائل ومكارم الأخلاق.

وكانت «دار الأرقم» في مكَّة هي معهد التربية الأوَّل لغرس الإيمان، وتثبيته في الرعيل الأوَّل من المسلمين.

QaradawiBooks.com

كان من «الشعارات» الَّتي تجمل دعوة الإخوان في كلمات: «الله غايتنا، والقرآن شِرعتنا، والرسول قدوتنا، والجهاد وسيلتنا...»، وكان هتاف الإخوان المحبَّب: «الله أكبر، ولله الحمد» حيث كان النَّاس يهتفون بحياة الزعماء والملوك. وكانت صيحاتهم الجهيرة تقول: «لا إلٰه إلَّا الله، محمَّد رسول الله، عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد حتَّى نلقى الله».

وكانت مناهج التربية في جماعة الإخوان تقوم على أنَّ الإيمان هو الركن الركين، والحصن الحصين، وأنَّ «الجانب الربَّاني» في التربية مقدَّم على كل الجوانب، وهو أصلها الأصيل، وأنَّ رضوان الله تعالى هو «غاية الغايات»، فإذا كان من غايات الإخوان إقامة مجتمع إسلامي أو حكم إسلامي أو دولة إسلاميَّة، أو تحرير الوطن الإسلامي، أو توحيد الأُمَّة الإسلاميَّة، أو غير ذلك من الأهداف والغايات، فإنَّ الغاية القصوى من وراء ذلك كله: ابتغاء رضوان الله تعالى، وهذا معنى «الله غايتنا».

وقد كتب الأستاذ البنَّا ـ وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة ـ رسالة مركزة وميسَّرة في «العقائد»، وأشار في كثير من رسائله ومقالاته إلى أهمية العقيدة ودورها، وفي محاضراته الَّتي عرفت باسم «أحاديث الثلاثاء» ركز على هذا الجانب. وحينما أصدر مجلته الشهرية «الشهاب» لتخلف مجلة «المنار» في تثقيف الأُمَّة وتوجيهها، كان من أبرز الأبواب فيها: «الله»، وهو بحث في عقيدة الألوهية والتوحيد.

ولا يكاد يوجد كاتب من كتَّاب الإخوان إلَّا وكتب عن العقيدة: الشيخ الغزالي كتب «عقيدة المسلم» و«ركائز الإيمان بين العقل والقلب» وغيرهما، والشيخ سيد سابق «العقائد الإسلاميَّة»، والشهيد سيِّد قطب

QaradawiBooks.com

«خصائص التصور الإسلامي» و«مقومات التصور الإسلامي»، والشيخ سعيد حوى «الله» و«الرسول» في عدَّة أجزاء، والشيخ عبد المنعم تعيلب «العقائد في القرآن» في عدَّة أجزاء، والدكتور عمر الأشقر عن العقيدة في عدَّة أجزاء، والشيخ عبد المجيد الزنداني «بناء الإيمان»، والدكتور محمَّد نعيم ياسين عن «الإيمان» وأركانه، والفقير إليه تعالى: «الإيمان والحياة» و«وجود الله» و«حقيقة التوحيد» إلى ما ذكر في الكتب الأخرى.

وهناك كتب كثيرة أخرى غير مباشرة تتحدث عن العقيدة والإيمان، مثل كتب التفسير والحديث والدعوة والتربية والسلوك. فكلها مشحونة ببناء الإيمان، وتجديد الإيمان، وتثبيت الإيمان.

يعتمد الإخوان في عرض العقيدة وشرحها على دعامتين:

الأولى: النصوص النقلية من القرآن الكريم والحديث الصحيح، ولا سيَّما القرآن، فهو الينبوع الأوَّل للعقيدة، وصحيح السُّنَّة هي البيان والتفسير.

والثانية: البراهين العقليَّة والعلميَّة، الَّتي لفت إليها القرآن بقوة، والَّتي أمدَّنا فيها العلم الحديث بذخيرة هائلة، تقمع الماديين، وتفحم الملاحدة والمشكِّكين.

والداعية الموفَّق هو الَّذي يجمع بين النقل والعقل في عرض العقيدة، وبناء الإيمان، وهو منهج القرآن.

كيف يُقدِّم الإخوان العقيدة؟

لا يريد الإخوان من تقديم العقيدة وشرحها: أنْ تكون كلمات تحفظ وتردد، ولا مجادلات مع الآخرين، دون أنْ يكون لها أثر في حياة

QaradawiBooks.com

صاحبها، بحيث يقتنع بها عقله، ويطمئن بها قلبه، وينفعل بها وجدانه، وتتحرك بها إرادته.

إنَّ القــرآن حين عرض لنا إيمان المؤمنين جسَّــده في أخلاق وأعمال باطنة وظاهرة، كما قال تعالــى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

وكذلك في أوائل سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [الآيات: ١ ـ ٥].

يرفض الإخوان الشركيات والخرافات والأباطيل الَّتي ألصقت بعقيدة التوحيد، مثــل ما يفعل كثير مــن العوام في كثير من بلاد المســلمين، ويبرِّره لهم بعض الخواص، من الطواف بقبــور الصالحين والنذر لها، ودعاء أصحابها، والاستغاثة بهم، وغير ذلك من المنكرات.

وقد بيَّن الأستاذ البنَّا في «أصوله العشرين» برغم وجازتها وتركيزها: أنَّ هذه الأعمال من المنكرات والكبائر الَّتي يجب محاربتها.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وكلُّ بدعةٍ في دين الله لا أصل لها استحسنها النَّاس بأهوائهم ـ سواء بالزيادة فيــه أو بالنقص منه ـ ضلالــة تجب محاربتهــا والقضاء عليها بأفضل الوســائل الَّتي لا تؤدِّي إلى ما هو شــرٌّ منها. ولا شــكَّ البدعة تشمل: البدعة الاعتقاديَّة، كما تشمل البدعة العمليَّة.

ومحبَّــة الصالحين واحترامهــم والثناء عليهم بمــا عُرف من طيب أعمالهم: قربة إلى الله تعالى، والأوليــاء هم المذكورون في قوله تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣] والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعيَّة، مع اعتقاد أنَّهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا في حياتهم أو بعد مماتهم، فضلًا عن أنْ يهبوا شيئًا من ذلك لغيرهم.

وزيارة القبور أيًّا كانت: سنة مشروعة بالكيفيَّة المأثورة، ولكنَّ الاستعانة بالمقبورين أيًّا كانوا، ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها، والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات: كبائر تجب محاربتها، ولا نتأوَّل لهذه الأعمال سدًّا للذريعة.

والدعاء إذا قُرن بالتوسُّل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفيَّة الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعًا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب»[1] انتهى.

قضيَّة التوسُّل:

وأمَّا قضيَّة التوسُّل بالرسول ﷺ والأنبياء، والملائكة والصالحين من عباد الله، فقد ذكر الأستاذ البنَّا: أنَّ هذا من الأمور الخلافيَّة بين الأئمة، وأنَّه خلاف في كيفيَّة الدعاء، وليس من مسائل العقيدة.

وقد أنكر إخواننا السلفيون على الأستاذ البنَّا هذا القول، واشتدَّ نكيرهم عليه، وعلا صوتهم في معارضته والتشنيع على قائله. ولا أدري لم هذا كله؟ ولم يقل الرجل شيئًا يستوجب الطعن أو التشنيع.

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد صـ ٣٥٨.

QaradawiBooks.com

أولًا: لأنَّ الأمرَ خلافي بالفعل، ومن قرأ كتب المذاهب المتبوعة من الحنفيــة والمالكية والشــافعية بل حتَّــى الحنابلة: وجد هــذا واضحًا، فالكثيرون أجازوا التوسل بالرسول وبالصالحين من عباد الله.

وهناك من كَرِهَ التوسُّل، وهناك من منعه.

ولكلِّ فريق من هؤلاء أدلَّته أو شبهاته ـ على الأقل ـ في تأييد ما ذهب إليه، وللمخالفين ردودهم عليه، كما هو الشأن في المسائل الخلافيَّة.

وهنالك دليل قويٌّ لمن قالوا بالتوسُّــل، وهــو حديث عثمان بن حُنَيْف، وقد صحَّحه الشــيخ الألباني، وهو من منكري التوسل، وإنْ وجَّهــه هو وجهة أخــرى، هي في نظــري أقوى وأحــرى. وهو هذا الحديث: أخرج أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف، أنَّ رجلًا ضرير البصر أتــى النبــي ﷺ فقــال: ادعُ الله أنْ يُعافِيَني. قال: «**إنْ شئت دعوت لك، وإنْ شــئت أخَّرت ذاك فهو خير**». وفي رواية: «**وإنْ شــئت صبرت فهو خير لك**». فقــال: ادعه. فأمــره أنْ يتوضأ، ويحســن وضوءه، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعــاء: «**اللهمَّ إنِّي أســألك، وأتوجَّه إليــك بنبيِّك محمَّد نبــيِّ الرحمــة، يا محمَّد إنِّي توجَّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهمَّ فشَفِّعْه فيَّ (وشفعني فيه)**». قال: ففعل الرجل، فبَرَأ[1].

يرى الكثيرون: أنَّ هذا الحديث يدلُّ على جواز التوسُّــل في الدعاء بجاه النبيِّ ﷺ أو غيره من الصالحين، وإذ فيه أنَّ النبي ﷺ علَّم الأعمى أنْ يتوسَّل به في دعائه، وقد فعل الأعمى فعاد بصيرًا.

(١) رواه أحمد (١٧٢٤٠)، وقال مُخرِّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الدعوات (٣٥٧٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٤٢٠).

QaradawiBooks.com

أمَّا الشيخ الألباني، فقال: «وأمَّا نحن فنرى أنَّ هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه، وهو التوسُّل بالذات، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسُّل المشروع الَّذي أسلفناه، لأنَّ توسل الأعمى إنَّما كان بدعائه.

والأدلَّة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة» اهـ. وقد فصَّلها في كتابه «التوسل أنواعه وأحكامه» فليرجع إليه[1].

وثانيًا: لأنَّ التوسل يتعلَّق بالعمل، ولا يتعلَّق بالعقيدة فهو من بحوث علم الفقه لا من بحوث علم التوحيد.

أما أنَّ التوسُّل من مسائل العمل، وليس من مسائل العقيدة، فهذا توجيه صحيح؛ لأنَّه خلاف في كيفيَّة الدعاء، ما دام المدعوُّ والمتوسَّل إليه هو الله تعالى.

لكن بقي البحث في مشروعيته هل يقال: أتوسَّل إليك بنبيِّك محمد، أو بملائكتك المقربين أو بعبادك الصالحين أو لا يجوز؟ فهذا بحث فقهي، وليس ببحث عقدي.

وليس الإمام البنَّا هو أوَّل من قال بذلك، بل قال به الإمام محمَّد بن عبد الوهاب نفسه، كما نقل في مجموع فتاويه.

حيث قال في المسألة العاشرة: «قولهم في الاستسقاء: لا بأس بالتوسل بالصالحين، وقول أحمد يتوسل بالنبي خاصَّة، مع قولهم: إنَّه لا يستغاث بمخلوق، فالفرق ظاهر جدًّا، وليس الكلام ممَّا نحن فيه،

(١) التوسل أنواعه وأحكامه صـ ٧٠، تحقيق محمد عيد العباسي، نشر مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

فكون بعض يرخِّص في التوسل بالصالحين، وبعضهم يخصُّه بالنبي ﷺ. وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه. ولو كان عندنا قول الجمهور أنَّه مكروه، فلا ننكر على من فعله»[(١)].

فقد تضمن كلام الشيخ أنَّ التوسل بالصالحين أو بالنبي ﷺ هو موضع خلاف بين العلماء، وإن هو صوَّب قول الجمهور أنَّه مكروه، وأنَّ هذه المسألة من مسائل الفقه. وهذا عين ما قرَّره البنَّا، فلا وجه للإنكار عليه.

وقال به أيضًا المحدث السلفي الشهير الشيخ ناصر الدين الألباني في مقدمته لشرح «العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، فقد تحدث عن سبع مسائل هامة، قال: كلها في العقيدة إلَّا الأخيرة منها[(٢)]. يعني بالأخيرة: ما قاله شارح الطحاوية من كراهية التوسل بحقِّ الأنبياء وجاههم، تبعًا لإمامه أبي حنيفة.

ولأنَّ موضوع التوسل فقهي لا عقدي، تكلمت عنه جميع كتب المذاهب الفقهيَّة، على اختلاف أحكامها فيه، ودخل الموسوعات الفقهيَّة، باعتباره من المسائل الفرعية العمليَّة، الَّتي تدخل في إطار البحث الفقهي.

وهناك كثيرون من المستقلين عن المذاهب قالوا بإجازة التوسل، منهم الإمام الشوكاني ـ وهو سلفي معروف ـ في كتابه «تحفة الذاكرين» شرح «الحصن الحصين». وهناك غيره من القدامى والمحدثين، ومنهم من أجاز التوسل بالنبي وحده، ولم يجز التوسل بغيره من الأنبياء والصالحين، كما هو رأي الإمام عز الدين بن عبد السلام.

(١) مجموعة فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب صـ ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) انظر: مقدمة شرح الطحاوية صـ ٦٠، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٨، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

QaradawiBooks.com

والخلاف في المسألة ظاهر. يمكنك أنْ تراجعه في بحث «التوسل» في الموسوعة الفقهيَّة الكويتية في الجزء الرابع عشر. وبهذا يتضح لنا سلامة ما قاله الشيخ البنَّا بميزان العلم والتحقيق.

وأنا شخصيًّا أميل إلى ترجيح عدم التوسُّل بذات النبيِّ وبالصالحين.

وأتبنَّى رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك؛ لعدَّة أمور:

الأول: أنَّ أدلَّة المنع ـ أعني منع التوسل بذات النبيِّ وذوات الصالحين ـ أرجح في الميزان العلمي. وخصوصًا أنَّ باب الله تعالى مفتوح لكلِّ خلقه، وليس عليه حاجب ولا بوَّاب، مثل أبواب الملوك والأمراء. حتَّى العصاة فتح الله تعالى لهم أبواب رحمته، ونسبهم إلى ذاته، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

والثاني: أنَّ إجازة التوسُّل قد تكون ذريعة إلى دعاء غير الله تعالى، والاستغاثة به، وكثير من النَّاس يخلط بين الأمرين، فسدُّ الذريعة بالنظر إلى العوام أولى.

والثالث: أنَّ المنهج الَّذي أخذته وسرت عليه في التعليم والدعوة والفتوى: أنَّنا إذا استطعنا أنْ نتعبَّد لله تعالى بالأمر المتَّفق عليه فلا داعي لأن ندخل في الأمر المختلف فيه.

وعلى هذا الأساس لا أفضِّل التعبُّد بصلاة التسابيح؛ لأنَّ في الصلوات الأخرى المتَّفق عليها، والَّتي تواتر عن رسول الله التعبُّد بها ما يغني عنها.

QaradawiBooks.com

ولكنِّي لا أؤثِّم من أداه اجتهاده إلى جواز التوسُّـل، أو جواز التعبُّد بصلاة التسابيح ونحوها. ولا أنكر عليه إلَّا من باب الإرشاد إلى الأرجح والأفضل، إذ لا إنكار في المسائل الخلافيَّة، كما هو معلوم.

وشيخ الإسـلام ابن تيمية وإنْ أنكر التوسُّـل بالذات، لم يشتدَّ في نكيره إلى حدِّ التكفير أو التأثيم، كما يفعل بعض من يدَّعون الانتساب إلى مدرسته. وقد قال في «فتاويه» بعد أنْ ذكر الخلاف في المسألة: «ولم يقل أحد: إنَّ من قال بالقول الأوَّل فقد كفر. ولا وجْه لتكفيره؛ فإنَّ هذه المسألة خفية ليست أدلَّتها جلية ظاهرة، والكفر إنَّما يكون بإنكار ما عُلم من الدين بالضرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك... بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من تغليظ العقوبة والتعزير ما يستحق أمثاله من المفترين على الدين، لا سيَّما مع قول النبي: «**أيُّما رجلٍ قال لأخيه: يا كافرُ، فقد باء بها أحدُهما**»[1].

قضيَّة الولاء والبراء:

وأمَّا قضيَّة الـولاء والبراء، فالإخـوان كانوا أسـبق الجماعات إلى تقريرها، فهم يوالون كلَّ من والى الله ورسـوله وجماعة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۞ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وهم يعادون كلَّ من عادى الله ورسوله والمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

(١) مجموع فتاوى ابن تيميـة (١٠٦/١)، والحديث متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦١٠٤)، ومسلم في الإيمان (٦٠)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ويُؤكِّد الأستاذ البنَّا في رسائله على هذه القضيَّة، فأوثق عُرا الإيمان: الحبُّ في الله، والبغض في الله. وهل الإيمان إلَّا الحبُّ والبغض؟

وفي رسالة «التعاليم» في ركن «التجرُّد» يقول: أريد بالتجرُّد: أنْ تتخلص لفكرتك ممَّا سواها من المبادئ والأشخاص؛ لأنَّها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. والناس عند الأخ الصادق واحد من ستَّة أصناف: مسلم مجاهد، أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أو ذمِّي معاهد، أو محايد، أو محارب. ولكلٍّ حكمه في ميزان الإسلام. وفي حدود هذه الأقسام توزن الأشخاص والهيئات، ويكون الولاء والعداء»[1] اهـ.

لا أحسب عالمًا أو منصفًا يتهم صاحب هذا الكلام بأنَّه لا يعرف الولاء والبراء، أو المولاة والمعاداة في الله، بل لقد ربَّى جيلًا يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله.

والإخوان كانوا أشد النَّاس على المستعمرين والصهاينة، الَّذين احتلُّوا ديار المسلمين، وهم الَّذين قادوا الجهاد وحرَّكوه في ديار الإسلام لمقاومة هؤلاء، فلا يتصوَّر أنْ يُتَّهموا بدعوى الولاء لهم.

أخوة المواطنين من غير المسلمين:

ولكن الإخوان يفرقون بين هؤلاء وبين مواطنيهم، الَّذين يعيشون في دار الإسلام، وهم من أهل البلاد الأصليِّين، وقد دخل الإسلام عليهم

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة الرسائل صـ ٣٦٣.

QaradawiBooks.com

وهم فيها، وأعطاهم الذمة والأمان أنْ يعيشوا مع المسلمين وفي ظل حكمهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم، إلَّا ما اقتضاه التميُّز الديني.

فهؤلاء لم ينه الله تعالى عن بِرِّهم والإقساط إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فهؤلاء لهم حقُّ البِرِّ والقسط، والقسط هو العدل، والبِرُّ فوق العدل، وهو الإحسان.

القِسْط: أنْ تعطيَهم حقَّهم، والبر: أنْ تزيد على ما هو حق لهم.

القِسْط: أنْ يأخذ منهم الحقَّ الَّذي عليهم، والبرُّ: أنْ تتنازل عن بعض حقك عليهم.

فهؤلاء ـ إذا كانوا من أهل وطنك ـ لك أنْ تقول: هم إخواننا، أي إخواننا في الوطن، كما أنَّ المسلمين ـ حيثما كانوا ـ هم إخواننا في الدين. «والفقهاء يقولون عن أهل الذمة: هم من أهل الدار، أي دار الإسلام». فالأخوة ليست دينيَّة فقط كالتي بين أهل الإيمان بعضهم وبعض، وهي الَّتي جاء فيها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. بل هناك أخوة قومية، وأخوة وطنيَّة، وأخوة بشرية.

والقرآن الكريم يُحدِّثنا في قصص الرسل مع أقوامهم الَّذين كذَّبوهم وكفروا بهم، فيقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٠٦]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٤٢]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشعراء: ١٦٠، ١٦١].

QaradawiBooks.com

كيف أثبت الله الأخوة لهؤلاء الرسل مع أقوامهم مع تكذيبهم لهم وكفرهم بهم؟ لأنَّهم كانوا منهم، فهم إخوتهم من هذه الناحية، فهي أخوة قومية، ولذا قال عن شُعَيْب في السورة نفسها: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]. وذلك أنَّه لم يكن منهم، وإنَّما كان من مَدْيَن، ولذا قال في سورة أخرى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤].

وإذا أثبت القرآن هذه الأخوة القوميَّة بين الرسل وأقوامهم، فلا حرج أنْ نثبت أخوة وطنيَّة بين المسلمين ومواطنيهم من الأقباط في مصر، أو أمثالهم في البلاد الإسلاميَّة الأخرى.

ولا يكون ذلك سببًا للطعن في عقيدة الإخوان، وأنَّهم لا يعرفون الولاء والبراء في عقيدتهم، بل يكون هذا من حسن فقه الإخوان، وفهمهم عن الله ورسوله ما لا يفهم الآخرون.

تكفير الحكام:

وأمَّا اتِّهام الإخوان بأنَّهم لا يسارعون بـ «تكفير الحكام» الَّذين لا ينفذون شرع الله، ولا يحكمون بما أنزل الله، ويتهاونون في ذلك، ممالأة للحكام، ومداهنة في الدين.

فيعلم الله، ويعلم المؤمنون، ويعلم النَّاس أجمعون: كم لقي الإخوان من الحكام، وكم بذلوا من تضحيات، وكم قدَّموا من شهداء، وكم أضاعوا من أعمارهم سنوات وسنوات في سجون الحكام ومعتقلاتهم، وكم ارتوت السياط من دمائهم، وأكلت الآلات من لحومهم، وسحقت أدوات التعذيب من عظامهم. سواء في ذلك الحكومات المَلَكِيَّة،

QaradawiBooks.com

والحكومات الجمهورية، والحكومات في عهد الليبرالية اليمينية، والحكومات في عهد الثورية الاشتراكيَّة اليسارية. فليس الإخوان هم الَّذين يُتَّهمون بالمداهَنة في الدين أو الممالأة للحكام.

ولكن الإخوان لهم أصول يرجعون إليها في تقويم الحكام، وفي الحكم عليهم، وعن هذه الأصول يصدرون، وعلى أحكامها ينزلون، ولا يحرفونها من أجل ظلم الحكام لهم، وانتهاكهم لحرماتهم، وسفكهم لدمائهم، وأكلهم لأموالهم بالباطل.

ومن هذه الأصول: أنَّ التكفير قضيَّة لها خطرها، ويترتَّب عليها آثارها، ولا يجوز التساهل فيها، وإلقاء الأحكام على عواهنها دون الاعتماد على الأدلة القاطعة، والبراهين الناصعة. فإنَّ الَّذي نحكم عليه بالكفر: نخرجه من الملة، ونسلخه من الأُمَّة، ونفصله عن الأسرة، ونفرق بينه وبين زوجه وولده، ونحرمه من موالاة المسلمين، ونجعله عدُوًّا لهم، وهم أعداء له. وأكثر من ذلك: أنَّ جمهور فقهاء الأُمَّة يحكمون عليه بالقتل، فهو محكوم عليه بالإعدام الأدبي بالإجماع، وبالإعدام المادي بالأكثرية.

لهذا قال الأستاذ البنَّا في آخر أصل من أصوله العشرين:

«لا نُكفِّر مسلمًا أقرَّ بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما برأي أو معصية، إلَّا إذا أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو كذَّب صريح القرآن، أو فسَّره تفسيرًا لا تحتمله أساليب اللغة العربيَّة بحال، أو عمل عملًا لا يحتمل تأويلًا غير الكفر»[1].

(١) رسالة التعاليم ضمن مجموعة رسائل الإمام صـ ٣٥٩.

QaradawiBooks.com

والتضييق في التكفير هو اتجاه المحقِّقين من علماء الأُمَّة، من جميع المذاهب.

ولنا رسالة موجزة مركزة حول «ظاهرة الغلو في التكفير» بيَّنَّا فيها حقائق مهمة حول هذا الأمر الخطير، الَّذي أسرفت فيه بعض الجماعات في عصرنا، فكفَّرت الأُمَّة أو كادت. كفَّرت الحكام لأنَّهم لم يحكموا بما أنزل الله، وكفَّرت الجماهير، لأنَّهم سكتوا على الحكام! بدعوى أنَّ من لم يكفِّر الكافر فهو كافر، وجهل هؤلاء أنَّ هذا إنَّما هو في الكافر الأصلي المعلوم كفره بالضرورة، مثل الملاحدة والوثنيين والمحرفين من أهل الكتاب وغيرهم.

وقد عرض الإمام ابن القيِّم لتكفير الحكام في كتابه «مدارج السالكين» ونظر في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وكان ممَّا قاله في تأويلها:

«فأما الكفر فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما في قوله ﷺ في الحديث: «**اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة**»[(١)]، وقوله في «السنن»: «**من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «**من أتى كاهنًا أو عرَّافًا،**

(١) رواه مسلم في الإيمان (٦٧)، وأحمد (١٠٤٣٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٠١٦٧)، وقال مخرِّجوه: حديث محتمل للتحسين. والترمذي في الطهارة (١٣٥)، وقال: وإنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ... وذكر أنَّ البخاري ضعَّفه من قبل إسناده. وابن ماجه في الطهارة (٦٣٩)، وضعَّفه النووي في خلاصة الأحكام (٢٢٩/١)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢٠٠٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمد»[١]، وقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢].

وهذا تأويل ابن عبَّاس وعامة الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر»[٣]، وكذلك قال طاوس[٤]. وقال عطاء: «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق»[٥].

ومنهم: من تأوَّل الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدًا له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح؛ فإنَّ جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضًا بعيد؛ إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

---

(١) رواه أحمد (٩٥٣٦)، وقال مُخرِّجوه: حسن. وأبو داود في الطب (٣٩٠٤)، بلفظ «فقد برئ ممَّا أنزل»، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، كلاهما في الطهارة، وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٢٨٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة (١٠٠٥).

(٤) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٥٧٤)، تحقيق د. عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

(٥) المصدر السابق (٥٧٥).

QaradawiBooks.com

ومنهم: من تأوَّلها على الحكم بمخالفة النص، تعمُّدًا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل. حكاه البغوي عن العلماء عمومًا.

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ. فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفرًا ينقل عن الملة.

والصحيح: أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين: الأصغر والأكبر، بحسب حال الحاكم. فإنَّه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانًا، مع اعترافه بأنَّه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنَّه غير واجب، وأنَّه مخيَّر فيه، مع تيقُّنه أنَّه حكم الله، فهذا كفر أكبر. وإنْ جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين».

قال ابن القيِّم: «والقصد: أنَّ المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنَّها ضدَّ الشكر، الَّذي هو العمل بالطاعة. فالسعي إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث، لا من هذا ولا من هذا. والله أعلم»[1] اهـ.

آيات الصفات وأحاديثها:

وأما الموضوع الَّذي أثار لغطًا كبيرًا، فهو ما يتعلق بموقف الإخوان ممَّا سمِّي «آيات الصفات وأحاديث الصفات»، فقد عرض الأستاذ البنَّا ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ لها في موضعين أساسيين:

أولهما: في الأصول العشرين من رسالة التعاليم. وذلك في الأصل العاشر، وفيه يقول: «معرفة الله تبارك وتعالى، وتوحيده وتنزيهه: أسمى

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/٣٣٥ ـ ٣٣٧)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

QaradawiBooks.com

عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من المتشابه: نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرَّض لما جاء فيها من خلاف بيْن العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وثاني الموضعين: في رسالة «العقائد» الَّتي كتبها مقالات في سنة ١٩٣٢م، أي بعد تأسيس الإخوان بثلاث سنوات، وكان في العشرينيات من عمره، ورغم أنَّ الرسالة موجزة، فقد عرض للموضوع بالتفصيل المناسب، ولا بأس أنْ نذكر أهم عناصره هنا.

مذاهب النَّاس حول آيات الصفات وأحاديثها:

ذكر الأستاذ البنَّا أنَّ النَّاس انقسموا في هذه المسألة على أربع فرق، أو أربعة مذاهب.

مذهب المشبهة:

١ ـ **الفرقة الأولى:** فرقة أخذت بظواهر هذه النصوص كما هي، ونسبتها إلى الله تعالى: وجهًا كوجوه الخلق، ويدًا أو أيديًا كأيديهم، وضحكًا كضحكهم! وهكذا حتَّى فرضوا الإلٰه شيخًا، وبعضهم فرضه شابًّا! وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة، وليسوا من الإسلام في شيء، وليس لقولهم نصيب من الصحة.

ويكفي في الردِّ عليهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

QaradawiBooks.com

مذهب المعطِّلة:

٢ ـ **والفرقة الثانية:** فرقة عطَّلت معاني هـذه الألفاظ على أي وجه، يقصدون بذلك نفي مدلولاتها مطلقًا عـن الله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى لا يتكلم ولا يسـمع ولا يبصر؛ لأن ذلك لا يكون إلَّا بجارحة، والجوارح يجب أنْ تنفى عنه سبحانه، فبذلك يُعطِّلون صفات الله تعالى ويتظاهرون بتقديسـه، وهؤلاء هم المعطلة. ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلاميَّة: الجهمية. ولا أظنُّ أنَّ أحدًا عنده مَسكة من عقل يستسـيغ هذا القول المتهافت! وها قد ثبت الكلام لبعض الخلائق بغير جارحة، فكيف يتوقف كلام الحق تبارك وتعالى على الجوارح؟! تعالى الله عن ذلك علُوًّا كبيرًا.

هذان رأيان باطلان لا حظَّ لهما من النظر، وبقـي أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء في العقائد، وهما رأي السلف ورأي الخلف.

مذهب السلف:

٣ ـ **أمـا السَّـلف رضـوان الله عليهم فقالـوا:** نؤمن بهـذه الآيات والأحاديث كما وردت، ونترك بيان المقصود منها لله تعالى. فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاسـتواء والضحك والتعجـب، إلخ، وكل ذلك بمعانٍ لا ندركها، ونترك لله تعالى الإحاطة بعلمها، ولا سـيَّما وقد نهينا عن ذلك في قول النبيِّ ﷺ: «**تَفَكَّروا في خلق الله، ولا تتفكَّروا في الله؛ فإنَّكم لن تقدروه قدره**»[(١)].

(١) رواه أبو الشـيخ في العظمة (٢)، وابن بطة في الإبانة (١٠٨)، وأبـو نعيم في حلية الأولياء (٦٦/٦)، عن ابن عباس. ورواه الطبراني في الأوسـط (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩)، وقال عقبه: هذا إسـناد فيه نظر. وحسَّـنه الألباني في الصحيحـة بمجموع الطرق =

QaradawiBooks.com

أ ـ روى أبو القاسم اللالكائي في «أصول السُّنَّة» عن محمَّد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، قال: «اتَّفق العلماء كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث الَّتي حدَّث بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِّ ﷻ من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسَّر اليوم شيئًا من ذلك فقد خرج ممَّا كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة؛ فإنَّهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسُّنَّة ثمَّ سكتوا»[(١)].

ب ـ وذكر الخلَّال في كتاب «السُّنَّة» عن حنبل، وذكره حنبل في كتبه مثل كتاب «السُّنَّة والمحنة»، قال حنبل: «سألتُ أبا عبد الله عن الأحاديث الَّتي تروى: إنَّ الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا»، و«إنَّ الله يرى»، و«إنَّ الله يضع قدمه» وما أشبه هذه الأحاديث؟ فقال أبو عبد الله: نؤمن بها ونصدِّق بها ولا كيف ولا معنى، ولا نردُّ منها شيئًا، ونعلم أنَّ ما جاء به الرسول ﷺ حقٌّ إذا كان بأسانيد صحاح، ولا نرد على الله قوله، ولا يوصف الله تبارك وتعالى بأكثر ممَّا وصف به نفسه، بلا حدٍّ ولا غاية، ليس كمثله شيء»[(٢)].

جـ ـ وروى حرملة بن يحيى قال: سمعتُ عبد الله بن وهب يقول: سمعتُ مالك بن أنس يقول: من وصف شيئًا من ذات الله مثل قوله:

= (١٧٨٨)، وفي صحيح الجامع الصغير (٢٩٧٥، ٢٩٧٦)، عن ابن عمر. ومعنى الحديث صحيح بالإجماع.

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٧٤٠)، تحقيق أحمد الغامدي، نشر دار طيبة، السعودية، ط ٨، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

(٢) العقيدة رواية أبي بكر الخلال لعبد الله بن أحمد صـ ١٢٧، تحقيق عبد العزيز عز الدين السيروان، نشر دار قتيبة، دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ.

QaradawiBooks.com

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]. فأشار بيد إلى عنقه، ومثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأشار إلى عينه أو أذنه أو شيء من بدنه، قطع ذلك منه؛ لأنَّه شبَّه الله بنفسه. ثمَّ قال مالك: أما سمعت قول البراء حين ذكر أنَّ النبيَّ ﷺ قال: لا يضحي بأربع من الضحايا، وأشار البراء بيده كما أشار النبي ﷺ، قال البراء: ويدي أصغر من يد رسول الله ﷺ، فكره البراء أنْ يصف رسول الله ﷺ إجلالًا له وهو مخلوق، فكيف الخالق الَّذي ليس كمثله شيء[1]؟!

د ـ وروى أبو بكر الأثرم، وأبو عمرو الطَّلَمَنْكي وأبو عبد الله بن أبي سلمة الماجِشون كلامًا طويلًا في هذا المعنى ختمه بقوله: «فما وصف الله من نفسه فسمَّاه على لسان رسوله سمَّيناه كما سمَّاه، ولم نتكلَّف منه صفة ما سواه، لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلَّف معرفة ما لم يصف»[2].

مذهب الخلف:

وأمَّا الخلف فقد قالوا: إنَّنا نقطع بأنَّ معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها، فأخذوا يؤولون «الوجه» بالذات، و«اليد» بالقدرة، وما إلى ذلك؛ هربًا من شبهة التشبيه، وإليك نماذج من أقوالهم في ذلك:

١ ـ قال أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي في كتابه «دفع شبهة التشبيه»: قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]. قال المفسِّرون: يبقى ربُّك.

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٤٥/٧، ١٤٦)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٥٩).

QaradawiBooks.com

وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] أي يريدونه. وقال الضحاك وأبو عبيدة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. أي إلَّا هو[١].

وعقد في أوَّل الكتاب فصلًا ضافيًا في الرد على من قالوا: إنَّ الأخذ بظاهر هذه الآيات والأحاديث هو مذهب السلف؛ وخلاصة ما قاله: أنَّ الأخذ بالظاهر هو تجسيم وتشبيه؛ لأنَّ الظاهر اللفظ هو ما وضع له، فلا معنى لليد حقيقة إلَّا الجارحة، وهكذا. وأما مذهب السلف فليس أخذها على ظاهرها، ولكن السكوت جملة عن البحث فيها.

وأيضًا فقد ذهب إلى أنَّ تسميتها آيات صفات، وأحاديث صفات تسمية مبتدعة لم ترد في كتاب ولا في سُنَّة، وليست حقيقة، فإنَّها إضافات ليس غير، واستدلَّ على كلامه في ذلك بأدلَّة كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

٢ ـ وقال فخر الدين الرازي في كتابه «أساس التقديس»: واعلم أنَّ نصوص القرآن لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه:

الأول: أنَّ ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. يقتضي أَن يكون موسى عليه السلام مُسْتَقرًا على تِلْكَ الْعين ملتصقًا بهَا مستعليًا عليها، وَذَلِكَ لَا يَقُوله عَاقل.

الثَّانِي: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقتضي أنْ يكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين.

والثالث: أنَّ إثبات الأعين في الوجه الواحد قبيح فثبت أنَّه لا بدَّ من المصير إلى التأويل، وذلك هو أنْ تحمل هذه الألفاظ على شدة العناية والحراسة[٢].

(١) دفع شبهة التشبيه صـ ١٢، تحقيق زاهد الكوثري، نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

(٢) أساس التقديس للرازي صـ ٩٦، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

٣ ـ قال الإمام الغزالي في الجزء الأوَّل من كتابه «إحياء علوم الدين» عند كلامه على نسبة العلم الظاهر إلى الباطن وأقسام ما يتأتى فيه الظهور والبطون، والتأويل وغير التأويل: «القسم الثالث: أنْ يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحًا لفهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز؛ ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب... ومنه قوله ﷺ: «إنَّ المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة على النار»[(١)]. ومعناه أنَّ روح المسجد وكونه معظمًا، ورمي النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة. وأنت ترى أنَّ ساحة المسجد لا تنقبض من نخامة، وكذلك قوله ﷺ: «**أما يخشى الَّذي يرفع رأسه قبل الإمام أنْ يحول الله رأسه رأس حمار**»[(٢)]. وذلك من حيث الصورة لم يكن قطُّ ولا يكون، ولكن من حيث المعنى هو كائن؛ إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته وكونه وشكله بل بخاصيته، وهي البلادة والحمق، وهو المقصود دون الشكل. وإنَّما يعرف أنَّ هذا السرَّ على خلاف الظاهر إمَّا بدليل عقلي أو شرعي. أمَّا العقلي فأنْ يكون حمله على الظاهر غير ممكَّن، كقوله ﷺ: «**قلبُ المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن**»[(٣)]. إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع، فعلم أنَّها كناية عن القدرة الَّتي هي سِرُّ الأصابع وروحها الخفي، وكنَّى بالأصابع عن القدرة؛ لأن ذلك أعظم وقعًا في تفهم تمام الأقدار»[(٤)].

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٦٩١)، وابن أبي شيبة (٧٥٥٠)، كلاهما في الصلاة، عن أبي هريرة موقوفًا.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٩١)، ومسلم في الصلاة (٤٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤)، عن عبد الله بن عمرو، بلفظ: «إنَّ قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن».

(٤) إحياء علوم الدين (١٠٢/١).

QaradawiBooks.com

إلى هنا وضح أمامك طريقا السلف والخلف، وقد كان هذان الطريقان مثار خلاف شديد بين علماء الكلام من أئمَّة المسلمين، وأخذ كلٌّ يدعم مذهبه بالحجج والأدلَّة، ولو بحثت الأمر لعلمت أنَّ مسافة الخُلْف بين الطريقين لا تحتمل شيئًا من هذا لو ترك أهل كلٍّ منهما التطرُّف والغلُوَّ، وأنَّ البحث في مثل هذا الشأن، مهما طال فيه القول، لا يؤدي في النهاية إلَّا إلى نتيجة واحدة، وهي التفويض لله تبارك وتعالى، وذلك ما سنفصله لك إنْ شاء الله تعالى.

بين السلف والخلف:

قد علمت أنَّ مذهب السلف في الآيات والأحاديث الَّتي تتعلق بصفات الله ﷻ أنْ يمروها على ما جاءت عليه، ويسكتوا عن تفسيرها أو تأويلها؛ وأنَّ مذهب الخلف أنْ يؤوِّلوها بما يتفق مع تنزيه الله تبارك وتعالى عن مشابهة خلقه. وعلمت أنَّ الخلاف شديد بين أهل الرأيين حتَّى أدَّى بينهما إلى التنابز بالألقاب العصبية؛ وبيان ذلك من عدَّة أوجه:

أولًا: اتَّفق الفريقان على تنزيه الله تبارك وتعالى عن المشابهة لخلقه.

ثانيًا: كلٌّ منهما يقطع بأنَّ المراد بألفاظ هذه النصوص في حقِّ الله تبارك وتعالى غير ظواهرها الَّتي وضعت لها هذه الألفاظ في حقِّ المخلوقات، وذلك مترتَّب على اتِّفاقهما على نفي التشبيه.

ثالثًا: كل من الفريقين يعلم أنَّ الألفاظ توضع للتعبير عمَّا يجول في النفوس، أو يقع تحت الحواس ممَّا يتعلَّق بأصحاب اللغة وواضعيها، وأنَّ اللغات، مهما اتَّسعت، لا تحيط بما ليس لأهلها بحقائقه علم، وحقائق ما يتعلَّق بذات الله تبارك وتعالى من هذا القبيل، فاللغة أقصر من

QaradawiBooks.com

أنْ تواتينا بالألفاظ الَّتي تدلُّ على هذه الحقائق، فالتحكم في تحديد المعاني بهذه الألفاظ تغرير.

وإذا تقرَّر هذا فقد اتَّفق السلف والخلف على أصل التأويل، وانحصر الخلاف بينهما في أنَّ الخلف زادوا تحديد المعنى المراد، حيثما ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك حفظًا لعقائد العوام من شبهة التشبيه، وهو خلاف لا يستحقُّ ضجَّةً ولا إعناتًا.

ترجيح مذهب السلف:

قال الشيخ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ونحن نعتقد أنَّ رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى: أسلم وأولى بالاتباع، حسمًا لمادة التأويل والتعطيل؛ فإن كنت ممَّن أسعده الله بطمأنينة الإيمان، وأثلج صدره ببرد اليقين، فلا تعدل به بديلًا»[(١)] اهـ.

ونعتقد إلى جانب هذا أنَّ تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق، ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديمًا وحديثًا، وصدْر الإسلام أوسع من هذا كله. وقد لجأ أشد النَّاس تمسُّكًا برأي السلف، رضوان الله عليهم، إلى التأويل في عدَّة مواطن، وهو الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]؛ من ذلك تأويله لحديث: «**الحجرُ الأسودُ يمين الله في أرضه**»[(٣)]، وقوله ﷺ:

(١) رسالة العقائد صـ ٤١١ ـ ٤١٧، ضمن مجموعة رسائل الإمام.

(٢) نقل ذلك الإمام الغزالي في الإحياء عن بعض الحنابلة في زمنه (١٠٤/١)، وأنكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٩٨/٥).

(٣) رواه ابن خزيمة في المناسك (٢٧٣٧)، والطبراني في الأوسط (٥٦٣)، والحاكم في الصوم =

QaradawiBooks.com

«**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن**»[١]، وقوله ﷺ: «**إنِّي لأجدُ نَفَسَ الرحمٰن من جانب اليمن**»[٢].

وقد رأيت للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ ما يفيد قرب مسافة الخلاف بين الرأيين ممَّا لا يدع مجالًا للنزاع والجدال، ولا سيَّما وقد قيَّد الخلف أنفسهم في التأويل بجوازه عقلًا وشرعًا، بحيث لا يصطدم بأصل من أصول الدين[٣].

قال الرازي في كتابه «أساس التقديس»: «ثم إنْ جوَّزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإنْ لم نجز التأويل فوَّضنا العلم بها إلى الله تعالى، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات، وبالله التوفيق»[٤].

= (٤٥٧/١)، وصحَّحه، وقال الذهبي: ابن المؤمل واهٍ. والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٢٩)، ضمن حديث بلفظ: «وهو يمين الله التي يصافح بها خلقه»، وقال: في إسناد الحديث ضعف. عن عبد الله بن عمرو. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٣٩/٧)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١٧/٥٢)، عن جابر، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٧٧٢) باللفظ المذكور، بزيادة: «يصافح بها عباده» الحديث. رواه عبد الرزاق في المناسك (٨٩١٩) موقوفًا على ابن عباس. وقال ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٢٣٩/٥): معروف من كلام ابن عباس، وروي مرفوعًا، وفي رفعه نظر.

(١) سبق تخريجه صـ٤٢٤.

(٢) رواه أحمد (١٠٩٧٨)، وقال مُخرِّجوه: فيه نكارة، فقد تفرَّد به شبيب ـ وهو ابن نعيم ـ وشبيب هذا روى عنه أربعة، منهم اثنان فيهما جهالة حال، ولم يؤثَرْ توثيقه عن غير ابن حبان، وباقي رجال الإسناد ثقات. عن أبي هريرة. وذكره الألباني في الضعيفة (١٠٩٧)، بلفظ: «من قِبَل اليمن»، ثم تراجع وصحَّحه في الصحيحة (٣٣٦٧).

(٣) شرح النووي لمسلم (٢٠٤/١٦)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

(٤) أساس التقديس صـ ١٣٠.

QaradawiBooks.com

وخلاصة هذا البحث أنَّ السلف والخلف قد اتَّفقا على أنَّ المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة، واتفقا كذلك على أنَّ كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعيَّة غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، وهو هيِّن كما ترى، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم.

وأهم ما يجب أنْ تتوجَّه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، والله حسبنا ونعم الوكيل[1] انتهى.

أوجه اعتراض الإخوة السلفيين على البنَّا:

والإخوة السلفيُّون ـ عفا الله عنا وعنهم ـ يعترضون على كلام الإمام البنَّا من عدَّة أوجه:

الأوَّل: أنَّه اعتبر موقف السلف هو السكوت عن بيان المعنى، وتفويض معرفته إلى الله تبارك وتعالى، فالبشر أعجز من أنْ يحيطوا بصفاته ﷻ. وهم ينكرون نسبة هذا التفويض إلى السلف، ويقولون: إنَّ موقف السلف هو: الإثبات وليس التفويض.

الثاني: محاولته التقريب بين الموقفين، وأنَّ الشُّقَّة ليست بعيدة جدًّا بينهما؛ لأنَّ موقف السلف فيه تأويل في الجملة.

الثالث: هو عدم تأثيم وتضليل المؤوِّلين من الخلف، والتماس الأعذار لهم، مع خروجهم عن سلف الأُمَّة من الصحابة وتابعيهم بإحسان.

(١) رسالة العقائد ضمن مجموعة رسائل الإمام صـ ٤١١ ـ ٤١٨.

QaradawiBooks.com

وسأُبَيِّن فيما يلي سلامة موقف الشيخ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وأنَّه لم يجاوز الصواب فيما ذهب إليه من هذه الأوجه، وأنَّه لم يبتدع هذا الكلام من عنده، بل هو متَّبع لأئمَّة كبار، وصلوا إلى ما وصل إليه.

التفويض والإثبات:

أمَّا الوجه الأوَّل، وهو نسبة التفويض إلى السلف، فليس هذا موقف البنَّا وحده، إنَّما هو الموقف المروي عن كثير من الأئمة والعلماء الكبار.

وقد بيَّن ذلك بوضوح وتفصيل علامة الحنابلة في عصره، الشيخ مرعي بن يوسف، الكرمي المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة (١٠٣٢هـ)، وذلك في كتابه القيم «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات». فقد قال بعد كلام عن المحكم والمتشابه، والتأويل وعدمه: «إذا تقرَّر هذا فاعلم: أنَّ من المتشابهات، آيات الصفات الَّتي التأويل فيها بعيد، فلا تؤول ولا تفسر.

وجمهور أهل السُّنَّة منهم السلف وأهل الحديث، على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسِّرها، مع تنزيهنا له عن حقيقتها.

فقد روى الإمام اللالكائي الحافظ عن محمَّد بن الحسن قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى الغرب، على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه[1].

وقد روى اللالكائي أيضًا في «السُّنَّة» بسنده عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قالت: «الاستواء معلوم،

(١) أصول اعتقاد أهل السُّنَّة (٧٤٠).

QaradawiBooks.com

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، والبحث عنه كفر»[١].

وهذا له حكم الحديث المرفوع[٢]؛ لأنَّ مثله لا يقال من قبيل الرأي.

وقال الإمام الترمذي في الكلام على حديث الرؤية[٣]: المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة، مثل سفيان الثوري وابن المبارك، ومالك، وابن عيينة، ووكيع وغيرهم أنَّهم قالوا: نروي هذه الأحاديث كما جاءت، ونؤمن بها، ولا يقال: كيف؟ ولا نفسر، ولا نتوهم»[٤].

قال الشيخ مرعي:

«وذكرت في كتابي «البرهان في تفسير القرآن» عند قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وبعد أنْ ذكرت مذاهب المتأولين: أنَّ مذهب السلف هو عدم الخوض في مثل هذا، والسكوت عنه وتفويض علمه إلى الله تعالى.

قال ابن عبَّاس: «هذا من المكتوم الَّذي لا يُفَسَّر»، فالأولى في هذه الآية وما شاكلها أنْ يؤمن الإنسان بظاهرها، ويكل علمها إلى الله تعالى، وعلى ذلك مضت أئمَّة السلف.

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٦٦٣).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا ومرفوعًا، ولكن ليس إسناده مما يُعتمد عليه. مجموع الفتاوى (٣٦٥/٥). أقول: ودعوى أنَّ هذا لا يقال من قبيل الرأي: فيها نظر، وقد روي مثله عن مالك.

(٣) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٧)، وحسَّنه، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢٥)، عن أبي هريرة.

(٤) الإتقان للسيوطي (١٥/٣).

QaradawiBooks.com

وكان الزهـــري ومالك والأوزاعي وســـفيان والليث بن ســـعد وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق يقولون في هذه الآية وأمثالها: أَمِرُّوها كما جاءت[١].

وقال سفيان بن عُيَيْنة وناهيك به: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه، ليس لأحد أنْ يفسره إلَّا الله ورسوله[٢].

وسئل الإمام ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات، فقال: ولم يكن أئمَّة المســـلمين وأرباب المذاهب أئمَّة الدين، مثل مالك وســـفيان والأوزاعي والشـــافعي وأحمد وإســـحاق ويحيى بن يحيى وابن المبارك وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف يتكلَّمون في ذلك، وينهون أصحابهم عن الخوض فيه، ويدلُّونهم على الكتاب والسُّنَّة.

وسمع الإمام أحمد شخصًا يروي حديث النزول، ويقول: ينزل بغير حركة ولا انتقـــال ولا تغير حال: فأنكر أحمد ذلـــك، وقال: قلْ كما قال رسول الله ﷺ، فهو كان أغير على ربِّه منك!»[٣] انتهى.

فهذه النقول كلها تدلُّ بجلاء على أنَّ السلف لم يكونوا يخوضون في تفســـير هذه النصوص، بل كانوا يســـكتون عنها، ويمرُّونها كما جاءت،

(١) قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، عن الأحاديث التي فيها الصفات، فكلهم قال أمرُّوها كما جاءت بلا تفسير. الموطأ (٢٥٢/١) تحقيق الأعظمـــي. وانظر: جامع بيان العلـــم وفضله (٩٤٣/٢، ٩٤٤)، تحقيق أبي الأشـــبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل في تفسير القرآن (٢٦٩/١)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٣) انظر: أقاويل الثقات صـ ٦٠ ـ ٦٣، تحقيق شعيب الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

QaradawiBooks.com

ويفوِّضون معناها إلى الله تبارك وتعالى؛ لعلمهم أنَّ عقل الإنسان محدود، وعلمه قاصر، وقد قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

التقريب بين السلف والخلف:

وأما محاولة التقريب بين السلف والخلف، فليس الأستاذ البنَّا أوَّل من حاول ذلك، فقد وجدنا من كبار القدامى والمحدثين من اجتهد في ذلك، ومنهم العلَّامة الواسطي السلفي الصوفي (ت: ٧١٢هـ) الَّذي كان الإمام ابن تيمية يسميه «جُنيد زمانه» في رسالته «النصيحة»[(١)]، وقد تحدَّث فيها عن معنى «العلو» و«الفوقية» الَّتي يثبتها السلف لله تعالى، فقال كلامًا في غاية الروعة والقوة، وقرَّب هذا الأمر تقريبًا كاد يذيب الفوارق بين الفريقين.

وقد نقل خلاصة ذلك العلَّامة السَّفَّاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ) في كتابه الشهير في العقائد: «لوامع الأنوار البهية»[(٢)]، ونقلها عنه مؤيِّدًا: العلَّامة السيِّد رشيد رضا في «تفسير المنار»، في تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران. ثمَّ قال: إنَّ ما ذكر يشبه تأويل المتكلمين في قولهم: إنَّ العلو علو المرتبة، أو هو هو! وأقر الشيخ رشيد أنَّه يتَّفق معه في الجوهر، ولكنَّه يفارقه بعدم حظر استعمال ما جاءت به النصوص للعامة والخاصة مع اعتقاد التنزيه[(٣)] انتهى.

(١) النصيحة في صفات الرب صـ ١٨ وما بعدها، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٤هـ.

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢١٠/١ ـ ٢١١)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

(٣) تفسير المنار (١٦٩/٣ ـ ١٧١)، نشر الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

QaradawiBooks.com

المسافة إذن ليســت بعيدة بين الفريقين، كما يتصوَّر بعض الكاتبين أو يصوِّرون، من المتحمِّسين من كلا الفريقين.

ونقرأ للمصلح السلفي العلامة جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ) في تفســيره المعروف «محاســن التأويل» قوله: «قال ابن كثير في قوله تعالى في ســورة الفجر: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الآية: ٢٢]: أي وجاء الربُّ تبارك وتعالى، لفصل القضاء، كما يشاء، والملائكة بين يديه صفوفًا صفوفًا.

وسبقه ابن جرير إلى ذلك، وعضده بآثار عن ابن عبَّاس وأبي هريرة والضحاك فــي نزوله تعالــى من الســماء يومئذٍ في ظلل مــن الغمام، والملائكة بين يديه، وإشراق الأرض بنور ربها.

ومذهب الخلف في ذلــك معروف، من جعل الــكلام على حذف مضاف، للتهويل. أي جاء أمره وقضاؤه. أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه.

قال الزمخشري: مثلت حاله في ذلك، بحال الملك إذا حضر بنفسه، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم[1] انتهى».

قال العلامة القاسمي معلِّقًا: «وكأنَّ الخلاف بين المذهبين لفظي؛ إذ مبنى مذهب الخلف على أنَّ الظاهر غير مراد.

ويعنون بالظاهر: ما للخلق ممَّا يستحيل على الخالق، فوجب تأويله، وأما الســلف فينكرون أنَّ معنى الظاهر منها ما للخلق. بل هو ما يتبادر

(١) الكشاف (٧٥١/٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

QaradawiBooks.com

إلى فهم المؤمن الَّذي يعلم أنَّ ذاته تعالى، كما أنَّها لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات؛ لأنَّها لا تكيف ولا تعلم بوجه ما، فهي حقيقة بالنسبة إليه سبحانه على ما يليق به. كالعلم والقدرة، لا تمثيل ولا تعطيل.

قال الإمام ابن تيمية رضي الله عنه: واعلم أنَّ من المتأخِّرين من يقول: إنَّ مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به، مع اعتقاد أنَّ ظاهرها غير مراد. وهذا لفظ مجمل، فإنَّ قوله: «ظاهرها غير مراد» يحتمل أنَّه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين، مثل أنْ يراد بكون الله قبل وجه المصلي، أنَّه مستقر في الحائط الَّذي يصلي إليه، و«إنَّ الله معنا» ظاهره أنَّه إلى جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أنَّ هذا غير مراد، ومن قال: إنَّ مذهب السلف أنَّ هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ في إطلاق القول بأنَّ هذا ظاهر الآيات والأحاديث، فإنَّ هذا المحال ليس هو الظاهر، على ما قد بيَّنَّاه في غير هذا الموضع، اللهمَّ إلَّا أنْ يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس، فيكون القائل لذلك مصيبًا بهذا الاعتبار، معذورًا في هذا الإطلاق، فإنَّ الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية[1] انتهى.

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في «الرسالة المدنيَّة» وأوضح أنَّ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذي حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفيَّة.

(١) مجموع الفتاوى (١٠٨/٥).

QaradawiBooks.com

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض فتاويه: نحن نقول بالمجاز الَّذي قام دليله، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منَّا، أنَّا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب، إلى هدم السُّنَّة والكتاب، واللحاق بمحرِّفة أهل الكتاب، والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه: أنَّ القرآن مشتمل على المجاز، ولم يعرف عن غيره من الأئمة نصٌّ في هذه المسألة، وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم، كأبي بكر بن أبي داود، وأبي الحسن الخرزي، وأبي الفضل التميمي، وابن حامد، فيما أظن، وغيرهم، إلى إنكار أنْ يكون في القرآن مجاز، وإنَّما دعاهم إلى ذلك ما رأوه من تحريف المحرِّفين للقرآن بدعوى المجاز، فقابلوا الضلال والفساد، بحسم المراد، وخيار الأمور التوسط والاقتصاد»[1] انتهى.

وبهذا نرى أنَّ حسن البنَّا لم يحد عن نهج الأئمة المحققين، الَّذين يحرصون على البناء لا الهدم، وعلى الجمع لا التفريق.

عدم تأثيم المؤوِّلين وتضليلهم:

وأما الوجه الثالث، وهو عدم الحكم بالإثم أو الفسق ـ فسق التأويل ـ أو الضلال على المؤوَّلين، فهذا هو توجُّه شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه، وتوجُّه تلميذه الإمام ابن القيِّم، في عدم تأثيم المخطئ في تأويله في المسائل الأصوليَّة أو العلميَّة، ويراد بها: المسائل المتعلقة بالعقائد وأصول الدين.

(١) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي (٤٧٢/٩، ٤٧٣)، تحقيق محمد باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

QaradawiBooks.com

وقد ردَّ ابن تيمية على الَّذين عذروا المخطئين في الاجتهاد في الأحكام الفرعية العمليَّة، بل جعلوا لهم أجر المجتهد المخطئ، ولم يعدوا ذلك إلى من اجتهد في المسائل العلميَّة أو الاعتقاديَّة، فأخطأ. وأكد أنَّ كل عالم اجتهد في طاعة الله ورسوله، والفهم عنهما، في مسائل العلم أو العمل، الفروع أو الأصول، فأخطأ في اجتهاده أو أصاب، فهو دائر بين الأجر والأجرين.

وكان من فضل الشيخ مرعي في كتابه «أقاويل الثقات» الَّذي نقلنا منه من قبل: أنَّه لم يتعقَّب بعض النقول الَّتي أوردها في كتابه، وهي بمنأى عن منهج السلف الَّذي صرَّح بالأخذ به، والعدول عما سواه، ولا سيَّما في نقله عن الإمام ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) الَّذي اضطرب رأيه في مسألة الصفات، فمرَّة ينحو منحى السلف في الإثبات، وتارة يخالفهم، ويجنح إلى التأويل، وهو متابع في ذلك شيخه أبا الوفاء ابن عقيل الَّذي جالس المعتزلة، وتأثر بهم، ووافقهم في بعض ما ذهبوا إليه، ومع هذا كان موضع التَبجِلَّة والتقدير من الحنابلة وغيرهم من علماء الأُمَّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «درء تعارض العقل والنقل» (٦٠/٨، ٦١): ولابن عقيل أنواع من الكلام، فإنَّه كان من أذكياء العالم، كثير الفكر والنظر في كلام الناس، فتارة يسلك مسلك نفاة الصفات الخبرية، وينكر على من يسمِّيها صفات، ويقول: إنَّما هي إضافات، موافقة للمعتزلة، كما فعله في كتابه «ذمُّ التشبيه وإثبات التنزيه» وغيره من كتبه، واتبعه على ذلك أبو الفرج ابن الجوزي في «كفِّ التشبيه بكفِّ التنزيه»[1]، وفي كتابه «منهاج الوصول»، وتارة يثبت الصفات الخبرية،

(١) حقَّقه ونشره الشيخ محمد زاهد الكوثري وقدم له الشيخ محمد أبو زهرة بعنوان دفع شبهة التشبيه بأكف التنزيه، وطبع بالقاهرة، وهناك طبعة أخرى بتحقيق حسن السقاف.

QaradawiBooks.com

ويرد على النفاة والمعتزلة بأنواع من الأدلة الواضحات، وتارة يوجب التأويل، كما فعله في كتابه «الواضح» وغيره، وتارة يحرِّم التأويل ويذمُّه، وينهى عنه كما فعله في كتابه «الانتصار لأصحاب الحديث» فيوجد في كلامه من الكلام الحسن البليغ ما هو معظم ومشكور، ومن الكلام المخالف للسنة والحق ما هو مذموم ومدحور[1] انتهى.

وإذا كنا نعيب على بعض السلفيين غلوهم في تكفير بعض المسلمين من المؤولين وغيرهم، أو تفسيقهم وتأثيمهم، فإنَّا نعيب كذلك على بعض مخالفيهم الغلو في اتهام هؤلاء السلفيين ـ بل أئمتهم وشيوخهم ـ بالضلال والمروق، وتقويلهم ما لم يقولوه في دين الله، ورميهم بالتجسيم والتشبيه وهم يبرؤون منهما في كل ما كتبوه، حتَّى قالوا عن الإمام الرباني، علَّامة الأُمَّة، شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يجوز ولا يقبل أنْ يقال بحال من الأحوال.

وإنِّي أشارك الأخ الشيخ شُعَيْب الأرناؤوط كلمته الَّتي وجَّهها في مقدمة تحقيقه لكتاب الشيخ مرعي «أقاويل الثقات» ووجَّه فيها النصح مخلصًا إلى الَّذين قضوا شوطًا من حياتهم في قراءة كتب الخلف، وتمرَّسوا بها، ولم يدَّخروا شيئًا من الوقت للنظر في الكتب الَّتي تناولت مذهب السلف بالبيان والشرح، وعرضته بأمانة وصدق، ودللت على صحته بالأدلة العقليَّة والنقلية المقنعة، حتَّى يتاح لهم المقارنة بين المذهبين، واختيار ما هو أحكم، وأسلم، وأعلم، لو أنَّهم فعلوا ذلك

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/٦٠، ٦١)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، وانظر: أقاويل الثقات السابق، من مقدمة الشيخ شعيب صـ ٢٣، ٢٤.

QaradawiBooks.com

لكان خيرًا لهم ولأتباعهم الَّذين يأخذون عنهم، لو أنَّهم يتأثرون بهم، ولكانوا يكفون ألسنتهم عن تقويل العلماء الأثبات الَّذين انتهجوا منهج السلف، وألفوا فيه، ودافعوا عنه ما لم يقولوه، وإلزامهم بتلك الأقوال الَّتي نسبوها إليهم والحكم عليهم بموجب تلك الإلزامات بالكفر والمروق، والشذوذ.

مع أنَّ هؤلاء الأئمة ينفون تلك الإلزامات بصريح القول ومنطوقه في كتبهم الَّتي تناولوا فيها مسألة الصفات وغيرها من مسائل الاعتقاد.

وأهل العلم متفقون على أنَّه لا يجوز التكفير باللوازم، لا سيَّما إذا كان المطعون فيه يصرِّح بنفيها وردِّها.

ولا أدري كيف يجرؤ طالب العلم على الحكم بالكفر والمروق والشذوذ على من كان له سابقة فضل في الإسلام وأهله بما حباه الله من علم وفضل وتقوى، وبما دبجته براعته من العلوم المختلفة النافعة الَّتي تحيي موات القلوب، وتبصر النَّاس بمراشد الحق ومهيع الصدق، مع أنَّه ليس له مستند في الحكم عليه بذلك إلَّا نقول مبتسرة مشوَّهة من كتبه، نقلها عنه من كان في قلبه عليه عداوة وحقد، وأقامها على الوجه الَّذي يروق له، بغية التشويه والتهويش، وتنفير النَّاس من علمه، وإضعاف الثقة به.

وممَّا يزيد الطين بِلَّة أنَّ هؤلاء الطلبة يتشبَّثون بتلك الأقوال، ولا يُكَلِّفون أنفسهم عناء البحث في مراجعتها في مظانِّها الموثوقة[1]، ليتبيَّن لهم وجه الحقِّ، وقول الصدق، وليشهدوا بأنفسهم تدليس هؤلاء الحاقدين وتحريفهم، وافتراءهم.

(١) الأولى أنْ يقال: الموثوق بها، أو الموثقة.

QaradawiBooks.com

وهم إلى ذلك لا يلقون بـــالًا، ولا يعيرون اهتمامًا لما حكاه العلماء الثقات الَّذين عاصروا ذلـــك الإمام وخالطوه في بيـــان عظم إمامته في الدين والعلم، والفضل والصلاح، والسداد والاستقامة.

وما أظن أنَّ أي طالب علم يستشـــعر خـــوف الله، ويتحلَّى بالتقوى والإنصاف يرتضي لنفســـه أنْ يقـــف إلى صف هذا النفـــر الحاقد الَّذي يمضي على غير هدى، ويلتمس للبرآء العيب، ويتهالك عصبيةً وحقدًا. ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][1].

اتباع نهج القرآن في عدم التجميع:

وأريد أنْ أنبِّه هنا على حقيقـــة ذات أهمية كبيرة في قضيَّة الصفات، والإيمان بها، وتعليمها للناس على مذهب السلف.

وتلك الحقيقـــة: أنْ تعرض هذه الصفات كمـــا وردت في كتاب الله تعالى وسنة رســـوله ﷺ، أعني أنْ تذكر مفرَّقة لا مجموعة، فكل مسلم يؤمن بها ويثبتها لله تعالى كما جاءت.

فليس ممَّا يوافق الكتاب والسُّنَّة جمعها في نسق واحد، يوهم تصوُّر ما لا يليق بكمال الله تعالى، كما يقول بعضهـــم: يجب أنْ تؤمن بأن لله تعالى وجهًا، وأعينًا، ويدين، وأصابع، وقدمًا، وســـاقًا، إلخ. فإنَّ سياقها مجتمعة بهذه الصورة قد يوهم بأنَّ ذات الله تعالى وتقدَّس كلٌّ مركَّب من أجزاء، أو جسم مكوَّن من أعضاء.

(١) انظر: مقدمة الشيخ شعيب لأقاويل الثقات صـ ٢٤ ـ ٢٥.

QaradawiBooks.com

ولم يعرضها القرآن الكريم ولا الحديث الشريف بهذه الصورة، ولم يشترط الرسول لدخول أحد في الإسلام أنْ يؤمن بالله تعالى بهذا التفصيل المذكور.

ولم يرد أنَّ الصحابة وتابعيهم بإحسان كانوا يعلِّمون النَّاس العقيدة بجمع هذه الصفات، كما تجمع في بعض الكتب المؤلفة في ذلك.

ولكن المسلم إذا قرأ القرآن الكريم، أو الحديث الصحيح، وانتهى إلى آية مشتملة على صفة من هذه الصفات، أو إلى حديث من هذا النوع، آمن به كما ورد، دون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وبهذا يكون سلفيًّا حقًّا؛ لأنَّه لم يعدُ ما كان عليه الصحابة والتابعون وخير القرون في هذه الأُمَّة.

الإخوان والأشاعرة:

واتِّهام الإخوان بأنَّهم من الأشاعرة، لا ينتقص من قدرهم، فالأُمَّة الإسلاميَّة في معظمها أشاعرة أو ماتريدية، فالمالكية والشافعية أشاعرة، والحنفية ماتريدية.

والجامعات الدينيَّة في العالم الإسلامي أشعرية أو ماتريدية: الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، وديوبند في الهند، وغيرها من المدارس والجامعات الدينيَّة.

فلو قلنا: إنَّ الأشاعرة ليسوا من أهل السُّنَّة، لحكمنا بالضلال على الأُمَّة كلها، أو جلِّها، ووقعنا فيما تقع فيه الفرق الَّتي نتَّهمها بالانحراف.

ومن ذا الَّذي حمل لواء الدفاع عن السُّنَّة ومقاومة خصومها طوال العصور الماضية غير الأشاعرة والماتريديَّة؟

QaradawiBooks.com

وكل علمائنا وأئمتنا الكبار كانوا من هؤلاء: الباقلاني، الإسفراييني، إمام الحرمين الجويني، أبو حامد الغزالي، الفخر الرازي، البيضاوي، الآمدي، الشهرستاني، البغدادي، ابن عبد السلام، ابن دقيق العيد، ابن سيد الناس، البلقيني، العراقي، النووي، الرافعي، ابن حجر العسقلاني، السيوطي، ومن المغرب: الطرطوشي والمازري والباجي وابن رشد «الجد» وابن العربي والقاضي عياض والقرطبي والقرافي والشاطبي وغيرهم.

ومن الحنفية: الكرخي والجصاص والدبوسي والسرخسي والسمرقندي والكاساني وابن الهمام وابن نجيم والتفتازاني والبزدوي وغيرهم.

والإخوة السلفيون الَّذين يذمُّون الأشاعرة بإطلاق: مخطئون متجاوزون، فالأشاعرة فئة من أهل السُّنَّة والجماعة، ارتضتهم الأُمَّة، لأنَّهم ارتضوا الكتاب والسُّنَّة مصدرًا لهم، ولا يضيرهم أنْ يخطئوا في بعض المسائل، أو يختاروا الرأي المرجوح أو حتَّى الخطأ، فهم بشر مجتهدون غير معصومين، ولا توجد فئة سلمت من الزلل والخطأ فيما اجتهدت فيه، سواء في مسائل الفروع أم في مسائل الأصول، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويُرَدُّ عليه إلَّا الرسول المعصوم ﷺ.

على أنَّ الحقيقة أنَّ الإخوان في اتجاههم العام ليسوا أشاعرة، ولا ضدَّ الأشاعرة، إنَّهم يستمدون عقائدهم من القرآن أولًا، ثمَّ من صحيح السُّنَّة ثانيًا، ويأخذون من كل طائفة أفضل ما عندهم، مرجِّحين ما يرجِّحه الدليل، وما يؤيِّده البرهان، مؤْثرين مذهب السلف على مذهب الخلف، غير متعصِّبين ولا منغلقين، داعين إلى التوحيد، بريئين من الشرك كلِّه، أكبره وأصغره، جليِّه وخفيِّه، ولله الحمد أولًا وآخرًا.

QaradawiBooks.com

٨

الإخوان والتصوُّف

الذين يعادون التصــوُّف من أنصار «الســلفيَّة الصارمــة»، يتَّهمون الإخوان بأنَّهم «جماعة صوفيَّة» ويستدلون لذلك بأنَّ حسن البنَّا نشأ في طريقة صوفيَّة، كما حدثنا بقلمه عن نفســه في مذكراته، وهي «الطريقة الحصافيَّة»، وبأنَّ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قال عن دعــوة الإخوان: إنَّها حقيقة صوفيَّة. وبأنَّ للتربية الصوفيَّة أثرها لدى الإخــوان في كثير من المظاهر، ومنها: المبالغة في حبِّ بعضهــم لبعض، والغلوِّ في تعظيم شــيخهم البنَّا إلى درجة التقديس، واعتبار رسائله وكلماته وكأنَّها وحيٌ منزل!

أمَّا جماعات «الطرق الصوفيَّة» فهم على العكس من ذلك تمامًا، فهم يرون الإخوان جماعة «ســلفيَّة وهابيَّة» تنكر علــى المتصوِّفة كثيرًا من أفكارهم وأذكارهم وسلوكياتهم، وتصف ذلك بأنَّه بدع وضلالات، مثل طوافهم حول أضرحة الأولياء، واستغاثتهم بهم، وعمل الموالد لهم، إلى آخر هذه الســلوكيات المعهودة عنــد الطرق الصوفيَّة في شــتَّى البلاد الإسلاميَّة.

والحقيقــة أنَّ دعوة الإخوان مزيــج رائع من «الســلفيَّة المتصوِّفة»، و«الصوفيَّة المتســلِّفة»، وهي كما شرحها مؤسِّســها رَحِمَهُ اللَّهُ دعوة سلفيَّة، وحقيقة صوفيَّة.

QaradawiBooks.com

هي دعوة سلفيَّة؛ لأنَّ الإخوان يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

وهي حقيقة صوفيَّة؛ لأنَّهم يعملون على أساس التزكية وطهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحبِّ في الله، والارتباط على الخير.

فهذا هو التصوُّف، وهذه هي الصوفيَّة الحقيقيَّة عند حسن البنَّا، إنَّها ليست الموالد والعوائد، وليست «الشركيات» في العقيدة، ولا «البدعيات» في العبادة، ولا «السلبيَّات» في التربية، الَّتي تجعل المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل!

التصوُّف الحقُّ عند حسن البنَّا يتمثَّل أوَّل ما يتمثل في طهارة النفس ونقاء القلب، فتزكية النفس هي أوَّل سبيل الفلاح: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

والقلب هو المضغة الَّتي إذا صلحت صلح الإنسان كله، وإذا فسدت فسد الإنسان كله، وسلامته أساس النجاة يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. فلا بدَّ من المجاهدة لنقاء هذا القلب وصفائه وطهارته من معاصي القلوب وأخطارها.

والمواظبة على العمل الصالح واجب على المسلم، فإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ.

والإعراض عن الخلق بالإقبال على الخالق: من صفات الربَّانيِّين من أصحاب الرسالات ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

QaradawiBooks.com

وهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهم لإعراضهم عن الخلق، لا يخافون لومة لائم منهم، ولا يخشون أحدًا إلَّا الله سبحانه؛ لأنَّهم يوقنون أنَّ الخلق لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا حياةً ولا موتًا، وأنَّ الأرزاق الَّتي يطمع النَّاس فيها، والأعمار الَّتي يخاف النَّاس عليها، كلتاهما بيد الله وحده، لا يملك أحد أنْ ينقصهم لقمة من رزقهم، ولا أنْ يقدِّم من أجلهم لحظة أو يؤخِّر ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والحبُّ في الله: دعامة من الدعائم الَّتي تقوم عليها الجماعة المؤمنة، فكما تربط بينها المفاهيم المشتركة، والفكرة الواحدة، تربط بين أبنائها العواطف المشتركة. وأعظم هذه العواطف وأخلدها وأعمقها هو الحب في الله. فهو حبٌّ لا يقوم على عرَض من الدنيا، أو مال أو جاه، أو متعة، أو نحو ذلك، بل يقوم على الإيمان بالله تعالى، والتقرُّب إليه، والرغبة في نصرة الإسلام، وأوثق عرا الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والارتباط على الخير من دلائل هذا التوجه الخير، وهذا الارتباط يعني: التفاهم والتواصي والتضامن على الخير فعلًا ونيَّة ودعوة. فقد قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال ﷻ: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «**من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله**»(١).

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٩٣)، وأحمد (١٧٠٨٤)، عن أبي مسعود الأنصاري.

QaradawiBooks.com

وقال ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى**»(١).

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

لقد استفاد الأستاذ البنَّا من تجربته الصوفيَّة، أخذ منها ما صفا، وترك ما كدر، وهو موقف كل الرجال الربانيين، كما رأينا عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيِّم، فلم يكونا ضدَّ التصوُّف بإطلاق، كما يتصوَّر أو يصوِّر بعض من يزعم الانتساب إلى مدرستهما، بل كانا من أهل المعرفة بالله، والحب له، ومن رجال التربية الإيمانيَّة والسلوك الرباني، كما بدا ذلك في مجلدين من «مجموع فتاوى ابن تيمية»، وفي عدد من كتب ابن القيِّم، أعظمها: «مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين».

بل كان الإمام أبو الفرج ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) من هؤلاء الربانيين، برغم نقده للتصوف بعنف في كتابه الشهير «تلبيس إبليس».

وظهرت استفادة البنَّا في مظاهر شتَّى في حركته، منها في شعارات الحركة: الله غايتنا، والرسول قدوتنا، أي أنَّ رضوان الله هو غاية الغايات من وراء الدعوة والعمل كله. كما نرى ذلك واضحًا في جملة من أركان الدعوة أو أركان البيعة، مثل: الإخلاص، والتجرد، والأخوة، والعمل، والجهاد، والثبات، والثقة.

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

وكثير من دعاة الإخوان نجد عندهم ما ليس عند غيرهم من الذوق الوجداني، والشوق الإيماني، والتألُّق النوراني، والتوجُّه الرباني، الَّذي يجعل كلامهم يمس شغاف القلوب، ويلمس أوتار الأرواح، فيؤثر فيها رغبة ورهبة، وجدنا ذلك عند شيخنا البهي الخولي في كتابه «تذكرة الدعاة» وحديثه الفيَّاض فيه عن «الروحانيَّة الاجتماعيَّة»، وكتابه «آدم عليه السلام» ومقالاته في مجلة «المسلمون» عن «العارفين» وحديثه معنا في طنطا قديمًا، ونحن طلاب، في «كتيبة الذبيح» يعني إسماعيل عليه السلام.

ووجدنا ذلك عند الداعية المحبوب، الَّذي كان في شبابه شعلة متقدة: سعيد رمضان، ووجدنا ذلك عند شيخنا محمَّد الغزالي، كما بينت ذلك في كتابي عنه «الغزالي كما عرفته»، ووجدنا ذلك في كتابات عبد العزيز كامل قديمًا، والتلمساني ومشهور والسيسي وغيرهم. وقد بدأنا منذ سنوات كتابة سلسلة «في الطريق إلى الله» أصدرنا فيها أربعة كتب عن «الحياة الربانيَّة والعلم» وعن «النية والإخلاص» و«التوكل» و«التوبة إلى الله»، ونسأل الله أنْ يعيننا على إكمالها، ونحن نسير فيها إلى «تصويف السلفيَّة» و«تسليف الصوفيَّة» كما قال الأستاذ محمَّد المبارك رحمه الله.

ومن أبرز ما يتميَّز به الصوفيَّة الصادقون ثلاثة أشياء: الاستقامة، والمحبَّة، وطاعة الشيخ، وهذه مقومات أساسيَّة في التربية الإخوانيَّة.

وللأستاذ البنَّا رأي في التصوُّف والصوفيَّة سجَّله في مذكراته، يحسن بنا أنْ ننقله هنا، لما يعرِّفنا بموقف الرجل النظري والعملي من التصوُّف والطرق الصوفيَّة وأهلها، والرغبة في إصلاحها.

QaradawiBooks.com

رأي في التصوُّف للأستاذ البنَّا:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «حين اتَّسع عمران الدولة الإسلاميَّة صدر القرن الأوَّل، وكثرت فتوحها، وأقبلت الدنيا على المسلمين من كل مكان، وجبيت إليهم ثمرات كل شيء، وكان خليفتهم بعد ذلك يقول للسحابة في كبد السماء: شرِّقي أو غرِّبي فحيثما وقع مطرك جاءني خراجه، كان طبيعيًّا أنْ يقبلوا على هذه الدنيا يتمتعون بنعيمها ويتذوَّقون حلاوتها وخيراتها في اقتصاد أحيانًا وفي إسراف أحيانًا أخرى، وكان طبيعيًّا أمام هذا التحوُّل الاجتماعي، من تقشف عصر النبوة الزاهدة إلى لين الحياة ونضارتها فيما بعد ذلك: أنْ يقوم من الصالحين الأتقياء العلماء الفضلاء دعاة مؤثِّرون يزهِّدون النَّاس في متاع هذه الحياة الزائل، ويذكِّرونهم بما قد ينسونه من متع الآخرة الباقي: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. ومن أوَّل هؤلاء الَّذين عُرفت عنهم هذه الدعوة الإمام الواعظ الجليل الحسن البصري، وتبعه على ذلك كثير من أضرابه الدعاة الصالحين، فكانت طائفة في النَّاس معروفة بهذه الدعوة إلى ذكر الله واليوم الآخر، والزهادة في الدنيا، وتربية النفوس على طاعة الله وتقواه.

وطرأ على هذه الحقائق ما طرأ على غيرها من حقائق المعارف الإسلاميَّة، فأخذت صورة العلم الَّذي ينظم سلوك الإنسان، ويرسم له طريقًا من الحياة خاصًّا، مراحله: الذكر والعبادة ومعرفة الله، ونهايته: الوصول إلى الجنة ومرضاة الله.

وهذا القسم من علوم التصوُّف ـ وأُسَمِّيه «علوم التربية والسلوك» ـ لا شكَّ أنَّه من لبِّ الإسلام وصميمه، ولا شك أنَّ الصوفيَّة قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها، والطب لها والرقيِّ بها، لم يبلغ إليها

QaradawiBooks.com

غيرهم من المربين، ولا شك أنَّهم حملوا النَّاس بهذا الأسلوب على خطة عمليَّة من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه، وصدق التوجه إليه، وإن كان ذلك لم يخل من المبالغة في كثير من الأحيان، تأثرًا بروح العصور الَّتي عاشت فيها هذه الدعوات، كالمبالغة في الصمت والجوع والسهر والعزلة. ولذلك كله أصل في الدين يُرَدُّ إليه، فالصمت أصله الإعراض عن اللغو، والجوع أصله التطوع بالصوم، والسهر أصله قيام الليل، والعزلة أصلها كفُّ الأذى عن النفس ووجوب العناية بها. ولو وقف التطبيق العملي عند هذه الحدود الَّتي رسمها الشارع لكان في ذلك كل خير.

ولكن فكرة الدعوة الصوفيَّة لم تقف عند حدِّ علم السلوك والتربية، ولو وقفت عند هذا الحد لكان خيرًا لها وللناس، ولكنَّها جاوزت ذلك بعد العصور الأولى إلى تحليل الأذواق والمواجد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة إلى الزهد والتقشف، والرغبة في الحصول على هذه النتائج الرُّوحيَّة الباهرة.

وأصبح كل ما يكتب أو يقال في هذه الناحية يجب أنْ يكون محل نظر دقيق من الناظرين في دين الله والحريصين على صفائه ونقائه.

وجاء بعد ذلك دور التشكيل العملي للفكرة، فنشأت فرق الصوفيَّة وطوائفهم، كلٌّ على حسب أسلوبه في التربية. وتدخلت السياسة بعد ذلك لتتخذ من هذه التشكيلات تكأة عند اللزوم، ونظمت الطوائف أحيانًا على هيئة النظم العسكريَّة، وأخرى على هيئة الجمعيات الخاصة. حتَّى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم من هذه الصورة الأثرية الَّتي جمعت

QaradawiBooks.com

بقية ألوان هذا التاريخ الطويل، والَّتي يمثلها الآن في مصر «مشيخة الطرق الصوفيَّة» ورجالها وأتباعها.

ولا شك أنَّ التصوُّف والطرق كانت من أكبر العوامل في نشر الإسلام في كثير من البلدان، وإيصاله إلى جهات نائية ما كان إلَّا على يد هؤلاء الدعاة، كما حدث ويحدث في بلدان أفريقيا وصحاريها ووسطها، وفي كثير من جهات آسيا كذلك.

ولا شك أنَّ الأخذ بقواعد التصوُّف من ناحية التربية والسلوك له الأثر القوي في النفوس والقلوب، ولكلام الصوفيَّة في هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس. ولكن هذا الخلط أفسد كثيرًا من هذه الفوائد وقضى عليها.

من واجب المصلحين أنْ يطيلوا التفكير في إصلاح هذه الطوائف من الناس، وإصلاحُهُم سهل ميسور، وعندهم الاستعداد الكامل له، ولعلهم أقرب النَّاس إليه لو وُجِّهوا نحوه توجيهًا صحيحًا، وذلك لا يستلزم أكثر من أنْ يتفرغ نفر من العلماء الصالحين العاملين، والوعَّاظ الصادقين المخلصين، لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من هذه الثروة العلميَّة، وتخليصها ممَّا علق بها، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة.

وأذكر أنَّ السيِّد توفيق البكري رَحِمَهُ اللَّهُ فكر في ذلك، وقد عمل دراسات علميَّة عمليَّة لشيوخ الطرق، وألَّف لهم فعلًا كتابًا في هذا الباب، ولكن المشروع لم يتم ولم يهتم به مِن بعده الشيوخ، وأذكر من ذلك أنَّ الشيخ عبد الله عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ كان معنيًّا بهذه الناحية، وكان يطيل الحديث فيها مع شيوخ الأزهر وعلماء الدين، ولكنَّه كان مجرد تفكير نظري لا أثر للتوجُّه إلى العمل فيه. ولو أراد الله والتقتْ قوَّة الأزهر العلميَّة، بقوة الطرق

QaradawiBooks.com

الرُّوحيَّة، بقوة الجماعات الإسلاميَّة العمليَّة، لكانت أمة لا نظير لها، توجِّه ولا تتوجَّه، وتقود ولا تنقاد، وتؤثر في غيرها ولا يؤثر شيء فيها، وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل[١] اهـ.

وفي مقال قديم للأستاذ البنَّا[٢] تحدَّث عن التصوُّف في ضوء تعاليم الكتاب والسُّنَّة، وذلك في جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعيَّة، ننقل منه هذه الفقرات: حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «التصوُّف الإسلامي بمعناه الصحيح يستمد أصوله وقواعده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ككل علم إسلامي، وذلك هو الَّذي تظاهرت عليه أقوال شيوخه وأئمته.

قال الجُنَيد قدس الله سرَّه: عِلْمُنا هذا مقيَّد بالكتاب والسُّنَّة، فمن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه[٣].

وقال سهل بن عبد الله: بنيت أصولنا على ستَّة أشياء: كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ، وكفُّ الأذى، وأكل الحلال، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق[٤].

وقال أبو عثمان الحِيرِيُّ: من أمَّر السُّنَّة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة[٥].

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية للإمام حسن البنَّا صـ ١٥ ـ ١٧.

(٢) قدَّمه إليَّ ابننا وتلميذنا عصام تليمة مما جمعه من تراث الإمام الشهيد من المجلَّات القديمة.

(٣) عدة المريد الصادق لزروق صـ ٤٦، تحقيق الصادق بن عبد الرحمٰن الغرياني، نشر دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٩٠/١٠)، نشر مكتبة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٥) المصدر السابق (٢٤٤/١٠).

QaradawiBooks.com

وقال أبو القاسم النصرآبادي: أصل التصوُّف ملازمة الكتاب والسُّنَّة، وترك الأهواء والبدع[١].

والأقوال في ذلك كثيرة، حتَّى قال أبو الحسن الشاذلي: إذا استند كشف الولي إلى غير الكتاب والسُّنَّة، فهو كشف شيطاني ولا يؤخذ عنه ولا يُسلَّم.

والقاعدة عندهم أنَّ السُّنَّة هي الأصل؛ لأنَّ صاحبها صلوات الله وسلامه عليه معصوم من الخطأ، وما عداها تابع، لأن قائليه غير معصومين، فكل كلام غيرها يعرض عليها، فإنْ وافقها قبل وإلَّا رفض.

وقد صار النَّاس يطلقون كلمة صوفي، وابن طريق، وولي، ودرويش (وهي كلمة فارسية معناها: مريد أو ما يقرب من ذلك) على كل من ظهرت عليه علامات التقشف ورثاثة الثياب، وعدم العناية بنظافة الجسم، أو كل من ظهرت عليه دلائل البله بشؤون الحياة، أو كل من تكاسل عن أداء الفرائض الدينيَّة وارتكب المخالفات، وادَّعى لذلك أعذارًا مجهولة، كأنَّه يصلِّي في الكعبة، أو أنَّه ينظر في اللوح المحفوظ، فيرى أنَّ المعصية مقدَّرة عليه، فهو ينفِّذها لذلك، أو أنَّه وصل إلى درجة رفع عنه فيها التكليف، أو أنَّ حقائق الأشياء تنقلب له، فيصير الخمر ماءً، إلى غير ذلك من المزاعم.

وقد يستدلُّ بعضهم بما ينسب لبعض الشيوخ من قوله:

فَلَا تَلُمِ السَّكْرَانَ فِي حَالِ سُكْرِهِ فَقَدْ رُفِعَ التَّكْلِيفُ فِي سُكْرِنَا عَنَّا[٢]

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي (٩٨/١)، تعليق الشيخ محمد رشيد رضا، نشر المكتبة التجارية الكبرى.

(٢) هو القطب العارف الشيخ أبو مدين، كما في الدر الثمين والمورد المعين لمحمد بن أحمد ميارة صـ ٤٨، تحقيق عبد الله المنشاوي، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

QaradawiBooks.com

وقد علمت ممَّا سبق أنَّ التصوُّف بريء من هذه المزاعم مشيَّد بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وأنَّ الصوفي لا يكون صوفيًّا إلَّا بالتمسُّك بهما، والولي لا يكون وليًّا إلَّا إذا اهتدى بهديهما. فهما عماد الوصول، ومنار طريق السلوك، ولن يصل السالك إلى شيء من نور الهداية والمعرفة إلَّا بصدق التوجُّه والعمل بهما.

هذه أقوال المحققين من الصوفيَّة أنقلها إليك وهي قليل من كثير لتعلم كيف تعلق النَّاس بالأسماء وتركوا الحقائق، وأخذوا القشور ورموا اللباب.

وما أظرف قول قائل:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لُبْسَ الصُّوفِ تَرْقَعُهُ ... وَلَا بُكَاؤُكَ إِنْ غَنَّى الْمُغَنُّونَا
وَلَا صِيَاحٌ وَلَا رَقْصٌ وَلَا طَرَبٌ ... وَلَا اضْطِرَابٌ كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا
بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِلَا كَدَرٍ ... وَتَتْبَعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَا
وَأَنْ تُرَى خَاشِعًا لله مُكْتَئِبًا ... عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا[1]!

وقول الآخر:

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الطريقَ كِنَايَةٌ ... عن العَمَلِ الجاري على وَفْقِ شَرْعِنَا
وَذَبْحِ النُّفُوسِ الضَّارِيَاتِ بِمُدْيَةٍ ... مِنَ الْخَلْفِ حتَّى لا تَمِيلَ إلى الخَنَا[2]

فما أشدَّ الغفلة، وما أعظم سلطان الألفاظ!

---

(١) من شعر أبي الحسن علي بن الحسن ابن الطوبي، كما في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار (١٣٢/١٧، ١٣٣)، المطبوع مع تاريخ بغداد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

(٢) هو الشيخ محمد العمروسي، كما في الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة (١٢٨/٣)، شرح عبد اللطيف عبد الرحمٰن، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

وما أبعــدَ العُرْف عن الحقيقــة! فاعرفْ ذلك جيِّــدًا، واطلبْ لباب الأمور لتكون من الصادقين فــي الطلب، الواصلين إلى درجات القرب، إن شاء الله»[١] اهـ.

وقد أبديتُ رأيي في التصوُّف في فتويين من كتابي «فتاوى معاصرة» الجزء الأول[٢]، ووضَّحت موقفي أكثر وأكثر في مقدمة الجزء الأوَّل من سلســلة «في الطريق إلى الله» تحت عنوان «الحيــاة الربانيَّة والعلم»[٣]، فليراجعه من أراد.

أمَّا قول المعترضين على الإخوان بأنَّهــم يبالغون في حبِّ بعضهم لبعض، وأنَّ هذا من أثر التصوُّف عليهم، فهذه مزيَّة تُحْسَــب للإخوان، وليس عيبًا يؤخذ عليهم. وهذا الحب هو الَّذي نفع الإخوان في المحن الشدائد، الَّتي خاضوا لججها، واكتووا بنارها، فلم ينس بعضهم بعضًا، ولم يقل أحدهم: نفسي نفسي، بل كانوا يتقاسمون القليل في معتقلاتهم، وكان الإخوان في الخارج يعولون أسر إخوانهم المسجونين والمعتقلين، مضحِّين مغامرين، وكثيرًا ما ضُبطوا وقيِّدوا إلى المحاكمة وإلى السجون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله.

لقد قيل عن ترابط الإخوان وتوادِّهم وتعاطفهم في مصر: هذه الجماعة الَّتي إذا عطس أحدهم في الإسكندريَّة، قال مَنْ في أسوان: يرحمك الله!

وأذكر أنَّ الداعية الفقيه الشــيخ مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر لي: أنَّه سافر في سنواته الأخيرة للعلاج في أوربا، وكان يعاني من آلام مضنية،

(١) جريدة الإخوان الأسبوعية صـ ١٠٦ ـ ١٠٨، سنة ١٩٣٤م.

(٢) فتاوى معاصرة (١/٧٣٤ ـ ٧٤٣)، نشر دار القلم، الكويت، ط ٩، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

(٣) الحياة الربانية والعلم صـ ١٢ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

فوجد إخـــوة ينتظرونه في كل مطار ينزل به، ويرتبـــون له الأمور، يقول الشـــيخ: وأنا والله لا أعرفهم، ولا هم من وطني، ولكنَّه «الحب في الله» الَّذي تميزت به هذه الدعوة. قال ذلك وعيناه مغرورقتان بالدموع.

وأمَّا قولهم: إنَّ الإخوان غَلَوْا في حبِّ حسن البنَّا إلى درجة التقديس، فهذه مبالغة غير مقبولة، ولا يرضاها أي أخ مسلم يعرف دعوته. ولكنَّها المحبَّة الفطريَّة للقائد، والتوقير له شـــرعًا؛ لأنَّه من الحبِّ في الله، ومن توقير الكبير، والمعرفة بقـــدر العالِم. وفي الحديـــث: «**ليس منَّا من لم يرحمْ صغيرنا ويوقِّر كبيرنا**»[(١)]، وفي لفظ: «**ويعرف شَرَفَ كبيرنا**»[(٢)]. وإذا كان في الإخوان من يخرج عن هذا الحدِّ، فهو شذوذ مرفوض، لا يُسأل عنه حســـن البنَّا رضي الله عنه. وقديمًا قـــال فقهاؤنا: النـــادر لا حكم له، فكيف بالشاذِّ؟!

وأنا واحد من الإخوان وتلميذ حســـن البنَّا، ولم أجد حرجًا في أنْ أخالفه في بعض ما اجتهد، فليت شعري أين التقديس الَّذي يزعمونه من الإخوان لمرشدهم؟

الحـــقُّ أنْ لا تقديس، ولا اعتقـــاد بعصمة، ولكنَّه الحـــب والتقدير للقائد، وهو أدبٌ من آداب الإسلام. ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩١٩)، وقال: حديث غريب، وفي إسناده زربي وهو ضعيف يروي مناكير. وأبـــو يعلى (٤٢٤٢)، وصحَّحـــه الألباني في صحيح الترمـــذي (١٥٦٥)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد (٦٧٣٣)، وقال مخرِّجوه: صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٩٤٣)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٠)، وقال: حسن صحيح. عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

خاتمة
لماذا يعادون الإخوان؟

وأختم هذه المباحث بالجواب عن سؤال كبير، هو: لماذا تعادي هذه الفئات المختلفة في الداخل والخارج: حركة الإخوان المسلمين؟ ومن المسؤول عن هذه العداوة: أهم الإخوان أم الَّذين يعادونهم؟

رضا النَّاس غاية لا تُدرك:

ويُهمني أنْ أبيِّن هنا حقيقتين ناصعتين:

الأولى: أنَّ أحدًا لا يستطيع أنْ يرضي جميع الناس، وقديمًا قالوا في الأمثال: رضا النَّاس غاية لا تدرك.

وقال الشاعر:

وَمَنْ فِي النَّاسِ يُرْضِي كُلَّ نَفْسٍ ... وَبَيْنَ هَوَى النُّفُوسِ مَدًى بَعِيدُ[1]؟

وقال الآخر:

إذا رَضِيَتْ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي ... فَلَا زَالَ غَضْبَانًا عَلَيَّ لِئَامُهَا[2]!

(١) من شعر ناصيف اليازجي.

(٢) البيت لأبي العيناء محمد بن القاسم قاله للمتوكل العباسي، كما في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٤٧١/١).

نسخة مجانية

وفي الآثار الإسرائيليَّة: أنَّ موسى عليه السلام قال: يا رب، كُفَّ عنِّي ألسنة الناس، ورَضِّهم عنِّي. قال: يا موسى، هذا شيء لم أختصه لنفسي، فكيف أجعله لك؟!

وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا:

والحقيقة الثانية: أنَّ الكون كله قائم على التباين والتقابل، فالنهار يقابله الليل، والنور يقابله الظلام، والخصب يقابله الجدب، والبصر يقابله العمى، والحياة يقابلها الموت. وكذلك الحقُّ يقابله الباطل، والهدى يقابله الضلال، والتوحيد يقابله الشرك، والتقوى يقابلها الفجور، والمؤمنون يقابلهم الكفار، والمتقون يقابلهم الفجار، وهذه سنة الله في خلقه.

ولهذا خلق الله آدم وإبليس، وإبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، ومحمدًا وأبا جهل، وأكَّد القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وإذا كان في النَّاس مَن عادى الله تعالى، خالقَهم ورازقهم ومُدبِّرَ أمرهم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] فبيَّن أنَّ هناك أعداءً لله تعالى، فكيف يطمع المخلوق ألَّا يكون له أعداء مهما تكن صفحته بيضاء؟

فكيف بجماعة جاءت بدعوة لها أهداف ومبادئ لا يمكن أنْ يرضى عنها كل الناس؟

QaradawiBooks.com

إنَّ هناك أناسًا وجدوا في هذه الدعوة قيودًا على سرقاتهم وأطماعهم ومصالحهم وامتيازاتهم، فلا غرو أنْ يعادوا دعوة الإخوان؛ دفاعًا عن مصالحهم الَّتي كسبوها بالباطل، ولكنَّهم لا يعلنون ذلك بصراحة، بل يغلِّفون ذلك بأغلفة شتى، حتَّى لا تظهر لصوصيَّتهم ولا فجورهم للناس.

وهناك آخرون رأوا في دعوة الإخوان: قيودًا على ملذاتهم، وشهواتهم المحرمة، من الخمر والميسر والنساء، وغيرها ممَّا تتيحه لهم الأنظمة الوضعية، فهم لذلك يقاومون هذه الدعوة الَّتي تضيِّق عليهم ما كان موسَّعًا لهم، على طريقة قوم لوط الَّذين دعاهم إلى الإيمان والطهارة من القذارة، فقالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنَّهم أناس يتطهَّرون!

وهناك من يعادون الإخوان؛ لأنَّهم يجهلون حقيقة دعوتهم، ولا يعرفون أهدافها ولا مناهجها ووسائلها، ولا القائمين عليها، وقد قال العرب: مَن جهل شيئًا عاداه، والله تعالى يقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩].

وقد ساعد الإعلام المعادي للإخوان ـ في الغرب والشرق ومن الداخل والخارج ـ على تشويه صورتهم وتجهيل النَّاس بحقيقة أمرهم، وإظهارهم في شكل منفِّر، كأنَّهم يعوقون التقدم، ويرجعون بالناس القهقرى، ويقفون ضدَّ الحريات، ويجمِّدون الحياة، ويعادون غير المسلمين، ويريدون أنْ يعلنوا الحرب على العالَم كلِّه.

وهناك من يعادون الإخوان؛ لأنَّهم يعادون الإسلام: رسالته وحضارته وأمته، ويتوجَّسون خيفة من انبعاثه وصحوته، أو يتميَّزون غيظًا كلما نهض من عثرته أو قرُب من جمع كلمته، وهؤلاء تحركهم أحقاد قديمة، وأطماع جديدة، ومخاوف دائمة، ونرى هذا يتجسد في القوى الصهيونية،

QaradawiBooks.com

والصليبيَّة والشيوعية، ومن دار في فلكها وحطب في حبالها، فلا يُتصوَّر من هـؤلاء أنْ يفتحوا قلوبهم للإخوان، وأن يرحِّبـوا بدعوتهم، بل هي مصنفة في قائمة الأعداء أبدًا، وهو ما لا نزال نشـاهده إلى اليوم. مهما حاول الإخـوان أنْ يبيِّنـوا وجه المرونة فـي دعوتهـم، والانفتاح في وجهتهم، ويفتحـوا صفحة للحوار مـع الآخر ويتبيَّنوا فكرة الوسـطية والاعتدال في مواقفهم، حتَّى اتَّهمهم المتشدِّدون بتمييع الإسلام، وتقديم التنازلات دون مقابل.

ومع هذا رأينـا الغرب المعادي والمتأثر باللوبـي الصهيوني، يزداد بعدًا كلما ازددنا منه قربًا، ويخوِّف من الصحوة الإسـلاميَّة وممَّا سمَّاه «الخطر الإسلامي» الَّذي أطلق عليه «الخطر الأخضر»، بل غدا يحذِّر من «الإسلام المعتدل» بعد أنْ كان يحذِّر من «الإسلام المتطرف» ويقول: إنَّ الإسلام المعتدل أشد خطرًا؛ لأنَّه أبقى أثرًا وأطول عمرًا.

ومن كان عميلًا لهـذه القوى المعادية للإسـلام وأُمَّته، أو من عبيد فكرها، وأسـارى فلسـفتها، فهو يحتضن أفكارها، ويروِّج أخبارها، عن وعي وقصد أو عن تقليد كتقليد القردة، ومحاكاة كمحاكاة الببغاء.

ومثل هـؤلاء: من يعادي الإخوان ـ ممَّن ينسـب إلـى أبنائه ـ لأنَّه يعادي الإسلام ويكره الإسلام، وإنْ تسمَّى بأسـماء أهله، فهو لا يحب للإسـلام أنْ يسـود، ولا لأُمَّته أنْ تقود، ولا لدولته أنْ تعود، ولا ذنب للإخوان لدى هؤلاء إلَّا أنَّهم يدعون إلى الإسلام، ويجاهدون في سبيله.

ولكن مِنْ مكر هؤلاء الكارهين للإسـلام ولتعاليمه وشرائعه: أنَّهم لا يستطيعون أنْ يظهروا أمام النَّاس على حقيقتهم، ولا أنْ يكشفوا اللثام عن وجوههـم، وأن يعلنوا عن عداوتهم للإسـلام، فلا غـرو أنْ يصبُّوا

QaradawiBooks.com

عداوتهم كلها على الإخوان، ويفرغوا كل أحقادهم وكراهيتهم في جماعتهم، تنفيسًا عن الحقد والبغضاء لهذا الدين.

وهؤلاء لا علاج لهم ولا دواء لأحقادهم، إلَّا أنْ يتخلى الإخوان عن الإسلام وعن الدعوة إليه وعن جمع الأُمَّة عليه، هنا يكونون سمنًا على العسل، ويصبحون موضع الرضا والقبول.

وقديمًا قال معاوية: أستطيع أنْ أرضي كلَّ خصومي إلَّا واحدًا! قيل: من هو؟ قال: الحاسد، لأنَّه لا يرضى إلَّا زوال نعمتي[1].

وكذلك تستطيع أنْ ترضي أيَّ خصم بطريقة وأخرى إلَّا من يكره الإسلام، فهذا لا يرضيه إلَّا سقوط راية الإسلام، وانطفاء جذوة الإسلام ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وفي مثل هؤلاء جاء قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. أي: لا يرضيهم شيء إلَّا ترك الإسلام تمامًا والدخول في دينهم، وهو مستحيل.

ولقد بيَّن القرآن نيَّة أعداء الإسلام الكارهين له، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

فانظر إلى هذه الصيغة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ الَّتي تشعر بالاستمرار، وإلى الهدف، ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ والمعركة دائرة الرحى ومستمرة، ما دام في الدنيا حق وباطل، وإيمان وكفر.

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للأصفهاني (٣١٣/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومن فضل الله تعالى أنْ قال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾. فقيَّدها بـ «إن» الشرطية الَّتي تفيد التشكيك، ولن يستطيعوا إن شاء الله، وعندنا آيات ثلاث في كتاب الله تبشِّرنا بأنَّ الله سيظهر الإسلام على الأديان كلِّها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

اللهمَّ منزل الكتاب، ومجري السحاب، وسريع الحساب، وهازم الأحزاب، اخذل أعداءك وأعداءنا المتربِّصين بنا، الكائدين لنا. اللهمَّ اجعل كيدهم في نحورهم، ورُدَّ سهامهم المسمومة إلى صدورهم. اللهمَّ اهدنا صراطًا مستقيمًا وانصرنا نصرًا عزيزًا، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٥، ٨٦].

وصلِّ اللهمَّ على سيِّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلِّمنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهـــرس الآيات القرآنيـــة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾	٦	١٤١
﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾	٨٥	٢١٤
﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾	١١١	٢٣٧
﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾	١٢٠	٤٥٩
﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ﴾	١٣٨	٦٥، ٤١٢
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾	١٤٣	١٢٠، ١٥٠، ١٨٩
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾	١٦٥	٨٦
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾	١٧٠	٢٣٦
﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾	١٧٧	١٠٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾	١٧٨	٢١٢
﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾	١٨٠	٢١٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾	١٨٣	٢١٢
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾	٢٠٨	٢١٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾	٢١٠	٤٣٠
﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ ﴾	٢١٤	٢٨٢
﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا ﴾	٢١٦	٢١٣
﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾	٢١٧	٤٥٩، ٤٦٠
﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾	٢٥٦	٣٣٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾	٢٨٢	٢١٢
سورة آل عمران		
﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾	٧	٤١٩
﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾	٨	٤٥٤
﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾	١٠٤	٤٤٤
﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾	١١٠	١٨٩، ١٩٩
﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾	١٢٣	١٠٧
﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾	١٤٠	٢٥
﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ ﴾	١٤٦ ـ ١٤٧	٤، ١٠
﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ... وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ ﴾	١٥٤	٢٩٠، ٣٠٦
﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾	١٥٩	٢٢٤
﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾	١٧٩	٢٩٠
سورة النساء		
﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا ﴾	٥	١٢١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾	٤٠	٤٥
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾	٥٨، ٥٩	٣٠٢
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ﴾	٦٥	١٢٠، ٣٠٢
﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ ﴾	١٠٤	١٣٩
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾	٢	٤٤٥
﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ ﴾	٥	٣٢٣
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾	٤٤	١٦٢، ٢٠٠، ٣٠٣، ٤١٦، ٤١٧
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾	٤٥	١٦٢، ٢٠٠، ٣٠٣
﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾	٤٧	١٦٢، ٢٠٠، ٣٠٣
﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ ﴾	٤٩	١١٧، ١٢٠، ١٦٢، ٢١٤
﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾	٥٠	١١٧، ١٦٢، ٢١٩
﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾	٥١	٢٠١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾	٥٤	٤، ٦٥، ٨٦، ١٧٩، ٤٤٤
﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾	٥٥	٤١١
﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾	٥٦	١٦٧، ٤١١
﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾	٦٤	٤٢٢

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأنعام		
﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾	١١	٢٣٧
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾	١١٢	٤٥٦
﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾	١١٤	٢١٩
﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾	١٤٣	٢٣٧
﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾	١٦٢	٦٦
سورة الأعراف		
﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾	٣٤	٤٤٤
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾	٤٣	١٧٩
﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	١٥٨	١١٢
﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾	١٦٤، ١٦٥	١٤١، ٣٨٠
﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾	١٨٥	٢٣٧
سورة الأنفال		
﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	٢ ـ ٤	٤٠٥
﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾	٣٩	١٢٥
﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾	٤٦	٢٥٦
﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾	٦٠	١٥٥، ٢٧٥
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٦٢	٨٦، ٢٤٤
﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾	٦٣	٨٦
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٧٣	٤٦، ١٦٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التوبة		
﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾	٤	١٧٥
﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾	٦	١٧٥
﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾	٧	١٧٥
﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾	٢٤	٨٦، ١٠١
﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾	٢٥	١٠٧
﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾	٣٢	٢٥، ١٢٥، ٢٤٩، ٤٥٩
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾	٣٣	١٠٣، ٤٦٠
﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	٤١	١٢١
﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾	٧١	١٩٩، ٢٥٦
﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾	١٠٥	٤٢، ١٢٤
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾	١١١	١٠٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾	١١٩	١٠٥
﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾	١٢٨	٢٢٤
سورة يونس		
﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾	٣٦	٢٤٥
﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾	٣٩	٤٥٧
﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾	٦٢	٢٥٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾	٦٣	٤٠٦
﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	٨٥، ٨٦	٤٦٠
﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾	٩٩	٣٣٥
سورة هود		
﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾	٣٧	٤٢٣
﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾	٨٤	٤١٤
سورة يوسف		
﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾	٢١	١٢٥
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾	١١٠	١٤٤
﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾	١١١	٣٠٥
سورة الرعد		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾	١١	٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣٥٣، ٣٨٤
﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	١٧	١٦٥، ٣٠٠
سورة إبراهيم		
﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾	٢٤، ٢٥	٩٩
﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾	٣٨	١٢
سورة الحجر		
﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾	٩	٢٥

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النحل		
﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٨	٣٢١
﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾	٧٦	٢٧١
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾	٨٩	٢٠٥، ٢١٣، ٣٠٥
سورة الإسراء		
﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾	٢٤	٨٧
﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾	٣٤	١٧٥
﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾	٨١	٣٠٠، ٣٠٧
سورة الكهف		
﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾	١٣	٨٩
﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾	٢٨	٤٢٣
سورة طه		
﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾	٥	٤٢٩
﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾	٣٩	٤٢٣
﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾	١١٠	٤٣٢
سورة الأنبياء		
﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾	٩٢	٢٠٠
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾	١٠٥	١٠٤
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	١٠٧	٨٠، ١٩٠

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحج		
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾	٤٠	١٤٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾	٧٧	٢٧٩، ٤٤٤
﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾	٧٨	٢٧٩
سورة المؤمنون		
﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾	١ ـ ٥	٤٠٥
﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾	٥٢	١٨٩
سورة النور		
﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ ﴾	٤٧	٣٠٢
﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾	٥١	٣٠٢
سورة الفرقان		
﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾	١	١١٢
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾	٣١	٤٥٦
﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾	٥٢	٣٥٠
سورة الشعراء		
﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾	٨٨، ٨٩	٣٥٧، ٤٤٣
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٠٥، ١٠٦	٤١٣
﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾	١٢٣، ١٢٤	٤١٣
﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ ﴾	١٤١، ١٤٢	٤١٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾	١٦٠، ١٦١	٤١٣
﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾	١٧٦، ١٧٧	٤١٤
سورة النمل		
﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾	٦٤	٢٣٧
سورة القصص		
﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾	٥٥	٣٥
﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾	٦٨	١٧٩
﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾	٧٧	١٢١
﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ﴾	٨٣	١١٨
﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾	٨٨	٤٢٣
سورة العنكبوت		
﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾	٢ ـ ٦	١٠٢، ٣٥١
﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾	٢٠	٢٣٧
﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾	٦٤	٤٤٧
سورة الروم		
﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾	١ ـ ٥	١٢٠، ٣٠٤
﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾	٧	١٧٧
سورة الأحزاب		
﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾	٢٢	٢٧٢

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾	٢٣	١٠٥، ٢٧٥
﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾	٢٤	١٠٥
﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾	٣٩	٦٥، ٨٧، ٤٤٣
﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾	٦٧، ٦٨	٢٣٦
سورة فاطر		
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾	٣٢	١٠٥
سورة ص		
﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾	٢٤	١٢٨
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾	٨٨	٣٨
سورة الزمر		
﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾	٥٣	٤١٠
سورة الشورى		
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾	١١	٤١٩، ٤٢٢
﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾	٥٣	١٦٤
سورة الزخرف		
﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾	٦٧	٢٥٢
سورة الجاثية		
﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	١٨	١١٧
﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾	١٩	١١٧، ١٦٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحقاف		
﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	٤	٢٣٧
سورة محمد		
﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾	١٢	١٧٧
﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾	١٦	٢٣٦
سورة الفتح		
﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾	٢٨	٤٦٠
﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾	٢٩	٨٧، ٢٣٥
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾	١٠	١٨٩، ٢٥٤، ٤١٣
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾	١٥	١٠٥
سورة الذاريات		
﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾	٢٠، ٢١	٢٣٧
سورة النجم		
﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾	٢٣	٢٣٦
﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾	٢٨	٢٣٦
سورة الرحمٰن		
﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾	٨، ٩	٣١١
﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾	٢٧	٤٢٢

غير مرخص للطباعة
نسخة طبق الأصل
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحشر		
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾	٩	٢٥٦
﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾	١٠	٤٣٩
سورة الممتحنة		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾	١	٤١١، ٤٥٦
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾	٤	٤١٢
﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾	٨	٣٤٢، ٤١٣
سورة الصف		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾	٤	٤٦، ١٦٧، ٢٥٤
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾	٨	١٠٢
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾	٩	١٠٣، ٤٦٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	١٠ ـ ١٤	١٠٢
سورة التحريم		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾	٦	١٢١
سورة نوح		
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾	٥ ـ ٧	٣٧٩
﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾	٢٦، ٢٧	٣٧٩
سورة الفجر		
﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾	٢٢	٤٣٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشمس		
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾	٧ ـ ١٠	١١٦، ١٢١، ٢٤٢، ٤٤٣
سورة العلق		
﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾	١ ـ ٥	١٢١، ٢٣٧
سورة الزلزلة		
﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾	٧	٤٥
سورة العصر		
﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾	١ ـ ٣	٤٤٥
سورة الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾	١ ـ ٤	٤١٩

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

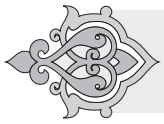

الحديث	رقم الصفحة
أ	
اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة	٤١٦
إذا ذلَّت العربُ ذلَّ الإسلام	١٨٧، ٣٨٤
اعتبره الرسول ﷺ من الموبقات السبع	٢٧٦
ألا إنَّ العربيَّة اللسان، ألا إنَّ العربيَّة اللسان	١٨٧
الله الله في قِبْط مصر، فإنَّكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعوانًا	٣٢٣
اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك	١٣٥
اللهم إنِّي أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك أنْ أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ	١٣٤
أما يخشى الَّذي يرفع رأسه قبل الإمام أنْ يحول الله رأسه رأس حمار	٤٧، ٤٢٤
إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟	٢٥٢
إنَّ الله يبعث لهذه الأُمَّة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدِّد لها دينها	٤٩، ٣١٥
إنَّ الله يحبُّ المؤمن المحترف	٢٢١
إنْ شئت دعوت لك، وإنْ شئت أخَّرت ذاك فهو خير	٤٠٧
إنَّ لبدنك عليك حقًّا	٢٢٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إنَّ من عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء	٢٥٤
إنَّ من ورائكم أيامًا، الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبض على الجَمْر	١٨
إنَّكم ستفتحون مصر، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذمَّة ورحِمًا	٣٢٣
إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى	٤٤٥
إنَّما جُعِل الإمام لِيُؤْتَمَّ به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا	٤٧
إنِّي لأجدُ نَفَسَ الرحمٰن من جانب اليمن	٤٢٧
ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مُطَاعًا	٥
أيُّما رجلٍ قال لأخيه: يا كافرُ، فقد باء بها أحدُهما	٤١١
أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى يوم القيامة	٣٥٦
ت	
تَفَكَّروا في خلق الله، ولا تتفكَّروا في الله؛ فإنَّكم لن تقدروه قدره	٤٢٠
ث	
ثلاث من كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه	٢٥٢
ح	
الحجرُ الأسودُ يمين الله في أرضه	٤٢٦
د	
دين الله يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلَّا غلبه	١٦٦
الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمَّة	١٩٩
س	
سبعة يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه	٢٥٢

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ق	
قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ	٢٥٥
قلبُ المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن	٤٢٤، ٤٢٧
ل	
لا تبدؤوهم بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق	٣٤٢
لا تختلفوا فتختلفَ قلوبُكم	٤٧
لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض	٤١٧
لا يُصَلِّيَنَّ أحد العصر إلَّا في بني قُرَيْظة	١٧٣
لا ينبغي لمؤمن أنْ يذلَّ نفسه. قيل: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟	٣٥٢
لتُنْقَضَنَّ عُرا الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها	١٥٧
لعن آكله ومؤكله، وكاتبه وشاهديه	٢٧٦
ليس منَّا من لم يرحمْ صغيرنا ويوقِّر كبيرنا	٤٥٤
ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالك	٢١٣
لينوا بأيدي إخوانكم	٤٧
م	
ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أنْ يأكل من عمل يده	٢٢١
ما من نبيٍّ بعثه الله في أمة قبلي، إلَّا كان له من أمته حواريون	٣٥١
المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه	١٨٩، ٢٥٤
المسلمون تكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم	٥، ١٨٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد	٤١٦
من أتى كاهنًا أو عرَّافًا، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل الله على محمد	٤١٦
من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ	٢٠٢
من أحيا أرضًا ميتة فهي له	٣٠٥
من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له	٢٢١
من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله	٤٤٤
من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهليَّة	٢٠١، ٣٧٨
المؤمن القويُّ، خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف	٥، ١٥٥
ن	
نعم المال الصالح للرجل الصالح	٢٢١
هـ	
هل تُنصرون وتُرزقون إلَّا بضعفائكم	٢٧٨
و	
والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق النَّاس بها	٢٣٩
والله ما يخزيك الله أبدًا	٨٨
والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضًا	٢٥٤، ٢٥٦
والمؤمن مرآة أخيه	٢٥٨
وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية	٢٥٦
ولن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة	١٠٦، ١٥٢
ويعرف شَرَفَ كبيرنا	٤٥٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ي	
يا أُصَيْلُ، دعِ القلوبَ تَقِرُّ	١٨٢
يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا	٢٢٤
يوشك الأمم أنْ تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلة إلى قصعتها	٢٤٥

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

❖ من الدستور الإلٰهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• مقدمة ٧

• الباب الأول: الإخوان المسلمون دعوة اكتملت مقوِّماتها ١٣

❖ دعوة اكتملت مقوِّماتها ١٥

المقومات السبعة في دعوة الإخوان ١٥

❖ ١ ـ الحاجة إلى الدعوة ١٧

دعوة في أوانها ١٨

موجة التغريب العاتية ٢٢

تصوير واقع مصر والوطن العربي والإسلامي ٢٦

❖ ٢ ـ التميز ووضوح الشخصيَّة ٣٣

إسلام الإخوان ٣٥

الإخوان حركة إسلاميَّة فاعلة ٣٧

مصطلح «الحركة الإسلاميَّة» ٣٨

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلاميَّة ٤٠
المقصود بمصطلح «الحركة الإسلاميَّة» ٤١
الحركة عمل على مستويات عدَّة ٤٢
الحركة عمل شعبي محتسب ٤٣
قصور العمل الرسمي ٤٣
الحركة عمل جماعي منظم ٤٥
مهمة الحركة تجديد الإسلام ٤٨
المُقوِّمات الأساسيَّة للتجديد ٥٠
دور الحركة الإسلاميَّة في تجديد الإسلام ٥٢

❖ **٣ ـ حسن البنَّا: القائد المنتظر ٥٥**
بداية تأسيس الإخوان ٦١
حسن البنَّا رجل المرحلة ٦٤
شهادة الشيخ الغزالي ٦٨
شهادة الشهيد سيِّد قطب ٧٠
شهادة العلَّامة أبي الحسن الندوي ٧٤
شهادة الشيخ عبد السلام ياسين ٧٧
غاية ضخمة وطريق شاقة ٨٠

❖ **٤ ـ الجنـود الصادقـون ٨٥**
النموذج الأوَّل من الإخوان ٩٥
في مدرسة الدعوة ٩٦
نماذج من أخلاق الرعيل الأول ٩٨

QaradawiBooks.com

مدرسة حسن البنَّا في التربية الإسلاميَّة ١٠٠
فضائل مميِّزة لأجيال الإخوان ١٠٠
الرجاء معقود بالإخوان الصادقين ١٠٥
اثنا عشر ألف مؤمن صادق ١٠٦

❖ **٥ ـ وضوح الأهداف وشمولها ١١٠**
أهداف سبعة أساسيَّة ١١٢
الأهداف القريبة والأهداف البعيدة ١١٥
أهداف عامَّة وأهداف خاصَّة ١١٨
هدف مجمل وأهداف مفصَّلة ١٢٠
شمول الأهداف نابع من شمول الفكرة ١٢٢
اتِّساع مجالات العمل لتحقيقها ١٢٣

❖ **٦ ـ وضوح الوسائل ١٢٦**
بيان التقصير في تطبيق الإسلام ١٢٧
موجة التقليد الغربي وآثارها في حياة المسلمين ١٢٩
بيان نتائج فساد النظام الاجتماعي القائم في مصر ١٣١
مقارنة بين معيشة الإنسان ومعيشة الحمار ١٣٣
بيان مزايا التوجه إلى الإسلام ١٣٧
مطالبات الحكومات بالإصلاح ١٣٩
الوسائل العامَّة والوسائل الإضافية ١٤٢
شرح المراد بالوسائل العامَّة ١٤٣
وسائل الإخوان باعتبارهم جماعة خدمة عامَّة ١٤٤

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وسائل الإخوان باعتبارهم دعوة وفكرة ١٤٥
التدرُّج في الخطوات ١٤٧
الوقوف في وجه المتعجلين ١٤٩
متى تكون الخطوة التنفيذية ١٥١

❖ **٧ ـ وضوح المواقف ١٥٣**
الإخوان واستخدام القوَّة ١٥٤
الإخوان المسلمون والحكم ١٥٧
موقف الإخوان من الدستور ١٦٠
الإخوان المسلمون والقانون ١٦١
الإخوان والأحزاب السياسيَّة ١٦٣
الإخوان والهيئات الإسلاميَّة ١٦٦
قضيَّة الخلافات الدينيَّة ١٦٨
دعوة تجمع ولا تفرق ١٧٠
الخلاف ضروري لأسباب ١٧١
الإجماع على أمر فرعي متعذِّر ١٧٢
البعد عن مواطن الخلاف ١٧٤
الموقف من الغربيِّين ١٧٥
الموقف من الحضارة الغربيَّة ١٧٦
الإخوان والوحدات الثلاث: الوطنيَّة والعربيَّة والإسلاميَّة ١٨١
الإخوان والوطنيَّة المصريَّة ١٨١
مصر قاعدة الانطلاق الإسلامي ١٨٢
الوحدة العربيَّة ١٨٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الوحدة الإسلاميَّة ١٨٩
الإخوان المسلمون والخلافة ١٩٠
نحو إنسانيَّة عالميَّة ١٩٢

• **الباب الثاني: الإخوان المسلمون خصائص ومميزات ١٩٥**

❖ **من خصائص حركة الإخوان المسلمين ١٩٧**

❖ **١ ـ النظرة الشموليَّة للإسلام ١٩٨**
حسن البنَّا والسياسة ٢٠٤
نظرة في وضع مصر عند ظهور الإخوان ٢٠٥
موقف التجمعات الدينيَّة في مصر عند ظهور دعوة البنَّا ٢٠٦
موقف الأحزاب السياسيَّة ٢٠٩
مقاومة التجزئة المصطنعة لرسالة الإسلام ٢١٠
لماذا تبنَّى الإمام البنَّا فكرة الشمول؟ ٢١٢
شمول تعاليم الإسلام ٢١٢
الإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه ٢١٤
الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم ٢١٥
شمول الحركة بعد شمول الفكرة ٢١٩

❖ **٢ ـ الاتجاه إلى التجميع والتوفيق لا إلى التنفير والتفريق ٢٢٣**
الأصول العشرون واتجاهها إلى التجميع ٢٢٥
مَن المخاطبون بهذه الأصول؟ ٢٢٥
من مزايا هذه الأصول ٢٢٧
اتجاه التجميع والتوفيق ٢٢٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ ٣ ـ العناية بالتكوين المتكامل ٢٣٤
١ ـ التثقيف العقلي ٢٣٦
٢ ـ الإيقاظ الروحي ٢٤٢
أهمية الجانب النفسي «الروحي» والخلقي ٢٤٤
من أين نبدأ؟ ٢٤٤
يقظة الروح: الإيمان والعزة والأمل ٢٤٧
ماذا صنع النبي الكريم مع أصحابه الغرِّ الميامين؟ ٢٤٨
أثر اليقظة الرُّوحيَّة في التغيير ٢٤٩
٣ ـ الترابط الأخوي ٢٥١

• الباب الثالث: الإخوان المسلمون ثمار وآثار ٢٦١

❖ من ثمار الحركة وآثارها ٢٦٣
أ ـ في المجال الفكري ٢٦٣
ب ـ في المجال الشعوري ٢٦٧
جـ ـ في المجال العملي والتربوي ٢٧٠
د ـ في الجهاد الإسلامي ٢٧٣
هـ ـ في ميدان الاقتصاد ٢٧٦
و ـ في ميدان خدمة المجتمع ٢٧٨

❖ الإخوان والمحن ٢٨٢
المحنة الأولى للإخوان في عهد فاروق ٢٨٣
المحنة الثانية في عهد الثورة (يناير ١٩٥٤م) ٢٨٦

غير مرخصة للبيع
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

المحنة الثالثة (أكتوبر ١٩٥٤م) ٢٨٨
المحنة الرابعة (١٩٦٥م) ٢٨٩
منح وراء المحن ٢٨٩

• **الباب الرابع: الإخوان المسلمون ردود على تساؤلات واتهامات** **٢٩٣**

❖ **الاتهامات الظالمة** **٢٩٥**
اتِّهامات الغربيين للإخوان ٢٩٨

❖ **١ ـ الإخوان و«تسييس الدين»** **٣٠١**

❖ **٢ ـ الإخوان وخطُّ المدرسة الإصلاحيَّة** **٣٠٨**
اعتراف ونقد ذاتي ٣١٤
الإسلام أقر شرعية التجديد ٣١٥
ضرورة التجديد في الوسائل ٣١٧
حسن البنَّا لم يكن جامدًا ٣١٨
الجمود آفة خطرة ٣١٩
ما أخشاه على الحركة الإسلاميَّة ٣٢٠
تطوُّر محمود ٣٢١

❖ **٣ ـ الإخوان والأقليَّات الدينيَّة** **٣٢٢**
موقف حسن البنَّا ٣٢٥
حسن الهضيبي ٣٢٧
عمر التلمساني ٣٢٨
محمد حامد أبو النصر ٣٢٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مصطفى مشهور ٣٢٩
الأقباط والشيوعيون ٣٣٠
في حديث إلى جريدة الحياة ٣٣٠
كلامٌ حُرِّف عن موقف الإخوان من الأقباط ٣٣١
موقفنا من الأقليات ٣٣١
كيف تحل مشكلة الأقليات الدينيَّة؟ ٣٣٢
سؤال. د. جورج إسحاق ٣٣٧
الآراء الفقهيَّة المتشددة مرهونة بظروفها ٣٤١

❖ **٤ ـ الإخوان والعنف ٣٤٣**
مسؤولية الإخوان عن جماعات العنف ٣٤٨
بيانات الإخوان المتكررة تدين العنف ٣٥٤
شهادات المسؤولين للإخوان ٣٥٧
تصريح الرئيس حسني مبارك ٣٥٧
شهادة وزير الداخليَّة المصري ٣٥٨
شهادة خبير الأمم المتحدة ٣٥٨
شهادة د. مصطفى الفقي ٣٥٩
الإخوان والتنظيمات السرية ٣٥٩
المحاكمات العسكريَّة للإخوان ٣٦٢
شهادة كاتب منصف ٣٦٦

❖ **٥ ـ الإخوان وإقامة الدولة المسلمة ٣٧٤**
الدولة ليست هي الهدف الأوحد ٣٧٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قيام حكومات إسلاميَّة ٣٧٦
الدولة المسلمة مسؤولية الجميع ٣٧٧
بذر البذرة أم قطف الثمرة؟ ٣٧٨

❖ **٦ ـ الإخوان والمشروع الحضاري ٣٨١**
دعائم المشروع الحضاري للإخوان ٣٨٢
الإسلام الَّذي ندعو إليه ٣٨٤
هيكل والمشروع الحضاري الإسلامي ٣٨٦
هل كان حسن البنَّا غير ذي مشروع؟ ٣٨٧
الإصلاح السياسي لدى الإخوان ٣٩٢
الإصلاح الاقتصادي ٣٩٥

❖ **٧ ـ الإخوان والعقيدة ٤٠١**
العقيدة أسُّ البناء ٤٠٢
كيف يُقدِّم الإخوان العقيدة؟ ٤٠٤
قضيَّة التوسُّل ٤٠٦
قضيَّة الولاء والبراء ٤١١
أخوة المواطنين من غير المسلمين ٤١٢
تكفير الحكام ٤١٤
آيات الصفات وأحاديثها ٤١٨
مذاهب النَّاس حول آيات الصفات وأحاديثها ٤١٩
مذهب المشبهة ٤١٩
مذهب المعطِّلة ٤٢٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مذهب السلف ٤٢٠
مذهب الخلف ٤٢٢
بين السلف والخلف ٤٢٥
ترجيح مذهب السلف ٤٢٦
أوجه اعتراض الإخوة السلفيين على البنَّا ٤٢٨
التفويض والإثبات ٤٢٩
التقريب بين السلف والخلف ٤٣٢
عدم تأثيم المؤوِّلين وتضليلهم ٤٣٥
اتباع نهج القرآن في عدم التجميع ٤٣٩
الإخوان والأشاعرة ٤٤٠

❖ **٨ ـ الإخوان والتصوُّف ٤٤٢**
رأي في التصوُّف للأستاذ البنَّا ٤٤٧

❖ **خاتمة: لماذا يعادون الإخوان؟ ٤٥٥**
رضا النَّاس غاية لا تُدرك ٤٥٥
وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا ٤٥٦

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٤٦٣**

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٤٧٧**

• **فهرس الموضوعات ٤٨٣**

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية